الحركة الفكرية فى المهدية

الطبعة الثالثة

منقحة وبزيادات

بقلم

الدكتور محمد ابراهيم أبو سليم



١٩٨٩

الناشـــرون : دار جامعـــة الخرطوم للنشـــر
ص . ب ٣٢١ الخرطوم «السـودان»

الطبعـــة الأولى ١٩٧٠
،، الثانيـــة ١٩٨٠
،، الثالثة ١٩٨٩

الطابعون : مطبعة جامعة الخرطـــوم
دار جامعة الخرطوم للنشـــر

إهـــــداء

الى البروفسير ب.م. هولت

أمين محفوظات حكومة السودان سابقاً

ثم

الاستاذ بكلية الدراسات الشرقية والافريقية بجامعة لندن سابقاً

تقديراً لخدماته الجليلة لوثائق السودان ،

ولطلبة السودان ، ولتأريخ الســــودان

عبر سنوات ممتدة.


مسطورات
MUSTORAT
INTERNET ARCHIVE

مقدمة الطبعة الثالثة

صدر كتاب الحركة الفكرية فى المهدية فى طبعته الاولى فى ١٩٧٠ عن قسم النشر بجامعة الخرطوم والذى أصبح الآن دار جامعة الخرطوم للنشر . ثم صدر فى طبعته الثانية فى ١٩٨٠ عن دار الجيل ببيروت . وقد جاءت هذه الطبعة طبق الطبعة الاولى بغير تعديل او تغيير ولم تختلف عن الأولى الا بصفحة تصويبات فى آخرها لفتنا فيها النظر الى بعض أمور .

وكما هو واضح من مقدمة الطبعة الاولى فان هذا الكتاب كان حصيلة بحث فى وثائق المهدى ، وهو يرتبط بوشيجة قربى وثيقة مع كتاب منشورات المهدية والمرشد الى وثائق المهدى . اما كتاب منشورات المهدية فهو بعض ما حققناه من وثائق المهدية وقد اختيرت محتوياته لتعطى فكرة عن التيارات المختلفة فى المهدية بحيث يدرك القارئ من واقع هذه الوثائق الجوانب المهمة للمهدية . اما المرشد فهو ثبت لوثائق المهدى . وقد اصدرته دار الوثائق المركزية مطبوعا على الآلة .

وفى غضون السنوات التى تلت صدور هذه الكتب الثلاثة واصلت البحث عن آثار المهدى حتى بلغت قدرا ظننت الا مزيد عليه . وقد حققت المادة ورتبتها ، الرسائل فى الأول ثم الادعية والراتب ثم الخطب ثم المجالس . وقد اكتمل التحقيق فى سفر ضخم دفعت به الى المطبعة . كذلك عدت انظر فى المرشد اراجع مادته واضيف عليه المادة الجديدة التى جمعتها بعد صدور المرشد . وباكتمال العمل فى آثار المهدى بجانبيه المرشد وتحقيق النصوص اقتضى الأمر ان نراجع الدراسة المتصلة بالآثار ، وهكذا جاء اوان مراجعة كتاب الحركة الفكرية حتى تكتمل مادته بقدر مااكتمل العمل فى الكتابين الآخرين .

ومن وجه آخر فان هذه الفترة كانت فترة مهمة بالنسبة الى تاريخ المهدية ، انكب فيها الباحثون يدرسون هذه الفترة من زوايا مختلفة اعتمادا على مادة ثرة توفرت لهم بفضل دار الوثائق المركزية ، طرف من هذه المادة جاء من المهدية نفسها ، وهو وثائق المهدية التى خلفتها ادارتها ، مما يتيح النظر فى المهدية من الداخل ، وطرف

منها جاء من عين كانت تراقب امور المهدية من الخارج وهو وثائق المخابرات الحربية المصرية ، وطرف منها مادة رواها الرواة ، وقد ارتقى تاريخ المهدية بذلك وبمستوى الباحثين وبفضل اســاتذة الجامعات الذين اشرفوا عليهم تحصيلا ومنهجا وعمقا . وقد دفعتنا هذه الحصيلة من الدراسات الى مزيد من الحرص على مراجعة كتاب الحركة الفكرية ، حتى نستوعب ما استجد .

لقد بدأت فكرة هذه الدراسات باشارة وردت في مفكرة وضعها الدكتور بيتر هولت ، أمين المحفوظات البريطاني ، عند تسليمه العمل في محفوظات حكومة السودان للادارة السودانية اثناء فترة السودنة ، وكان مؤدي هذه الاشارة دراسة تاريخ المهدية على اساس اقليمي .

وقد استهوتني هذه الاشارة وبت اقلب النظر حتى اهتديت الى مشروع للدراسة ، وهو يقوم على تنظيم المادة التاريخية للفترة بجوانبها المختلفة حتى نيسر الامر الباحثين على دراسة الفترة من زوايا مختلفة . وكانت احدى الزوايا الدراسة على الاساس الاقليمي ، ومن هنا جاءت دراسات عن دارفور وكردفان والجزيرة والجنوب وشرق السودان وبربر الخ . ومن الزوايا دراسات لبعض الشخصيات مثل عثمان دقنة ، ومنها دراسة بعض النظم كالقضاء والديوان والنظام المالى ، ومنها دراسة بعض الموضوعات العامة كالعلاقات بين اولاد البحر واولاد الغرب وحملة النجومي على مصر :

وكان تقديرى ان هذه الدراسات سوف تؤدى الى نظرة تفصيلية في حوادث هذه الفترة وقضاياها وتخرج بنا عن محيط النظرة التقليدية وانها بذلك تمهد الى دراسات أعمق . وقد اتفق في نفس الفترة ان اصبح استاذنا المرحوم مكى شبيكة مسئولا بجامعة الخرطوم عن الدراسات العليا في التاريخ ، وقد تحمس للمشروع وظل كلما تقدم طالب لبحث يرسله لى لاختار له موضوعا . و هكذا مضى مشوارنا المشترك بين قسم التاريخ بجامعة الخرطوم ودار الوثائق والطلبة وأثمر بمردود علمى متميز وثو عده شبيكة من خير ما تم على يده .

ويبقى على آخرين ان يرعوا هذا الجهد وان ينشروه خدمة للوعى القومى وانصافا للمؤرخ السوداني الذى ادى واجبه العلمى وحال بينه وبين نشره عدم القدرة على كلفته .

وانا نقول الانصاف لأن الجمهور لا يعرف عن هذا الجهد شيئا ، وقد ظل الكثيرون يعيبون على المؤرخين ويتهمونهم بالتقاعس مع انهم قاموا بجهد كبير ، وبعض الناس يطلب ان يكتب تاريخ السودان من جديد لانه يجهل هذا الذى كتب ويجهل أن اعادة كتابة التاريخ التى يدعو اليها يعمل لها المؤرخون منذ عشرات الأعوام وقطعوا فيها شوطا بعيدا . ومن فضل المؤرخ السودانى انه لم يكتب ليمالئ او ليناصر أو ليدافع او ليرضى هوى، بل هو توخى الموضوعية وسار على المنهج العلمى . وانى بحكم علاقتى المباشرة بما وضع من الدراسات ، معاونا بالمادة حينا ومشرفا حينا وممتحنا حينا ، ادرك قدر ما تم على ايدى شباب السودان من الدارسين فى الجامعات وعلى ايدى الشيوخ ايضا وانظر اليه بعين الرضا .

لقد كانت مراجعتنا لكتاب الحركة الفكرية مراجعة شاملة بحيث قد يعد هذا الذى بين يديك كتابا جديدا من فرط ما جاء فيه من اضافات وتعديلات ، وانا نحسب ان مادة الكتاب قد أستوت بهذه المراجعة واخذت وجهها النهائى .

لقد جعلنا الكتاب فى اربعة ابواب ، وفكرة التبويب لم تكن وازدة فى الطبعة الاولى ، ويتناول كل باب قضية كبيرة بينما تتناول الفصول اطراف القضايا .

وفى الباب الاول كرسنا فصولا ثلاثة للمهدية . بينا اولا نشأة المهدية فى السودان ومسارها التاريخى حتى نهايتها . ثم ما كان بين اتباع المهدى والعلماء المعارضين من خلاف ، وهو ما سميناه المطارحة . وقد جئنا هنا بآراء المعارضين وآراء العلماء المؤيدين ، ولكننا توخينا الاختصار حتى لا نخل بموازنة الكتاب . وكان بعض ذلك يرد فى فصل عن المؤلفات فى الطبعة الاولى .

وفى الباب الثانى تناولنا المهدى باعتباره كاتبا ، وقد عدنا الى نشأته من زاوية تختلف عن الزاوية التى نظرنا بها الى هذه النشأة فى الفصل الاول . ثم تناولنا اسلوبه وانتاجه وخطه . ثم تناولنا بعض الرسوم المتصلة بالكتابة مثل الديوان وقواعد التوثيق والمطبعة الحجرية .

وفى الباب الثالث تناولنا مسار الفكر فى المهدية ، وقد بدأناه باتجاه المهدى ازاء المذاهب والعلماء والطرق الصوفية والتراث الموروث ، ثم ما كان لهذا الاتجاه

من ردود الفعل قبولا ورفضا . ثم ارخنا بعد ذلك لبعض الانشطة مثل التعليم والشعر . وقد تكلمنا ايضا عن العلماء وما اسهموا به وعن مراكز الثقافة .

وفى الباب الرابع والأخير تكلمنا عن آثار المهدية الباقية . ان هناك فصلا عن التاريخ عند الانصار وما انتجوه فى هذا المجال . وهناك فصل عن مصنفات الرسائل، وهذا مجال نشط فيه المصنفون واجادوا فيه . وهناك فصل عن كتب المجالس وهى تتضمن قدرا مما كان يلقيه المهدى على اتباعه فى مجالسه . ثم هناك فصل عن وثائق المهدية .

وانا لنعتذر للقارئ من بعض ما يضيق به صدر القارئ المتعجل ، اذ يحسب بعض الامور مكررة عليه بغير موجب ، مع اننا قصدنا ان نعرض الامور بزوايا مختلفة . مثلا نحن نتعرض للمهدى ولفكرة المهدية من زوايا مختلفة . ففى اول الفصل الاول من الباب الاول نتكلم عن المهدية فى الاسلام وفى السودان كتمهيد ، ثم نتكلم عن المهدية من زاوية مطارحة العلماء فى الفصل الثانى ، ثم من زاوية تصور المهدى فى الفصل الثالث . وفى طرف آخر نتكلم عن المهدى لبيان اتجاهه الفكرى ثم نتكلم عنه لبيان مردود هذا الاتجاه على صعيد المجتمع ، ثم لبيان ما كان لذلك من أثر فى مسار الفكر . كل ذلك يعنى ان نعرض بعض الحقائق مرة بعد مرة فتحسب علينا وكأنها معاد مكرر ، مع انها فى حقيقة الامر محسوبة بحكم القضايا التى نتناولها من مكان لآخر .

ويبقى ان نقول ان بعض اطراف موضوعنا غير مكتمل بالوجه الذى نعرضه، وأننا نحس بأن جهودا أخرى ينبغى ان تبذل من قبل من هم أقدر منا على تناول هذه الاطراف حتى تكتمل صورة الحركة الفكرية فى المهدية لدى القارئ . مثلا موضوع التعليم يحتاج الى قدر من التوسع والتقصى . وما نعرضه عن الشعر فى هذه الفترة دون ماهو مطلوب . ولكن أغلب شعر هذه الفترة غير ميسور ، وما تيسر ينبغى ان تكون دراسته وتقويمه من قبل نقاد الأدب ومؤرخيه ، ونحن لسنا من هؤلاء حتى نوفى بهذا الجانب . وأظننا لا نركب شططا لو قلنا ان ما كتب عن الشعر فى المهدية دون ما يرجى . وقد أتسم أغلبه بالتقريرات والاحكام السريعة والانطباعات واقحام

تصنيف أدبى غريب عليه فى شكل قوالب تبعد اكثر مما تقرب . وكل ذلك مما يدعو الى البحث الجاد الصبور . وما نعرضه عن معارضة رجال الطرق والعلماء لالغاء المهدى للطرق والحجر على العلماء لا يغنى الا للدلالة على الاتجاه لأن تفاصيلها ذهبت الى القبور مع اصحابها . وكما ترى فاننا اوردنا بعض ذلك بالاستناد الى وثائق المهدى ، اى باعتماد الصدى بدلا عن الأصل . وقضية أخرى وضحت لنا أثناء البحث وهى ان تاريخ الفكر السودانى الى قيام المهدية لم يكتب فيه شئ ذو بال . وان المرء مطالب قبل ان يكتب فى ذلك بأن يتقصى المادة التى انتجها العلماء وان يقومها ، ولكن دون ذلك من المصاعب ما يقعد بالمتصدى ، فبعض مايريد قد ضاع ، وبعضه الآخر بأيد ضنينة ، واغلبه غير معروف ويحتاج الى جهد متواصل ودأب للجمع . والمرء مطالب ايضا بابراز جوانب خفيت لأن احدا لم يطابها ، ومثال ذلك الدور الذى لعبه الشيخ السلاوى ، قاضى قضاة السودان فى اول العهد التركى المصرى ، فى خدمة تراث السودان وعلمائه ، ومنه الدور الذى لعبه جعفر مظهر باشا ومحمد راسخ ، وهما من حكام التركية ، فى تشجيع علماء السودان ، ومنه دور حسين المجدى . ومثل ذلك كثير حتى يمكن ان نقول ان ما نعرفه عن تاريخ الفكر السودانى قبل المهدية لا تشكل الا قدرا ضئيلا . وبالطبع فان جهلنا بهذا الجانب يقلل من تقويمنا للحركة الفكرية فى المهدية ، وهو ما يدعونا الى ان نلفت النظر اليه ونحث على دراسته .

وفى النهاية نرجو ، على عادتنا ، ان نتقدم بالشكر والتقدير لكل من أسهم بمعاونتنا وان نخص بالذكر زميلنا الدكتور على صالح كرار وصديقنا الاستاذ عثمان حسن أحمد الكد على مراجعتهما لمسودة الكتاب وما قدما من نصح ، والله نرجو ان يجزينا واياهم جميعا حسن الجزاء .

تصدير الطبعة الاولى

هذا كتاب فى الحركة الفكرية فى فترة المهدية . وهو جزء من بحث أعددته لنيل الدكتوراه فى جامعة الخرطوم فى صيف ١٩٦٦ .

ولقد أعددت ذلك البحث أساسا حول مخطوط توشكى المنسوب الى الامير عبد الرحمن النجومى والذى يعد من أوفى مصنفات الرسائل . غير انه قد امتد بحيث شمل قضايا عامة تتصل بالحركة الفكرية والثقافية فى فترة المهدية . وكان البحث مقسماً الى ثلاثة أجزاء : الأول فى أمر المنشورات ونظم الكتابة واتجاهات التأليف والنشر بالإضافة الى الفصول الخاصة بتاريخ المخطوط وتقييم محتوياته . والثانى خاص بنصوص المخطوط وتحقيقها ، والثالث ثبت لوثائق المهدى .

وقد نظرت فى هذا البحث بعد إجازته واعدت فيه النظر ورأيت أن ينشر كل جزء على حدة . فالجزء الأول هو هذا الذى يصدر بعنوان جديد . أما الثانى فقد اسقطت منه بعض اجزائه وشطبت منه الجانب الأكبر من تعليقات الهامش حول النصوص والقراءات ، ثم اضفت اليه عددا آخر من الرسائل وجعلته بذلك فى صورة جديدة تيسر للقارئ الوقوف ، عن طريق النصوص على أهم التيارات الفكرية والدينية والنظم السياسية والإدارية التى عرفتها المهدية . وقد سميته « منشورات المهدية » بدل مخطوط توشكى أو النجومى ودفعت به الى الطبع فى بيروت ، ولعله يرى النور قريبا . أما الجزء الثالث فقد تولت دار الوثائق المركزية طبعه وهو المرشد إلى وثائق المهدى .

لقد كان من الضرورى أن اجرى تعديلات فى الجزء الأول لكى ينقلب من مقدمة لمخطوط الى كتاب مستقل عن الحركة الفكرية . فحذفت منه عدة فصول كنت عقدتها حول تاريخ مخطوط توشكى وتكوينه وما به من النصوص ، ثم أضفت اليه بعض ما بحثت فيه بعد ذلك ونشرته بمجلة الخرطوم او لم انشره الى اعداد الكتاب . وكان هدفى من ذلك ان اعطى صورة مجملة للحركة الفكرية والحياة العقلية فى حقبة المهدية . وقد رأيت ان اركز جهدى فى الآثار القلمية وان أخص بعنايتى ماهو

متصل بالمهدية تاركاً ما عداه ، كالشعر بنوعيه التقليدى والقومى ، وكالنثر والتعليم والحركة الصوفية وما الى ذلك إلى من هم أقدر منى فيه .

لقد عانيت الكثير فى البحث والتنقيب واستقصاء الحوادث ومضاهاة الروايات وتحقيق عدة مئات من منشورات المهدى وآثاره وعدة آلاف من وثائق أتباعه لأستخلص منها مسير الفكر فى هذه الفترة واتجاهاته ، غير أن الموضوع يبقى — بعد ذلك كله — فى أطواره الأولى ، وليس لى ما اقوله الآن سوى حث القادرين على البحث فيه واكمال ما وقفت دونه والنظر فيه من زوايا تخرج عن دائرة تخصصى وتستوفى بها صورة الحركة الفكرية ، وليكن عذرى القليل الذى اوفيته والجهد الذى بذلته والاخلاص الذى سعيت به .

وارى من الحق ان اذكر بالشكر كل من عاون فى اعداد هذا الكتاب وان اخص بالذات جامعة الخرطوم التى يرجع اليها الفضل الاكبر فى تربيتى وتقويم امرى واتاحت لى فرصة البحث واعداد الرسالة فيها ، وحكومة السودان التى يسرت لى فرصة الدراسة وعاونت ، ماديا وأدبيا ، فى اعداد الرسالة ونشرها .

محمد ابراهيم ابوسليم

الباب الأول

المهدية

الفصـــل الاول

المهـدية : النشـأة والتـاريخ

(١) الفكــــرة :

فكرة المهدى او المنقذ فكرة قديمة ، وقد ظهرت فى تاريخ الاسلام منذ وقت مبكر . وهى تستند الى بعض الاحاديث التى رويت عن النبى وبعض تأويلات لبعض الآيات . ويلاحظ ان لفظ المهدى نفسه لم يرد فى القرآن كما يلاحظ ان الاحاديث عن المهدى لم ترد فى كتب الحديث المتشددة كصحيح مسلم وصحيح البخارى وانما وردت فى الكتب غير المتشددة كسنن ابى داود وابن ماجه والترمذى والنسائى. وقد اورد ابن خلدون جملة كبيرة من هذه الاحاديث وشكك فى صحتها ، وقال فى نهايتها : «فهذه جملة الاحاديث التى خرجها الأئمة فى شأن المهدى وخروجه آخر الزمان ، وهى كما رأيت لم يخلص منها من النقد الا القليل والأقل منه » (١) . وقد شكك غيره فى أمر المهدى المنتظر ، ومن الطريف ان نلاحظ ان ابن خلدون سماه الفاطمى ، نظرا الى أن الفواطم واشياعهم هم أسبق الفرق الى الفكرة واكثرهم حماسا لها .

ومن الناحيتين الاجتماعية والسياسية تعتبر المهدية حركة ذات دلالة بعيدة ، لأنها مظهر مـــن مظاهر المعارضة للنظم القائمة ، تشتد كلما اشـــتد الظلم والاضطهاد، وكانت دائما شعار المضطهدين والمغلوبين على أمرهم وجنة موعودة ترضى خيالهم وتشبع رغباتهم المكبوتة وطموحهم الى المثالية المطلقة فى العدل والقضاء المبرم على العدو .

وقد تلقفت الفرق الاسلامية ، وخصوصا تلك التى كانت فى المعارضة أو معرضة للاضطهاد ، هذه الفكرة وذهبت فيها مذاهب شتى ، وبالتالى تعددت صور المهدية وتباينت شروطها واهدافها : من ذلك ان بعضهم قالوا ان المهدى يظهر بمكة ، وحدد بعضهم الموضع بما بين الركن والمقام ، بينما قال البعض انه يظهر بالمشرق ،

---

(١) ابن خلدون ، عبد الرحمن : مقدمة ابن خلدون (طبعة القاهرة سنة ١٩٥٨م) ص ٣٢٢ .

بهذا الاطلاق،وزعم آخرون انه يأتى من ماوراء النهر ويزحف الى مكة . ثم اشاع المغاربة ان ظهوره بالمغرب ، وعين بعضهم بعض أطراف العمران عندئذ كالزاب فى افريقيا — تونس حاليا — والسوس من المغرب وماسا ، والأخير هو الذى جاراه مهدى السودان وان كان يختلف فى تفسير موضع ماسا ويجعله فى قدير بجبال النوبا بجنوب كردفان . وانما كان هذا التباين فى التصور لأن هذه الفرق وأهل هذه الديار كانت تتصور المهدى أو تحلم به حسب ظروفها المحلية . ومن الطريف ان الكندى ، وهو فيلسوف كبيرمن المغرب ، ذكر أن المهدى يفتح الاندلس ، وهو حلم مغربى منذ طرد العرب من الاندلس ، ثم يسير شرقا حتى القسطنطينية ثم منها الى الشرق .

وكانت الخرافات والاساطير ، وهى فى مجموعها تصور آمال المضطهدين واحلامهم ، تجتمع حولها وتضيف الى صورها الوانا وابعادا جديدة . وكانت الشيعة ، وهم انصار على وبنيه ، أسبق الفرق الاسلامية الى التعلق بهذه الفكرة والعمل لها ، وقد استمرت محاولاتهم لفترة طويلة وتركت آثارا عميقة على الفكرة نفسها . وقد تتلمذ عليهم المتصوفة واخذوا عنهم — ضمن مااخذوا — فكرة المهدية وصاغوها فى القالب الذى يوافق مشربهم (١) . ومن أشهر المتصوفة الذين تكلموا عن المهدى المنتظر محيى الدين بن عربى المتوفى فى سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٩٠—١٢٩١م . وهو من كبار الصوفية ومن الاوائل الذين وضعوا فكرة وحدة الوجود . وكان عالما ومتبحرا فى آراء الشيعة ، فنقل آراهم الى التصوف ، ونظم دولة للاولياء تقوم على القطب والابدال والاوتاد وغيرهم . ويقال أنه أخذ هذه الفكرة عن الاسماعيلية . وضمن كتابه الفتوحات المكية كثيرا من آراء الشيعة على صورة صوفية . وعلى يديه تطورت فكرة المهدية واخذت ابعادا جديدة لأنه مزج بينها وبين افكار الشيعة وتصورات الصوفية وعرضها فى شكل دولة الاولياء . وفى الجزء الثالث من كتاب الفتوحات المكية اورد ابن عربى فصلا سماه : «فى معرفة منزل وزراء المهدى الظاهر فى آخر الزمان الذى بشر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو من آل البيت المطهر من الحضرة المحمدية » . مما يقوله :

« اعلم ايدنا الله واياك ان لله خليفة يخرج وقد امتلأت الأرض جورا وظلما

---

(١) الشيبى ، كامل مصطفى : الصلة بين التصوف والتشيع ج ٢ ص ١٦٧ ومابعدها .

فيملؤها قسطا وعدلا . لو لم يبق من الدنيا الا يوم واحد طول الله ذلك اليوم حتى يلي هذا الخليفة من عترة رسول الله (صلعم) من ولد فاطمة جدة الحسن بن علي بن أبي طالب رضى الله عنه يواطئ اسمه اسم رسول الله (صلعم) فى الخلق بفتح الخاء وينزل عنه في الخلق بضم الخاء لانه لا يكون أحد مثل رسول الله (صلعم) فى اخلاقه والله يقول فيه وانك لعلى خلق عظيم وهو أجلى الجبهة أقنى الأنف أسعد الناس به أهل الكوفة يقسم المـال بالسوية ويعـدل فى الرعية ويفصل فى القضية يأتيه الرجل فيقول له يامهدى أعطنى وبين يديه المال فيحثى له فى ثوبه ما استطاع أن يحمله . يخرج على فترة من الدين يزع الله به ما لا يزع بالقرآن . يمسى الرجل جاهلا بخيلا جبانا فيصبح أعلم الناس أكرم الناس أشجع الناس يصلحه الله فى ليلة . يمشى النصر بين يديه يعيش خمسا أو سبعا أو تسعاً . يقفو أثر رسول الله (صلعم) لا يخطئ، له ملك يسدده من حيث لا يراه يحمل الكل ويقوى الضعيف فى الحق ويقرى الضيف ويعين على نوائب الحق . يفعل ما يقول ويقول ما يعلم ويعلم ما يشهد ويفتح المدينة الرومية بالتكبير فى سبعين الفا من المسلمين من ولد اسحق . يشهد الملحمة العظمى مأدبة الله بمرج عكا . يبيد الظلم وأهله . يقيم الدين وينفخ الروح فى الاسلام . يعز الاسلام به بعد ذلة ويحيا بعد موته . يضع الجزية ويدعو الى الله بالسيف ما كان . فمن أبى قتل ومن نازعه خذل . يظهر من الدين ماهو الدين عليه فى نفسه ما لو كان رسول الله (صلعم) حيا لحكم به . يرفع المذاهب من الأرض فلا يبقى الا الدين الخالص . اعداؤه مقلدة العلماء أهل الاجتهاد لما يرونه من الحكم بخلاف ما ذهبت اليه أئمتهم فيدخلون كرها تحت حكمه خوفا من سيفه وصولته ورغبة فيما لديه . يفرح به عامة المسلمين أكثر من خاصتهم . يبايعه العارفون بالله من أهل الحقائق عن شهود وكشف وتعريف الهى . له رجال الهيون يقيمون دعوته وينصرونه هم الوزراء يحملون اثقال المملكة ويعينونه على ماقلده الله » [1] .

ثم يقول : « واما هو نفسه فصاحب سيف حق وسياسة مرتبة . يعرف من الله قدر ما تحتاج اليه مرتبته ومنزلته لأنه خليفة مسدد يفهم منطق الحيوان . يسرى عدله من الانس والجان من اسرار وعلم وزرائه الذين استوزرهم الله له قوله تعالى :

---

(١) ابن عربى ، محيى الدين : الفتوحات المكية ، ج ٣ ص ٢٤٩ — ٤٣٠

وكان حقا علينا نصر المؤمنين . وهم من الاعاجم مافيهم عربى ولكن لا يتكلمون الا العربية . لهم حافظ ليس من جنسهم ماعصى الله قط وهو أخص الوزراء وأفضل الامناء » . « يفتحون مدينة الروم . فيكبرون التكبيرة الأولى فيسقط ثلث سورها ويكبرون الثانية فيسقط الثلث الثانى من السور ويكبرون الثالثة فيسقط الثلث الثالث فيفتحونها من غير سيف . فهذا عين الصدق الذى ذكرنا . وهم جماعة أعنى وزراء المهدى دون العشرة . واذا علم الامام المهدى هذا عمل به فيكون اصدق أهل زمانه فوزراؤه الهداة وهو المهدى . فهذا القدر يحصل للمهدى من العلم بالله على أيدى وزرائه . واما ختم الولاية المحمدية فهو أعلم الخلق بالله لا يكون فى زمانه ولا بعد زمانه أعلم بالله وبموقع الحكم فيه . فهو والقرآن اخوان . كما ان المهدى والسيف اخوان وانما شك رسول الله (صلعم) فى مدة اقامته من خمس الى تسع للشك الذى وقع فى وزرائه لان لكل وزير معه سنة فان كانوا خمسة عاش خمسة وان كانوا سبعة عاش سبعة وان كانوا تسعة عاش تسعة أعوام .

ثم يقول : « ظهور المهدى من اشراط الساعة وانه حجة الله على أهل زمانه وهى درجة الأنبياء التى تقع فيها المشاركة . وما يعلمه المهدى اعنى علم القياس لا يعمل به وانما يعلمه ليتجنبه . فما يحكم المهدى الا بما يلقى اليه الملك من عند الله الذى بعثه الله اليه ليسدده وذلك هو الشرع الحقيقى المحمدى الذى لو كان محمد (صلعم) حيا ورفعت اليه النازلة لم يحكم فيها الا بما يحكم هذا الامام . واذا خرج هذا الامام المهدى فليس له عدو مبين الا الفقهاء خاصة . فانه لا يبقى لهم رياسة ولاتمييز عن العامة بل لا يبقى لهم علم بحكم الا قليل . ويرتفع الخلاف من العالم فى الأحكام بوجود هذا الامام . ولولا ان السيف بيد المهدى لافتى الفقهاء بقتله ولكن الله يظهره بالسيف والكرم فيطمعون ويخافون فيقبلون حكمه من غير ايمان بل يضمرون خلافه كما يفعل الحنفيون والشافعيون فيما اختلفوا فيه » (١) .

ولابن عربى كتاب آخر سماه عنقاء مغرب يتكلم فيه عن ختم الولاية الذى يجعله اسمى مراتب الاولياء . وهو كتاب صغير الحجم ملأ ه بالنبوآت والرموز

---

(١) نورد هذه الفقرات نقلا عن كتاب «السودان والثورة المهدية» للدكتور مكى شبيكة ، ج ١ ص ١٧-١٩

وبما يشبه التنجيم . وهذه الفكرة اخذ بها ابن وفا فى مصر ومحمد عبد الكريم السمان مؤسس الطريقة السمانية ومحمد عثمان الميرغنى مؤسس الطريقة الختمية . وقد طورها احمد التجانى مؤسس الطريقة التجانية بفكرة قطب الاقطاب والولاية المحمدية .

تصور ابن عربى المهدى المنتظر فى صورة اكبر قطب صوفى وتصور نظامه فى صورة دولة مثالية قوامها الاولياء والصالحون ، ويضعه فى مرتبة تقرب من مرتبة النبوة الكاملة (١). وقد اخذ عنه مهدى السودان كثيرا وسار على المنوال الذى وضعه . ويمكننا ان نعتبر الصورة المجملة لمهديته امتدادا للمهدية التى تخيلها ابن عربى .

وقد كانت كتابات ابن عربى متداولة فى السودان وصارت اقواله اسانيد يستند عليها المعارضون لمهدية مهدى السودان والمؤيدون له ، وما يزال اتباع هذا المهدى يرددون عنه نبوآت تؤيد مهدية مهديهم . ومن ذلك الذى ينسب لابن عربى : «فاذا ظهر الأمر بمجمع البحرين ولاح السر لذى عينين قام سمى النبى وعن يمينه سمى الولى وذلك عند انعدام الخا من حروف الهجا . . . فاذا ظهر الانسان بالماء وكانت الشمس بالجوزاء اخذ هيكس الظما وامت به جنود الارض والسما وسال وادى منا وذلك فى التاسع لذى الحجة ،وقد ظهرت على المعاند الحجة حتى اذا جاء الفرد صفر ظهر الفساد فى البشر . . . وغردون مولد الانشا يقبل عند بى الانتشا ، فاياك اياك اذ ذاك . اذ كانت القطوف دانية » . لقد اخذت هذه العبارة عن السيد محمد المهدى بن الخليفة عبدالله والسيد محمد السيد بن الخليفة عبدالله — رحمهما الله — ووجدت نصه فى مخطوط : نصيحة الحق الموافق لهداية عبد الرحيم الصادق الذى وضعه يوسف احمد محمد عوض السيد للسيد عبد الرحمن المهدى ، وقد قدم للنبؤة بقوله : « هذه رسالة الامامة الكبرى فى المهدى عليه السلام للشيخ الأكبر سيدى محيى الدين بن عربى » . ويبدو أن النبوءة مدسوسة على ابن عربى .

ومن هؤلاء المتصوفة الذين تكلموا عن المهدية أحمد بن ادريس الفاسى ، وهو استاذ محمد عثمان الميرغنى الختم مؤسس الطريقة الختمية ومحمد على السنوسى

---

(١) الشيبى ، نفس المصدر ج ٢ ص ٥١ — ٥٤ .

مؤسس الطريقة السنوسية وابراهيم الرشيد الذى تنسب اليه الطريقة الرشيدية ومحمد المجذوب مجدد الطريقة المجذوبية . ولأحفاده طريقة تنسب اليه وهى الاحمدية الادريسية . وكانت آثاره متداولة فى السودان . وقد أستشهد المهدى باقواله للدلالة على صدق مهديته . ومنهم ايضا ابن قسى فى كتـــابه خلع النعلين وعبدالحق ابن سبعين وابن ابى واصل فى شرح كتاب خلع النعلين(١) . وهنالك علماء ومتصوفة آخرون تكلموا عن المهدى المنتظر كالشعرانى وشهاب الدين بن احمد بن حجر الهيتمى ، وقد استشهد بهم العلماء الذين وقفوا فى صف المهدى والذين عارضوه على السواء .

اما اهل السنة فانهم يرون المهدى المنتظر مصلحاً دينيا يعيد للاسلام نقاءه الأول ويجدد مجده . وقد تأثروا فى تصوره كثيرا باقوال الشيعة والمتصوفة ، وهم مثل هؤلاء يجعلونه فى بيت النبى ، الا انهم كعادتهم فى كل رأى لايشتطون به شطط المتصوفة والشيعة .

وقد سمع المسلمون فى السودان ، كغيرهم من المسلمين ، وخاصة من لهم اطلاع ، بفكرة المهدى المنتظر وانتظروا مجيئه ايا كان مكان ظهوره . ويبدو ان الفكرة قد وفدت اليهم عن مصدرين : أولهما مصدر عام وهو المصنفات الإسلامية التى تكلمت عن المهدى المنتظر وانتشار الطرق الصوفية والاتصال بالمسلمين فى البلاد الأخرى عن طريق الحج والتجارة وما اليهما من مسالك الحياة الداعية الى الاتصال . أما المصدر الثانى فمصدر خاص وهو أثر حركة الجهاد الفلانى التى قام بها الشيخ عثمان دان فوديو فى شمال نيجيريا ثم واصلها اخوه عبدالله وابنه محمد بيلو وغيرهما ، اذ بشرت حركة دان فوديو بقرب ظهور المهدى المنتظر بالمشرق وكتب اصحابه مؤلفات كثيرة فى موضوعه ، وقد ذكر محمد بيلو فى كتابه انفاق الميسور ان والده عثمان قد اخبره عن قرب ظهور المهدى وان اتباع الشيخ عثمان هم ابكار اتباع المهدى وان الجهاد الفلانى لن يخمد أواره حتّى يظهر المهدى ويتسلم القياد . ويذكر حياتو بن سعيد ، حفيد دان فوديو فى خطاب

---

(١) ابن خلدون : المصدر نفسه ص ٣٢٤ .

الى المهدى تبشير جده بظهوره وانه اوصاهم بالانضمام اليه . وقد انتشرت هذه الاقوال انتشاراً واسعاً فى السودان الغربى وصارت معتقدا عاما افضى الى طوفان من الهجرة الى السودان والحجاز . بل لقد ظهر مدعون للمهدية ، مثل حما الذى اعلن مهديته فى سنة ١٨١٣م وسط قبيلة الطوارق ، وقد قضى عليه الشيخ عثمان نفسه . أما مؤلفاتهم عن المهدى المنتظر فمنها : كتاب المهدى المنتظر ، وكتاب تحذير الأخوان من ادعاء المهدية الموعودة آخر الزمان ، وهما من مؤلفات الشيخ عثمان دان فوديو نفسه ، وعنوان الكتاب الثانى يدل على أن الكثيرين من اتباعه كانوا يتأهبون لادعاء المهدية مما يعتبر دليلا على قوة انتشار الفكرة . ومن المؤلفات كتاب القول المختصر فى أمر الامام المنتظر ، وكتاب تنبيه الافهام على ان المهدى هو الختام ، وكلاهما من تأليف محمد بيلو ابن الشيخ عثمان . ومنها : كتاب منتخب الكلام فى أمر المهدى الامام لخضر بن جبريل الفلانى . وقد وردت اشارات كثيرة الى المهدى المنتظر فى كتب أخرى ككتاب انفاق الميسور لمحمد بيلو(١) .

الا اننا لا نعتقد ان مؤلفات دان فوديو واصحابه هذه قد انتشرت فى سوداننا بحيث اثرت فى الفكر المهدوى عند المهدى ، لأننا لانسمع عنها فى مصادرنا وانما نسمع عنها بواسطة مصادر السودان الغربى . ولكن مما لاشك فيه ان اخبار دان فوديو قد وصلت غرب السودان(٢) وان بعض اقواله وما بشر به قدانتشر فيه ،وقد جاء تأثيره فى التهيئة لمهدية السودان على هذا الاساس وبهذا القدر . أما القول الذى ردده المرحوم محمد أحمد الحاج كثيراً بأن مهدية السودان كان مصدرها حركة دان فوديو باعتبار ان اقوال فوديو وجماعته عن المهدية قد انتشرت فى دار فور وان عبدالله ، خليفة المهدى فيما بعد ، قام بنقلها الى المهدى ومن ثم قام المهدى بدعوته فزعم لايسنده دليل ولامكان له الا فى خيال صاحبه .

غير ان شهرة دان فوديو أدت الى الوشائج القوية بين مهدى السودان وبين اتباع فوديو ، فقد كان المهدى وخليفته مهتمين بنشر المهدية فى السودان الغربى. وقد اتصل المهدى فى وقت مبكر من دعوته بحياتو بن سعيد حفيد دان فوديو وتبادل

---

(١) اعتمدنا فى هذه الفقرة على مقال بالا نجليزية غير منشور للمرحوم البروفسير محمد أحمد الحاج وسابورى بيوباكو عنوانه : المهدية السودانية واقليمي النيجر – شاد .

(٢) ورد ذكر دان فوديو فى كتاب الابانة النورية فى شأن صاحب الطريقة الختمية لاحمد بن ادريس الرباطابى عند مبشرات ظهور الختم

معه الرسائل ، وواصل الخليفة من بعده سعيه معه . ويبدو من محررات المهدى والخليفة الى السودان الغربى أنهما كانا يعلمان الكثير عن أحوال هذه البلاد والحركات الدينية فيها وانهما كانا يتصلان بها عن طريق الرسائل والعائدين من الحج(١) . بينما تظهر محررات الحسن سعد العبادى أمير حلايب والمكلف بنشر المهدية فى الجزيرة العربية ان معلومات الخليفة عن أحوال تلك البلاد كانت ضعيفة للغايــة . والظاهر أن اهتمامهم بالحجاز قد نشأ فى أواخر ايام المهدى على أثر وصول وفد من أهل الحجاز(٢) .

ان أول خبر عن المهدية فى السودان ترويه المصادر ما كان من أمر حمد النحلان المشهور بحمد ود الترابى المتوفى سنة ١١١٦هـ/ ٤ـ١٧٠٥م . وكان هذا رجلا صالحاً معتقدا فيه . وقد حج فى جماعة كبيرة من اتباعه . فلما كان فى مكة اعلن انه المهدى ، ويبدو انه اراد ان يوفق بين امره وبين قول ورد بأن المهدى يظهر فى مكة ، فهاج عليه الناس وضربوه هو واتباعه وحبسوهم . وقد ارسل حواره ميرف الى سنار ليبلغهم بمهديته ، فلما جاءها بهذا الخبر أمر السلطان بادى ابو دقن فقبض عليه وقتل . ولما عاد حمد الى السودان كان قد ترك دعواه ، وقد عاش بقية عمره على ما كان قبل حجه ومهديته . وهكذا انتهى أول خبر عن المهدية فى السودان . وقد أورد ود ضيف الله فى طبقاته اخبارا مطولة عن حمد النحلان ومن ضمنها ماكان من أمر مهديته ، وهو مصدرنا فيما روينا . ومن الطريف ان احمد السلاوى اختصر فى شرحه لارجوزة ابراهيم عبدالدافع خبر حمد النحلان اختصارا شديدا ولم يبق منه الا سطورا ، لأنه استبعد من الاخبار ماعده خرافة ، وكان مما استبعد خبر مهديته .

---

(١) يذكر الخليفة عبد الله فى خطاب الى صالح محمد امير لقنى فى ٢٢ شوال سنة ١٣٠٢ (صادر رقم ٥ ص ١١) خبر محمد جبريل العائد من الحج والذاهب اليهم للتبشير للمهدية. وانظر منشور محمد بن حسين الامام المالكى بالمدينة الى أهل الغروب عن صدق دعوة المهدية فى ٢١-٢٢ الحجة سنة ١٣٠٦ (مهدية ١٨٩/٢٧/٢ ، ١٩٠ ، ١٩١) .

(٢) الخليفة عبد الله الى حذيفة بن سعد الاحمدى بالحجاز فى ٢١ شوال ستة ١٣٠٣ (صادر رقم ٥ ص ٢٧-٢٨) .

وقد ألف اثنان من متصوفة السودان في موضوع المهدية . أما أولهما فهو اسماعيل الولى بن عبدالله مؤسس الطريقة الاسماعيلية ، وقد وضع فيه مؤلفين وهما رسالته المسماة باللمع البادى عن كشف الختم والامام الهادى وكتاب جامع معانى الكلم ووجيز النظم فى معرفة سيدى الأمام المهدى والختم . وقد ذكر يوسف أحمد محمد عوض السيد فى « نصيحة الحق » الذى اشرنا اليه سابقاً المصنف الاخير وسماه « جامع الكلم واجيز النظم فى معرفة سيدى الأمام المهدى والختم ». وكما ترى فانه يتجاوز فى نص العنوان . وقد ورد ذكر مصنفى الولى فى كتاب النشأة السنية فى المناقب الاسماعيلية والذى هو عبارة عن ثبت بمصنفات اسماعيل الولى مرتبة سنة بعد سنة . ويورد الثبت الكتابين ضمن مصنفات عام ١٢٣٩ . وقد وقفت على هذا الكتاب ضمن مجموعة أحمد الفكى عبدالله بالابيض والتى صورتها لدار الوثائق باريخية منه . وقد اغفل المؤلف ذكر اسمه فى الكتاب وجعله مجهول النسب عندنا .

أما الكتاب الثانى فمؤلفه ابراهيم الامين بن على المشهور بالكباشى ، احد شيوخ القادرية المهمين ، وهو بعنوان المهدى المنتظر (١) .

وقد نقل المرحوم مكى شبيكة عن كتاب الكئوس المترعة للشيخ عبدالمحمود نور الدائم بعض اقوال عن محمد بن عبدالكريم السمان مؤسس الطريقة السمانية واستاذه مصطفى البكرى بادعاء كل منهما بانه من وزراء المهدى (٢) .

وتحت أيدينا الآن محصول طيب من الروايات والاخبار يفيد بأن فكرة المهدى المنتظر قد وجدت رواجا فى السودان فى الربع الاخير من القرن التاسع عشر وان الكثيرين قد باتوا ينتظرون ظهور المهدى . وكان من الاسباب الداعية الى ذلك الظلم الذى حاق بالناس وتخبط الإدارة التركية المصرية فى الأخطاء وتوافق ذلك مع قرب كمال القرن الهجرى الثالث عشر مما هيأ لفكرة أمام القرن الذى قيل انه يظهر فى آخر كل قرن هجرى .

---

(1) Karrar, A. S The Sufi Brotherhoods in the Sudan until 1900, with special reference to the Shayqiyya region. Phd. thesis, University of Bergen (1985) p. 190

(٢) شبيكة ، السودان والثورة المهدية ، ج ١ ص ١٣-١٩

روى يوسف ميخائيل في كتابه غردون والسودان (١) كيف كان الناس ينتظرون قدوم المهدى المنتظر وذكر ان صبيان الابيض كانوا يجعلون فى العابهم صفا لأنصار المهدى وصفا آخر لأعدائه (٢) . ويذكر الزبير باشا ان عبدالله التعايشى الذى صار خليفة المهدى فيما بعد كان قد اتصل به بعد فتحه لدارفور وابلغه انه رأى في الحلم انه المهدى المنتظر وانه احد اعوانه فرده عن ذلك(٣) .

ويقول الشيخ محمد شريف نور الدائم ، استاذ المهدى السابق ، ان عبدالله التعايشي هذا قد جاءه ايضا وهو قادم من الغرب وفاتحه فى موضوع المهدية قائلا انه المهدى المنتظر فطرده وقال له الحق بمحمد أحمد فانه يقول ذلك ، فاتصل عبدالله بعد ذلك بمحمد أحمد وكان ما كان (٤) . على اننا ينبغي ان نأخذ هذه الروايات بالحذر لأنها رويت بعد المهدية وافول نجمها ، والناس دائماً ينظرون الى الحوادث بوحي ماجاء بآخرة ، وقد روى الزبير ومحمد شريف روايتيهما فى وقت كان فيه المناهضون للمهدية يجدون الحظوة ، ويظهر من قوليهما انهما يوحيان بانهما عارضا فكرة المهدية من أولها واستخفوا بها .

---

(١) يوسف ميخائيل ، قبطى من مواليد الابيض ، وقد قدم ابوه الى السودان مع قوات الدفتردار . انضم يوسف وأخوانه الى المهدية بعد فتح الابيض ويبدو انهم نجحوا فى خلق علاقات طيبة مع العهد الجديد . وبعد الفتح الثنائى عاد يوسف الى الابيض . قبض عليه فى سنة ١٩٣٤م وأدين بحيازة المشروبات البلدية فسجن بسجن الأبيض . وبتكليف من المستر اقلن (Aglen) مفتش مركز الأبيض كتب يوسف فى السجن تاريخ حياته وسماه «غردون والسودان». وبعض فصول هذا الكتاب يلقى اضواء جديدة على احوال كردفان قبيل المهدية وعلى المنازعات حول السلطة بين الامير يعقوب وعثمان الشيخ الدين اكبر ابناء الخليفة فى اواخر المهدية . وينسب الى يوسف مصنف رسائل محفوظ فى متحف بيت الخليفة تحت رقم E. K. 316 ،وحقيقة الامر ان يوسف حصل عليه فى سنة ١٣٠٥هـ / ١٨٨٧ –١٨٨٨م واحتفظ به حتى اشتراه منه المستر اقلن واهداه الى المتحف. وقد تولى المرحوم الدكتور صالح محمد نور تحقيق كتاب غردون والسودان وترجمه الى الانجليزية وحصل به على الدكتوراه من جامعة لندن .

(٢) ميخائيل ، يوسف : غردون والسودان (المخطوط) ص ٢٦–٢٧ .

(٣) نعوم شقير : تاريخ السودان ، تحقيق وتقديم الدكتور محمد ابراهيم ابوسليم (دار الجيل ببيروت ١٩٨١) ص ٢٦٩ .

(٤) فوزى ، ابراهيم : السودان بين يدى غردون وكتشنر (القاهرة ١٣١٩هـ) ج ١ ص ٧٥.

وقد أورد الاستاذ يحيى محمد ابراهيم فى كتابه « تاريخ التعليم الدينى فى السودان» بعض روايات كانت متداولة فى هذه الفترة تشير عن قرب ظهور المهدى، قال : « من ذلك ان جماعة سألت الشيخ المجذوب عن : « كل ولى يطعن فيه اهل زمانه ، فهل المهدى اذا ظهر يطعنون فيه ، فاجابهم بقوله : لايجدون فيه مطعنا الا أن يقولوا انه دنقلاوى . ونسب الى الشريف محمد الامين (يقصد الهندى) انه اقسم قبل ظهور المهدى بخمس سنوات انه لايموت الا فى جهاد مع المهدى . كما سأل جماعة الشيخ الطيب البشير عن قرب زوال ملك الاتراك فاخبرهم باقتران ذلك بظهور المهدى ، ويقال انه وجد تقييد بخط هذا الشيخ نص على ان المهدى منا وقد اطلعنى عليه ربى حتى كأنى انظر الى جلالته » . والشيخ حبيب أمام المسلاتى نظم شعراً عن قرب ظهور المهدى . وللفقيه دقيس مثل ذلك . والشيخ حمد التوم ود بانقا كان يشبه ظهوره بسحابة ستظلهم » .

« وثمة روايات أخرى من بينها رواية منسوبة الى الحاج حسن سعد ود بلول فى حوش بانقا عن قرب ظهور المهدى ، واخرى تذكر ان الشيخ ابراهيم عبدالدافع اشار الى قرب ظهور « العرب حملة الرمـــاح الطوال راكبين البقر مع المهدى المنتظر» .

« وممن تحدثوا عن قرب ظهور المهدى وما سيحدث عند ظهوره من حروب تسفك فيها الدماء الفقيه الامين صالح التويم ، وايضا الفقيه محمد ود دوليب الذى تنبأ بان المهدى سينشر الفتن بسبب ما سيحدثه من تغيير فى العقيدة»(١) .

وكما ترى فان اغلب مايرويه الاستاذ يحيى من قبيل ماروى بعد المهدية بوحى ما كان من أمرها ، وقد اثبتناها هنا على وجه الاستكمال .

وهنالك روايات كثيرة تروى عن الشيخ القرشى ود الزين ، آخر اساتذة المهدى ، حول قرب ظهور المهدى المنتظر وكونه يكون فى اتباعه . ويروى عنه ايضا انه تنبأ لمحمد أحمد « المهدى» بذلك كما نسب اليه انه قال : اديته بنتى وفرسى وانا موعود انه فرسى ده يركبه المهدى وشيخته واديته الاجازة . ويقال أيضا أنه تنبأ بان يكون المهدى من تلاميذه وانه يبنى فوق قبره قبة وانه يختن اولاده (٢) .

---

(١) ابراهيم ، يحيى محمد : تاريخ التعليم الدينى فى السودان، ص ٣٢٨ -٣٢٩ .

(٢) فوزى : ج ١ ص ٧٣ و ٧٤ ، نعوم شقير ، ص ٣٢٧ .

وقد اظهره المهدى بهذه الصورة فى حضرة تنصيبه ، اذ يظهر القرشى مؤمنا به ويقول : « ان الشيخ الطيب (شيخ السمانية) كان قد اعلمه بانه يدرك المهدى ويلاقيه» (١) . ونفس مظهر أولياء السودان فى مشاهد هذه الحضرة وتأييدهم له وقول بعضهم بأنهم علموا بقرب ظهور المهدى ، دليل على مدى انتشار الفكرة ، اذ لولا ذلك لما ساق المهدى مشاهد الحضرة بهذا الوجه دليلا على مهديته وعرضها على اتباع هؤلاء .

وقد استشهد المهدى وانصاره والمعارضون لهم بمصادر كثيرة عن المهدية كابن عربى واحمد بن ادريس وعبدالوهاب الشعرانى وشهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمى ومحمد المغربى واحمد الحصونى واليدالى والصبان وشهاب الدين القيلوبى(٢) وعمر بن الوردى صاحب كتاب خريدة العجائب وفريدة الغرائب وعواض صاحب كتاب الشفاء ومقدمة ابن خلدون والوانشرسى صاحب كتاب المعيار . كما اشاروا الى منظومة الاصول وكتاب الشمائل ونور الابصار دون ذكر المؤلفين . وهذا يدل على ان مؤلفات هؤلاء عن المهدى المنتظر كانت منتشرة فى السودان ومعروفة فى تلك الفترة . وقد ذكر الحسن سعد العبادى بعض المصادر عن المهدى المنتظر ثم قال : « فمن شك فى ذلك وله اهلية فليراجع كتبهم » (٣) مما يقوم دليلا على وجود هذه المصادر بين ايدى الناس . والواقع أن الجهد المنظم فى الكلام عن المهدى المنتظر الذى أظهره انصار المهدى والمعارضون لهم يدل دلالة واضحة على فهم مستقرىء سابق للموضوع ، وان تطبيق المهدى نفسه للفكرة وتصوره لها واستشهاده ببعض من تكلموا عنها كابن عربى والقطب الدرديرى واحمد بن ادريس لدليل واضح على انه قرأ كثيراً فى موضوعه وتمكن منه وهو بالتالى دليل على وجود المصادر الكافية والاهتمام بمتابعتها .

---

(١) ابوسليم : منشورات المهدية ، ص ١٢–١٨ .

(٢) يذكر الحسن العبادى فى كتاب «الانوار السنية الماحية لظلام المنكرين على الحضرة المهدية» (نشير اليه فيما يلى بالانوار السنية) ان اوصاف القليوبى للمهدى المنتظر مطابقة كل المطابقة لاحوال مهدى السودان وذلك حتى فى التفاصيل الظرفية كمكان الميلاد فى دنقلا ومكان ظهور المهدية فى ابا . أنظر الأنوار السنية ص ١٥٥–١٥٦ .

(٣) الانوار السنية ص ١٤٢ .

ويفيدنا المهدى نفسه بأن شيخه محمد شريف نور الدائم كان يحدثهم فى مجالسه عن كرامات المهدى المنتظر ومقامه ، ومما يزيد هذا القول قوة انه وردت اشارة في خطاب منه الى محمد شريف نفسه ، ولسنا نحسب انه يأتى به فى هذا الموضع ويواجه به استاذه المعارض لمهديته ان لم يكن له سند من الواقع ، يقول له المهدى: « وانك تعلم ان من لم يسلم ويتبع لمهدى الزمان يحرم من خير الرحمن ، وقد سمعتك غير مرة تقول امدادنا هذه من انفاس المهدى ، فلما كنت عالما بذلك فلاتقف عن الرشـــاد»(١) .

ولم يكن الختمية اقل اهتماما بفكرة المهدى المنتظر وظهوره ، وان صاروا فيما بعد ، لأسباب تاريخية وسياسية ، يتفادون الكلام عنها . فالسيد محمد عثمان الميرغنى الختم ذكر عن المهدى المنتظر ومقامه كثيرا واشار الى أن مقام الختم — أى مقام محمد عثمان — يأتى بعد مقام النبى ومقام المهدى مباشرة ، فهو الرجل الثالث فى سلم المراتب الدينية ، وقد نقل مؤلف كتاب الابانة (٢) كثيراً من اقواله فى هذا الموضوع . وهناك نصوص أخرى حول هذه النقطة فى كتاب الرسائل الميرغنية والذى يتضمن مجموعة رسائل كتبها السيد محمد عثمان الختم وغيره من المراغنة واتباعهم . وجدير بى ان أشير الى أمرفى هذا الكتاب قد يدعو الى اللبس : فالسيد محمد عثمان يشير فى معرض كلامه عن مراتب الاولياء ومقاماتهم الى رجل بدنقلا اسمه محمد أحمد ويذكر انه فى حالة من حالات الوهم الصوفى الذى يجعل صاحبها يعتقد بأنه بلغ مرتبة الواصل ، وقد يوهم القارىء المتسرع بهذا فيعتقد ان الاشارة تذهب الى محمد المهدى وان فى ذلك نوعا من الكشف أو الحكم على أمره . غير ان اشارته واضحة فى انه التقى بالرجل عند زيارته لدنقلا ، وهو على هذا رجل غير محمد المهدى الذى ظهر بعد وفاة السيد محمد عثمان الميرغنى بسنوات طويلة . ويذكر المهدى فى خطاب الى السيد محمد عثمان الميرغنى الثانى أن والده السيد

---

(١) «الآثار الكاملة للامام المهدى» تحقيق وتقديم الدكتور محمد ابراهيم ابو سليم ، تحت الطبع ، رقم ٣٢٨ — وسوف نشير الى هذا المصدر فيما يلى بقولنا : الآثار الكاملة .

(٢) انظر مقالنا : مخطوط فى تاريخ مؤسس الختمية — مجلة الدراسات السودانية (١) ١٩٦٨ ، وقد قمنا بتحقيق هذا الكتاب وعنوانه الكامل : الابانة النورية فى شأن صاحب الطريقة الختمية .

الحسن الميرغنى قد اشار الى مهديته المرتقبة ، يقول المهدى : « وقد تعلم انى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنك حرى بعلم مهديتى الذى لايخفا على ذى بصيرة نيرة سيما وانت ادرى باشارة والدك السيد محمد الحسن الميرغنى بمهديتى لأنك خايفته وعلى أثره » (١) .

وفى ليبيا كان اتباع الطريقة السنوسية يتوسمون ان يكون شيخهم محمد المهدى السنوسى هو المهدى المنتظر ويترقبون اعلانه أياهم بذلك ، ويبدو ان زعماء السنوسية كانوا يعدون لذلك بدقة ، فقد ارسل الشيخ محمد بن على السنوسى زوجته الى منطقة ماسا لتــلد له هناك محمد المهدى هذا ، لأن بعض الروايات تنبأت بأن ظهور المهدى المنتظر يكون بماسا هذه ، وقد اطلق على المولود « محمد المهدى» وهو من أسماء المهدى المنتظر فى بعض الاقوال . وقد بلغ السودان خبر المهدى المرتقب هذا ، ويؤيد ذلك ان المهدى يذكر فى خطابه المشهور الى السنوسى انه كان يتوسم المهدية فى شخصه وانه ومريديه كانوا عازمين على الهجرة اليه عند ظهوره وانه بادر بالكتابة اليه بذلك (٢) .

كذلك يذكر المهدى فى مناشير الدعوة أنه قبل قيامه بأمر المهدية كان يدعو الى اقامة الدين والعمل بأحكامه وينصح الحكام ويعظهم وأنه كان يراقب ظهور المهدى المنتظر ويتوق الى ان يكون من اتباعه ، يقول المهدى : «مع أنى كنت استبعد ذلك لنفسى وانتظر المهدى ان اكون له عونا وخادما لتأييد السنن النبوية » (٣).

ويذكر الحسن العبادى فى رسالته اقوالا فى هذا الشأن ، فهو يقول : «اخبرنى من اثق به من العلماء العاملين قبل ظهور الامام المهدى بنحو ثمان سنوات « ان محيي الدين بن عربى ذكر فى بعض كتبه تمام هذا الحديث ومزجه مع تمامه : تاركوا الترك ما تركوكم لأنهم تقوم لهم دولة فى آخر الزمان ما صادمتها دولة من الدول الا غابتها الا دولة الامام المهدى ».(٤) ويقول فى مكان آخر : « سمعت فى ١٢٩١

---

(١) الآثار الكاملة رقم ١٩٩ .

(٢) نفس المصدر رقم ٣٧ و٣٩

(٣) نفس المصدر رقم ٢٢

(٤) الانوار السنية ص ٢٢٧

من احد العلماء العاملين واكابر اولياء الله الصالحين ان الامام محمد المهدى سيخرج فى ١٢٩٨ ومن ابتدى دخول هذه السنة صرت انتظر لأكون من اعوانه وخدامه الصادقين» (١)، بل هو يقول بان السادة الخلوتية كانوا يقولون بأن المهدى المنتظر يكون منهم (٢). وفى صعيد مصر ظهر احمد عبيد ببلدة السليمية قبالة ارمنت فى عهد محمد على باشا واعلن المهدية وجمع اتباعا كثيرين، وقد قضى عليه فى ١٨٢٠، ومن بقى من اتباعه اجتمع مع ابنه الطيب الذى استمر يرتب وينظم بالسر حتى بلغ اتباعه اربعين الفا فقهرهم سعيد باشا وأرسل زعماءهم الى دنقلا فقتلوا فيها.

وحاصل القول ان فكرة المهدى المنتظر كان لها وجود فى السودان وان الكثيرين كانوا ينتظرون ظهور المهدى فى الربع الاخير من القرن الماضى وان المهدى عندما اعلن مهديته كان يخاطب القوم بأمر يعرفونه ويترقبون مجيئه.

(٢) اسباب قيام الثـورة المهـدية :

أفاض المؤرخون فى الكلام عن اسباب قيام ثورة المهدى وذهبوا فيها مذاهب شتى. فقد ذكر نعوم اربعة اسباب هى : الانتقام من فظائع الترك وخاصة تنكيلهم بالجعليين اثر مقتل اسماعيل باشا، وفداحة الضرائب والأسلوب الذى اتبع فى جمعها ومنع تجارة الرقيق وسوء الادارة. وقد اضاف نعوم الى ذلك بعض عوامل اعتبرها ممهدة للنجاح وهى : استخفاف الحكومة بمحمد احمد فى أول امره وانشغال الحكومة المصرية بثورة عرابى وضعف الحاميات العسكرية وسياسة التردد ازاء الثورة (٣).

ويضيف بعضهم الى ما سبق التدهور الخلقى وينقلون بالذات القصة التى تذهب الى ان رجلا قد زف الى رجل فى مدينة الأبيض وكيف ان المهدى ثار عندما وقف على هذا الحادث (٤).

---

(١) نفس المصدر ص ٢٤٦
(٢) نفس المصدر ص ٨٣
(٣) نعوم شقير ص ٣١٥ — ٣٢٠
(٤) فوزى ج ١ ص ٧٣ — ٧٤

ويذكر ثيوبولد ان اسبابها تعود الى اتساع الفتوحات بحيث صارت اكثر من الطاقة الادارية المتيسرة والى طريقة اختيار الموظفين ونظرة هؤلاء الى الخدمة فى فى السودان وتكالب الدولة على استغلال موارد البلاد (١) .

ويذكر الدكتور محمد فؤاد شكرى ان اسباب الثورة تعود الى الغاء تجارة الرقيق بالقوة ومكافحة الرق والنخاسة ثم ضعف الحكومة المركزية (٢) .

ويرجع الشاطر بصيلى بها الى الضغط الاجنبى فى مصر والسودان لالغاء الرق ومباشرة الاجانب للحكم فى السودان وتنكيلهم بالاهاين (٣) .

ويرجع الحسن العبادى اسباب المهدية الى الضغط الاوربى على العالم الاسلامى واحتلال الاوربيين لبعض البلاد الأسلامية وقصدهم لاحتلال الباقى والى ضعف الايمان بالقرآن والتشبه بالاوربيين ووضع القوانين الوضعية بدل القوانين المنزلة ، وهو يرى ان المهدى كلف بالمهدية لدرء هذه المخاطر (٤) .

وقد استبعد الدكتور هولت مثل هذه الاسباب ، أو على الاقل لم يتحمس لها كثيرا ، لأنها فى رأيه لا تبرر قيام الثورة فى المكان والزمان الذى ظهرت فيه ، ثم ذهب الى ان اسباب الثورة ترجع الى تقلص سلطة الخديوية وتضعضع مركزها بعد طرد الخديوى اسماعيل وتمرد الجيش على ابنه توفيق واتفاق ذلك مع الفراغ الهائل الذى خلفته فى السودان استقالة غردون من الحكمدارية (٥) . ولكن هولت يواجه طرفا واحدا من القضية وهو ضعف النظام الحاكم فى السودان ولا يفسر لنا الطرف الآخر وهو المسببات التى تجعل دواعى الثورة تتجمع حول محمد احمد وقرائه بالذات وبالاتجاه الذى ساروا فيه ، كما ان استقالة غردون وبقاءه مهما

---

(١) Theobald, A.B.:The Mahdiya, A History. of the Anlgo-Eyptian Sudan 1881 - 1858 (London 1959)

(٢) شكرى ، محمد فؤاد : مصر والسودان ، تاريخ وحدة وادى النيل السياسة فى القرن التاسع عشر ١٨٢٠ – ١٨٩٩ (القاهرة ١٩٥٨) ص٢٧٦ .

(٣) الشاطر بصيلى عبدالجليل : معالم تاريخ سودان وادى النيل من القرن التاسع عشر الميلادى (القاهرة ١٩٥٥) ص ١٦٤ ومابعدها .

(٤) الانوار السنية ص ٢٤٢ – ٢٤٣

(٥) Holt. P.M: A Modern History of the Sudan from the Funj Sultanate to Tte present day (London 1961) p. 76

كان الضعف السياسى الذى ترتب عليها ، لم تكن مما يثير انتباه فقير ابا كثيرا ويخلق فى نفسه مسببات ثورة . وفضلا عن ذلك فان دعوة محمد احمد كانت قد قطعت مراحلها الاولى وبدأت تستعد للحظة الحاسمة عندما انهى غردون خدمته فى يناير سنة ١٨٨٠

والقضية كما نراها هى ان النقاط التى اثارها الباحثون تصف فى جملتها الظروف التى تستدعى قيام ثورة أو خلق احتجاج عام ولكنها تقف دون ابراز الظروف الذاتية والملابسات التى جعلت محمد احمد دون غيره من الناس ممثلا لهذا الاحتجاج وقائدا للثورة على الاوضاع ،وبمعنى آخر فاننا محتاجون الى مزيد من الحقائق والبيانات عن حياة محمد احمد الاولى ومدى ارتباطه بالحياة العامة والى ابراز العوامل التى دفعت به من الحياة السلبية التى يمارسها المريد الصوفى الى الحياة الايجابية الهادفة الى بناء مجتمع جديد .

(٣) نشــأة المهــدى :

ولد محمد احمد بن عبد الله ، مهدى المستقبل ، فى بيت ينتسب الى اسرة تعرف بالاشراف حوالى سنة ١٢٥٨هـ / ١٨٤٣م ، وكانت لهذه الاسرة شهرة دينية محلية يبدو أنها نمت حول جدهم حاج شريف ، ولكنهم على اى حال قالوا بأنهم من نسل الرسول ، ومن المهم ان نذكر ان هذا القول كان معروفا عنهم قبل ان يظهر محمد احمد ويعلن المهدية ويجعل نسبه الى الرسول احد علامات مهديته . وكان والد محمد احمد يعمل بصناعة المراكب ، وقد هاجرت اسرته بعد مولده بقليل من موطنها بدنقلا الى اواسط السودان بحثا عن الاخشاب وجريا وراء اغراءات العمل نتيجة لرواج التجارة عموما وتجارة النيل الابيض بصفة خاصة . وقد فقد محمد احمد والده بعد ان بلغت الاسرة نواحى كررى ثم ما لبث ان لحقت به والدته . ولما حطت العائلة رحالها بكررى شمال امدرمان كان محمد احمد قد بلغ سن التعليم . وقد أظهر شغفا شديدا بالدراسة وميلا طبيعيا الى التدين ، وذلك بعكس اخوانه الذين واصلوا صناعة ابيهم الى ان جرفهم تيار الدعوة التى قام بها .

وقد تعلم محمد احمد القراءة والكتابة وحفظ شيئا من القرآن فى خلاوى

الخرطوم ثم درس العلوم الفقهية على يد الشيخ الأمين الصويلح فى مسجد ود عيسى ثم توجه الى بربر حيث قصد الشيخ محمد ضكير (١) عبد الله خوجلى بالغبش واكمل على يده حظه من العلوم النقلية . وقد اظهر محمد احمد فى هذه الفترة اخلاصا شديدا للدين واشتهر بين اقرانه بالزهد والتقوى والورع والولاء الخالص للاستاذ كما اظهر تبرما مبكرا من علاقة رجال الدين بالحكومة وقبولهم الجرايات التى تنفقها عليهم .

ويبدو ان تصرفات محمد احمد هذه قد خلقت له نوعا من التوقير واللمعان، ويدلنا على ذلك انه وجد الطريق ممهدا أمامه عندما انخرط فى سلك السمانية ، ويدلنا عليه ايضا ان بعض اقرانه فى خلوة الغبش قد انضموا الى حركته فيما بعد واعطوه ولاءهم الكامل ، ويأتى فى مقدمة هؤلاء استاذه محمد الخير الذى صار عاملا له على بربر ودنقلا وأحد دعامات المهدية . ومنهم ايضا عبد الرحمن النجومى قائد المهدية المشهور ، وابراهيم ضاوى من امراء المهدية بشرق السودان ، ومحمد احمد حاج عطوه ابن الولى المشهور ببربر ، وعبد الله التجانى كاتب المهدى وامينه ، والطاهر محمد التاتاى (٢) القاضى ومصنف مجلس المهدى المهم (٣) ، والحسن سعد العبادى مؤلف الأنوار السنية (٤) . وقد اشار الاخير الى هذه الواقعة فقال : «ولذلك مال اليه طلبة القرآن وتذكروه مع طول الزمن وعرفوه انه من المهتدين» (٥) .

انتقل محمد احمد من بربر وانضم الى طائفة الشيخ محمد شريف نور الدائم حفيد الشيخ الطيب فى سنة ١٢٧٧هـ / ١٨٦١م . ويزعم على المهدى (٦) انه انتسب الى هذه القبيلة قبيل رحيله الى بربر ، ولكن ليس هنالك مايؤيد أو ينفى هذا الزعم . وكانت الطريقة السمانية تعانى من خلاف خطير ، ذلك لأن الشيخين القرشى ود الزين والشيخ الطيب البشير اللذين اخذا الطريقة على يد الشيخ احمد الطيب ود البشير مؤسس الطريقة السمانية فى السودان والذى هو جد الشيخ محمد شريف قد اختلفا مع محمد

---

(١) عدل المهدى اسمه فيما بعد الى محمد الخير ، وقد عرف بهذا الاسم فى المهدية وفى المصادر المختلفة .

(٢) على المهدى : مخطوط فى تاريخ المهدية ، ص ١٢و١٥ ، نسخة مصورة من المخطوط ، محفوظة بدار الوثائق القومية .

(٣) انظر كلامنا عنه فى الفصل الثالث من الباب الرابع .

(٤) الانوار السنية ص ٤ ، ٨١

(٥) نفس المصدر ص ٨١

(٦) عبدالله محمد أحمد : «جهاد فى سبيل الله» ، ص ٤

شريف باعتبار ان لهما التقدمة بحكم انهما اخذا الطريقة على يد الشيخ احمد الطيب البشير . وقد صار النزاع بين هذه الاطراف شديدا وانقسم المريدون الى ثلاثة معسكرات. ولما كان الشيخان القرشي والبصير يعتمدان على سند واحد ، هو تلقيهما الطريقة مباشرة عن الشيخ احمد الطيب ويواجهان خصما لا يعترف لهما بوضعهما المستقل ، فان النزاع بين الشيخين وبالتالى بين مريديهما كان ضعيفا ، بل ان علاقة المصاهرة بين بيتى القرشي والطيب البصير قد خلقت نوعا من التعاون والوحدة . وقد كان لهذا اثر واضح فى ظهور المهدية ، اذ ان المهدى قد عبر عن طريق طائفة القرشي الى طائفة البصير بسهولة ويسر ، وصارت الطائفتان تكونان اساسا قويا له . اضف الى ذلك ان مكانة الشيخ القرشي تسمو لكونه هو الذى اجاز الشيخ نور الدائم فى الطريقة بعد وفاة الشيـــخ الطيب ثم محمد شريف نفسه بعد وفاة نور الدائم (١) ، فاستاذيته قوية ثابتة . لقد انضم محمد احمد الى الطائفة الأم ، طائفة محمد شريف ، وسار على المنوال الذى سار به عندما كان ببربر من زهد وعبادة وتقوى وولاء خالص حتى قيل انه كان يقوم بالخدمة المنزلية لشيخه مبالغة فى الولاء . وقد احتل مع مضى الوقت مكانة ممتازة فى نفس استاذه وبلغ نفوذه عنده مبلغاً عظيما حتى جعله فى سنة ١٢٩٢هـ/١٨٧٦م خليفة ورفع له راية واذن له بالتجول فى البلاد لاعطاء العهود وقبول المريدين (٢) . وتلك مرتبة عالية من مراتب الطرق الصوفية .

وكان محمد احمد واخوانه قد انتقلوا الى الجزيرة ابا فى سنة ١٢٨٦هـ/ ١٨٧١م . وكان من أولى خطواته واخطرها هناك ان أنشأ فيها خلوة ، وقد تخرج على يديه فى هذه الخلوة شخصيات كان لها فيما بعد خطرها . وقد تجمعت حول هذه الخلوة والمسجد الملحق بها شهرته فقصده الناس واعطته القبائل الضاربة حول ابا ولاءها الخالص . وقد انتقل محمد شريف فى السنة التالية الى العراديب القريبة من ابا بناء على اغراء تلميذه ، وكان من اثر اجتماعهما فى هذه المنطقة ان اشتد نفوذ طائفة السمانية التى يتزعمها محمد شريف فى منطقة النيل الابيض وبالأخص نفوذ محمد احمد الذى بلغت شهرته شأوا عظيما ، لا لكونه داعية من دعاة السمانية فقط وانما لاعتقاد الناس فيه هو شخصيا .

---

(١) الآثار الكاملة رقم ١

(٢) نعوم شـــقير ص ٣٢٣

على ان النجاح الذى صادفه المهدى كان سببا فى فصم العلاقات الحميمة التى ربطت بين الرجلين نحو اثنين وعشرين سنة . فقد وقع بينهما خلاف عميق فى ١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م ثم تطور الخلاف الى عداء شديد وطرد محمد احمد على اثره من طائفة الشيخ محمد شريف . ويزعم اتباع محمد احمد ان الخلاف يرجع الى غيرة محمد من المكانة التى خلقها محمد احمد لنفسه وولاء الناس له وتوقيرهم اياه فى حين يزعم محمد شريف ان محمد احمد قد افصح له عن مهديته وانه طرده بعد ان فشلت محاولاته عن اثنائه عنها (١) . ولكن زعم محمد شريف لا يمكن التسليم به ، أولا لأن قوله هذا صدر عنه فى معرض الهجوم على المهدى وتكذيبهوالذى رتبه عبد القادر باشا حكمدار السودان وحرض عليه العلماء ورجال الدين ومن بينهم محمد شريف ، وثانيا لأن فكرة المهدية لم يكن لها وجود فى ذهن المهدى فى هذا الوقت المبكر . ويروى نعوم شقير ان محمد شريف اقام له فى منطقة محمد احمد خليفة آخر اسمه رضوان وان بعض الحوادث قد نجمت عن تصادمهما(٢). وتشير واقعة هذا التعيين الى ان الخلاف بين الرجلين كان حول الاتباع والنفوذ اكثر من كونه خلافا حول المعتقدات الدينية كما أنها تؤيد الرأى القائل بأن محمد شريف لم يكن مرتاحا للنفوذ الذى أصابه محمد أحمد والمكانة التى حظى بها فى تلك المناطق . ولا يستبعد ايضا أن محمد شريف قد نظر الى هذا النفوذ من خلال التجارب والانشقاقات التى تعرضت لها طريقته على يدى القرشى والبصير وخشى ان يتبع محمد احمد طريقهما ويقيم طائفة مستقلة. واذا كان محمد شريف قد قصد ان يقضى على محمد احمد بطرده من الطريقة فان تقديره هذا لم يكن صائبا لأنه لم يعط اعتبارا كافيا لاحتمالات انتسابه للسمانية عن طريق الطائفتين المنافستين له .

ومهما كان الأمر فان الواقعة المباشرة كانت فيما يقال اثر حفل اقامه الشيخ محمد شريف بمناسبة ختان اولاده وجمع فيه خلقا كثيرا وسمح فيه بالرقص والطرب واجتماع الرجال والنساء . وقد اخذ عليه المهدى ذلك لكونه دليلا على انشغاله بالمظاهر الدنيوية واعتبر ذلك بدعة وفسادا حتى وان كان صاحبه شيخ طريقة . وقد

(١) نعوم شقير ص ٣٢٣

(٢) نفس المصدر ٣٢٣ – ٣٢٤

اغضب ذلك محمد شريف فوجه اليه حديثا قاسيا وطرده من الطريقة وشطب اسمه . ولما عاد اليه محمد احمد معتذرا تائبا لم يرض ان يغفر له هذه الذلة . ومن المهم ان نذكر ان محمد شريف لم يشر الى حادث الختان عندما تعرض لسبب خلافه مع محمد احمد .

وعلى اى حال فقد قدر لمحمد احمد ان يجتاز هذه المحنة وان يواصل تبعيته للطريقة السمانية التى احبها بفضل الشيخ القرشى ود الزين الذى جدد له العهد واعاده الى سلك الطريقة بالرغم من احتجاج محمد شريف ومحاولاته لاقصائه نهائيا . وقد عزز القرشى ذلك بان زوجه ابنته النعمة ، وهى التى ولدت له ابنه على المهدى . وقد بلغت مكانة محمد احمد فى نفسه مبلغا عظيما ، ويروى عنه انه صاحب فكرة المهدية وأنه هيأ ذهن المهدى لها ويقال انه قال : «اديته بنتى وفرسى وانا موعود انه فرسى ده يركبه المهدى ، وشيخته واديته الاجازة» . ولسنا ندرى ان كان القرشى قد أوصى له بالمشيخة على جماعته صراحة متفاديا ولده عبد الرحمن أو كان اختياره لها على يد اتباعه بعد وفاته نظرا لمكانته فى نفس استاذهم ومقدرته العالية ، ولكننا على اى حال نحتمل ان القرشى كان يشعر بالقلق حيال المشيخة بعده لأن ابنه عبد الرحمن كان صغير السن ، وبالطبع كانت المشيخة تحتاج لشخص مقتدر يواجه محمد شريف . وفى أواخر عام ١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م توفى الشيخ القرشى ومحمد احمد بعيد عن المسرح . وقد وفد محمد احمد الى الحلاوين بتلاميذه ومريديه فى أوائل سنة ١٢٩٨هـ/ ١٨٨٠م وشرعوا يبنون قبة فوق قبره . وفى اثناء ذلك اتاه رجل من الغرب قدر له ان يلعب دورا خطيرا فى تاريخ المهدية وهو عبد الله بن محمد التعايشى الذى سلف ذكره .

وكان محمد احمد مشغولا فى هذه الفترة بحركة اصلاحية ، وهى حركة لا نعرف تاريخ نشأتها على وجه التحقيق وان كنا نعتقد ، اعتمادا على طبيعة المواجهة بينه وبين محمد شريف ، ان جذورها ربما ترجع الى أواخر ايامه معه . وليست لدينا تفاصيل كثيرة عن هذه الحركة ، لأن المؤرخين قد أغفلوا الكلام عنها ولأن ما بلغنا من محررات المهدى فى هذه الفترة لا يعطى الا اشارات قليلة . ولكننا نعلم ان محمد احمد كان يزور الاقاليم ويدعو الناس الى الدين الحق ، وقد اشار هو نفسه

الى ذلك فى بعض محرراته . ويبدو من كل ذلك ان حركته كانت ذات اهداف دينية خالصة وانها كانت تخلو من الغرض السياسى . وكانت تقوم اساسا على لفت نظر الحكام ورجال الدين الى المفاسد الاجتماعية والانحطاط الخلقى وابتعاد الناس عن الدين وتوافقهم على البدع واجتماعهم عليها . وكان أسلوبه فى الدعوة هو اسلوب الواعظ الدينى ، وقد قامت الحركة اساسا على معللات دينية واخلاقية صرفة وكانت معتدلة المزاج ومتواضعة فى النداء .

(٤) اعلان المهدية ومسارها الى وفـــاة المهدى :

وفى منتصف سنة ١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م يبدو واضحا ان حركة محمد احمد قد دخلت فى طور جديد . فقد بدأ يعمل لبناء مجتمع دينى يأخذ مقوماته من المجتمع الذى اقامه الرسول وصحابته على ان يكرس جهده فى أول الأمر على بناء نواة له فى منطقه نائية . وفى هذا الوقت قام المهدى بزيارة موفقة الى كردفان حيث زار رجال الدين وأعيان البلاد ووثق صلاته بهم . وقد خلقت هذه الزياره آثارا واضحة فى الاوساط الشعبية . وفى طريق عودته من الابيض مر على بعض زعماء القبائل ووجد عندهم ترحيبا عظيما . وقد وقف محمد احمد اثناء هذه الزياره على التصدع الذى اصاب مجتمع كردفان اثر منافسات ذوى النفوذ والحروبات القبلية التى أدت اليها (١) . وقد استطاع ان يتخذ من ذلك ركيزة لدعوته ، ذلك لأن الشخصيات والقبائل المناوئة للحكومة بحكم موقفها من تلك الحركات قد وقفت معه وساندت حركته .

وفى ربيع الثانى سنة ١٢٩٨هـ/مارس ١٨٨١م اكتسبت حركته صفة المهدية بمقتضى الحضرات(٢) وهى صفة اخاذة ومليئة بالظلال ، وكان الناس على استعداد لتصديق هذا الأمر واتباعه لكثرة ما اصابهم من ظلم وما لحقهم من اذى ، ولأنهم كانوا قد بلغوا نهاية القرن ، وقد شـــاع ان القرن لا ينتهى قبل ان يأتيهم المنقذ الموعود . وقد كتب المهدى الى كثير من معـــارفه والى من يثق فيهم مبشرا اياهم بمهديته . وقد رد عليه البعض مؤيدا ، ومن هؤلاء محمد الطيب البصير والشيخ محمد الأمين

---

(١) انظر منازعات الياس ام برير واحمد دفع الله والحروبات القبلية بين النديات واعدائهم فى كتاب يوسف ميخائيل (غردون والسودان) ص ٧ .

(٢) مخطوط حيدراباد ص ٥ .

الهندى (١) ، والبعض الآخر معارضا . ومما يؤسف له اننا لم نقف على شئ من المحررات التى رد بها هؤلاء على المهدى . ويذكر نعوم شقير ان محمد سعيد باشا مدير كردفان قد وقف على عدد كبير من هذه المحررات واحرقها عندما ذهب الى ابا بعد خروج المهدى منها (٢).

ثم قام كذلك بزيارة ثانية الى كردفان ، وفى هذه المرة جدد صلاته مع الزعماء ورجال الدين ووضع الاحلاف والروابط الوثيقة بينه وبين الطوائف الناقمة على الحكومة ، وفى أثناء عودته من الابيض مر على قدير ووقع عليها الاختيار بصورة نهائية ليكون هدف الهجرة القادمة . وقد كانت لهذه الزيارة خطورة بعيدة ، ويمكننا أن نتصور ذلك من موقف الزعماء الذين اتصل بهم كالشيخ الياس أم برير ومحمدين العريق وابناء ابى صفية وابناء كنونة والمنا اسماعيل وموسى محمد الاحمر وعساكر ابوكلام والملك آدم عمر واحمد البدرى ، وقد أشار فى كثير من رسائله الى العهود والوعود التى قطعها الناس معه فى هذه الزيارة .

وبعد عودته من رحلة كردفان بدأ المهدى يباشر الخطوات العملية لأعلان الدعوة . وفي أول شعبان سنة ١٢٩٨ أخطر المهدى اصحابه بان النبى باشر تنصيبه مهديا بصورة نهائية في حضرة تمت فى هذا اليوم بحضور خلفاء الرسول الأربعة وجمع من الاولياء ، وانه كلف بالدعوة الى مهديته ، وقد بلغنا من وصف هذه الحضرة نسختان ، نسخة موجهة الى محمد الطيب البصير (٣) واخرى مختصرة عنها(٤) . وقد شرع المهدى يكتب النداءات لاتباعه ولكافة الطوائف داعيا اياهم للتجمع فى ابا وجعل رمضان موعدا لهم (٥) . وكان هدفه هو الهجرة من ابا الى قدير ذلك المكان الذى حدد سلفا ليكون مركزا لاقامة الدعوة . ويبدو انه كان قد رتب على ان يكون بدء الهجرة بعد رمضان مباشرة . ويلاحظ ان المهدى قد اختار هذه الفترة

---

(١) الآثار الكاملة رقم ٤٦ ، المهدية ١٥٦/١٥/٢ ، مخطوط على المهدى ص ١٥

(٢) نعوم شقير ص ٣٤٠ .

(٣) الآثار الكاملة رقم ١٥

(٤) نفس المصدر رقم ١٦ .

(٥) نفس المصدرر رقم ١٨ .

بالذات لبدء هجرته لأنها موسم الأمطار الذى لا تسهل فيه مطاردة الحكومة له في حين يجد هو وأتباعه الماء اينما حلوا .

ولكن حدث تطور خطير ، فقد وقفت الحكومة على ما يهدف اليه المهدى ، وتأكد لديها ما كانت تستبعده ، فأرسل الحكمدار محمد رؤوف باشا معاونه ابا السعود بك على رأس قوة ليستدرج المهدى الى الخرطوم ، وارسل فى نفس الوقت خطابا الى المهدى يذكر فيه ما بلغه عنه وانه يستبعد ذلك ويعده وشاية من اعدائه (١) . ولسنا نعرف ان كان ابو السعود قد حمل معه هذا الخطاب ام انه ارسل بطريقة اخرى . وقد بلغ ابو السعود ابا فى ١١ رمضان سنة ١٢٩٨هـ/ ٧ أغسطس سنة ١٨٨١م وحاول استدراج المهدى ، ولكنه ادرك ان الأمر غير ما توقع وعاد ليخبر رؤوف برفض المهدى وادعاءاته وتأكيداته وبعزمه المعلن بالقضاء على الترك .وفى نفس الوقت ارسل المهدى برقية الى الحكمدار يرد فيها على خطابه السالف الذكر مؤكدا انه المهدى المنتظر وأنه ولى الأمر ومعلنا عن عزمه على القضاء على الترك بحد السيف (٢). فما كان من رؤوف الا أن ارسل ابا السعود نفسه على رأس قوة ليجبر المهدى على المجيء الى الخرطوم والقضاء على حركته فى المهد . وقد بلغ ابو السعود ابا فى ١٦ رمضان سنة ١٢٩٨هـ / ١ أغسطس سنة ١٨٨١م ، ووقعت الواقعة الاولى بين قوات الحكومة وبين انصار المهدى وكان النصر فيها حليف المهدى وانصاره .

أما عن رد فعل اجراءات الحكومة فى معسكر المهدى فقد كان قويا وحاسما . فقد خرج المهدى عن غار التعبد الذى لازمه منذ ان حل رمضان غداة مجيء ابى السعود الأول وأرسل لدغيم وكنانة والعمارنة فأتوه فى اليوم التالى واخذوا البيعة على المهدية ، وكانت تلك أول بيعة علنية . ثم توافد المحبون من جهات اخرى بعد ان علموا بما وقع . وهكذا دفعت الحملتان بعجلة المهدية الى الامام . وقد كان لحملتى ابى السعود وترقب حملات اخرى مفعول قوى فى نجاح الهجرة : اذ تحتم على المهدى واتباعه والقبائل المناصرة ان يخرجوا بسرعة وقبل ان تنتقم الحكومة منهم ، وليس

---

(١) انظر اشارة المهدى الى المكاتبة التى وردت اليه من الحكمدار فى مقدمة تلغرافه الى الحكمدارية، انظر الآثار الكاملة رقم ٢١ .

(٢) الآثار الكاملة رقم ٢١ .

احد يعرف ما كان يصير اليه موقف القبائل من الهجرة الى الغرب ان لم تشعر بالخطر عليها وعلى شيخها المهدى وتأخذهم الحمية التى اثارتها الواقعة . وفى نفس الوقت فان انتصار المهدى بقواته البسيطة على قوات الحكومة قد دعم موقفه ورفع من معنويات اتباعه وتناقل الناس خبر هذا الانتصار واعتبروه كرامة من كرامات المهدى ودليلا حيا على صدق مهديته .

وفى اليوم التالى لواقعة ابا عبر المهدى واصحابه النيل الى الغرب ، وقد وافاه هناك بعض عربان دغيم وكنانه والحسنات وبدأ الجميع الهجرة الى قدير عن طريق دار الاحامدة . وقد اتخذت الحكومة اجراءات سريعة للحيلولة دون وصولهم الى جبال النوبا والقبض على المهدى ، فأعدت مطاردة بقيادة محمد سعيد مدير كردفان ولكن المطاردة فشلت بفضل موالاة الاهالى للمهدى ومعاونة زعماء القبائل له ، ولعب فى ذلك الملك آدم عمر ملك جبال تقلى دورا خطير مستغلا استقلال مملكته الذاتى . وليس من المستبعد انه بالاضافة الى مناصرة المهدى قد قصد أن يؤكد استقلاله ذلك . وبعد أن افلت المهدى من المطاردة واجه موقفا معاديا فى جبل الجرادة يقوده فقيه يدعى المختار ولكنه قضى عليه دون صعوبة . وفى ٧ ذى الحجة ١٢٩٨هـ / ١ نوفمبر سنة ١٩٨٨١م وصل المهدى جبل قدير ورحب به مكها ناصر .

تركت هذه الهجرة اثارا عميقة فى حركة المهدية ، اذ تبع انتقال مركز الثقل من المناطق النيلية الى الغرب أن ارتفعت أهمية المناطق الغربية بينما صارت المناطق النيلية تلعب دورا ثانويا بالقياس الى الغرب . وقد أفلت شخصيات لعبت أدوارا رئيسية فى المراحل الأولى للمهدية كالشيخ محمد الطيب البصير بينما صعدت شخصيات اخرى من الغرب كالخليفة عبد الله ، وفى نفس الوقت انخفض نفوذ السمانية بدرجة بعيدة كما خلا الجو من اثر علاقات الجزيرة وارتباطاتها ، وقد ساعد هذا فى التخلص من تأثيرات الطرق الصوفية وعجل بالغائها . وصار الغرب المنطقة التقليدية والمعقل الرئيسى لأنصار المهدى ، وبفضل وجود القيادة فيه امتدت الثورة الى الامتدادات الطبيعية كبحر الغزال وجنوب دارفور فى وقت مبكر . ومن الناحية الحربية وجد المهدى الظروف الطبيعية فى قدير ملائمة للخطة الدفاعية التى سار عليها فى مرحلة قدير . وقد كان للهجرة موقعها من الناحية العقائدية ، ذلك لأن بعض الأقوال

الواردة عن المهدى المنتظر تذهب الى انه يظهر فى جبل ماسا بالغرب . وقد زعم المهدى ان بجبل قدير جبلا يسمى ماسا وانه هاجر اليه بأمر من الرسول ، ومن هنا حاول ان يربط هجرته من ابا الى قدير بعلامة من علامات المهدية فى بعض الاقوال وهى ظهور المهدى فى ماسا .

وبعد ان وصل المهدى الى قدير قام راشد ايمن مدير فاشودة بحملة غير مأذونة من الحكمدار قصد ان يفاجئ بها المهدى ، ولكن اخبار الحملة قد بلغت المهدى فى الوقت المناسب فأبيدت الحملة . وكانت الحكومة المصرية غير قادرة على ارسال قوات الى السودان لظروف الثورة العرابية فرفعت رؤوف باشا عن الحكمدارية وعينت عبد القادر حلمى . وقد تولى القيادة فى الفترة بين سفر رؤوف ومجئ خلفه جيقار باشا ، وقد اعد هذا جيشا قويا بقيادة يوسف الشلالى للقضاء على المهدى . وقد التقى هذا الجيش بقوات المهدى فى واقعة قدير الثانية فى ١٢ رجب سنة ١٢٩٩هـ وانجلت المعركة بانقراض جيش الشلالى . وقد اتخذ المهدى هذا التاريخ بداية لتطبيق احكامه (١) . وكنتيجة لهذا الانتصار صارت منطقة كردفان تحت رحمة المهدى كما اظهر الثوار فى الجزيرة والنيل الابيض مزيدا من النشاط . وقد سرت أنباء الانتصار على طول البلاد وعرضها فازدحمت الدروب وامتلأت الطرق بالآلاف التى تقصد المهدى .

وفى قدير وضع المهدى الخطوط الاولى لتنظيماته فعين له رجالاً فى الاقاليم التى دخلت فى طاعته وسماهم الخلفاء وأرسل آخرين الى اطراف البلاد ليؤلبوا الناس ويقودوا الثورات . اما الجيش فقد قسم الى ثلاث وحدات كبيرة : كانت الأولى هى الراية الزرقا بقيادة الخليفة عبد الله وهى تتكون من أهل الغرب ، والراية الخضرا وهى راية الخليفة على الحاو التى تتكون من دغيم وكنانة والحسنات والعمارنة ، والراية الحمرا وهى راية الخليفة محمد شريف ويأتى تحتها اهل النيل . وكانت هناك الراية البيضا وهى راية القيادة التى يحملها اخوه محمد عبد الله . ولسنا نسمع فى هذا التنظيم خبرا عن الراية الصفرا . وقد جعل لكل خليفة وكيلا فى الراية . وانشأ بيت المال وجعل عليه صديقه احمد سليمان المحسى ، وسمى احمد جبارة قاضيا

---

(١) الآثار الكاملة رقم ١٠٨ .

للاسلام ، وجعل احمد ولد الامام الحلاوى أمينا للسلاح وعبد الله التجانى امينا لديوانه ورتب نظم الكتابة على الوجه الاسلامى .

وفى رمضان ١٢٩٩هـ زحف المهدى نحو الابيض . وكان دعاته قد البوا القبائل المختلفة وحملوا على النقاط الحكومية ونجحوا فى الاستيلاء على بعضها . وقد هزت هذه الحوادث موقف الحكومة فى المنطقة كلها واضحى واضحا ان ان المراكز الكبيرة الباقية تصارع طوفانا لا قبل لها به . وقد تضافرت اسباب كثيرة عاونت دعاة المهدى ، منها الصراع بين الياس ام برير واحمد دفع الله وما تبع ذلك من الحروب القبلية ، وقد مال الياس ام برير وحزبه الى صف المهدى بينما بقيت الجبهة المعارضة له فى صف الحكومة . ومن اسباب ذلك اتصالات المهدى السالفة ، ومنها اثر انتصاراته السابقة فى نفوس الناس . ولما بلغ المهدى تخوم الابيض ارسل الى اهلها انذاره المشهور (١) وعلى اثره خرج الياس وحزبه ولحقوا بالمهدى بينما تحزب الباقون ودخلوا المنطقة المحصنة من المدينة . وفى يوم الجمعة ٨ سبتمبر هجم المهدى هجوما عاما على المدينة ولكنه ارتد منهزما بعد معركة حامية ، وعلى الأثر ضرب حصاراً حول المدينة . كذلك حاصر الانصار بارا التى استبسلت فى الدفاع . وقد دام الحصار الى ان سلمت بارا ثم سلمت الابيض . وبسقوط الابيض صارت كردفان كلها تحت حكم المهدى بينما انعزلت دارفور عن الخرطوم .

وبعد سقوط الابيض اجرى المهدى بعض التعديلات فى جهاز نظامه فقرن خلافة كبار اتباعه بخلافة الخلفاء الراشدين واصدر كثيرا من المنشورات التنظيمية . وقد ركز كثيرا من السلطات فى يد الخليفة عبد الله الأمر الذى أثار حفيظة اتباع كثيرين وخلق خلافات كثيرة . وكان من المهديين الذين ذهبوا ضحية هذه الخلافات الشيخ المنا اسماعيل . وقد تعمقت العداوة بين الخليفة عبد الله والاشراف اثر السلطات التى اعطيت له وصار هذا العداء من اخطر العوامل التى عملت على هدم المهدية . وفى المجال الخارجى اتصل المهدى بالسنوسى فى جغبوب بليبيا وعرض عليه المنصب الثالث من مناصب الخلفاء وحاول ان يستغل هذا العرض لجذب اتباعه فى منطقة وداى وان يهجم على مصر من الغرب .

---

(١) الآثار الكاملة رقم ٥١ .

وكانت منطقة الجزيرة والنيل الابيض معقلا للحركات المناصرة للمهدية ، وقد بدأت الحركات عندما قاد عامر المكاشفى هجوما موفقا على مدينة سنار غير المحصنة وأوشك أن يحتلها لو لا انه جرح واضطر الى الانسحاب . وقد تبعتها حركات اخرى كحركة الشريف احمد طه ومحمد زين الفلاتى وود الصليحابى وود برجوب . ولم تفلح هذه الحركات فى طرد قوات الحكومة من المنطقة . ومن الطريف ان مدينة سنار التى كانت هدفا لأول هجوم فى المنطقة وأوشكت ان تقع وقفت تصارع حتى بعد سقوط الخرطوم . وفى نفس الوقت لم تفلح الحكومة فى القضاء نهائيا على الثورة . وربما كانت أهمية حوادث هذه المنطقة بالنسبة لحركة المهدية ككل هى أنها بعثرت جهود الحكومة وشغلتها عن توجيه ضربة قاضية الى المهدى فى مقره .

وفى نفس الوقت كانت الثورة فى مصر قد اندحرت ودخلت القوات البريطانية مصر وصارت لبريطانيا الكلمة الاولى فى الشئون المصرية . اما بالنسبة للسودان فقد أعلنت بريطانيا انها لن تتدخل فى شئون السودان . ومع ذلك أرسلت بريطانيا بعثة استيوارت للسودان لتقصى الحقائق كما اختير الجنرال هكس وهو ضابط بريطانى متقاعد رئيسا لأركان حرب القوات بالسودان . وقد استجد العزم على القضاء على المهدى واعدت حملة ضخمة يقودها هكس باشا .

استهل هكس نشاطه بضرب الثوار فى الجزيرة والنيل الابيض ، وقد نجحت جهوده فى تحطيم شوكة الثوار ، الا أنها لم تغير من معنوياتهم والعطف الشعبى الذى يحظون به شيئا . ولما تقدمت قوات هكس الى الغرب ظهر انها تشق طريقها فى منطقة معادية ، الأمر الذى خلق لها متاعب لا حد لها . وكانت الحملة تعانى من انقسام خطير بين هكس واعوانه كما ان قلة المياه ومتابعة قوة من اتباع المهدى ومناوشاتها قد حطمت معنوياتها . وقد التقت الحملة بقوات المهدى فى شيكان فى ٥ نوفمبر سنة ١٨٨٣م وابيدت ابادة تامة .

كانت لواقعة شيكان نتائج خطيرة . فقد تركز نفوذ المهدى فى الأقاليم الغربية أكثر من ذى قبل ، وقد ارسل بعد الواقعة مباشرة قوة بقيادة محمد خالد زقل للاستيلاء على دارفور فاستولت عليها دون صعوبة نتيجة لانعزالها عن الخرطوم منذ مدة طويلة

ولتدهور الاحوال فيها اثر ثورات اتباع المهدى وخاصة الرزيقات . كذلك أرسل المهدى قوة بقيادة كرم الله كركساوى الى بحر الغزال التى كانت فى ثورة دائمة منذ ان اخذ بعض زعماء الدينكا البيعة عندما كان المهدى فى قدير . وقبل واقعة هكس لم يبد المهدى عزما للزحف على الخرطوم وانما كان ينظم جهاز حكمه ويركز نفسه . ولكن اضحى واضحا بعد هزيمة هكس أن الطريق امامه صار ممهدا . وقد بدأ بالفعل يستعد لهذا الزحف وارسل للشيـــخ العبيد بدر وجملة من زعماء المناطـــق المجاورة للخرطوم لمحاصرة الخرطوم . ومن ناحية اخرى اهتزت الدوائر الحكومية بوقع الواقعة وهجرت بريطانيا سياسة عدم التدخل وبدأت تطالب بالاخلاء .

وفى هذه الظروف ولدت مهمة غردون التى يدور حولها كلام طويل . وقد جاء غردون وهو يبشر بسياسة الاخلاء وتسليم الأمور للسودانيين وتعيين المهدى سلطانا على كردفان ، ولكنه انحرف بسرعة مع تيار الحوادث وصار يعمل للقضاء على المهدى .

وبعد مجيء غردون الى الخرطوم انتشرت الثورة فى منطقة بربر ونواحيها بقيادة محمد الخير عبد الله خوجلى استاذ المهدى . وقد افلح دعاة المهدى بالفعل فى احتلال بربر والمتمة وغيرها من المدن . كذلك ارسل المهدى بعض اعوانه الى دنقلا ولكن المحاولة فشلت بمقتل قائدهم .

امـــا فى شرق السودان فقد تكاتف المجاذيـــب مع المهـــدى وتحالفوا معه لموقفهم المعادى للحكومة وخلافهم مع الختمية . وقد ارسل المهدى عثمان دقنة اميرا على شرق السودان فاستنفر البجة وقاد ثورة ناجحة . وقد بدأ اعماله الحربية بسنكات التى هجم عليها دون ان يوفق ثم حاصرها وافلح فى الحصار حتى أبيدت قواتها وهى تحاول الانسحاب . وفى سنة ١٨٨٣ هزم قوة بقيادة طاهر باشا ثم حاصر طوكر وأسقطها . وفى سنة ١٨٨٤ هزم قوة بقيادة بيكر فى التب . وقد تمت له السيطرة على شرق السودان ولم يبق للحكومة الا سواكن ، وقطع الطريق بين سواكن وبربر واضحى من المستحيل ان ترسل القوات المصرية عن هذا الطريق .

أكمل المهدى استعداده وخرج من الابيض زاحفا على الخرطوم ، وقد توقف

فى الرهد وانشغل لفترة بحرب الداير التى كانت قد بدأت وهو فى الابيض ، وقد تكبدت قواته خسائر فادحة . وفى نفس الوقت منى العبيد بدر والمحاصرون معه لمدينة الخرطوم بخسائر فادحة ، وقد طلبوا على الأثر العون من المهدى فأرسل ابا قرجة بعد ان سماه امير البحرين فاسرع الى الجزيرة حيث كان صالح المك محاصرا فـى فداسى فسلم له الأخير وقواته . ثم توجه الى الخرطوم وضرب حصارا حولها . وبعد ذلك بقليل أرسل المهدى النجومى وعبد الله النور فأحكموا الحصار .

وقد بلغ المهدى نفسه تخوم الخرطوم بقوات هائلة . وبعد ذلك بقليل سقطت نقطة امدرمان . وفى هذه الاثناء ظهرت فى انجلترا فكرة انقاذ غردون وتقدمت حملة انجليزية مخترقة صحراء البيوضة ونجحت فى الوصول الى النيل بعد ان هزمت قوات المهدى فى ابى طليح . وعلى الاثر ظهر رأيان فى معسكر المهدى يدعو احدهما الى فك الحصار عن الخرطوم والتقدم شمالا لمواجهة الحملة الانجليزية بينما يدعو الثانى الى الهجوم على الخرطوم وفتحها عنوة حتى ينصرف الأنصار بعد ذلك بكلياتهم لمواجهة الحماة ، وقد تغلب الرأى الثانى . وكانت الخرطوم تعانى ضيقا شديدا منذ ان استحكم الحصار وبقيت تصارع ظروفا عصيبة وهى فى انتظار الحملة القادمة ، وقد كان من المقدر لها ان تسقط منذ زمن لولا هذا الأمل . وفى ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥ نجح الانصار فى هجومهم على المدينة واحتلوها ، وبسقوط المدينة ومقتل الجنرال غردون لم يبق للحملة هدف فعادت مسرعة الى الشمال .

وبعد سقـوط الخرطوم انصـرف المهـدى ومساعـدوه بجد الى العمل . وكعهدنا بهم بعد كل واقعة كبيرة انصرفوا الى التنظيم الداخلى واعطوه قسطا كبيرا من اهتمامهم . وقد اقبل المهدى يحرر المنشورات الطويلة ويعيد النظر فى بعض محرراته السابقة محاولا استجماع نظرياته وآرائه وتحديد اهدافه البعيدة وتقريبها الى اتباعه . ولكن من المؤسف ان هذه المحاولة لم تتم بسبب وفاته المفاجئة . وقد استقر رأى المهدى على ترك مدينة الخرطوم فانتقل الى امدرمان بالجانب الغربى المواجه للخرطوم وسماها البقعة المباركة جريا على عادته فى كل مكان يستقر فيه ، وقد كان ذلك بدء امدرمان الحديثة .

وكانت هناك تحركات سريعة فى الصعيد الاقليمى . فقد ارسل المهدى حمدان ابو عنجة على راس قوة كبيرة الى جبال النوبا ، وارسل محمد عبد الكريم وقواته

الى سنار وأرسل وفدا مكونا من ثلاثة رجال ليباشروا احتلال مدينة كسلا حسب رجاء اهلها. وفي الشمال ندب محمد الخير على دنقلا وفتحها بينما استدعى النجومى من الشمال بصفة مؤقته للاشتراك فى حصار سنار .

وفي صعيد العلاقات الخارجية بدأ المهدى يستعد للفتوحات بعد أن استيقن ان الأمر قد استتب له داخليا . وقد سلك فى ذلك مسلك التبشير والدعوة بالتراسل ، فراسل خديوى مصر واهلها وعلماءها وامبرطور الحبشة واهالى مراكش وفاس ومالى وشنقيط بموريتانيا . وكان قد خاطب السنوسى فى ليبيا وحياتو بن سعيد فى سوكوتو من قبل . وقد جاء وفد من الحجاز فى أواخر أيامه فعين لهم عثمان نور الدين والى الحرمين عاملا على الحجاز (١) .

وفى آخر شعبان سنة ١٣٠٢هـ/ ١٤ يونيو سنة ١٨٨٥م وجه المهدى خطابا (٢) الى اتباعه يحثهم فيه على الاقبال على الله وترك الأغراض الدنيوية والا يتصل به احد لشأن من شئون الدنيا . ومن ثم دخل الخلوة واقبل على العبادة يتفرغ لها ، وقد كان ذلك بمثابة وداع نهائى للدنيا ومشاكلها ، اذ قد اصابه المرض بعد ايام ثم افضى به الى الموت فى الثامن من رمضان ١٣٠٢هـ/٢٢ يونيو ١٨٨٥م . وفى نفس اليوم آل الأمر الى الخليفة عبد الله الذى اتخذ لقب خليفة المهدى . ولم يكن هناك اعداد سابق متفق عليه لمثل هذا التخليف ، ولكن ظروف الوفاة غير المتوقعة والنفوذ الواسع الذى كان يتمتع به الخليفة عبد الله وضعف الاشراف وعدم استعدادهم قد سهلت له الأمر . وقد ظن فيما بعد ان نظام الخلافة المقرونة بخلافة الخلفاء الراشدين كان بمثابة اعداد للتتابع فى الحكم بعد المهدى ولكن الواقع ان نظام خلافة الخلفاء كان نظاما يقوم اساسا على المراتب الدينية الشرفية ثم تبع ذلك الوظائف التنفيذية فى الجيش والادارة (٣). وان وثيقة التنصيب التى اذيعت بعد ارتقاء الخليفة لتؤكد انهم لم يتطرقوا الى أمر الولاية بعد المهدى الا فى اليوم السابق لوفاته .

---

(١) الخليفة عبدالله الى حذيفة بن سعد الاحمدى فى ٢١ شوال سنة ١٣٠٣ ، صادر رقم ٥ ص ٢٧ — ٢٨

(٢) الآثار الكاملة رقم ٨٤٣ .

(٣) راجع : الخلافة وولاية العهد فى المهدية للمؤلف . أنظر أول منشور الشعرة فى تحقيقنا لمخطوط توشكي (النجومى) صفحة ٣٥١ . وسوف نشير الى المصدر الاخير فيما يلى بقولنا : توشكي.

الخليفة عبد الله وعصره :

كان الخليفة من طينة غير طينة المهدى . لم يكن عالما ولم يكن ليرتقى الى شئ مما وصل اليه الا لكونه مريدا وصديقا مخلصا للمهدى . وبالتالى فانه كان يفتقر الى عنصر القداسة التى كانت تربط بين المهدى والجماعات البشرية المتنافرة . وربما كان هو نفسه يحس بهذا الضعف (١) . الا انه كان ممسكا بالجهاز ، ولسيطرته على الجيش كان كل شئ طوع يده . ولم يكن ممكنا فى هذا الجو ان يخرج احد بتقديم نفسه . وفى الصعيد النظرى قدم الخليفة حججا كثيرة يدلل بها على استمرار العون الالهى وكونه حائزا على البركات وركز القول على الوراثة المصطفوية والوراثة المهدية والاسوة النبوية والحمالة الالهية والوراثة النبوية ووارث المقام النبوى وهى مدلولات تعنى شيئا واحدا هو التطابق بين المهدى والرسول فى الخلق والسيرة والتصرف واندراج زمن الثانى من زمن الأول وموافقة الاحكام الخ . والنقطة الهامة هى موت النبى وقيام الصحابة بعده بالفتوحات ونشر الاسلام . وبالتالى فان المهدية مستمرة ولم تقف بوفاة المهدى وسيقوم اصحابه بقيادة الخليفة عبد الله قدما بالفتوحات . ولقد راج القول بها فى السنوات التالية لوفاة المهدى ثم اختفت بعد ان تدعم مركز الخليفة عبد الله . وقد احتج هو وكبار الانصار بأن صحابة الرسول قد تابعوا الفتوحات ونشروا الاسلام بعد وفاة النبى ، وهو امر يطابق ماهم بصدد القيام به ، كما ان الخليفة ظل ينشر على الناس اقوال المهدى عن مكانته وتقريظه له واكباره لمقامه واجلاله . وقد كان من أثر ذلك الاهتمام بمحررات المهدى فى هذا الموضوع وطبع عدد منها بمطبعة الحجر .

وفى نفس الوقت اقترنت وفاة المهدى بانتهاء دائرة الفتوحات المتوقعة فى انحاء السودان وجعلت الثوار يسألون انفسهم عن ثمن جهادهم ويبحثون عن المهدية التى ثاروا من أجلها . وقد اختلف الناس فى هذا الموضوع اختلافهم فى المشارب ومطالب الحياة ، وقد تصور كل فرد ان المهدية لابد ان تعالج مشكاته وان ترد مظلمته الخاصة وتأتيه بكل مطالبه : كان هناك من ينتظرون العدل المطلق ، وكان هناك من ينتظرون رغد العيش . وصاحب الأرض الذى هجر أرضه بسبب جور الترك ظن ان العدل ان تعاد اليه ارضه . والتاجر الذى تظلم من فداحة الضرائب تصور ان رفع الضرائب هو

(١) انظر أول منشور الشعرة فى توشكي ص ٣٥١ .

العدل . والعربان اتخذوا قولهم : « ميه فى التربة ولا ريال فى الطلبة »شعارا . وبأختصار فان الدوافع الذاتية والمظالم المتعددة قد بدأ البحث عنها . انها وقفة يسأل فيها الانسان عن نفسه وسط الزحام أتاحتها وفاة المهدى المفاجئة .

وفى عهد الخليفة اشتد التطاحن الدولى حول افريقيا . وقد واجه الخليفة الانجليز والمصريين من الشمال والشرق ، وواجه الايطاليين من اتجاه اريتريا ، وجاء الانجليز من يوغندا والبلجيكيون والفرنسيون من الجنوب الغربى . اما صراع الخليفة مع الحبشة فقد كان امتدادا للصراعات المحلية ، ولم يكن طرفا من التطاحن الاوربى . ومما يلفت النظر ان الصراع السودانى الحبشى قد خف اواره نتيجة لاشتداد التطاحن الاوربى وانتهى الأمر بتسويته تسوية نهائية تحت ضغط هذا التوغل الاوربى ، وفى الحدود الغربية ورث الخليفة مشاكل الحدود والعلاقات بين دارفور والاقاليم الواقعة الى الغرب .

مشكلـــة الاشـــــراف :ـ

كانت مشكلة الاشراف اولى المشاكل التى واجهها الخليفة عبد الله وكانت اكثرها حساسية . لقد تحفز الاشراف للانقضاض على الحكم ودبروا امرهم الا ان الخليفة احتاط لنفسه وواجه تدبيرهم بحنكة . وضع الاشراف آمالهم فى قريبهم محمد خالد زقل عامل عموم دارفور والذى كان فى طريقه الى الشرق بناء على طلب الخليفة والحاحه ، وقد قيل أنهم بدأوا يراسلونه ويعدون منطقة الجزيرة له ولجيشه . ولكن الصورة لا تبدو كاملة ، فنحن لا نعلم ان كان محمد خالد حقيقة على اتفاق معهم لتنفيذ مثل هذه الخطوة ، بل يبدو من تصرفاته انه كان يفكر فى نفسه والحياة التى تنعم بها فى دارفور ، ولذلك بادر بتسليم نفسه عندما بدر له ضياع ما كان له دون أن يبدى شيئا يدل على ارتباطه بانقلاب معد . كذلك يلاحظ ان جزءا كبيرا من قوات محمد خالد كان من ابناء الغرب الذين لايطمأن الى ولائهم فى هذه الحالة .

وعندما بلغ الخليفة مابات عليه الاشراف اسرع فعين احد مقربيه على الجزيرة وقطع الاتصال بين العاصمة والغرب وأرسل امــين سره المدثــر ابراهـيم الحجاز ليدبر الأمر مع حمـــدان عامل جبال النوبا الـــذى كلفه بتصفية قوة محمد خالـــد . وقد تمت التصفية فى بارا فى ابريل ١٨٨٦م وارسل محمد خالد اسيرا الى العاصمة .

وفى الشهر التالى استولى الخليفة على سلاح الخليفة على الحلو والخليفة شريف والحق حرسيهما بالراية الزرقا . وفى نفس الوقت بدأ الخليفة يتخلص من قواد المهدى وولاته لكونهم من أهل البحر الذين لايطمئن اليهم وعين فى مناصبهم اقرباءه البقارة . ولما أكمل الخليفة من حكمه عاما واحدا كان هنالك وال واحد فقط من ولاة المهدى وهو عثمان دقنة الذى لم يكن من سبيل الى الاستغناء عنه . ان صراع الخليفة والاشراف قد تجدد فى نوفمبر عام ١٨٩١ ، وقد كان الدافع لذلك هو شعور الاشراف بان حقهم ضائع وان الخليفة شريف لم يعد له امر . وقد دبروا مؤامرة للقضاء على الخليفة ، ولكن سرهم انكشف وبلغ امره مسامع الخليفة وأوشك ان يقع صدام مسلح بين الجانبين لولا ان الخليفة لجأ للحيلة والتدبير . وهنا لعب الخليفة على الحلو دورا رئيسيا لفض النزاع . وقد قيل فى ذلك انه كان يخدم قضيته مع قضية الخليفة ، اذ كان من مصلحته ان يكون تتابع الولاية حسب تتابع الخلفاء . ولكن موقفه من النزاع يبدو طبيعيا على ضوء اتجاهاته الدينية . وفى النهاية اتفق الجانبان على ان يسلم الاشراف سلاحهم ، وان يكون للخليفة شريف مقامه لدى الخليفة . ولكن الخليفة قبض بعد قليل على زعماء الحركة وأرسلهم للزاكى طمل فى فاشودة فقتلوا هنالك على يده ، وكان منهم احمد سليمان أمين بيت مال المهدى وفوزى محمود كاتب المهدى واحمد النور كاتب الخليفة شريف . وفى مارس سنة ١٨٩٢ اودع الخليفة شريف فى السجن بعد ان ادانه مجلس من العلماء لتوقفه من الصلاة فى المسجد . وتعتبر وثيقة الادانة التى صدرت عن هذا المجلس من اقوى الوثائق السياسية التى حررت فى المهدية (١) . وقد ظل الخليفة شريف فى سجنه حتى اطلق سراحه اثناء تقدم حملة الفتح . وعلى اثر هذه الفتنة والقضاء عليها طارد الخليفة عبد الله الدناقلة وبقية ابناء البحر المقيمين فى كردفان كما صفى الجزيرة من الاشراف .

لم يكن نزاع الاشراف هو القضية الوحيدة التى دارت حول الخلافة ، ففى سنة ١٨٨٦م ظهر فى القلابات فكى يدعى انه نبى الله عيسى المرتقب بعد المهدى . وقد وجد ادعاؤه اقبالا الى الحد الذى جعل بعض اوائل اتباع المهدى يتبعونه ، ومن ذلك ان الروايات تذهب الى ان يونس الدكيم عامل عموم الجهة نفسه كان يميل الى تصديقه .

---

(١) منشورات المهدية ص ١٠٥

وقد انزعج الخليفة لهذا الحادث انزعاجا شديدا فحكم على رؤسائه بالاعدام كما انه حرر الوثائق الكثيرة لدحض الفكرة (١) ، وفى ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٧–١٨٨٨م ظهر رجل بالقرب من الاضية يدعى انه ولى ، ووعد بالقضاء على المهدية ، الا انه قضى عليه (٢). وفى سنة ١٨٨٩ ظهر شخص آخر يدعى خلافة عثمان بن عفان ، وهو المعروف بأبى جميزة ، وخلق للخليفة متاعب كثيرة واوشك أن يفوز بدارفور لولا وفاته المفاجئة وهزيمة اتباعه من بعده . وكان المهدى عندما وضع نظام الخلافة المقرونة بخلافة الخلفاء الراشدين قد عرض خلافة عثمان بن عفان — اى مرتبته— على محمد المهدى السنوسى ، زعيم الطائفة السنوسية بجغبوب ، فرفضها السنوسى ولكن دون ان يبعث اليه برد مكتوب . وقد ظهر أبو جميزة هذا فى المناطق التى تتبع طريقة السنوسى تقليديا ، ومن هنا ظن وقتئذ انه مكلف من قبله لمحاربة المهدية الا ان ذلك لم يثبت ، ويبدو ان ذلك من فعل ونجت ومخابراته . وعلى العموم فان اعتقاد الناس بظهور النبى عيسى بعد المهدى قد مهد للكثيرين بادعاء هذا المنصب وخلق متاعب كثيرة للخليفة ، ويمكننا ان نحس بحساسية هذا الموضوع بالنسبة اليه من انزعاجه من عيسى القلابات . وقد واجهت الادارة الثنائية نفس االمتاعب من جراء هذا الاعتقاد .

الثــورات القبليــة :—

تمثل الثــورات القبلية التى واجهت الخليفــة عبدالله الصراع التقليــدى بين القوات المحلية والقوة المركزية . وتاريخ السودان ملىء بمثل هذه الثورات ولكن الصورة هنا اعمق لسببين أولهما ان المهدية بطبيعة اهدافها كانت ضد التنظيمات القبلية والاقليمية وثانيهما ان القبائل كانت ضد سياسة الهجرات الجماعية للعاصمة التى فرضها الخليفة عليهم ، وقد استمرت الثورات القبلية من بداية حكم الخليفة حتى سنة ١٨٨٨م .

ان طابع الثورات القبلية هو العصيان والدفاع المسلح ، ولايبدو ان ثورة من هذه الثورات كانت تهدف الى القضاء على المهدية أو على الخليفة بقدر ما كانت تهدف الى البقاء بعيداً عن السلطة المركزية . وبالنسبة الى ذلك فان الثورات القبلية كانت تفقد الهدف المشترك الأمر الذى سهل القضاء عليها واحدة وراء الأخرى،

---

(١) منشورات المهدية انظر ص ١٠٢ .

(٢) خير الله عجال وابكر علوان الى الخليفة فى ٢٠ جماد أول سنة ١٣٠٥، مهدية ٢٦٦/١٥/٢ .

ولكن الصرامة التى واجه بها الخليفة هذه الثورات قد تركت فى الاذهان صورة سيئة مايزال الناس يحملها للمهدية الى هذا اليوم .

كان أول من ثار مادبو شيخ الرزيقات ، وكان الدافع المباشر للثورة هو نزوعه الى الاستقلال عن عمال الخليفة واعتراضه على الهجرة الى العاصمة . وقد كان من نتائج هذه الثورة اخلاء بحر الغزال ، كما انها اشاعت الخراب والفوضى فى جنوب دارفور . وقد قبض على مادبو ولاقى حتفه فى فبراير سنة ١٨٨٧م على يد حمدان ابى عنجة الذى كان يحمل ضغينة قديمة . وفى سنة ١٨٨٦م أمر الخليفة عوض الكريم ابوسن شيخ الشكرية لكى يحضر برؤساء قومه الى العاصمة ولكن هؤلاء لم يحضروا بل خرجوا عليه ، فقبض الخليفة على عوض الكريم وسجنه الى ان مات ، وجرد حملة على الشكرية ونكل بهم . ولنفس السبب ثار الحمدة بزعامة شيخهم محمد البشير على طه فى سنة ١٨٨٧م فطارده الخليفة الى ان قتله ونكل بأهله . وفى العام التالى خرج عليه بنو حسان بزعامة شيخهم المرضى ابى روف بالتحالف مع العقايين والعلاطيين ، وكان السبب المباشر هو رفض الهجرة الجماعية ، وقد قضى على حركتهم فى واقعة الاهليلج قصاد فاشودة . وثار الضباينة بزعامة محمود عيسى زايد فهزمهم وظفر بمحمود وسجنه الى ان مات فى سنة ١٨٨٩م .

وكان الكبابيش يعادون المهدية لأسباب تاريخية وجغرافية ، وقد أمر الخليفة بهجرة القبيلة الى العاصمة مما أدى الى عصيان زعيمهم صالح . وبعد مناوشات طويلة ظفروا به فى عين صالح وقتلوه فى مايو ١٨٨٧م . وفى سنة ١٨٨٩م خرج البطاحين وقطعوا الطريق ، وكانت حركتهم مرتبطة بمقاومة الهجرة الجماعية واستنفارهم للاشتراك فى حملة النجومى على مصر ، وقد قضى الخليفة على هذه الحركة بصرامة قاسية ، وكانت هذه آخر الثورات القبلية اذا استثنينا ثورة الجعليين التى كانت مرتبطة بحملة كتشنر .

الجهـــــاد :ـ

كان الجهاد دعامة من اهم دعامات المهدية الاساسية ، وقد قدم المهدى الجهاد على أحدى شعائر الإسلام الخمسة وهى الحج . وقد اعلن الخليفة عبدالله والخليفتان

الحلو وشريف عن عزمهم على مواصلة الجهاد وفتح الامصار عشية وفاة المهدى. ومن هنا فان المضى قدما فى سياسة الجهاد والالحاح عليه كان امراً متفقا عليه بل كان من الشروط المفروضة على الخليفة بحكم منصبه . وبالنظر الى ظروف التوغل الاوربى والغزو المتوقع من الشمال والاضطرابات الداخلية فان الدعوة الى الجهاد كانت أمراً لازما ولم يكن من الممكن التغاضى عنها . وبمجرد تسلمه القيادة اعلن الخليفة عبد الله الجهاد . وقد وقع ثقل ذلك مباشرة على مدينتى كسلا وسنار اللتين سقطتا بعد أشهر من خلافته . ثم أنتقل ثقل الجهاد من مكان الى آخر حسب مقتضيات الحوداث. وقد ظل الخليفة ماضيا على هذه السياسة حتى نهاية حكمه . ان التركيز على الجهاد كان اذا أمرا لابد منه ولكنه كان يؤدى الى نتائج خطيرة . فقد سئم الناس الحروبات المتواصلة خاصة بعد ان انقلب الأمر الى نزاع بين الخليفة والقبائل أو بينه وبين الأشراف كما ان بقاء قوات كبيرة ومجموعات بشرية هائلة فى المدن الكبيرة أو فى حالة تحرك ، كان يعنى نقصا فى القوى المنتجة من ناحية وبقاءها عالة على غيرها من ناحية أخرى. وقد أدى ذلك وبتضافر قوى طبيعية الى المجاعة الكبرى فى ١٨٨٩و١٨٩٠م .

السـياسـة العامـة :-

ان العلاقات غير الودية بين أهل الغرب وأهل البحر قد دخلت طوراً جديداً بعد ان ارتقى الخليفة عبدالله . وقد أزدادت حدتها أثر نزاع الأشراف واحلال البقارة فى المناصب الكبيرة التى كان يحتلها أولاد البلد فى عهد المهدى . وكما قلنا من قبل فقد تمكن الخليفة عبدالله من المضى فى هذه السياسة الى حد انه تخلص منهم جميعا ماعدا واحداً فى بحر سنة واحدة . ولما كان الخليفة عبدالله يريد ان يطمئن الى عصبية حقيقية يواجه بها عصبية الأشراف واهل البحر فانه فرض هجرات جماعية على أهله البقارة .

وقد ابدى هؤلاء معارضة شديدة لهذه الهجرة ولكنهم دفعوا اليها بالقوة . ولما جاءوا الى ام درمان ظلت عيونهم متجهة ابداً الى ديارهم وتحن نفوسهم الى العودة .

لقد بدأت الهجرات فى سنة ١٨٨٦م وتمت فى سنة ١٨٨٩م ، وقد وافق ذلك هزيمة توشكى والمجاعة الكبرى التى حصدت الارواح وامتدت الى كل المناطق التى

كانت تحت حكم الخليفة . وقد اعتبرت هذه الهجرة أحدى أسباب تلك المجاعة . ان مجىء البقارة قد جعل الخليفة يطمئن الى عصبيتهم الى الحد الذى جعله يحاول بعد هزيمة النجومى ارضاء اهل البحر باعطائهم بعض المناصب . وفى نفس الوقت فان وجود البقارة كقوة رئيسية فى العاصمة قد زاد من أهمية يعقوب ، وقد أدى ذلك الى بعض التصفيات فى داخل بطانة الخليفة . لقد قتل ابراهيم عدلان الذى حل محل أحمد سليمان فى أمانة بيت المال فى سنة ١٣٠٧هـ / ١٨٨٩م ، وكان عدلان هو الضحية الأولى لمجىء البقارة وطموح يعقوب . وكان السبب المباشر لقتله هو وقوفه دون الحد المطلوب فى جمع الغلال لتموين البقارة . وفى سنة ١٨٨١م تمكن الخليفة من القضاء نهائيا على تعصب الاشراف الأمر الذى حدى به الى المضى قدما لتركيز سلطانه . وفى سنة ١٨٩٣م قتل الزاكى طمل الذى كان قد انتصر على الاحباش ، وقد تبعه أحمد على قاضى الإسلام والذى كان من أخص بطانة الخليفة ، ثم تبعه بعد قليل الحسين زهرا الذى خلف أحمد على فى القضاء .

وفى سنة ١٨٩٣م بدأ الخليفة تقوية الملازمين وجعل قيادتهم لابنه عثمان شيخ الدين . وكان الغرض من ذلك هو تكوين قوة تابعة له شخصيا يستطيع بها أن يحافظ على التوازن بين القوى المختلفة وتأكيد غلبته عليها . ولما حل عام ١٨٩٥م كانت قوة الملازمين قد بلغت تسعة آلاف . ان مرحلة مابعد سنة ١٨٩١م قد شاهدت تركيزاً كبيراً فى السلطة كما صارت السمة الظاهرة هى التصفيات الداخلية بين رجال الخليفة بدل صراع القوى القبلية أو المجموعات كالاشراف واولاد البلد . وفى أواخر عصر الخليفة نجم تنافس خطير بين اخيه يعقوب وابنه عثمان شيخ الدين والخليل ابراهيم وقد قيل ان الخليفة كان يهيىء ابنه ليلى الامر بعده ، وكان من المحتمل أن يتطور هذا الأمر لو امتد به الزمن .

نهاية دولة المهدية :—

استتب الامر للخليفة داخليا بعد المصادمات التى أشرنا اليها ولكن كانت المخاطر من الخارج تزداد سوءاً ، ففى سنة ١٨٨٩م تمكن الجيش المصرى بقيادته الانجليزية من وقف غزو النجومى لمصر وهزيمته . وفى فبرايرسنة ١٨٩١م انتصر الجيش المصرى على الانصار فى طوكر واحتلوها . وفى سنة ١٨٩٣م هزم الايطاليون الانصار

فى واقعة اغردات ثم احتلوا كسلا فى يوليو سنة ١٨٩٤م . وفى نفس الوقت شهد الجنوب قوات انجليزية وبلجيكية وفرنسية تزحف وتؤرق بال الخليفة .

وفى مارس سنة ١٨٩٦م بدأ الجيش المصرى يتحرك نحو عكاشة فى الشمال تأييداً للايطاليين الذين اندحروا فى واقعة عدوة فى الحبشة والذين كان يخشى عليهم اذا ما القى الخليفة بثقله ضدهم أيضا . ولأسباب كانت تتطور على الدوام استمر الغزو جنوبا فسقطت فركة فى ٧ يونيو سنة ١٨٩٦م وتلتها دنقلا . ثم هزمت القوة الرئيسية التى ارسلت لصد الغزو بقيادة محمود ولد أحمد فى عطبرة فى ٨ أبريل سنة ١٨٩٨م . واخيراً انهزم جيش الخليفة فى واقعة كررى التاريخية فى ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨م والتى سقطت العاصمة ام درمان على أثرها . وقد تمكن الخليفة وبعض اتباعه من مغادرة المدينة فى نفس اليوم قبل دخول الجيش الفاتح وظلوا يقاومون الحكم الجديد حتى لقى الخليفة عبدالله مصرعه فى واقعة ام دبيكرات فى ٢٤ نوفمبر سنة سنة ١٨٩٩م . وبذلك انتهت فترة المهدية ذات البريق اللامع فى تاريخ السودان .

الفصـــل الثاني

المهـدية . القضية والمطارحة حولها

بدأت المطارحة حول المهدية عندما أوعز عبد القادر حلمي باشا عند قدومه حكمداراً للسودان الى علماء الخرطوم بوضع رسائل يدحضون بها مهدية المهدى ، فوضع الشيخ محمد شريف نور الدائم قصيدته ووضع الشيخ أحمد الأزهرى والشيخ شاكر الغزى والشيخ الأمين الضرير رسائلهم . وقد طبعت هذه الاعمال بمطبعة الخرطوم الحجرية ووزعت على الناس . وعلى الاثر شدد المهدى هجومه على العلماء المعارضين فسماهم علماء السوء واتهمهم بأنهم لا يقولون الحق لأنهم يسعون الى الدنيا واصبحوا مستعبدين للـــترك بالمـــال والمنصب ، وقد سكتـــوا بالامس عنـــدما عدلت الاحكام الاسلامية واستبدلت بغيرها وانتشر الفساد وعم جور الحكام على العباد وذهبت الغيرة على الاسلام ، وانهم الآن يقطعون الطريق على المسلمين حتى لا يتبعوا الحق ويؤيدوا تشييد الدين باتباع مهديته .

ومن جهة أخرى فان المهدى كان من أول امره قد بنى مهديته على المنحى الصوفى وبعيدا عن العلامات والشروط التى اخذ بها العلماء ، وقد احتج مستندا الى بعض اقوال الشيخ احمد بن ادريس والشيخ محيى الدين بن عربى بأنه لا يأخذ بعلامات الظهور وزمانه ومكانه لأن الله قادر على ان يرسل مهديه فى اى وقت شاء واى مكان اراد وبالكيفية التى يريد . ومن هنا فان تركيز العلماء على دحض مهديته بالارتكاز على الشروط والعلامات المذكورة ما كان ليهز مستنده . ومع ذلك فانه استغل بعض ما يتوافق مع هذه الشروط والعلامات مثل ان يكون من نسل الرسول وان تكون هجرته الى ماسا وتواطىء اسمه مع اسم الرسول وبعض ما تناقل العامة من أمور مثل ظهور اسمه على ورق الشجر وبيض الدجاج وما الى ذلك . وفى نفس الوقت ترك لعلمائه مؤونة الرد على العلماء بالمنحى الذى اتبعوه . ومن هنا جاءت رسالتا الحسن سعد العبادى والحسين ابراهيم زهرا .

ثم اشترك علماء الازهر بفتوى اصدروها في القعدة ١٣٠٠ هـ وصدر على اثرها منشور من مجلس الوزراء المصرى ثم صدر منشور آخر من السلطان عبد الحميد الثانى . وعندما اشتد الصراع السياسى بعد انتصار شيكان ومجئ غردون دخلت المطارحة فى طور جديد .

وفيما يلى نتناول اطراف هذه المطارحة ، ولنبدأ بالخرطوم حيث بدأت المطارحة بقصيدة الشيخ محمد شريف ورسائل شاكر والضرير والأزهرى .

١ — قصيدة الشيخ محمد شريف نور الدائم :

وهو استاذ المهدى الذى جاء ذكره فى الفصل الاول . وكان على عداء شديد للمهدى منذ خلافهما واصطدام اتباعهما وظل يحرض عليه محمد رؤوف وموظفى الدولة الآخرين ، الا ان نظرة رؤوف كانت متسامحة حتى قويت شوكة المهدى وكان ما كان من امر . وقد وضع محمد شريف قصيدته بايعاز من عبد القادر حلمى وطبعت بمطبعة الخرطوم فى ١٢٩٩هـ ووزعت على الناس . ويورد نعوم شقير فى تاريخه طرفا من القصيدة فى موضعين (١) . وبطرف حفيده الاستاذ ضياء الدين محمد سعيد العباسى نسخة خطية ، ولكنها غير كاملة كما ان بها بترا وسقطا واخراما . وقد تفضل فسمح لدار الوثائق القومية بأخذ صورة منها . وظاهر مما تقدم اننا لم نقف الى الآن على النص الكامل للقصيدة

والذى عليه الشيخ فى قصيدته — وايضا فيما روى لنعوم شقير (٢) — هو ان المهدى التحق به واقام عنده مدة كان فيها على غاية الاخلاص والولاء ، متواضعا ، مبالغا فى تواضعه ، طاهر الطرف ونقى السريرة ، مكبا على التحصيل ، قائما ليله ونهاره بالعبادة حتى اطمأن اليه واعطاه العهد . ثم اصابه شيطان الغرور وشوشر عليه فهوى وتصور لنفسه غير ماهو عليه بادعاء المهدية وعرض عليه ان يكون وزيره ومستشاره فنهاه عن ذلك وزجره ، ولما لم ينته طرده من الطريقة وسعى لدى السلطات للقبض عليه وقتل فتنته فى مهدها فلم يسمع له صوت .

---

(١) نعوم شقير ص ٣٢٤و٦١٧ .
(٢) نفس المصدر ص ٣٢٣ — ٣٢٤ .

والقصيدة طويلة ، وجاءت على نحو اشعار العلماء التى يتناولون فيها العلوم والمعارف ليسهل حفظها ويتساهلون فى بنائها وسكبها وأوزانها وقوافيها . ومع ذلك فهى معبرة عن المقصود . والخطة التى سار عليها هى بيان حال الولاء والتواضع والتقوى بالتفصيل ثم وصف الحالة التى صار اليها بعد مس الشيطان — بالتفصيل ايضا ، ثم بيان سعيه لديه ليكف عن دعوى المهدية حتى يئس منه وطرده من طريقته ثم ما انذر به أهل الأمر ليوقفوه

وقد سبق ان تعرضنا فى الفصل الأول الى رواية الشيخ محمد شريف هذه والى ما ذكره اصحاب المهدى بشأنها واستبعدنا ان يكون لفكرة المهدى وجود فى ذهن المهدى فى هذه الفترة . لقد اقحم الشيخ قضية المهدية التى لم يكن لها وجود عندئذ فى صراع داخل طريقته من أجل النفوذ .

٢ — رســالة الشيخ الأمين محمد الضرير :

ينتمى الشيخ الأمين الى قبيلة المحس . وقد ولد بجزيرة توتى فى ١٢٣١هـ وحفظ القرآن وتلقى العلم على ابراهيم احمد ود عيسى بمسيده المشهور . وكان على صلة وثيقة بالقاضى احمد السلاوى الذى تعهد عددا من نجباء السودان كان من ضمنهم الشيخ الأمين وابراهيم عبد الدافع وعدد من خريجى مدرسة ود عيسى ، فاستفاد منه ، وبا شرافه نظر فى تاريخ كاتب الشونة وادخل فيه بالتصويب والزيادة ، وهو مافعله ايضا الزبير ود ضوه وابراهيم عبد الدافع . كذلك كان على صلة وثيقة بالعلماء الوافدين الى الخرطوم ، وكان بعضهم يلقى فى مدرسته دروسا فى فقه المالكية والحديث والتفسير والتوحيد والفية ابن مالك . وهكذا ارتقى علما و مكانة وصار فى طليعة العلماء والوجهاء بالرغم من انه لم يكن متخرجا من الازهر . وكان يلقى دروسه فى داره بالخرطوم وبتوتى فأمها رواد العلم وشاركه العلماء . وبسعى من ناظر الشكرية فتح مدرسة اخرى برفاعة . وقد تخرج على يديه جماعة من مشاهير العلماء منهم محمد عمر البنا الشاعر المشهور والفكى يوسف نعمه والفكى احمد عوض الله . وقد نشرت له أعمال فى مجلتى الجوائب وروضة المدارس .

ولتفوقه فى العلم وصلاته القوية دبر له الحكمدار جعفر مظهر باشا وظيفة رئيس

ومميز علماء السودان فى ١٢٨٢ فنعم بها حتى سقطت الخرطوم . وقد توفى بعد فتح الخرطوم بقليل — فى جمادى الآخر ١٣٠٢هـ .

وكان الشيخ الأمين شاعرا مجيدا فوق علمه ونثره الجيد ، ويكفى ان الجوائب وروضة المدارس نشرت له مع احتفال بشعره واستبعاده ان يكون من ابناء حام !

وله من المؤلفات رسالته فى دحض مهدية المهدى ، والتى عليها كلامنا ، ورسالتان فى الميراث وجدول فى الميراث . وهذا الذى الفه فى الميراث مشهور ويعتمد عليه الى اليوم . وله ديوان فى مدح الرسول وابيات فى حكم النون الساكنة التنوين . وله من الاولاد اربعة كلهم كانوا من اهل العلم : على وهو امير المهدية ، وقد استشهد بدنقلا . وعبد الرحمن ، وكان قاضيا ، وهو والد الشاعر واللغوى عبد الله عبد الرحمن والشيخ على عبد الرحمن السياسى المشهور . ومحمد وهو عالم كان يدرس بالمعهد العلمى بالاضافة الى حلقة درس ببيته ، وقد توفى فى ١٩٣٣م . والحسن الذى درس بالازهر الشريف واصبح يدرس بمسجد الخرطوم فى الفقه والحديث . وكان مناصرا لحركة ١٩٢٤م والقى خطبة مشهورة فى جامع الخرطوم على المصلين يوم الجمعة فدخلت بها الحركة طورا جديدا ودخل هو درب السجن والاضطهاد من الانجليز .

رجل بهذا القدر من العلم وهذه المكانة الرفيعة فى المجتمع والصلات المتينة مع السلطات الحاكمة يفترض ان يكون له رأى فى حركة المهدية ، رأيه كعالم يطرح قضية المهدية على محور العلم . وموقفه من موقع مكانته الاجتماعية وصلاته . وهذا مافعل عندما استجاب للحكمدار عبد القادر ووضع رسالته فى حقيقة المهدى وعندما اشترك مع آخرين فى رسالة علماء الخرطوم التى ارسلها غردون الى النجومى .

لقد حفظ لنا الجامعون لتراث المهدى خطابين من المهدى الى الشيخ الامين ، ولكن لم يصلنا شئ مما كتبه الشيخ الامين الى المهدى . وبالرجوع الى الخطاب الاول من المهدى والصادر فى ٢٨ شعبان ١٢٩٩ / ١٥ يوليو ١٨٨٢ ندرك ان المهـدى هو الـذى بادر بالكتابة الى الشيخ الامين ، يقول المهدى : « انى كاتبتك لظن الخير فيك واعلمتك بالحقيقة». وقد ضاع هذا الخطاب او لعله نسخة لاحدى منشوراته المعروفة . ثم كتب اليه الشيخ الامين ردا على خطابه معارضا ما طرحه ، ولذلك يقول المهدى : « واما

ما ذكرته فى رسالتك» . وهذا هو الخطاب الذى حمله ابنه على الى المهدى . قيل ان عليا رأى حال المهدى فصدق واخذ البيعة ثم عاد الى ابيه برد المهدى بعد أن وعد المهدى بالعودة اليه بعد تسليم خطابه الى ابيه . وقد بر بالوعد وعاد وصار اميرا مرموقا ، وهو الذى اجار اباه بعد فتح الخرطوم .

ان الخطاب الذى حمله على خطاب مشهورا وقد بدأه المهدى بقوله : « ان البيان لا يهدى وانما الهادى هو الله» (١) ، وقد صار فيما بعد منشورا عاما يبشر بدعوة المهدى(٢) . وهذا المطلع نفسه يعبر عن مضمون الخطاب وموقف المهدى من الشيخ الامين وبقية العلماء . وترد فيه فقرة تصف هذا الموقف بجلاء ، وهى : « ان العلماء ينكرون كثيرا من امور المهدى لأنه ليس على معتقدهم الذى يظنونه ولأنه يخالف مذهبهم . فلمهديتى دلائل من الله ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . ومما ينبيك بعدم معلومية عين المهدى للعلماء اختلاف الروايات وكثرة الاقوال عن اهل الكشف . والمعلوم ان علمه فى ازله لا يكون على هذه الروايات الكثيرة . وقد وردت فيه احاديث منها المقطوع والموضوع والضعيف ، بل الحديث الصحيح ينسخه الحديث الصحيح كما ان الآيات تنسخها الآيات . والتصديق بأمر المهدية صعب لا يتوفق له الا من ادركه الله بسابق سعادة ، لأنه لا يهتدى الى معرفة حقيقته الا الاولياء العارفون الذين لم يحجبوا عن رؤية نبيهم » .

ترى هل جاء هذا الخطاب قبل أن يعرف المهدى بمؤلف الشيخ الامين برفض مهديته ام بعدها . ان مؤلف الامين مؤرخ بسنة ١٢٩٩ بغير تاريخ اليوم والشهر ، وخطاب المهدى مؤرخ كما قلنا فى ٢٨ شعبان ١٢٩٩ / ١٥ يوليو ١٨٨٢. وكان وصول عبد القادر حلمى الى الخرطوم فى ١١ مايو ١٨٨٢ ، اى بنحو شهرين قبل خطاب المهدى . وهى مدة غير كافية لتدبير خطة الرسائل بين عبد القادر والعلماء واعداد الرسائل وطبعها . وكما سيجئ فان الشيخ احمد الازهرى فرغ من تأليف رسالته فى ٢٠ شعبان ١٢٩٩ ، وبالطبع فان الطبع اخذ بعد ذلك وقتا . وبالنظر الى كل ذلك فان مؤلف الضرير لم يكن قد صدر عندما كتب المهدى خطابه .

---

(١) الآثار الكاملة رقم ٤٢

(٢) نفس المصدر رقم ٧٧٦ .

وبعد صدور مؤلف الشيخ الامين توقفت المراسلة بينه وبين المهدى حتى كان ربيع اخر ١٣٠١ / ٣٠ يناير — ٢٧ فبراير ١٨٨٤ وكتب المهدى خطابه الثانى الى الشيخ الامين (١) وهو فى طريقه الى الخرطوم ، وهو الذى يبدأ بقوله : « ان المتحابين فى الله» . عبر المهدى فى هذا الخطاب عن تقدير عظيم لعلم الشيخ الامين واحترامه ، وهو لم يقطع الأمل فيه بالرغم من تجاهله لخطاباته السابقة وعدم اجابته لها . وقد دعاه الى التوبة مما فعله والهجرة اليه ويعده بالعفو اذا فعل ذلك . ثم يشير الى موضع خلافهما ويقرر ان النبى لم يكن اصوليا ولا نحويا ، على نحو ما يحاجج به العلماء ، وان صغر سنه وضعف محصوله من العلم بالمقارنة الى علم الشيخ الامين لا يمنعانه من ان يكون مهديا . ولأن المهدى كان يتهم العلماء بأنهم ينكرون مهديته لتعلقهم بالدنيا ومتعها فانه يكرس قدرا كبيرا من الخطاب لبيان حقارة الدنيا وعظمة الآخرة ومغبة الانشغال بالدنيا والجاه والمال .

لقد صدر هذا الخطاب بعد رسالة الشيخ الأمين بمدة كانت كافية للتخفيف من أثرها السيء فى نفس المهدى خصوصا وقد كان المهدى يؤمل كثيرا فى ان يستجيب الشيخ الامين الى ما يريد . ولكن على عكس ما ظن جاءت رسالة العلماء وبمن فيهم الشيخ الامين الى النجومى

يسمي الشيخ الامين رسالته بعنوان : هدى المستهدى الى بيان المهدى والمتمهدى . وقد بلغت فى طبعة الحجر ٢٦ صفحة (٢) ، ويضاف الى ذلك اربع صفحات تتضمن تعقيبا لمحمد احمد العجب وخاتمة لادارة المطبعة . وهكذا يصير المطبوع فى جملته ثلاثين صفحة . وليس لهذه الرسالة مصدر آخر مطبوع او مخطوط غير هذه النسخة .

وتتكون الرسالة من خطبة ومقدمة وخمسة أبواب وخاتمة . وقد عرض المؤلف فى الخطبة ظروف التأليف وهدفه منه . فبالنظر الى كثرة من ادعى المهدية فى ذلك الوقت — وهو يذكر منهم مهدى الصعيد ومهديا آخر بالخرطوم — وما ترتب من

---

(١) الآثار الكاملة رقم ٢٤٥ .

(٢) هذه النسخة محفوظة بدار الكتب المصرية ، بالخزانة التيمورية تحت رقم تاريخ ٢٥٦٠ ، وتوجد نسخة مصورة منها ونسخة مخطوطة بمجموعة ابوسليم بدار الوثائق القومية .

ظروف طلب اليه بعض احبابه وضع رسالة كاشفة للحق لتكون مرشدة لمن يريد . وهكذا تصدى للمهمة .

وفى المقدمة يذكر الخلاف حول فكرة المهدية من الوجهة الدينية ، بين مؤيد للفكرة ومعارض لها ، ويسوق مساند هذا الخلاف . وبعد ذلك ينتقل الى عرض الامر من وجهة النظر التاريخية فيبين حركات المهدية فى تاريخ الاسلام كما يبين الشروط والعلامات التى تلازم المهدى .

وفى الباب الاول يعرض صفة المهدى ، وهى انه من الخلفاء العادلين ، ويأتى فى اطار الشرعة عند خاو منصب الخليفة ، لا بالثورة على الخليفة القائم ، وانه يكون باتفاق اهل الحل والعقد عليه ، وهاهنا يذكر مقدارا من الأخبار والمرويات ، ويرفض ان تكون المهدية باجتهاد مجتهد او بأشارة فى مقام .

وفى الباب الثانى يمضى لاثبات خلافة السلطان العثمانى عبد الحميد فيبين كيفية وصوله الى الخلافة ويخرج من ذلك الى انه انتخب بالوجه الشرعى وبدعم اهل الحل والعقد .

وفى الباب الثالث يحرم الخروج على الامام ويوجب مقاتلة من بغى بالخروج عليه ، مستندا فى ذلك الى جملة من الآيات والاحاديث والمرويات .

وفى الباب الرابع يتعرض الى خديو مصر توفيق باشا ويبين انه تولى الخديوية عن ابيه بشرعتها وانه جدير بالولاية ثم يزكى سياسته وينوه ببعض اعماله . ثم يعرج بعد ذلك الى عبد القادر حلمى باشا حكمدار السودان ويثنى على جهوده . وهدفه من هذا الباب هو ان يضع المهدى تحت طائلة الخروج على اولى الأمر ويجرمه بالعصيان الذى يتوجب مواجهته بالحرب .

وفى الباب الخامس يتعرض الى الرؤيا فيفصل امرها ويناقش جواز رؤية النبى فى الحلم ، وهل يكون ذلك بروحه ام بعين جسده ، وهل يترتب على ذلك ما رتبه المهدى . وينتهى كل ذلك به الى ان الرؤيا لا يقوم عليه امر دينى ولا يترتب عليه حكم من احكام الشرع . وسبب كلامه عن الرؤيا وعنايته بها الى هذه الدرجة

هو ان المهدى بنى مهديته على حضرة التنصيب عندما أجلسه الرسول على كرسيه ، فالحضرة عند الضرير ليست الا الحالم بينما الحضرة عند المهدى تتم له يقظة ومن غير سوء لا بنوم ولا بسكر ولا جنون ولا جذب .

وفى الخاتمة اورد تصويبا لخطأ وقع فيه بعض المتحدثين عن المهدية بسبب التوهم والخلط بين تاريخ مولد محمد الحسن العسكرى والتاريخ الذى كتب فيه عبد الوهاب الشعرانى عنه .

(٣) رســالة شــاكر الغزى :—

كل ما يذكر عن شاكر افندى الغزى فى التاريخ انه كان عند اندلاع الثورة المهدية مفتى مجلس استئناف السودان وانه ألف رسالته المشهورة عن المهدية واشترك مع علماء آخرين فى وضع فتوى علماء الخرطوم الذى ارسل الى النجومى فى سبتمبر ١٨٨٤م . وحتى اسمه لا يتعدى شاكر الغزى ، ونحن لا نعرف ان كان الغزى اسم ابيه ام انه لقب ينتسب به الى جهة ، وهل الجهة هى غزة المعروفة الآن فى فلسطين ، ام هى نسبة الى الاتراك الغز . وان كنا نميل الى افتراض النسبة الى البلد ، وان هذا ربما يعنى انه اصلا من غزة . وقد وقعت على خبره مرتين فى مجموعة السودان بدار الوثائق المصرية ، ولكن الخبر فى كلتا الحالتين عن تعديل مرتبه فى عام ١٢٨٦هـ ، مرة فى شعبان ومرة فى القعدة ، ومنه يفهم انه كان مفتيا من قبل ذلك .

جاءت رسالة الغزى بغير عنوان ، ولكن يفهم مما جاء فى خطبتها قصده منها ، وهو : « لما كان ما ادعاه محمد احمد من المهدية بعيدا عن الصدق بالكلية وصدقه فى مدعاه جملة العوام والاوباش الطغام جمعت هذه الرسالة فى نصحهم وارشادهم من هذه الضلالة » . فالهدف هو بيان خطأ ما ادعاه محمد أحمد ونصح الناس حتى لا يتبعوه . وقد جعلها فى خطبة صغيرة ومقدمة وفصلين وخاتمة . وتبلغ الرسالة فى تاريخ نعوم شقير (طبعة دار الجيل) نحو ٩ صفحات .

بدأ الغزى الخطبة بجملة قوية تعبر عن صلب قضيته وهى : «الحمد لله الذى جعل السلطنة سرا من اسرار الالوهية وفرضا من الفروض الشرعية الدينية وجعل

لزوم طاعتها فرضا لازما وامرا جازما » . ثم بين هدفه على ما بينا ثم بين اطراف الرسالة .

وفى المقدمة بين وجوب الطاعة للسلطان وولاة الامور وجوبا شرعيا وحث كل المسلمين على طاعة السلطان القائم ورجاله والاعتصام بالكتاب والسنة ، ذلك لأن الدين والسلطان اخوان ، فالدين هو الاساس والسلطان هو حافظه ومشيده ، ولأن الخروج على السلطان يؤدى الى الشقاق والخلاف بين المسلمين والاقتتال بينما الاسلام يحث على ضرورة التآلف . وخلاصة ما ينتهى اليه الباب بعد العرض والاستدلال بالآيات والاحاديث : « فاذا علمتم ذلك وعلمتم ما تضمنته هذه الآيات الكريمة والاحاديث العظيمة من وجوب طاعة ولاة الامور وحرمة قتالهم والخروج عليهم ايقنتم ان من خرج عن الطاعة شبرا فقد عصى الله ومات ميتة جاهلية ، واذا علمتم ما فى الخلاف والمنازعة والعداوة من الخراب والدمار ايقنتم ان الواجب عليكم الرجوع الى الائتلاف والاتفاق » .

وفى الفصل الأول يذهب الى بطلان دعوى المهدى وينفى عنه الصفات المتعارف عليها بين العلماء عن المهدى المنتظر . والنقطة الاولى التى يثيرها هى الخلاف حول فكرة المهدى المنتظر ، هل هى فكرة تستند على سند دينى قويم ام هى وهم توهمه الناس فاستشرى وكبر . انه يميل الى الوجه الثانى . ولكن ترى ماذا يكون وضع محمد أحمد هذا ، لو افترضنا أن الفكرة صحيحة ولها شرعتها من وجهة النظر الدينية . وفى هذه الحالة علينا ان نرجع الى العلامات والشروط التى ذكرها العلماء للمهدى المنتظر ثم نقيس حال محمد احمد على ضوئها . والنتيجة التى ينتهى إليها واضحة محددة ، وهى عدم المطابقة فى كل الجوانب . لقد اختلف عما هو معروف عن المنتظر فى مكان المولد وفى زمن خروجه وفى ظروف خروجه وفى اوصافه ووزرائه واصحابه . وفضلا عن ذلك فانه بدلا من ان ينشر الأمن والوئام والعدل ظلم وقتل ونهب وخرب . وبعد هذه المقارنة يخاطب بشكل مباشر فيقول : « فكيف تتوهمون فى عدم صحة دعواه الباطلة وهذه الاحاديث تكذبه ، أكذبتم باحاديث رسول الله والعياذة بالله ». ثم يستشهد بما أخرجه الحاكم فى صحيحه عن النبى : « يحل بأمتى فى آخر الزمان بلاء شديد من سلطانهم لم يسمع بلاء اشد منه حتى لا يجد

الرجل ماجأ فيبعث الله رجلا من عترتي اهل بيتي يملأ الارض قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما يحبه ساكن الارض وساكن السماء ». وينفي حصول شدة البلاء وعدم الملجأ لأن « الناس في رغد من العيش آمنين مطمئنين وملجأنا وملجأ العامة موجود وهو ولي النعم الخديوي الأعظم » . وفي نهاية المطاف يناشد الناس الا يغيروا دينهم « بوساوس محمد أحمد الشيطانية وهذياناته النفسية » .

وفي الفصل الثاني ينهى عن اتباع محمد أحمد وينصح من اتبعه بان يتخلى عن اتباعه . وقد وصف أتباعه بالتوحش وبالوقوع في ظلمات الجهل . فجملة اتباعه « حمقى العربان وحمقى الدراويش » وهم لا بصيرة لهم ولا معرفة ولا دين . ثم يذكر الناس بسطوة الحكومة القادرة على تشكيل مزيد من القوات ، وبأن مجرد وقوع الفشل لبعض العساكر في بعض الوقائع لتهاون الضباط واهمالهم لايؤيد دعوى محمد أحمد . وبعد أن يتعرض الى أنصار المهدى بانهم عصاة يناشدهم بالعودة الى الدين — والدين عنده طاعة السلطان وحكومته .

اما في الخاتمة فقد بين وجوب تأييد السلطان ومناصرته ووجوب قتل الخوارج . وقد انتهى الى ان الأئمة قد اجمعوا على ان الخروج عن الطاعة من الكبائر ، ومن ثم قرر أن قتل الخوارج فرض وان لمن قتلهم الأجر يوم القيامة .

رسالة احمد الأزهري :

واحمد الأزهري احد أبناء اسماعيل بن عبد الله ولي كردفان المشهور ومؤسس الطريقة الاسماعيلية . وهو خال اسماعيل عبد القادر الكردفاني مؤلف سعادة المستهدى والطراز المنقوش ، ووالد اسماعيل الازهرى قاضي العهد الثنائي المشهور وجد اسماعيل الازهرى القائد السياسي الذى قاد البلاد الى الاستقلال . وقد ولد بالابيض في ١٨٢١م وحفظ القرآن بمسجد والده واخذ العلوم على ابيه وبعض علماء كردفان. ثم سافر الى مصر والتحق بالازهر الشريف وقضى به ١٢ عاما طالبا ثم مدرسا ممتازاً . وهو الذى الحق ابن أخته اسماعيل الكردفاني بالازهر . وفي عام ١٢٨٩ / ١٨٧٣م عاد الى وطنه وباشر التدريس في حلقات العلم . وفي ١٨٨٢م فصل غرب السودان —كردفان ودارفور— قضائيا عن الشرق وعين احمد الازهرى شيخا للاسلام وقاضيا للقضاة به . وقد قتل قرب باره وهو في طريقه الى تسلم منصبه .

ومن الواضح ان أحمد لم يكن بمدينة الابيض عندما جاء المهدى وحاصرها، وقد أشار الى ذلك في رسالته في معرض حديثه عن رسائل المهدى الى اهل الابيض . وهذه نقطة مهمة لأن اسرته قد انضمت الى المهدى بأجمعها ولم يبق معارضا له الا هذا الذى كان بعيدا . ومع ذلك فلا نستطيع ان نأخذ بأن مجرد بعده ووجوده بالقرب من السلطة فى الخرطوم هو الذى دفعه الى صف المعارضة لأن تعليمه الفقهى وتربيته الازهرية كان من شأنه ان يضعه فى مواجهة مزاعم المهدى ذات الابعاد الصوفية .

ويقال انه وضع عدة مؤلفات ولكنها ضاعت فى ظروف المهدية . ومن مؤلفاته المعروفة : «خاتمة الازهرية» فى النحو ، ومنها قصيدة فى تقريظ «كتاب مشارق شموس الانوار» لوالده اسماعيل الولى انشدها فى ١٢٦٢هـ/١٨٤٦م ، ومطلعها :

ايا مبتغى حوز الهداية والتقى   فدونك هذا الدور والسند الاقوى

وقصيدة أخرى مدح بها والده فى ١٢٥٧هـ/١٨٤٢م قبل ذهابه الى الأزهر بقليل ، ومطلعها :—

ادر ذكر اسماعيل بين المحافل   ولو هازلا واطرب به قلب غافل

وله الرسالة التى نحن ازاءها فى معارضة مهدية المهدى ، وهى مما دفع اليه الحكمدار عبد القادر حلمى ، وتبلغ فى اصلها الحجرى ١٢ صفحة وفى تاريخ نعوم شقير (طبعة دار الجيل) نحو عشر صفحات(١) . وعنوانها : «النصيحة العامة لأهل الاسلام عن مخالفة الحكام والخروج عن طاعة الامام». وقد فرغ من تأليفها— كما أورد فى خاتمتها— فى ٢٠ رمضان ١٢٩٩هـ ، وقامت مطبعة الخرطوم الحجرية بطبعها بعد وفاته باشراف ابنه محمد بشارة . وتوجد نسخة من هذا المطبوع فى مجموعة السودان بدار الوثائق المصرية ، وعلى ما نظن فأنها النسخة الوحيدة . وقد جاءت الرسالة جملة واحدة اى بغير تبويب

بدأت الرسالة بالحديث عن استفحال الفتنة بين الناس نتيجة لقيام المهدية

---

(١) نعوم شقير ص ٦٢٩ — ٦٣٨ .

ووجوب الطاعة للسلطان وعدم الخروج عليه ، وذلك على نحو ماساق الغزى والضرير ثم تبين أن العلماء نصوا على ان الخروج عن طاعة الامام حرام كما نصوا على أنه لا يعزل ولا تنبذ بيعته الا اذا كفر او امر احدا بكفر .

ثم يأخذ احوال محمد أحمد ويقيسه بما ورد عن المهدى المنتظر من علامات وشروط وينتهى الى انه ليس بمستوف ، وقد ساق فى ذلك احدى عشر دليلا . ومما يذكره فى ذلك انه ولد بالسودان ولم يذهب الى مكة والمدينة مع ان مولد المهدى المنتظر بالمدينة وظهوره بمكة بحسب ما هو وارد عنه . وفى العلامات الجسمانية يتعرض لقول المهدى بأن له فى خده الايمن خالا ليقول : « فاذا ثبت ذلك — يعنى وجود الخال — مع عدم ثبوت بقية الاوصاف لم يفد شيئا . وبالنسبة الى العلامات الاخرى فان القمر لم يخسف فى اول ليلة من رمضان ولم تكسف الشمس فى النصف منه مع ان محمد أحمد المذكـور تفوه فيما قيل بتلك الدعوى بالجـزيرة ابا فى شهر شعبان وان رمضان قدم ولم ينقل عن احد خسوف القمر فى اول ليلة منه ولا كسوف الشمس فى النصف منه ، وذلك دليل واضح على ان المهدية التى ادعاها لم يظهر فيها ما يدل على دعواه » . وبما أن الامام موجود فيحرم شرعا الخروج عليه . وهو ليس ملهما ولا تلقى علوما بسر المهدية وانما كان من اتباع الطريقة الخلوتية ولم يصلحه الله فى ليلة كما فى علامات المهدية . وهو لا يقبل الحضرة وتلقيه عن الرسول مباشرة لأن الكشف لا يقبل فى مثل هذه الحالة الخطيرة لما يترتب عليها من امور جسيمة . ويورد الازهرى ما رواه الشيخ الشعرانى فى مختصره من انه « يخرج فى آخر الزمان رجل يقال له المهدى من اقصى المغرب يمشى النصر بين يديه اربعين ميلا ، راياته بيض وصفر فيها رقوم وفيها اسم الله الاعظم مكتوبا فيها ، فلا تهزم له راية ، وقيام هذه الرايات وانبعاثها من ساحل البحر بموضع يقال له ماسا ». ثم يورد رواية الترمذى « ان الرجل يجىء اليه فيقول يامهدى اعطنى فيحثى له فى ثوبه ما استطاع ان يحمله ». ثم يقول بانه لا يجد فى حال المهدى شيئا من ذلك . ثم اين الامان الذى ينشره المهدى وقد غرقت البلاد فى بحر من الفوضى وصار الداعى نفسه يقتل وينهب ويخرب . واين الكنوز التى يأتى بها المهدى المنتظر واين الخيرات على يديه ثم اين وزراء المهدى المنصوص عنهم . وكيف لمسلم ان يكفر مسلما يقول

الشهادتين ويؤدى واجباته من صلاة وصوم الخ لخلاف فى النظر وفى امر ليس من اصول الاسلام ولا قواعده : «ان اراد بالكفر الخروج عن الايمان فذلك لا يقول به احد لأن المهدية ليست نبوة ولا رسالة وغاياتها خلافة ، فانكار اصل المهدية والشك فيها لا يوجب الكفر ».

هكذا يمضى المؤلف فى دحض مهدية المهدى مستندا الى ان حالاته لا تطابق ماهو وارد عن المهدى المنتظر ، وبأن بعض ماأتاه لا يتفق مع الشرع .

(٥) رسالة الحسين زهرا :-

الحسين ابراهيم زهرا عالم مبرز وشاعر مشهور . وزهرا لقب ، وهو فى الاصل اسم ترعة ماء بوطنه . ولد بقرية وادى شعير ، وقيل بقرية ام عضام ، بقرب الحصاحيصا ، حوالى ١٨٣٣م . حفظ القرآن بوطنه وتلقى قدرا من العلوم ثم سافر الى مصر والتحق بالازهر الشريف واكمل تعليمه . وبعد عودته بقليل اندلعت الثورة المهدية فأندرج فى سلكها . وكان لحوقه بالمهدى بعد انتصاره على هكس ولكن على المهدى يروى أنه جاء الى المهدى بعد واقعة ابا مع آخرين ثم عاد بعد ان تفاكر مع المهدى . وقد كتب رسالته المشهورة — والتى نتناولها بعد قليل— بعد ذلك . وبعد فتح الخرطوم كانت قصيدته المشهورة والتى حث فيها المهدى على تولية العلماء فى المناصب لأنهم أحق بها من غيرهم :

فتناولنه مـن اللئـام واعطه صنف الكرام فأهلـه العلماء
واشرط عليهم ما اردت من الهدى يعطوا العهود لأنهم أمنـاء

وسوف نرى انه يتناول فى رسالته جور العلماء والامراء وظلمهم للعباد ، وقيل فى ذلك انه كان متطلعا الى المناصب العليا . وقد اوكل اليه المهدى رئاسة الوفد الذى ارسله الى كسلا لاجراء تسليم قواتها . وفى أوائل عهد الخليفة عبد الله عين مدرسا ممتازا لتدريس علم الميراث بالمسجد ، وهو علم لم يجر فيه المهدى نظراً . وفى ١٨٩٢م تولى منصب قاضى الاسلام بعد النكبة التى حلت بالقاضى احمد على ، ثم جاء دوره فى ١٨٩٤م اثر خلاف حول بعض احكامه فعزل وسجن ومات فى سجنه. وقد اشتهر بعلمه وعدالته والتزامه باحكام الشرع بخلاف سلفه الذى تدور حوله الاقاويل .

وقد خلف زهرا قدرا من الشعر لا بأس به . وبعض هذا يورده سعد ميخائيل فى «شعراء السودان» ، وفى دار الوثائق القومية ملف يتضمن مجموعة من قصائده . وفى مجال الكتابة وضع رسالة الآيات البينات والفصل الخاص بالمهدى فى نصيحة العوام وشرح الراتب .

اما شرح الراتب فلم نقف الا على طرف منه . واما الفصل الذى اضافه الى نصيحة العوام فسببه أن العوام أجل الكتابة عن المهدى وحاله حتى يلتقى به ، فلما أعد الكتاب للطبع اتمم زهرا هذه الغاية من عنده ، ويمكن ان يعتبر هذا خلاصة لما يراه زهرا فى مهدية المهدى . اما ما يراه العوام فمختلف عن ذلك كما سيجىء عند الكلام عن رسالته .

اما رسالته «الآيات البينات فى ظهور مهدى الزمان وغاية الغايات» فهى محط اهتمامنا هنا . وقد كتبها ردا على رسائل علماء الخرطوم مدافعا عن مهدية المهدى ومفندا آراءهم ، وكان ذلك فى ١٣٠١هـ . وقد نظر فيها المهدى واجازها ثم طبعت بمطبعة المهدية الحجرية فى ١٣٠٤هـ / ١٨٨٧ — ١٨٨٨م .

وتقع الرسالة فى ٥٦ صفحة وثلاث صفحات اخرى يصدر بها المؤلف النسخة المطبوعة . ويأتى فى نهايتها تقريظ لمحمد احمد هاشم ، ثم قصيدة له من احد عشر بيتا ، ثم تقريظ وعدة أبيات للطيب احمد هاشم ، ثم تقريظ وقصيدة من ثلاثة عشر بيتا لمحمد احمد هاشم مرة أخرى . ويبلغ ذلك ثلاث صفحات أخرى تأتى بعدها صفحتان خاليتان عن الكتابة . ولعلك تلحظ مقدار عناية آل هاشم بالرسالة ومؤلفها .

وتأتى الرسالة جملة واحدة ، بغير أبواب ولا فصول ، يسير فيها المؤلف على وتيرة واحدة ونفس واحدة من بدايتها حتى نهايتها . وهنا وهناك نجد بعض الشروح فى الهامش او فى وسط السطور فوق الكلمات المعنية . وتدور قضية المهدية كلها فى نظره حول تسع قضايا يسميها آيات ويعرضها واحدة وراء الاخرى مقارنا بين اوصاف محمد المهدى وصفاته وظروف ظهوره وبين ما جاء فى التراث الاسلامى عن المهدى المنتظر .

يعلن زهرا فى أول كتابه الغرض من وضع الكتاب بقوله : « اردت ان املى من البينات الجلية ما ينبئ من القى السمع وهو شهيد عن نزر قليل من علامات المهدية

ليكون قياسا الى حل ما تضمنه من الامور الخفية ». ويعدد الشروط الواجب توفرها في المهدى كتكامل خلقه وحكمته واقواله وافعاله ، وتطابق اسمه مع اسم الرسول . ويقرن ظهوره بمطلع النجم ذى الذنب ، ويصفه بالقائم بأمر الله الخاتم لأوليائه الامام محمد المهدى وبأنه الذى قال الرسول فى حقه : « يقفو أثرى ، لا يخطئ فقوله صلى الله عليه وسلم هذا فى حقه لعصمته عن الخطأ ، فان اشتبه عليكم منه امر فاعلموا انكم فى عمى عن اسراره . وان الرسول لو كان حيا لحكم به ورفع المذاهب، ولم يبق الا الدين الخالص » .

ويخلع زهرا على المهدى صفة الالقاء الالهى – يعنى انه ملهم– وانه يعبر عما يلقيه الله اليه من كلام ، وان منشوراته ترجمة عن كلام الله تعالى الذى يلقيه فى قلبه . ويربط استتباب الامن والعدل الذى يملأ المهدى به الارض بقدرته الفائقة فى تعيين ولاته على حسب مراتبهم الدينية . فالمهدى يزن من يريد ان يوليه بالمرتبة فان ساوى او رجح ولاه والا فلا ، لأنه حيث نقص عن المرتبة يجور بلا شك .

بيد ان زهرا يعترف لبعض عمال المهدى بالجور ، ويعزو ذلك الى انحراف الناس « وكما تكونوا يول عليكم ، والعدل يقتضى بأن يعاملوا بما يستحقون من الاساءة وجزاء سيئة سيئة مثلها» .

ويثير الكتاب قضايا كبيرة كعلاقة العلم بالمجتمع – فالعلم يقتضى العمل والا فليس بعلم ، والجاهل اعلى مرتبة من العالم الذى لا يعمل . وفى الكتاب دعوة حارة للانصار والاخوان لاحترام العلماء الحقيقيين لما عندهم من العرفان وتعظيما لما يحملون من احكام السنة والقرآن .

وبالنسبة الى ما قيل من ان المهدى منع العمل للكسب الدنيوى فانه يصنف الارزاق الى نوعين ، رزق عقلى يتمثل فيما يكتسبه الانسان من معارف ، ورزق حى تقوم عليه البنية البشرية ، كالمطعومات من مأكول ومشروب ، ثم يخلص الى ان المهدى لم يهمل الالتفات الى الارزاق المحسوسة جملة واحدة ، فالالتفات اليها من الواجبات باتفاق الجميع لتوقف الاستقامة عليها ، وهى من الكليات التى لم تهمل فى شريعة من الشرائع . والمنشورات بالتخلى عن الدنيا متوجهة الى ما وراء

الامور التى لابد منها لتقويم البنية ، وذلك لأن غالب الناس انما كانت انظارهم فى التوسع فى الدنيا ، وفى ذلك صرفوا غاية وسعهم وتركوا الآخرة فنهاهم عنها . ومما يمكن اضافته لرأى زهرا هذا ان المهدى نفسه قد نص فى احدى رسائله على انه لم يلغ العمل للدنيا كليا وانه ركز على العمل للآخرة ولبناء المجتمع الدينى الزاهد ، لأن الناس لم تفتهم دنياهم وانما فات عليهم الالتفات لآخرتهم .

(٦) رسـالة العبادى :-

هو الحسن سعد محمد العبادى ، نسبة الى قبيلة العبابدة ، وهو عالم جليل تتلمذ عليه كثيرون ، ومنهم القاضى عبد الله احمد يوسف مؤلف كتاب النخيل . ولد فى بربر فى سنة ١٨٤٤م وتعلم فى خلوة الشيخ محمد الخير فى الغبش حيث زامل المهدى نحو ثلاث سنوات . هاجر الى المهدى بعد فتح الابيض واخلص لدعوته . عينه المهدى اميرا على الرباطاب وبعض بطون العبابدة فاتخذ ابوحمد مركزا . وفى عهد الخليفة صار اميرا على حلايب وكلف بتهريب السلاح الى الداخل وببث دعوة المهدى فى الجزيرة العربية . استدعى بعد ذلك الى امدرمان واقام بها حتى زوال دولة المهدية . وفى العهد الثنائى عمل قاضيا شرعياً وتوفى بالحجاز حاجا فى ١٩٠٧. وابنه عباس كان مدرسا، وحفيده كمال الدين عمل بالمحـاماة والسياسة عضواً فى حزب الامة ، وقد سجن من جراء ذلك ثم اغترب .

وضع العبادى رسالته «الانوار السنية الماحية لظلام المنكرين على الحضرة المهدية » فى سنة ١٣٠١هـ ، وقد نظر فيها المهدى واجازها ثم طبعت بمطبعة المهدية فى ١٣٠٤هـ / ٨٨٧-١٨٨٨م . وموضوع الرسـالة هو الدفاع عن المهدى واثبات مهديته ردا على علماء الخرطوم ، وسبيله فى ذلك ان يورد ما جاء فى التراث الاسلامى عن المهدى المنتظر ثم يقيس عليه حال مهدى السودان واوصافه وظروف دعوته .

وتبلغ الرسالة ٢٦٨ صفحة بخلاف صفحات الفهرست الذى يأتى فى أوله ويحتل النص ٢٦٢ صفحة بينما تشغل التقريظات ما بعد ذلك . وهى مقسمة الى خطبة وسبعة ابواب وخاتمة .

تناول المؤلف فى الخطبة موضوع الرسالة وكيفية تناوله . وفى المقدمة يأتى

بيان وجوب الطاعة للمهدى وحث الامة على الجهاد مستدلا بالآيات والاحاديث، وهذا ما يقابل فى تصنيف علماء الخرطوم الكلام الذى يدور حول خلافة آل عثمان وولاية خديو مصر وشرعتهما ووجوب الطاعة لهما وعدم جواز الخروج عليهما . وفى الباب الأول يؤكد صحة مهدية المهدى ويحذر من انكارها ، وفى الباب التالى يبين حقيقة الولى وشروطه . وفى الباب الثالث تناول ثبوت الكرامة لاولياء الله . وفى الباب الرابع تناول ثبوت رؤية النبى يقظة ، وهى قضية مهمة لأن علماء الخرطوم ينكرون على المهدى استناد مهديته على تلقيها عن الرسول وتلقيه الاوامر عنه وترتيب الاحكام الشرعية على هذا الاساس . وفى الباب الخامس اورد فضائل المهدى . وفى الباب السادس اتى بنبذة من كراماته وما حصل له منها فى بعض حروبه . وفى هذا الباب ذكر حال المهدى وقاسه على ماهو وارد فى التراث عن المهدى المنتظر . وفى الباب السابع يرد على علماء الخرطوم مباشرة ، وسبيله فى ذلك ان يذكر الاعتراض ثم يرد عليه . وقد عد فى ذلك اربعة عشر اعتراضا واجاب عليها . وفى نظرنا ان هذا الباب هو أهم اجزاء الرسالة فيما نحن فيه لأنه يخرج عن المنقولات الى مناقشة ما هو واقع فعلا .

وفى الخاتمة يذكر الادلة على مهدية المهدى وينقل منشورا من منشوراته — على سبيل التبرك — ثم يذكر ظروف التأليف وتاريخه وعرض الرسالة على المهدى واجازته لها . وفى النهاية يأتى تعليق محبر المطبعة ، ثم تقريظ لاسماعيل عبد القادر الكردفانى مؤلف السيرة والطراز وقصيدة تبلغ عشرة ابيات ، ثم تقريظ لاسماعيل ابن احمد بن اسماعيل وشعر يبلغ ١٦ بيتا .

تعرض العبادى الى عدد من القضايا التى كانت تشغل بال اترابه فى تلك الفترة ، وقد رأينا ان نورد طرفا من اقواله فيها وجانبا من محاوراته للمناوئين للمهدى .

يقول فى حال العالم الاسلامى والضغط الذى يأتيه من قبل اوربا : «وقد هجمت الكفرة فجأة على جل ممالك البلاد الاسلامية ، واستولوا عليها بالفعل وعكسوا الامر ووضعوا جزية على المسلمين ، واذلوهم ، واتخذوهم رعية ، وصارت افكارهم الآن متوجهة على استيلاء بلادنا السودانية ، فجأوا واستولوا على مسجد العلماء وعش الأولياء مصر المحمية ، ومعلوم عند كل ذى بصيرة نيرة فقهية ان العدو اذا فاجأ محلة قوم تعين الجهاد على كافة افراد الامة . والآن قد فاجأها وفاجأ جل ممالك

البلاد الاسلامية ، ولذلك قد فرت بعض العلماء الصالحين والاولياء بدينها من مصر الى جهات الغرب والشرق والشام ، وبعضهم سجن حتى مات كخاتمة المحققين الشيخ محمد عليش احد تجار العلم بالازهر» . ثم يدعو المسلمين الى القيام بصدق وترك ما هم يشتغلون به من «تدريس ورياضة نفوس ومعايش عائلة لتعيين فرض الجهاد» لدفع الفساد وللعمل لصالح الامة فى جميع البلاد .

ويحدد العبادى فى رسالته مهمة المجاهدين والانصار المنضوين تحت لواء المهدى بقوله : «نجاهد معه الكفرة والخوارج . . ونحمى ملتنا ، وانفسنا ، وعشيرتنا ، واهلنا وجميع البلاد الاسلامية. «ثم بعد الفراغ من النصر والفتح والاستحصال على مقصودنا ونشر الراحة العمومية يرجع كل منا لما كان متلبسا به ان كان مطلوبا شرعا من تدريس وتربية نفوس ومعايش عائلة ضرورية » (١) .

وقد نادى العبادى بالنفير العام على كافة المسلمين بالهجرة الى المهدى لتكون كلمة الله هى العليا .

اما عن تصوره لمهدية الامام المهدى فانه يقول بأنه «مبعوث لاحياء المراسم الدينية بخلاف ما كانت عليه الآراء الاجتهادية »(٢) ، وبأنه «منشيء مراسم الاسلام بعد خفاء آثارها ومظهر علوم الحقائق بعد خمود انوارها» ، وبأنه «وارث وخليفة للحضرة الخاتمة المحمدية» ، وانه «خليفة رسول الله صلعم ووارثه » ، وانه «الوارث المنتظر والخليفة الاكبر». ومقام المهدى عنده فوق مقام الغوثانية وهو مقام الخلافة المصحوبة بملك الالهام ورؤية النبى صلعم يقظة لأخذ الاحكام ، وهو لذلك معصوم لايخطئ(٣) .

(٧) رسالة احمد العوام :—

وهناك مؤلف ثالث يتصل برسالتي العبادى وزهرا وهو «نصيحة العوام للخاص والعام من اخوانى أهل الايمان والاسلام » الذى الفه أحمد العوام فى سنة ١٣٠١هـ / ١٨٨٤م .

---

(١) الانوار السنية ص ١٨ .

(٢) نفس المصدر ص ٧٨ :

(٣) نفس المصدر ص ٤٢ .

كان احمد العوام من المناوئين لغردون باشا أثناء حصار الخرطوم ، ومن المتحمسين لقضية الثورة المهدية . وهو مصرى الجنسية ومن خطباء الثورة العرابية : وقد جاء الى السودان منفيا واقام فى الخرطوم حتى كانت الثورة المهدية فناصرها واستغلها لمواصلة جهاده السياسى ضد نظام الحكم فى مصر حتى سقط شهيدا فى الخرطوم . ومن الغريب ان المصادر المصرية لا تذكره ، ولعله لم يكن من انصار عرابى المهمين . وأثناء حصار الخرطوم ازداد نشاط العوام المعادى ووضع رسالته . وقد اشار العوام الى موقفه فى مقدمة رسالته فقال : «فانى طالما جادلتهم (يقصد علماء الخرطوم) بالحق سرا ونصحت لهم حتى فى دار الحكومة جهرا على مرأى ومسمع من وكيلها النصرانى ومن حضر من كتبة الديوان فى ليلة النصف من شعبان (١٣٠١هـ) رجاء ان يسعوا فى ايجاد الصلح بين الطائفتين المحاربتين » . والحق ان موقفه فى داخل الكتاب يمضى اكثر من هذا وينادى بالغاء نظام الحكم فى الامبراطورية العثمانية ، وانكاره الخلافة على آل عثمان . وقد قبض عليه غردون بتهمة الاثارة ومساندة حركة المهدى ووضعه فى السجن وكبله بالحديد ثم عفا عنه بعد ان توسط له ابوبكر الجاركوك وعينه معاونا فى الحكمدارية براتب قدره ١٥٠٠ قرش فى الشهر ، وهو مبلغ كبير بأرقام ذلك الوقت . ويبدو ان غردون حاول اغراءه بهذا السبيل عن مناصرة قضية المهدى . ولكن العوام ظل على عهده ومضى يثير الناس . ولما بلغ المهدى نواحى الخرطوم ازداد نشاطه وظل يكذب علنا دعاوى غردون عن قرب وصول النجدة الانجليزية ، ثم اقدم على تدمير مخزن الذخيرة الذى كان يجاور منزله ، وذلك بأن اغرى امرأة بالقاء جمرة على المخزن من شباك ، غير ان الحراس تنبهوا للامر قبل ان يستفحل ، ففشلت الخطة وقبض على المرأة ودلت هى على العوام ، ولما فتش منزله عثر فيه على قصائد تحض على الثورة وعلى رسالته هذه ، وقد حوكم العوام واعدم فى سنة ١٨٨٤م ، قيل اعدم فى منزله ليلا ، وقيل اعدم فى قصر راسخ بالطرف المقابل للخرطوم .

لم يعالج العوام قضية المهدى ومهديته عن طريق عقد المقارنات بين علاماته وصفاته وبين العلامات والصفات التى ذكرها الاقدمون عن المهدى المنتظر ، وهو الوجه الذى يدافع به الشيخان الحسن العبادى والحسين زهرا ويعارض به الشيخ احمد

الازهرى والامين الضرير وشاكر الغزى ومن اليهم وانما يتعرض الى قضايا فكرية وسياسية كانت تشغل بال المفكرين السياسيين الذين ناصروا الثورة العرابية ، مثل امامة الخليفة العثمانى وشرعية خلافته وفساد نظامه والوضع السياسى فى مصر ، وتسلط العناصر الأجنبية على مصر وفلاحيها ، وهى نفس القضية التى عبر عنها الافغانى ومحمد عبده بموقفهما حيال الثورة المهدية . ويبدو لى ان العوام كان يناصر خطه السياسى الذى اختطه بمناصرته للثورة العرابية ويواصل ما انقطع بمصر عن طريق الثورة السودانية والذود عنها ، اى طريقا للخلاص من النظام العثمانى فى تركيا والولايات التابعه له ، لا تأييدا لفكرة المهدية ذاتها . فهو يدين الوضع السياسى فى تركيا ومصر ويحمل على السلطان عبد الحميد واسرة محمد على ويحض على الثورة عليها ولكنه يتفادى الكلام عن المهدى ويعلن انه يرجئه حتى يلتقى به ، ولست ارى فى هذا العذر الا هربا ومداراة ، وقد غلب عليه الصدق عندما قال فى الصفحة التاسعة : «وان يمكن لنا الله ديننا الذى ارتضاه لنا ، دين وفاء لصادق وعده ، وتصديقا لحديث نبيه ، سواء كان بالامام المهدى هذا عليه السلام ، فقد ظهرت كواكبه ولاحت بوارقه ، او بغيره من عباد الله الصالحين » . فالمهم عند العوام ليس شخص القائم بالامر وانما المهم هو الامر نفسه . وعلى اى حال فقد سقط العوام شهيدا قبل ان يلقى المهدى ويقول عنه ما يريد وقام بالمهمة التى ارجأها الشيخ الحسين زهرا فأتم الفصل الخامس وعدد مساند الامام المهدى .

ان العوام يمثل الصلة بين الثورة العرابية والثورة المهدية ويمثل موضع الخلاف بينهما . فالثورتان تعملان للقضاء على الخديوية ، وهذا موضع الالتقاء ، ولكنهما يختلفان فى مابعد ذلك ، اذ بينما يأخذ المهدى وانصاره بفكرة المهـدية ويهدفون الى مجتمع اسلامى على التصور الذى وضعه المهدى ، كان الثوار المصريون يهدفون الى حكومة تعتمد على النيابة وتقضى على امتياز العنصر التركى وتضع العنصر المصرى فى موضعه الصحيح . كان المجتمع المصرى اكثر ادراكا لظروف العصر واكثر تجربة فى محاولات العصرنة وادراك قضايا المجتمع والتعامل مع الامبراطورية العثمانية ومشاكلها والتعامل مع اوربا ، بينما كان السودان بعيدا عن كل هذه الطروح . لذلك جاء مفهوم الثورة مختلفا هنا عن مفهومها هناك . ويرد مصداق ذلك فيما

يذكره الخليفة عبد الله فى خطابه الى الملكة فكتوريا عن عرابى وثورته وكيف تختلف المهدية عن مشرب العرابيين ومذهبهم فى الحياة والجهاد . وربما يدحض هذا ما اشتهر فى بعض الروايات بأن المهدى اراد ان يبقى على غردون ليفتدى به عرابى .

ان العوام ينتمى الى مدرسة تختلف عن مدرسة المهدى ، وهو يصور الهوة البعيدة فى الفكر بين السودان والعالم العربى فى هذه الفترة .

وقد وقف الامام المهدى على الرسالة واجازها ثم طبعت بمطبعة الحجر فى سنة ١٣٠٥هـ مع فصل اخير عن المهدى والمهدية اضافه الحسين زهرا تكملة للكتاب ، اذ ان الكاتب يشير فى نهاية كلامه الى انه أجل الكلام عن المهدى حتى يلتقى به ويقف على مخبره . وتوجد نسخة كاملة من الرسالة فى مكتبة كلية الدراسات الشرقية بجامعة درهام ونسخة غير كاملة ونسخة مصورة بالفوتستات عن نسخة درهام بدار الوثائق القومية بالخرطوم . وقد حققها ونشرها الاستاذ محمد رشدى حسن بعنوان نصيحة احمد العوام والعلاقة بين العرابية والمهدية . وهناك دراسة اخرى للدكتور ابراهيم شحاته بعنوان «مصر والسودان ووجه الثورة فى نصيحة احمد العوام» يرد فيه نص الرسالة (ص ٢٢٧–٢٧١) بالاضافة الى الدراسة .

تقع الرسالة فى مقدمة واربعة فصول فى ٦٠ صفحة ، وخاتمة بقلم زهرا تبلغ ٣١ صفحة . وقد تكلم المؤلف فى المقدمة عن ظروف وضع الرسالة وبين هدفه من التأليف ، وهو مناصرة حركة المهدى ومنع الحرب الدائرة فى السودان والدعوة الى نظام جديد للحكم يكون بديلا عن الخلافة العثمانية والخديوية .

ويعالج الفصل الاول قضية الوحدة الاسلامية ،والتعاون بين المسلمين ، وتحريم الحرب بينهم . ثم يضع مسؤلية الحرب القائمة فى السودان على كاهل الاتراك ويدين استعانتهم بغردون المسيحى ، ويتخذ من مقدمه دليلا على فشل النظام التركى . وفى الفصل الثانى يبحث فى مسألة الحرب الدائرة بين المسلمين فى السودان وينتهى الى الى ان محاربة المهدى غير جائزة ومخالفة للاسلام ، لأن الدولة العثمانية ليست حكومة اسلامية لمخالفتها للشريعة ، ولأن المهدى نفسه يحارب من اجل الاسلام والقضاء

على الحكومة التى خرجت عن الشريعة وأستنت قوانينها الوضعية . ثم ينتهى الفصل بنداء المسلمين لتأييد حركة المهدى . وفى الفصل الثالث يخطئ السلطان عبد الحميد والخديو توفيق لأنهما لم يرسلا وفدا من العلماء لمقابلة المهدى بل بدلا من ذلك البوا العلماء للهجوم عليه . اما فى الفصل الرابع فقد تعرض الى الامامة فى الاسلام وشروطها . وقد بنى وصفه لها وشروطها على اساس تقليدى مع انه يعد ثوريا فى اتجاهه العام . فاشترط ان يكون الامام قرشيا ومسلما صحيحا ، وان ينتخبه العلماء واهل الحل والعقد او يأتى باختيار سلفه ، ثم يبنى على ذلك بطلان خلافة عبد الحميد وولاية توفيق لأنهما لم يستوفيا الشروط .

اما الفصل الخامس فهو الذى وضعه الحسين زهرا ، وهو يقع فى طرفين اولهما تلخيص لآراء العوام وثانيهما كلام عن المهدية فى الاسلام ومهدية المهدى ، وهو لا يأتى فيه بجديد لا يذكره فى رسالته التى سبق الكلام عنها .

المطارحـة أثناء حصـار الخرطـوم :

واثناء وقائع الخرطوم ، على ايام غردون ، وقعت مطارحتان قصيرتان . اما الاولى فكانت عندما بدأ الحصار الاول الذى قاده ابناء الشيخ العبيد بدر والمضوى عبد الرحمن وعبد القادر قاضى الكلاكلة وقادة القبائل المقيمة حول الخرطوم ، اذ عندما استقر وضعهم حول الخرطوم وضربوا الحصار كتبوا الى غردون يقولون فى صيغة موحدة وقع كل منهم على نسخته : « اما بعد ، فقد بلغنى انك تزعم ان معظم اهل السودان مجبورون على اتباع محمد احمد المهدى وليس لهم الرغبة فيه باطنا وانك تحب خلاصهم منه ، فأعلم ان جميع اهل السودان خاصتهم وعامتهم قد اتبعوا محمد احمد قلبا وقالبا ، ودليل ذلك بذلهم ارواحهم بين يديه فى الحروب. وانى انصح لك ان تفعل احد امرين : اما ان تسلم للمهدى فتسلم بمن معك من اهل الخرطوم فيؤتيك الله اجرك مرتين او ان ترحل الى بلادك فتنجو من هذه المهالك ، فانه لا خير لك فى البقاء هنا على هذا الحال لانك ان بقيت فلابد من هلاكك انت وجميع رجالك والسلام » (١).

---

(١) نعوم شقير ص ٤٤٩ .

وقد رد عليهم غردون بجواب هذا مفاده «اعلموا ان محمد احمد الذى اتبعتموه ليس المهدى المنتظر على ما اثبتته النصوص الشرعية . والمعلوم انه سلطان كردفان كما سبقت فاخبرته فى كتاب خاص . واما نصيحتكم الى بالتسليم فتدل على جهلكم وغروركم ولا يسوغ لى ان اسلم لكم العساكر والرعية لتعاملوهم بما تعودتموه من القتل والنهب والسلب . واعلموا انكم اذا لم ترجعوا عما انتم فيه ستبلون بجيوش من قبل الحكومة الخديوية والدولة الانجليزية لا طاقة لكم بها . والعاقل من تدبر امره والسلام» (١).

وقد اورد الدكتور مكى شبيكة نصا مغايرا للخطابين قال انهما ترجمة من الانجليزية . ويبدو ان مصدره تقرير نصحى باشا عن حصار الخرطوم وسقوطها . يقول نص الامراء كما يروى شبيكة : «لاشك مطلقا فى ان محمد احمد هو المهدى ولنا عقيدة فيه وقد امرنا بحصرك والهجوم عليك . فاذا استسلمت لنا ستكون فى امن وسلام ونعاملك معاملة حسنة ونتفادى سفك الدماء » . وزاد عبد القادر قاضى الكلاكلة فى نسخته : «انا الوزير الخاص للمهدى وكنت ابشر برسالته ووقته منذ ثلاثين سنة . وعليه فاننى اضمن سلامتك وسلامة استيوارت باشا وسكرتيرك ابراهيم بك رشدى واضمن لك الرحيل سالما الى بلادك . غير ان بقية الجيش بضباطه والزعماء الآخرين والمواطنين وكل المخازن وممتلكات الحكومة ستصير جميعها ملكا للمهدى ومؤيديه» (٢) .

اما رد غردون حسب هذه الرواية فكانت : «اعلموا ان محمد احمد لم يكن المهدى المنتظر كما هو مثبت فى الكتب المقدسة . والمعلوم عندى انه سلطان غرب السودان حسب اوامرى له . اما تسليمى لكم فمحال طالما ظلت رؤوسكم فوق رقابكم وستحيط بكم جيوش باسلة يستحيل وقوفكم امامها هى جيوش سمو الخديوى وصاحبة الجلالة ملكة بريطانيا . وعليه فانتبهوا او ابتعدوا من خداع انفسكم لأنه من المستحيل تسليمكم الجيش والاهالى لتعاملوهم بطرقكم الوحشية بقتلهم ونهب ممتلكاتهم» (٣) .

---

(١) نعوم شقير ص ٤٤٩

(٢) السودان والثورة المهدية جا ص ٤٣

(٣) نفس المصدر ص ٤٣ .

ثم اورد شبيكة النص الذى اوردناه من قبل نقلا عن نعوم شقير . وقد لاحظ عن حق انه لا خلاف بين النصين فى المعنى والاتجاه . اما سبب الخلاف اصلا فهو ان الذى اورده نعوم هو النص الاصلى بينما النص المترجم هو فيما نعتقد ما ادخله نصحى باشا فى تقريره عن حصار الخرطوم . وبالطبع فان تضمين نصحى لنص الرسالة فى التقرير لم يكن حرفيا كما ان الترجمة من الاصل العربى الى الانجليزية ثم من الانجليزية الى العربية قد باعد بين الاصل وهذا المترجم الذى يورده شبيكة . وعلى اى فان اصل المكتوبين محفوظان فى المتحف البريطانى بلندن مع اصل يوميات غردون بالخرطوم . ونذكر بهذه المناسبة أن لغردون يوميات لأيامه فى الصين ، وهى مكتوبة باللغة الفرنسية . وتوجد النسخة الاصلية منها فى متحف بيت الخليفة بامدرمان . ويلاحظ هنا ان خطاب الامراء والرد عليه جاء قبل وصول رد المهدى على خطاب غردون والذى ادى الى غضب غردون وتوتره . ولو جاء الرد قبل ذلك لما احسن غردون على الرسل الذين حملوا الخطاب وكساهم .

وجاءت المناسبة الثانية عندما جاء عبد الرحمن النجومى بجحافله محاصرا للخرطوم ، اذ ارسل خطابا الى غردون يطالبه فيه بالتسليم . وقد رد عليه غردون بأنه لا يحفل به ولا بجيوشه وانه سوف يهزمه كما هزم اباقرجة من قبل (١) .

ولكن النقطة المهمة التى تدخل فى باب المطارحة حول المهدى والمهدية هى ان النجومى اوعز الى العلماء الذين صحبوه فكتبوا رسالة يؤيدون بها مهدية المهدى فأرسلها الى غردون ، وقد اوعز غردون بدوره الى العلماء الذين معه فاعدوا رسالة فندوا فيها اقوال علماء النجومى وانتهوا الى ان محمد احمد لا تنطبق عليه الشروط الواردة فى المهدية وانه مجرد مدع . وقد وقع على الرسالة الامين الضرير رئيس ومميز علماء السودان وشاكر الغزى مفتى استئناف السودان وحسين المجدى مدرس العلم بالجامع ومحمد خوجلى قاضى عموم السودان وموسى مفتى مجلس السودان(٢) .

وترد تراجم لهذه الوثائق المهمة فى يوميات غردون المطبوعة ، واصولها محفوظة مع اصل اليوميات بالمتحف البريطانى . وقد تعرض نعوم الى الامر عرضا ولم يعن

---

(١) انظر نص الخطابين فى نعوم شقير ص ٤٨٦

(٢) نعوم شقير ص ٤٨٦ـ ٤٨٧ .

بتلخيص مادة المطارحة . وقد وقفنا على الرسالتين ، وهما لا يخرجان عن محيط آراء العلماء الذين سبق ان لخصنا اراءهم من المؤيدين للمهدية والمعارضين لها وقد تغاضينا عن تلخيصها حتى لا نكرر ونطيل الكلام . ويبدو ان هدف الطرفين كان التأثير النفسى على الخصم اكثر من المطارحة ، وربما كان البدء اجتهادا من علماء النجومى وبالأخص عبد القادر قاضى الكلاكلة . ومن الطريف ان علماء الخرطوم طالبوا بمطارحة مفتوحة بين الطرفين فى مكان آمن الا ان المطارحة وقفت عند هذا الحد وآل الامر كله الى السلاح . ونضيف الى ذلك انه عندما ورد رد المهدى على خطاب غردون الأول ، وكان ذلك قبل مجئ ابى قرجة واثناء حصار ابناء العبيد بدر والامراء ، استشاط غردون غضبا ودفع الهدية برجله وامر ابراهيم بك رشدى فاحرقها (١). ثم ارسل ردا غاضبا الى المهدى ، وقد ضاع على الأثر أمل غردون فى استجابة المهدى لما دعاه اليه فى خطابه بأن يصير سلطانا على كردفان والكف عن الحرب . ذكر نعوم ان « غردون جمع العلماء فى الخرطوم فكتبوا نصحا شرعيا بينوا فيه بطلان دعوى محمد احمد وحكموا بتكذيبه فسلم غردون هذا النص والكتاب الى الرسولين واعادهما الى محمد احمد فى الأبيض واخذ يستعد للدفاع »(٢). ولكنا لم نقف على هذا النصح الشرعى .

مجمل الرأى حول المطارحة :-

عرضنا فى السطور السابقة الجوانب المهمة من المطارحة بين المهدى وخصومه ، ولابد ان ننبه الى ان عرضنا لا يغنى القارئ المجد ، لأن الوثائق التى اعتمدنا عليها للدراسة مكتوبة بتركيز شديد بحيث اضحى من الصعب ان نعصر مضامينها مرة اخرى. وهى تتضمن قضايا وآراء وحججا لابد من ان تمثل فى مختصرنا بامانة وعدالة ، وكل نقطة بما تستحق وحسب بالمقارنة الى المطارحة فى مجملها والى جوانب ما يساق فيها. وان المرء مهما اوتى من مقدرة ودقة لا يمكنه ان يستوعب كل ذلك ويضمه فى فصل فى كتاب . ومع تسليمنا بذلك فانا بذلنا غاية الجهد لنلم باطراف المطارحة خطوة خطوة ونقطة نقطة وتوخينا الحيدة فعرضنا كل وجه بما يمثله دون ميل لمناصرة هذا الطرف او ذلك او معاداته ، كما توخينا العدالة بحيث جعلنا لكل طرف ما يناسبه من

---

(١) نعوم شقير ص ٤٥٥ .

(٢) نفسه

الطول او القصر . وكما يرى القارئ فاننا وضعنا اعتبارا كبيرا للاطار التاريخي حتى لا تكون المحاورة معزولة عن مسبباتها وظروفها .

وبنظرة مجملة يتبين لنا ان المحاورة دارت حول أمور رئيسية ، وهي :ـ

١ ـ فكرة المهدي المنتظر :ـ

ان فكرة المهدي المنتظر هي النقطة الرئيسية في المطارحة ، وهي منشأ القضية من الاساس . فاذا صحت صح كل ما يقوله المهدي ، واذا بطلت بطل كل ما يقوله . وقد تركز الكلام حولها في نقطتين ، اولاهما اصل الفكرة واساسها الديني . وقد اورد العلماء المعارضون المساند التي ترفض الفكرة ، وساقوا في ذلك الاحاديث والروايات ، ولكن وقفتهم كانت قصيرة وانكارهم كان خجلا . اذ ما الجدوى من ذلك والمهدية قد اضحت امرا قائما وهب الآلاف يناصرونها . وكيف للعلماء ان يزيلوا فكرة المهدي بعد ان ترسبت في النفوس واصبحت معتقدا عاما لا يقبل النقاش نتيجة لقوتها في التراث الاسلامي وظلالها القوية بحيث اصبحت أمل المستضعفين والمتطلعين والتأثير الطاغي للطرق الصوفية التي بشرت بها . لذا عبروا من هذه النقطة سراعا الى ما يليها على نحو قولهم : وعلى فرض انها صحيحة . واميز من فعل ذلك شاكر الغزي .

اما النقطة الثانية فهي قياس احوال المهدي بما ورد عن المهدي المنتظر في المؤلفات . وهنا نلاحظ انهم عادوا الى مؤلفات اهل السنة ، ولم نر احدا استشهد بمؤلفات الشيعة . وكان غالب اعتماد العلماء المعارضين على هذا المصدر . ثم انهم اعتمدوا على مؤلفات الصوفية من امثال محيي الدين بن عربي والشعراني ، ولكن هؤلاء كانوا غالب مصدر مناصري المهدي . والذي عليه المعارضون بعد طرح العلامات والأوصاف في اطار التراث المهدوي هو ان حال محمد احمد لا تطابق ما ينبغي ان يكون عليه المهدي المنتظر . اما المؤيدون للمهدي فانهم يجرون محاورات يدللون بها على استيفاء المهدي لكل الشروط ومطابقة حاله لما ورد . اما المهدي نفسه فيتخذ سبيلا آخر ، وهو رفض الاخذ بالشروط والعلامات المنقولة لأنه يراها مقيدة لقدرة الله القادر على ان يفعل ما يريد ويرسل المهدي على الوجه الذي يشاء ، لا على الوجه الذي يقننه العلماء . يقول المهدي في ذلك :

«وحيث ان الامر لله والمهدية ارادها الله لعبده الفقير الحقير الذليل محمد المهدى ابن عبد الله فيجب بذلك التصديق لارادة الله ، وقد اجتمع السلف والخلف فى تفويض العلم لله . فعلمه سبحانه لا يتقيد بضبط القوانين ولا بعلوم المتفننين ، بل يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب . قال تعالى: «ولا يحيطون بشى من علمه الا بما شاء وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ولا يسأل عما يفعل ويخلق ما يشاء ويختار يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم» . وقد قال الشيخ محيى الدين بن عربى فى تفسيره على القرآن العظيم : علم المهدى كعلم الساعة ، والساعة لا يعلم وقت مجيئها على الحقيقة الا الله . وقال الشيخ احمد بن ادريس : كذبت فى المهدية اربعة عشر نسخة من نسخ اهل الله ، ثم قال : يخرج من جهة لا يعلمونها وعلى حال ينكرونها . وهذا لا يخفى عليكم ان التأليفات الواردة فى المهدى منها الآثار وكشف الاولياء وغير ذلك فيتخلف كل منهما كما علمتم من انه يمحو الله ما يشاء ، الآية . ومنها الاحاديث ، فمنها الضعيف والمقطوع والمنسوخ والموضوع ، بل الحديث الضعيف ينسخه الصحيح ، والصحيح ينسخ بعضه بعضا ، كما الآيات تنسخها الآيات ، وحقيقة ذلك على ماهى عليها لا يعرفها الا اهل المشاهدة والبصائر » .

وقد تمت المطارحة فى حدود ضيقة بالنسبة للجمهور بمعنى ان ما يكتبه طرف لا يبلغ الا عددا محدودا من الطرف الآخر بحكم التعتيم على الخصم من قبل الطرفين . وفى مجتمع تسود فيه الامية كسودان القرن التاسع عشر كان عدد من تؤثر فيهم الادبيات المكتوبة قليلا من الاصل .

وبينما كان اتجاه العلماء اتجاها فقهيا يقنن الامور بالسند والقياس ويخلص بذلك الى نتيجة عقلية كان اتجاه عامة الناس هو الايمان واليقين سواء من هذا الطرف او ذلك، ولذلك كان تأثير الادبيات العلمية ضئيلا . وقد بهر المهدى جمهوره بقوته الشخصية وتدينه وصلاحه وانتصاراته واصبحت حركته حركة جماهيرية بينما ظل العلماء يتعاملون مع الكتب ويعملون فى صف مع الدولة بعيدا عن نبض الجماهير .

٢ ــ الامامــة والخلافــة :

طال الكلام حول الامامة والخلافة وشروطهما وهل يجوز الخروج على طاعة

الحاكم الشرعى الذى اتفق عليه اهل الحل والعقد وهو الخليفة العثمانى ومن يعمل باسمه ، وقد انتهى المعارضون للمهدى الى صحة خلافة عبد الحميد الثانى وولاية توفيق باشا وحرموا الخروج عليهما بينما انكر المؤيدون للمهدى على خلافة عبد الحميد الصفة الشرعية وذهبوا الى أن نزع السلطة منه واجب ينبغى على المسلمين ان يقوموا به . وحيث ان المهدى هو الامام بمقتضى توليته من قبل الله وتنصيبه على يد الرسول فقد بطلت خلافة بنى عثمان وصار هو ولى الأمر الذى توجب الشريعة طاعته على كل الناس ، وكل من لا يؤمن به كافر لا يعالج امره الا السيف.

٣ ـ مؤهـلات المهـدى :ـ

وهى فيما يتعلق بما قام به المهدى من امور ، اى مدى ما يمكن ان تبلغه سلطته ، نحو : هل يحق له ان يشرع بمعزل عن المذاهب والتراث الذى خلفه المسلمون من متون وشروح ، وهل من حقه ان يلغى المذاهب ويبطل الطرق الصوفية ، وهل يجوز تكفير المخالفين له وحل دمهم مع انهم يعلنون الاسلام ويؤدون اركانه الخمسة ، وهل يحق لفرد ، مهما كان مقامه ، ان يكون حكما فى معتقدات الناس وان يدخلهم فى الاسلام أو يخرجهم منه حسب مقاييسه الخاصة .

٤ ـ تصـورات :ـ

استقر تصور رجال الحكومة والعلماء على ان دعوة المهدى دعوة مكذوبة لا تنطبق عليها شروط وعلامات المهدى المنتظر وانه ما آمن به الا اثنان : الاوباش والجهلة وطلاب المنافع ، وان باقى من معه مجبور على امره بالقهر ، وان الدعوة خروج على السلطة الشرعية وبالتالى ينبغى محاربتها والقضاء عليها ، وانها فتنت المسلمين وجعلتهم فى حرب بعد ان كانوا فى امن وسلام واتت على الزراعة والتجارة وسائر مظاهر العمران . هذه الصورة تتكرر فى رسائل علماء الحكومة وفى مراسلات رجال الدولة ويمكن ان نعد مآخذ الشلالى على المهدى والتى يذكرها المهدى فى جوابه (١) اليه ليرد عليها نموذجا لتصور اهل السلطة لوضع المهدى . ومن الجانب الآخر يرى المهدى وانصاره رجال الدولة خارجين عن الاسلام ومضلين للعباد وان متع الدنيا اعيت عيونهم عن الحق وصدتهم عن الايمان بالمهدى وانه لا علاج للترك الا السيف وان المهدية لابد منتصرة مهما كانت المشاق بفضل العون الالهى .

---

(١) نعوم شقير ص ٣٤٣ – ٣٤٧ ، الآثار الكاملة ٣٠

الفصـــل الثالـــث

المهدية : تصـور المهدى

فكـــــرة التصـــور :

المهدية فيما تمثلها فكرة المنقذ المنتظر ترتيب كونى يأتى اضطرادا مع تقدم البشرية عقب مرحلة الرسالات السماوية . فعندما تبلغ البشرية قدرا من التقدم والرقى يأتى دور الأنبياء ، فيظهر نبى فى هذا القوم للهداية ، ونبى آخر فى ذلك القوم ، ثم يأتى دور الرسل لهداية البشرية بأسرها ، وفى ختام هؤلاء يأتى الرسول العربى خاتما للرسل وبه تنتهى رسالة السماء الى الارض . فلا نبى ولا رسول بعده ولا وحى يوحى من السماء .

وحتّى لا تترك العناية الالهية البشرية معرضة للضلال يتولى العلماء ، وهم ورثة الانبياء ، وعلى رأسهم مجدد القرن ، والاولياء ، وهم ورثة السر الالهى ، دورهم فى هداية الخلق وسوقهم الى الحياة القويمة . ومع ذلك يزداد الفساد مع توالى الزمان مضطردا حتّى يعم ويملأ الارض وينال الناس منه ما لا يطيقونه ، وتبلغ هذه الدورة الفاسدة من حياة البشرية قمتها فيظهر المهدى المنتظر ليملأ الارض عدلا كما ملئت جورا وينقذ البشرية باقامة الاسلام الصحيح النقى من الشوائب وتنعم البشرية بالسعادة الخالصة ، ثم يظهر الدجال فى دورة ظالمة حالكة ويعقبه النبى عيسى ، عائدا فى بعض الأقوال او بشرا فى اقوال اخرى ، فيقتل الدجال وتنعم البشرية مرة أخرى فى دورة عادلة ثم تأتى نهاية الحياة الدنيا وتقوم القيامة .

وفى داخل هذا الاطار الكونى العام تجئ تصورات مختلفة لمهمة المهدى المنتظر حسب اختلافات البيئات الفكرية و ما يواجه الامم من مصاعب ، تصور مسيحى ، وتصور اسلامى ، وتصورات اخرى من ديانات غيرهما . وفى داخل الاسلام نفسه تتعدد التصورات حسب الطوائف والمذاهب من مهدية شيعية ومهدية سنية ومهدية صوفية ، ثم تصورات تتفرع عن هذه وتقوم على اساس المدارس والاجتهادات الفردية استجابة للظروف المكانية والزمانية والاجتماعية على نحو ما نرى من تعدد دعاة المهدية وتنوع

ما يرمون اليه . ومن هنا كان سـؤالنا الذى نحـاول ان نجيب عليه فى هذا الفصل ، وهو : أى تصور كان يحمله المهدى لمهديته . ولكن هذا السؤال يقودنا الى قضية طويلة وشائكة نعد فيها الآن كتابا ، وللضرورة نكتفى هنا بخطوط سريعة .

بدءا نقول ان تصور المهدى لمهديته ليس تصور مهدى الشيعة الذى غاب فى السرداب وتنتظره أجيال الشيعة ، انه ليس الامام الغائب الذى يعود ،وانما هو بشر عادى ولد فى السودان ونشأ كغيره من الناس ثم اختارته العناية الالهية لهذه المهمة على غير انتظار منه . وهو ليس مهدى العباسيين ولا سفيانى بنى امية اللذين يدعوان الى حق ضائع لفئة او منتظر لها ، بل هو مهدى بتصور مختلف استجابة لظروفه الخاص .

وتصوره لمهام المهدية يأتى فى الاطار السنى ، ومن هنا التزامه بالكتاب والسنة والاصرار على التقيد بهما ، واحكامه ورسومه جاءت فى نطاق السنة . وقد جاء هذا التصور مشبعا بتصورات الصوفية ونظراتهم ، وبالاخص صـوفية المغرب العربى . وعن طريق الصوفية ، وبالأخص محيى الدين بن عربى ، جاءت مؤثرات شيعية ، ولكن بغير مغالاة .

وكما يجئ فى فصل آخر فان الروايات المتواترة عبر الاجيال ومن مختلف الطوائف والاتجاهات قد جعلت للمهدى المنتظر اوصافا وشروطا . وهى الامور التى احتكم اليها العلماء المؤيدون للمهدى والعلماء المعارضون له . ولكن المهدى نزولا على واقعه وانسياقا مع ابن عربى واحمد بن ادريس يتخذ خطا آخر وهو الاعتراض على هذه الامور باعتبار انها من وضع البشر وتتعارض مع قدرة الله المطلقة فى ان يكون المهدى بأية صورة يشاؤها وفى أى وقت وزمان . ومع ذلك حاول ان يلتقى ببعضها دون الاحتجاج بها . فالمهدى على هذا الوجه ليس مقيدا بشكل محدد مسبقا .

ولفهم مضمون المهدية ، او بالاحرى لتقريبه الى البحث ، يستحسن ان نفرق بين ماهو خاص منها بفكرة المهدى ومهمته الكونية وما هو خاص بالتصوف ومؤثراته . الفكرة الأولى هى الأصل ، اما الثانية فقد جاءت اثر تلقف المتصوفة لفكرة المهدية ووضعها فى قالبهم . وقد تقدم الكلام فى ذلك . ولكن ما نريده هنا هو مشرب المهدى نفسه واتجاهه وتعامله مع الفكرة ، والذى هو مشرب صوفى . ان هذا المشرب قد

جاء بحكم النشأة الدينية والتّربية على ايدى اساتذته فى المدارس وشيوخه فى الطريقة والقراءة المتمكنة فى ادبيات التصوف .

من أوجـــه التصـــوف فى مهديتـــه :ـ

ان مسندها صوفي وحقيقتها صوفية . فالمهدى يكرر القول بأن العلماء لا يدركون مهديته بمقاييسهم العلمية وانما يدركها اهل البصائر ، وحين ولادته عرفه اهل الباطن والحقيقة لا العلماء .

عدد المهدى نفسه الروافد الصوفية وروافد المهدية فى حركته فى القول الذى أورده على لسان الشيخ الطيب فى وصف حضرة تنصيبه فقال : «الطريقة فيها الذل والانكسار وقلة الطعام وقلة الشراب والصبر وزيارة السادات ، فتلك ستة . والمهدية ايضا فيها ستة : الحرب والحزم والعزم والتوكل والاعتماد على الله تعالى واتفاق القول . فهذه الاثنا عشر لم تجتمع لاحد الا لك ». وهكذا يوضح ماهو من اصل المهدية وما هو آت من التصوف. ثم لاحظ انه يسمى حركته «الطريقة» مما يثبت قولنا بأنه كان يدير حركته فى أول الامر على نمط طريقة صوفية . وكما ترى فان نصف الروافد صوفية .

وضعه لراتب وحزب قرآنى ، والعناية بالتسبيح والبسملة والصلاة على النبى والادعية على نحو ما يفعل الصوفية .

اعتماده البيارق ، والبيارق التّى رفعها هى بيارق صوفية . وقد كتب فى كل راية من الرايات الأربعة اسم قطب من الاقطاب ، وتحمل هذه الراية لون طريقة القطب ، والراية الخامسة هى راية المهدى ، ولونه ابيض وقد كتب فيها اسم المهدى . وهكذا يضع المهدى نفسه صنوا للاقطاب .

تصوراته صوفية فى كثير من احواله وقد اعتمد على الرمز كثيرا عند توضيح الامور .

تسميته أعوانه فى الاقاليم فى اوائل المهدية خلفاء على نحو خلفاء الطرق .

القول بالحضرات ورؤية النبى يقظة وان الاولياء يخبرونه بأمور .

القول باسرار للامور لا يراها الا الخاصـــة .

القول بجنة للعامة وهى ملذات الآخرة وبجنة للخاصة وهى التمتع برؤيته سبحانه وتعالى .

التفسير الباطنى للقــرآن .

القول بالتوكل المطلق فى كل امر .

التصـــور :—

اما فكرة المهدية فقد سبق ان ذكرنا جذورها وتصورات العلماء والصوفية لها . اما بالنسبة لتصور المهدى نفسه فانها تقوم على ثلاثة اصول محددة وان كانت تبدو لتداخلها وربطها بنظام واحد — شيئا واحدا . فهناك فكرة المهدى المنتظر ، وهو الشخص الذى اختاره الله لهداية الخلق على المنوال الذى تخيله المسلمون وسوقهم الى الاسلام الاصيل ومجتمع العدل المطلق . وهذا الموفد من قبل الله والذى خلف على يد الرسول فى مشهد الخلفاء الراشدين والاولياء على نحو ما جاء فى مشهد تنصيبه مهديا مكلف باداء هذه المهمة ، وقد خصه الله وحده بها بحيث اذا انتهى دوره انتهى هذا الوعد الكونى ولا يكون بعده مهدى آخر ، لأن الدورة الكونية للمهدية تكون قد انتهت .

ثم ان هناك فكرة الامام ، وهو الذى يقود جماعة الانصار المؤمنين به بحكم الواقع ، الا انه من الوجهة النظرية امام للبشرية جمعاء . وهذه القيادة قيادة كاملة وشاملة دنيا واخرى . والايمان بها شرط اساسى من شروط الاسلام ، ومن هنا تكفير المخالفين له .

ان لفظ الامامة لفظ غنى بالظلال لأنه جمع بين امامة المهدى وامامة القرن والمنقذ المنتظر والمصلح وامام الصوفية الملهم وبعض من امام الشيعة المعصوم .

ثم هناك الخلافة ، وهى أمر مرتبى وموضوعة على نمط مراتب الصوفية من غوث ونقباء وأوتاد . فالمهدى يضع اتباعه فى مراتب متفاوتة . جعل خلفاءه الكبار فى مراتب الخلفاء الراشدين ، وزوجاته فى مرتبة زوجات الرسول ، وشاعره ود التويم فى مرتبة حسان بن ثابت شاعر الرسول ، واتباعه عموما فى مرتبة صحابة الرسول ، والعامى منهم فى مرتبة القطب الصوفى المعروف عبد القادر الجيلانى . اما هو نفسه ففى مرتبة خليفة الرسول .

على هذا الوجه تأتى الخلافة وتدخل فى اسس المهدية . غير ان الامر ليس هيكلا شكليا بحث يأتى هذا فى مكان ذلك وحسب ، وانما له مضمون ، اذ الخلافة تعنى ان يلتزم الخليفة بخطوات من يخلفه ، ومن هنا القول بان المهدى يفعل ما كان يفعله النبى وانه يقفو اثره وان زمنه مندرج من زمنه وان مهمته هى الوراثة المصطفوية .

ان فكرة الامامة وفكرة الخلافة امران لهما مضمونان . وهما لا يؤديان الى مجرد ضرب من ضروب الحكم او مجرد القيادة والتخليف ، وانما هما من أصول دعوة المهدى ولا يستقيم التسليم له وبالتالى للاسلام — على حد قوله — الا بالتسليم بهما .

ونحن عادة نصنف ما تم على يد المهدى واتباعه بأنها ثورة وما اقامه من رسوم بأنها دولة . ونحن محقون فى ذلك حسب مفاهيمنا ، لأن الرسوم فعلت ما فعلت وقامت بما قامت كما يعمل دولاب الدولة ، ولأن ماقاموا به فرض على الناس بقوة السلاح وانهى النظام الذى كان سائدا وقلب اوضاع السودان قابا وغير مساره الاجتماعى والسياسى . ولكن هذان المسميان موحيان الينا بما تم . وقد فرضا على المهدية من الخارج ولا تقبلهما فكرة المهدية ، لأن الأمر عند المهدى واتباعه أمر دعوة دينية .

هذه الدعوة الدينية موجهة لبناء مجتمع اسلامى مثالى ، ليس فيه حد بين الدين و القوالب الاجتماعية ولا بينهما وبين المؤسسات التى اقامتها كبيت المال والقضاء والادارة والجيش ، بل من الواضح أن الدين هو كل شيء ، وانه يجعل في شموله التام لكل شيء النظم المالية والادارية والسياسية مجرد ادوات يباشر بها العمل . ولهذا نجد ان المهدى يرفض ان يكون نظامه نظام دولة بمعزل عن الدين او بناء سياسيا او يكون باشوية او مديرية او كسروية او قيصرية كما يقول فى منشور له . بل أن الامر امر دينى موجه لبناء مجتمع مكرس لاغراض دينية . وقد وصف المهدى أمره هذا بأنه أمر الهى بمعنى انه سبحانه وتعالى هو الموجه له .

وعلى نقيض ما كان يبغى فانه خلق أجهزة لا يمكن ان نصفها الا بأنها انظمة سياسية وادارية ، ولم يكن للمهدى محيد عن ذلك لأن الدعوة لابد لها من نظام وتنظيم ولابد للجهاد من أن يقوم عن طريق التنظيم العسكرى ، وللعدالة ان تكون بجهاز قضائى ، ولمصالح الناس وامورهم من امراء وعمال ، ولحقوق الله من زكوات وغيرها من عمال قائمين عليها ،

ان المجتمع الاسلامى الذى يهدف اليه المهدى هو النمط الذى كان عليه مجتمع الرسول والخلفاء الراشدين . وهو يقفو اثر الرسول ويعيد سيرته ويتمسك بما خلفه،وزمنه مندرج من زمنه واصحابه كاصحابه فى الفضل والمرتبة الدينية . وقد نسخ محصول التراث الذى خلفه المسلمون ، ماعدا القرآن والحديث وبعض كتب ، لأنه يحمل مؤهلا لم يحمله احد من المسلمين وهو التلقى المباشر من الرسول والالهام الذى يجعله يصل الى الحكم الذى كان يصل اليه الرسول لو كان فى مكانه . لقد اتخذ هذه المؤهلات لأنها واردة فى اوصاف المهدى فى المصادر التى وقف عليها ولأنها وافقت اتجاهه الاصلاحى الذى يدعو الى استنباط الاحكام من الاصول الاساسية وهى القرآن والحديث . ورفضه للتراث يقوم باعتبار أن التراث باعد بين الناس وبين الدين الحق لأن العلماء انشغلوا بالقشور وتركوا اللباب وانساقوا مع الحكام وارتضوا بما اتوه من المظالم ووافقوهم على العمل بالقوانين الوضعية وتعطيل احكام القرآن .

ولذلك كان الغاؤه للحواشى والمتون وادبيات العلماء . ومع ذلك يبقى شططا القول بانه الغى العلم والعلماء كلية ، لأنه لم ينكر دور العلماء بل اشاد بهذا الدور ، وهو أنهم حفظوا الاسلام حتى او صلوه اليه . وهو يقرب العلماء ويعنى بهم ليكونوا عونا له وعضدا. فالرفض اذا ليس رفضا للعلم والعلماء أصلا وانما هو احساس بما قد يعكسه تأثير العلماء على دعوته سلبا .

والمهدى لا يشتط فى احكامه بل يتوخى فيها روح الاسلام مع التقيد بالقرآن والحديث . وهو قد الغى المذاهب بمعنى انه لا يعتمد ايا منها ، فهو ليس مالكيا او شافعيا مثلا وانما هو فوق المذاهب ليجمع الناس على ما احتطه ويوحدهم . ومن الملاحظ انه تأثر كثيرا بالمذهب الشافعى فى العبادات بينما تأثر فى الاحكام بالمذهب المالكى ، وتأثر بالمذهب الحنبلى فى التوحيد المطلق والتشدد فى العقوبات ورفض كرامات الاولياء . ولقد اسعفته فى كل هذا معرفته الواسعة بالفقه وتمكنه من القرآن والحديث .

وقد يعجب المرء من رجل يظهر باطراف العالم الاسلامى فى نهاية القرن التاسع عشر ويتلقى تعليما محدودا ثم يضع نظامه على الرسوم الاسلامية ، وذلك باعتبار ان مثال الدولة الاسلامية كان بعيدا عنه . انظر ختمه ، فهو اسلامى ، وكذلك قواعد الكتابة وآدابها والتى جاءت على اصول اسلامية . انظر قضاءه وبيت

ماله وتنظيم جيشه ، انها كلها على النظام الاسلامى . فمن اين له هذا ؟ لقد شغلنا هذا الامر كثيرا ، وفى النهاية استقر رأينا على ان الفقه الاسلامى الذى جمع اطرافها وادرك اسرارها هو الذى اطلعه على دقائق الحكم الاسلامى .

ولكننا نلاحظ ان نظره الى العالم كان بوحى ما قرأ، ولم يكن لصيق الصلة بمشاكل الاسلام والمسلمين خارج السودان ، ولذلك لاترى صدى فيما يكتب للتقدم المادى والمعنوى فى اوربا واثر الثقافة الاوربية على الفكر العربى وضعف الامبراطورية العثمانية امام الدول الاوربية والضغط الاستعمارى على العالم الاسلامى ومشكلة الخلافة الاسلامية بعد ان اختلف الاتراك والعرب على صعيد القومية الطورانية والقومية العربية . انه كان بعيدا عن هذا الصراع التاريخى الهائل بين الشرق والغرب وعوامل التفكك والصراع فى داخل الجسم العثمانى . كان غاية مايرى أن النصارى تغلبوا على المسلمين ، وأن العالم الاسلامى انحط لأن المسلمين تركوا دينهم وتخلوا عن مثله. والعلاج هو العودة الى هذا الدين فى صفائه ونقائه . لذلك كان مضمون حركته مختلفا عن مضمون ثورة عرابى وحركة الافغانى ومحمد عبده وثوار الشام ومفكريه .

ومثله مثل كل الدعاة غلب عليه التفكير المثالى فى اول امره وجعله يطلب المحبة والاخوة فى الله والتضحية وايثار الغير على النفس ، الا أن من يتصدى لمصائر الناس وينظر فى ارواحهم وما ملكوا لابد ان ينزل اليهم وان يأخذهم بما عهدوا . ومن هنا كان التنظيم القضائى والادارى والعسكرى واحقاق ما يحق للناس وتعيين النواب للنظر فى شئون الخلق الدنيوية . لقد عدل المهدى كثيرا فى نظرته تحت ظروف مسئولياته الجسيمة واحسب انه مات وفى نفسه ان يعدل الكثير . ولعل أهم امر تراجع فيه ما كان من امر ريع الاراضى المملوكة ، ذلك لأنه فى أول امره اعتمد لكل فرد ملكه ولكنه جعل الانتفاع على الشيوع بحيث يزرع صاحب الملك القدر الذى يستطيع ويعطى ما تبقى لمن لا يملك دون أن يأخذ منه ايجارا او ينتفع بمنفعة من ريعه . فلما واجه وقع هذا الامر فى بربر ودنقلا ، حيث الأراضى ضيقة وشحيحة وحيث بعض الضعفاء يعيشون على ريع اراضيهم ، تراجع عن هذه القاعدة وسمح بايجار الاراضى بقيود . وامر آخر فى مادة الارض ايضا ، فانه أمر بأن ترجع الاراضى المغتصبة من اربابها اليهم بشرط أن يدفعوا للحائز ما دفعه فى سبيلها ، هكذا مطلقا تعود الاراضى من

الحائزين الى ملاكها . ولكنه لما رأى جانب الحائزين وما يقع على من توطن منهم من ظلم قيد ذلك بزمن بحيث اذا أوفى الحائز فترة أو أكثر فى استغلال الارض تركت له لأنه يكون قد استقر على حوزه . لقد راعى الا يهز استقرار من توطن حقيقة .

وهناك امران يأخذان قدرا كبيرا من عنايته فيما يكتب . اما اولهما فهو الكلام حول الدنيا والآخرة . ان سعادة الآخرة هى فى نظره مسعى الانسان الاساسى فى الدنيا ،والدنيا ليست الا معبرا لها . ولابد للمؤمن الحق ان يترك الدنيا ونعمها من أجل الآخرة . ولكن ذلك لا يعنى الغاء الدنيا كليا ، وذلك لأمرين ، اولهما عرضى ، وهو قوله بأنه ركز على أمر الآخرة لا اهمالا للدنيا وانما لأنه وجد الناس مقصرين فى امرها بينما هم مجتهدون فى امر الدنيا ، وثانيهما أن الالتزام بما يؤدى الى سعادة الآخرة يخلق الحياة السعيدة فى الدنيا ، لانك لو جعلت فى امورك مقصد الآخرة لاستقام كل امر تأتيه فى دنياك . فالعمل للآخرة فيه سعادة الدنيا والآخرة . وبنصرة الآخرة ينتصر المرء لدنياه ، وبغيرها تضيع الدنيا والآخرة . ثم أن الجهاد والفداء يقومان على تبخيس الدنيا والتضحية بها وبنعمها رجاء لما فى الآخرة ونعمها الرحبة .

اما الامر الثانى فهو الزهد والتقشف اللذين يتخذهما اساسا لفلسفته الاجتماعية ويجعلهما محور المجتمع الذى يحلم به وايقن ان بهما العلاج الناجع لمشكلات الانسان ، ذلك لأن الزهد والتقشف يؤديان الى الترفع عن الفوائد المادية المباشرة لما هو اقيم فى رحاب الفضائل والقيم الدينية . فالغرض منهما هو الجانب الروحى منهما . غير ان التقشف والزهد فضيلتان للفرد فى المجتمعات التى تعانى من عدم التوازن الناشيء من سوء توزيع الثروة وروح التكالب . للزهد جدوى فى مجتمع تشغل أهله الدنيا ومطالبها من مال وجاه ، وللتقشف جدوى فى مجتمع الفساد والتكالب على الدنيا ، لأن الزاهد والمتقشف يبرزان فى المجتمع بهذه الروح الفذة التى تجعل ما يصطرع حوله الناس قشورا واباءه لبا . فاذا سلمنا على هذا الوجه بأن للتقشف والزهد فضلا على محور الفرد للوصول به الى النقاء فكيف لنا أن نفرضهما على مجتمع بحاله ، كيف لنا أن نتصور مجتمعا كل افراده من الزهاد والمتقشفين . وما الجدوى من فرضهما على مجتمع خال من الامراض عادل فى توزيعه للفرص والثروات . ان قوة الزهد والتقشف على المحور الاجتماعى هى التميز بما هو انذار للمتكالبين .

ولما كان الغاء المذاهب والطرق الصوفية أمرا جوهريا فى المهدية فانا نريد ان نختم هذا الفصل بكلام جامع عنه ، لأن ما سبق عنه كان مبتورا .

كان اتجاه المهدى نحو الغاء الطرق والمذاهب قديما ، ويبدو ان ميله الى فكرة التوحيد والتشديد فيه كان يحمله الى هذا التيار ، بل أن اختلافه مع شيخه محمد شريف نور الدائم كان فيما يبدو يرجع الى حد كبير الى هذا الاتجاه . ولما جاءت المهدية كان لابد أن يتبلور هذا الاتجاه فى صورة واضحة ، لأن الاشارات قد وردت فى المصنفات التى تكلمت عن المهدى المنتظر بانه يلغى المذاهب ويبطل الطـــرق ويلغى الكتب القديمة وانه يوحد العالم الاسلامى على عقيدة واحدة واتجاه واحد .

وقد جاءت الاشارة الاولى لاتجاهه هذا فى خطاب من المهدى الى الشيخ محمد الأمين الهندى ، اذ انه اشترط عليه عدم التعلق بالأئمة والاعتماد على الكتاب والسنة (١) . ثم مضى المهدى فى اتجاهه هذا وبدأ يتخلص من رواسب الطرق ، ولما ذهب الى قدير وصار اغلب اتباعه من اهل الغرب تباعد المهدى عن جو الطرق الصوفية الذى كان يسيطر على الجزيرة وصار يكيف علاقاته بالناس وبالمجموعات الدينية الكبيرة ، وقد عاونه هذا الابتعاد فى التخلص من اثرها . وبين أيدينا الآن نصوص كثيرة حول الغاء الطرق والمذاهب . ومن ذلك أن المهدى يقول فى خطاب الى أهالى فاس انه يشترط العمل بالكتاب والسنة فقط وترك المذاهب وآراء الشيوخ (٢) . ومنه كتابه الى الفقه محمد الأمين دفع الله والفقيه حامد محمد سلفاب اللذين كان لهما توقف من دعوته ، وقد كتبا اليه مراجعين ، يقول المهدى : «فاما من جهة المذاهب والطرق الآن لا يخفاكم ما من الله به علينا من الفضل والاحسان ، ولو كان اهل الطرق والمذاهب الآن على ظاهر الدنيا لاتبعونى واقتدوا بى . ولا شك ان هذا يعلموه اهل الطريقة قبل ظهورنا فى ترك طرقهم بطريق المرشد حيث وجد فى اى زمن فضلا عن ظهورنا . وما كان ينبغى لامثالكم الا الهجرة الينا . . . . فعليكم بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاعملوا بالقرآن والحديث الصحيح ، فهذا الذى نحن عليهما ، واقتدوا باقوالنا ، ففى ذلك الوفاء بكل ما طلبتموه من الفرائض والسنن والأدعية وغيرها » (٣) .

---

(١) ابوسليم ، د.محمد ابراهيم : المرشد الى وثائق المهدى (تحت الطبع) ،رقم ٤٦

(٢) نفس المصدر رقم ٧٢٣

(٣) الآثار الكاملة رقم ٤٣٧

وقد تعرض الخليفة عبد الله الى هذا الامر فى خطاب نورد نصه كاملا لاهميته :

بسم الله الرحمـــن الرحـــيم

الحمد لله الوالى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم

وبعد ، فمن عبد ربه الخليفة عبد الله بن محمد خليفة الصديق وامير جيش المهدية(١) الى كافة الاحبـــاب .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته عليكم وينزلان بسوحكم ويعمان من لديكم .

اما بعد، فالذى نعرفكم،ايها الاحباب، قد علمنا من جوابكم الى حضرة السيد الامام عليه السلام بأن الأخوان(٢) الذين معكم امروكم بترك الطريقة التيجانية واخبروكم بأن الامام نفسه امركم بذلك فما اصغيتم (٣) لقولهم وتوقفتم عن تركها وذكرتم انكم تترددوا فى مقالتهم ورغبتم رد الافادة اليكم فى خصوص ما سمعتموه منهم : هل هو صحيح أم لا لآخر ما توضح بجوابكم فهم .

والحال اعلموا ايها الاحباب — وفقنى الله واياكم وجعلنى واياكم من الاحباب — أن ما نقلوه اليكم اخوانكم المذكورين فهو صحيح، وهو الحق الذى لا مرية منه، وهو احق ان يتبع ، فاعتمدوه واتركوا التوقف وما انتم عليه من التمسك بتلك الطريقة ، واحسنوا الظن فى اخوانكم واستغفروا الله عما فرط منكم والتردد والوقوع فى حقهم .

ولو امعنتم نظركم فى أول وهنة لعلمتم انه ما كان ينبغى لكم ذلك ، لأن الأمر واضح كالشمس لما ان الامام المهدى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وخاتم الاولياء على الاطلاق عند اهل الظاهر والباطن . ومعلوم عندكم وعند جميع اهل البصائر انه على نور من الله وتأييد من رسول الله صلى الله عليه وسلم وموعود انه يرفع المذاهب ويطهر الارض من الخلاف ويعمل بالسنة حتى لا يبقى الا الدين الخالص بحيث

---

(١) اصدر الخليفة رسائله بهذه الصفة بعد فتح الابيض اثر التنظيم الجديد ومن هنا ندرك الوقت الذى صدرت فيه الوثيقة الى حد ما .

(٢) يقصد بالاخوان العمال او الامراء الذين يمثلون المهدى هناك ، وعادة يصف اتباع المهدى زملاءهم بالاحباب لا الاخوان .

(٣) صنعتم : الاصل ، والمقصود : اصغيتم. هذا القول دليل على ان الناس كانوا والى هذا الوقت يجمعون بين المهـدية والطرق الصوفية وهودليل ايضا عـلى ان الغاء الطرق وجد معارضة قويـة .

لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم موجود لأقره على جميع افعاله، لأنه صلى الله عليه وسلم قال فى حقه : يقفو اثرى لا يخطأ (١).

فمن كانت هذه حالته وهو موجود مشاهد بحاسة البصر كيف يرغب عنه ويعول على سواه مع عدمه ، ولو كان موجودا ما ساغ له الا اتباعه(٢). الا ترى انه لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم موجودا فى الحالة هذه عيانا هل يجوز لأحد من الناس ان يتمسك بغيره أو بخلافه ويسير بغير سيره . ولو فعل ذلك لما ينبغى له ــوالعياذة باللهــ فقد ضل وأغوى وباء بغضب من الله تعالى ، لأن طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم واجبة كوجوب الايمان به ، قال تعالى : «واطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون» . وقال : «وان تطيعوه تهتدوا » . وقال تعالى : « من يطع الرسول فقد اطاع الله » . وقال تعالى : «وما أتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا » . وقال تعالى : «ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقا ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما» . وقال تعالى «وما ارسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله» . فجعل الله تعالى طاعة رسوله طاعته ، وقرنها بطاعته ووعد عليها بجزيل الثواب وأوعد على مخالفته بسوء العقاب واوجب امتثال امره واجتناب نهيــه .

وخليفته الامام المهدى عليه السلام المثابة لأنه وارث مقامه (٣) الاعلى ، فهو اخبره

---

(١) يذكر الخليفة ان المهدى موعود برفع المذاهب ووقف الخلاف ، ولا خلاف فى انه رفع المذاهب وابطل الطرق ولا فى ان هذه الفكرة وجدت منذ أوائل الدعوة، ولكن الخلاف فى قوله انه موعود ، فالمهدى لايذكر انه وعد بذلك ، وانما يقرر بطلانه تقريراً دون أن ينسب امره الى وعد أو اشارة . وقد افاض الشيخان الحسين زهرا والحسن العبادى فى الكلام حول رفع المذاهب وموقع ذلك من تعدد اتجاهات المسلمين واقسامهم .

(٢) يقصد : كيف يرغب عن المهدى ويعول على (التجانى) مع ان (التجانى) غير موجود الآن ولو كان التجانى موجوداً لما وسعه الا اتباع المهدى .

(٣) يكثر هذا القول فى المنشورات التى أصدرها الخليفة عبدالله فى اوائل حكمه وهو أحيانا يقول الوراثة المصطفوية، ووارث المقام وخليفة الرسول ونائب الرسول لهم نفس المدلول وان كان المعنى اللغوى يضفى لكل ظلالا خاصة .

بذلك فلا تسوغ مخالفته . كيف وهو باب الحقيقة ومركز دائرة الطريقة (١). فكل الاولياء من الانس والجن احياء وامواتا تحت حكمه . وفضلا عن التيجانى فان الشيخ عبد القادر الجيلانى الذى هو سلطان الاولياء سابقا ما هو الا كالعوام فى جنب اصحاب الامام عليه السلام ، فأين له ان يتبع بعد هذا .

والمهدى هو صاحب هذا المقام وشخصه نائبا عن شخص(٢) النبى صلى الله عليه وسلم واصحابه كاصحابه وزمنه مندرج فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، بل لو بعث الله النبيين والمرسلين والاولياء والصالحين (٣) فى هذا لما وسعهم الا اتباع هذا الامام والاقتداء به فى جميع الاحكام بحسب خلافته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . اذ قد جرت سنة الله تعالى بأن كل رسول ينسخ شريعة من قبله حتّى كان آخرهم محمد صلى الله عليه وسلم ، ولذلك استمرت شريعته الى يوم القيامة مع تجديدها على يدى الورثة فى كل قرن (٤) حتّى ختمهم الآن بالمهدى عليه السلام .

وقد خص صلى الله عليه وسلم بأن الاسلام بدىء غريبا وانه سيعود كما بدأ وان الله تعالى يختم هذا الدين بمن يؤيده (٥) من اهل بيته صلى الله عليه وسلم وعنى بذلك

---

(١) انظر كيف يستعمل الكاتب مدلولات صوفية فى هذا الموضع . وان القول بان المهدى هو باب الحقيقة ومركز دائرة الطريقة لا يعتبر بعيداً عن مفهوم المهدية لأن المهدى قد اوضح فى حضرة التنصيب أنها تقوم على أسس الطرق الصوفية واسس أخرى جديدة وان اسس المهدية فى جملتها لم تجتمع لاحد قبله .

(٢) فرق الخليفة بين المقام والشخص ، فالمهدى وارث للمقام ، أما شخصه فنائب عن شخص النبى .

(٣) يعنى الرسول ماعدا محمدا ، لأن المهدى نائب عن محمد ومن ينوب لا يتبعه الذى ينوب عنه ثم انه قال قبل قليل بأن الرسول كان يقره لوبعث ولم يقل يتبعه . والانبياء والرسل يتبعون المهدى لأنه نائب عن الرسول الذى نسخت رسالته رسالاتهم . ويقصد بالاولياء والصالحين الأموات منهم وليس الاحياء لأن المهدى يذهب الى انه لا ولى فى زمنه ولا بعده لأنه خاتم الاولياء ، ولا يعقل ان يقصد المهدى (الاولياء الاحياء) وهو يشترط بعثهم آنئذ .

(٤) يقرر الخليفة ان لكل قرن وريثاً وان الورثاه يجددون الشريعة ، وان المهدى كان آخر هؤلاء الورثة المجددين . والخليفة هنا متأثر بفكرة امام القرن وهى فكرة قديمة فى تاريخ الإسلام .

(٥) تذهب فكرة المهدية الى القول بأن المهدية من علامات الساعة وان الدجال والمسيح يأتيان بعدها . وعلى هذا فلا مؤيد للاسلام بعد المهدى . ومن هنا كان القول بأن المهدى خاتم الاولياء بمعنى ان الولى هو الرجل الذى يصلح الدين . وقد ذهب الخليفة الى بعض معتقدات الشيعة حين يقولون ان رجلا من أهل بيت النبوة يظهر فى آخر الزمان فيملأ الأرض عدلا ، والى ذلك يقصد المهدى بقوله أنه من نسل النبى . وهذا أثر من آثار الأفكار الشيعية فى المهدية السودانية .

المهدى ، وكما هو نائبه صريحا فى غير ما خبر [1]. واخبر ان من كذبه أو شك فى مهديته فقد كفر وماله غنيمة للمسلمين ودمه هدر .

وحيث كان الامر كذلك فيا اخواننا نبهوا[2] وافتحوا عيون قلوبكم وتوقفوا من جميع الطرق ونبهوا اخوانكم بذلك وتوساوا جميعا بهذا الامام المهدى عليه السلام فقط واعملوا بالسنة النبوية وعضوا عليها بالنواجذ ، وهى طريقة [3] لا غيرها ، وهو عمل بها ، فانكم ان احسنتم الاقتداء به فى العمل بها لاشك ان تصلون الى الله . هذا ماعرفناكم به ، والسلام [4] .

---

(١) أى فى أكثر من خبر

(٢) ربما يقصد : تنبهوا ، فهذا مكان التنبيه وقد نص على التنبيه بعده .

(٣) أى ان العمل بالسنة النبوية هى طريقة المهدى . وهو لا يقصد بلفظ الطريقة المعنى المصطلح به عند أهل الطرق ، وانما يستعمله بمعناه اللغوى : السبيل .

(٤) الوثيقة ترد فى مصدرها الوحيد وهو مصنف نجومى بغير تاريخ وقد رجحنا صدورها فى أواسط ١٣٠١هـ ، وهذا يقابل اوائل ١٨٨٤ .

الباب الثـــانى

المهدى ورسومه

الفصـــل الأول

المهـدى وآثـاره

تعليمــــه :

نال المهدى قسطا وافرا من التعليم فى حدود ما كان متاحا لاترابه فى ذلك الزمان . فقد ذهب الى الخلوة صغيرا فى الخرطوم وتعلم القراءة والكتابة وحفظ قدرا من القرآن فى خلوة الفكى شرف الدين عبد الصادق وخلوة الفكى محبوب الحبشى معتوق احمد شجر الخيرى وتلميذ الفكى الامين ود ام حقين وخلوة الفكى محمد المبارك المشهورة ببرى(١) . وفى ١٢٧٧ / ١٨٦٠-١٨٦١م اخذ الطريقة السمانية على الشيخ محمد شريف نور الدائم فيما يقول على المهدى(٢) . ثم التحق بمسيد كترانج ودرس على الشيخ الامين بن محمد المشهور بالصويلح ، وكان عالما جليلا ورعا ولقب بالصويلح لصلاحه ، وكانت له حلقات درس ، بجانب حلقة كترانج ، فى التكينة وكلكول بالقرب من الكاملين . وقد درس عليه المهدى علوم اللغة والدين . وفيما يروى الدكتور عز الدين الامين فانه درس هنا كتاب قطر الندى وبل الصدى لابن هشام وكتاب شذور الذهب فى معرفة كلام العرب لابن هشام ايضا مع شرحى ابن هشام للكتابين . وقد رجح انه درس ايضا بعض ما كان مشتهرا من الكتب فى عصره كرسالة القيروانى فى الفقه وجوهرة التوحيد (٣) .

وكان مسيد كترانج من المدارس الشهيرة فى السودان ، وكان اتجاهه اتجاها علميا صرفا ومستواه رفيعا . وقد شهد له احمد السلاوى رئيس القضاء فى أوائل العهد التركى فقال : «وبالجملة فما وجدت فى بلاد السودان عالما اعلم ولا اروع من تلامذته ولا وجدت عندهم علما انصف ولا اصفى من علمه» . والضمير فى تلامذته يرجع الى احمد بن عيسى شيخ المسيد ورأس آل الانصارى والذى استقر فى سنار فى أواخر

---

(١) على المهدى ، المخطوط ص ١٢

(٢) نفســه

(٣) الامين ، البروفسير عزالدين : قرية كترانج واثرها العلمى فى السودان ص ٥٦ – ٥٧ .

عهد الفونج مشيخا بعض أقربائه على كترانج والمسيد الآخر بالشرق ، ثم يقول السلاوى : « وتلامذته عندى مقدمون على سائر علماء السودان حتى وليتهم جميعا نيابة القضاء والافتاء والتدريس فى اماكنهم فى الجزيرة» (١). وقد تخرج فى مسائد آل عيسى عدد من المشاهير منهم بدوى ود ابو صفية والامين الضرير ومحمد الامين الهندى وجملة من قضاة العهد التركى والمهدية .

وفى ١٢٧٩ / ١٩٦٢-١٩٦٣م ختم دراسته فى كترانج ولحق بخلوة محمد الخير عبد الله خوجلى بالغبش بغرب بربر . ويذكر على المهدى انه غادر الخرطوم على نية الذهاب الى مصر والالتحاق بالازهر ، فلما بلغ بربر زين له احد تلاميذ محمد الخير ان يلتحق بخلوة استاذه فمال المهدى الى ذلك والغى فكرة الذهاب الى مصر ولحق بالغبش . ولو انه ذهب الى مصر لتعدل درب حياته واختلف مسار تاريخ السودان . ونحن لا نستبعد هذه النية لأن التعليم فى الازهر كان يعد قمة التعليم وفخرا عظيما لمن يناله ، وقد تيسر هذا لعدد قليل من ابناء السودان فصعدوا فى مراقى المجد وسعدوا . وعلى أى فان تعليم الازهر لم يتيسر للمهدى فوقف تعليمه فى حدود ما كان متيسرا فى السودان . ولكن هذا لا يعد مأخذا فى تأهيله لأن مسايد السودان كانت توفر تعليما جيدا لمن يسعى. وقد تقدم ما اشاد به الشيخ السلاوى مسيد آل عيسى . والشيخ الأمين الضرير مميز علماء السودان واشهر علماء العهد التركى واعلاهم مقاما تلقى تعليمه فى السودان ولم يذهب لمصر ، ومع ذلك بلغ ما بلغ .

وفى خلوة الغبش تتلمذ على الشيخ محمد الخير عبد الله خوجلى والذى اصبح فيما بعد عامله العمومى على بربر ودنقلا . وكان عالما مشهورا ، وكان اسمه اصلا محمد الضكير فجعله المهدى محمد الخير ، وعلى ذلك سار واشتهر . وكانت خلوة الغبش تركز على علوم القرآن واللغة العربية . وقد ابتعد آل الغبش عن الطرق فلم ينتموا الى القادرية التى انضم اليها جيرانهم بكدباس ولا الختمية التى وفدت مؤخرا مثلما فعل آل السناهير ، وفى ظننا انهم ابتعدوا عن الطرق حتى يكون جهدهم خالصا للعلم . ولكن محمد الخير انضم الى الطريقة التجانية التى وفدت مؤخرا واصبح لها

---

(١) طبقات ود ضيف الله – الذيل والتكملة تحقيق الدكتور محمد ابراهيم ابوسليم والدكتور يوسف فضل حسن ، ص ٢٣ .

اتباع ببربر ، ولعله فعل ذلك حتى لا يكون بعيدا عن تيار التصوف العارم ، ولاشك انه فضل التجانية الوافدة على الطرق المستقرة حتى لا يصير تابعا لأى من زعماء القادرية او الختمية فيكون اقل مكانة من جيرانه . وقد درس المهدى هنا القرآن وعلوم اللغة العربية والفقه . وعلى ما يذكر على المهدى فانه ختم المختصر . وقد امتدت اقامته الى ثلاث سنوات ذهب بعدها الى كررى ليتزوج بابنة عم له يقال لها فاطمة بنت الحاج .

وفى الغبش عرف المهدى علماء وطلبة من جهات مختلفة وبالأخص من الشمال ، وقد ذكرنا عددا منهم فيما تقدم . ويكفى ان نعلم ان الغبش كانت قبلة الطلاب من بلاد الشمال وأن من خريجها عددا من مشاهير السودان مثل المدثر ابراهيم الحجاز وابو القاسم هاشم والحسن العبادى . ومن الغبش اتصل ببربر والدامر وزار العلماء والمشائخ من أمثال آل المجذوب وآل عطيوه . وربما كان ميله فى العبادات الى المذهب الشافعى من تأثير بربر عليه لأن هذا المذهب كان منتشرا بها منذ ان نشره محمد بن على بن قرم الكيهانى فى القرن السادس عشر . وبالجملة فان تأثير سنوات الغبش عليه كان عظيما ، لأنه جاءها ناضجا ، ولأنه تأثر بعلماء وشيوخ المنطقة فضلا عما تلقاه فى الخلوة من علوم .

وبعد عودته من الغبش لازم الشيخ محمد شريف نور الدايم شيخ الطريقه السمانية بمركزه بام مرحى ومارس الصوفية درسا وسلوكا ، ومازال يتدرج ويترقى حتى اجازه واذن له بالذهاب حيث شاء لاعطاء العهود وتسليك الطريق . وقد اتاح له مقامه فى ام مرحى الوقوف على كتب السمانية ، وهى فى التصوف وعلوم الدين عموما ، وبها قدر من الاقوال والروايات عن المهدى المنتظر منسوبة الى مصطفى البكرى والسمان ، كما اتاح له العمل فى الطريقة قدرا من التجربة فى ادارة الطرق والاتصال برجال السمانية — وهم أكثر فى الخرطوم والجزيرة — وان يوثق صلاته بهم .

ثم ذهب الى الخرطوم واقام بها مع اخوانه حتى رحلوا الى الجزيرة ابا فى ١٨٧١ . وقد حاول امتهان التجارة ففشل لأنها لم توافق مزاجه ومثله . لقد عاف جانب الغش فيها واستغلال الحاجة من اجل الكسب كما ادرك انها تؤدى الى المحظور اذا اتصل ببيع محرم او ما يعاون عليه كالحطب الذى كان يبيعه فيبتاعه منه صناع الخمور . ويقال انه اسس فى الخرطوم خلوة للتدريس . قال ابراهيم فوزى انه افتتح مكتبا

لتعليم الغلمان القرآن الشريف ثم ابطل المكتب (١). وذكر الاستاذ يحيى محمد ابراهيم بغير ان يشير الى مصدره انه اسس فى ١٨٦٣ مدرسة فى الخرطوم لتعليم العلوم الدينية وان المدرسة استمرت عشر سنوات . ثم نقل عن القباني — واظن هذا مصدره عن المدرسة — انه علم نحو سبعة الآف من العربان القراءة والكتابة وتساءل محقا ان كان ذلك فى مدرسة الخرطوم او فى مكان آخر(٢) . ولو جاز لنا ان نجتهد لقلنا ان ذلك كان بالجزيرة ابا ، اذ لو خرجت مدرسة الخرطوم مثل هذا العدد لاشتهرت ، ولو نجحت بهذا القدر لما تركها صاحبها . ثم أن تعليم العربان يستبعد فى الخرطوم ويرجح فى أبا .

وفى أبا بنى جامعا للصلاة وخلوة للتدريس ، وكان من تلاميذه بها على الحلو — نصيره فى أبا ورفيقه فى الثورة وثانى خلفائه .

ويتردد فيما يذكر عن حياته الاولى اصرار اخوانه على ان يعمل بالنجارة واصراره هو على العلم والدين ، وقيل فى ذلك انه تعلم النجارة وانه عمل مع اخوته بالفعل (٣) ولكن ذلك لم يتواصل لأن وجهته كانت للدين .

وقد ساح وزار جهات كثيرة فى السودان وعرف رجال الدين والاعيان فاستفاد منهم علما وخبرة ووقف عن كثب على ما كان يجرى من امور وادرك ما كان يحسه الناس ويعانون منه .

وقد قرأ المهدى كثيرا فى محيط العلوم الدينية كالفقه والحديث والتفسير ،وكان قدر كبير مما يقرأ فى التصوف او فيما الف المتصوفة من كتب ،وقد ذكر القليل من هذه الكتب فى رسائله . ومن ذلك كتاب الفتوحات المكية لابن عربى الذى يستشهد به فى معرض دفاعه عن مهديته . ومؤلف لاحمد بن ادريس لم يعينه ولكنه يورد عنه اقوالا تدعم موقف مهديته . وعند رده على مؤاخذة الشلالى له على قتل عساكر الحكومة استشهد بما قاله الدرديرى ، شيخ المالكية الشهير بمصر ، فى باب المحاربة فى كتاب له عن جواز قتل عساكر الحكومة لأنهم يحاربون من أجل الجزية . وقد ذكر فى المجالس تفسير

---

(١) فوزى ج ١ ص ٧٢ .
(٢) تاريخ التعليم الدينى فى السودان ص ٣٢٥ .
(٣) فوزى ج ١ ص ٧١ .

روح البيان لاسماعيل حقى والتأويلات النجمية لنجم الدين داية . وفى كتابه الى حمدان العركى (المرشد رقم ٩٤٠) اجاز له قراءة كتاب كشف الغمة مما يعنى انه قرأه . هذه مواضع قليلة يذكر فيها المهدى الكتب التى قرأها . ومما يروى عن ايامه بالغبش ان شيخه محمد الخــير افتقده اياما فبحث عنه حتى اهتدى اليه ووجده يقرأ احياء علوم الدين للغزالى فاختطفه منه وامره الا يمس مثل هذه الكتب الا بعد دراسة مختصر خليل فى الفقه المالكى دراسة وافية . هذه الواقعة تفيدنا بانه قرأ الاحياء كما تفيدنا من وجه آخر بان محمد الخير كان يركز على العلوم ويبعد طلبته عن التصوف .

ان هذه الكتب على قلتها تكفى للدلالة على نوعية ما كان يقرأه المهدى . ولقد أجمل نعوم شقير[1] حصيلة تعليم المهدى فقال : « فاتقن مبادئ النحو والتوحيد والفقه والتصوف» . وقال عنه الشيخ عبد المحمود نور الدايم : «وقد نشأ المذكور نشأة مباركة على العبادة . . . وقد قرأ القرآن العظيم والعلم على مشائخ الوقت وتنبل وتفوق وحاز قصب السبق فى مضمار المعارف والعوارف . ثم اقتفى أثر السادة الصوفية بمطالعة كتبهم والتخلق باخلاقهم والتأدب بآدابهم »[2] .

الكاتـــب :

كان من شأن هذا الدرب فى التعليم والنشأة ان يقود صاحبه الى مستوى من الثقافة الدينية تؤهله للقيادة الدينية ـ كان ذلك فى القضاء والفتيا او شيخ طريقة او شيخ خلوة او مدرسة . وقد اوتى المهدى ذهنا وقادا وفكرا ثاقبا ومقدرة عالية على الكتابة . وعندما قام بحركته أستمد من هذا المعين الفياض واستغل ما وهبه الله من ملكة القيادة والبصيرة النيرة فخرج عن اطار مجتمعه وسياج عصره وسما بأسلوبه ، وقد بز اقرانه وفاق عليهم واصبح صوته الاعلى اذا خطب وقلمه الاقوى اذا كتب وحكمه الأرجح اذا نظر . فهو بغير شك امام كتاب عصره فى السودان . وضع نظم الكتابة على الوجه الاسلامى والزم به الكتاب فالتزموا ، وجعل ديوانه على نمط الديوان الاسلامى فعمل فى محيطه الكتاب . وقد اعطى للكتابة محتوى وغاية وحررها من المحسنات والتكلف واللعب باساليب البلاغة وكتب ببيان عربى سلس ناصع . وقد اعترف له الدكتور حسين

---

(١) نفس المصدر ص ٦٣٨ .

(٢) نور الدائم ، الشيخ عبد المحمود ، أزاهير الرياض فى مناقب العارف بالله تعالى الاستاذ الشيخ احمد الطيب ص ٣٠٤ .

مؤنس ووضعه فى الصف الاول من كتاب العربية فى اواخر القرن الماضى وجعله يمتاز على كتاب عصره فى العالم العربى بحس ادبى واضح (١) .

وكان هو بنفسه يكتب مشرعا وواعظا وحاكما ، كأن الكتابة مهمته الأولى ، ولا يترك لغيره الا ما لا يتوفر له ، فالمهدى هو الموجه لمسار الفكر وهو القدوة للكتاب فيما يكتبون ولست أرى فى تاريخ السودان من كان له مثل هذا التأثير البالغ فى تاريخ الفكر والثقافة فى السودان .

هذا الموقف الايجابى من الكتابة والمواجهة المباشرة للمسائل بحكم موقعه فى صدارة الحركة هو –فيما نحسب– الذى هداه الى طابع الرسائل ويجعله يبتعد عن وضع الكتب . وكانت رسائله لهذا السبب قصيرة ، تعالج كل منها موضوعا واحداً . وقد بلغت الرسالة – وان شئت قل المقالة كما يسميها البروفسير عبد الله الطيب – على يده من حيث البناء والاسلوب درجة عالية من الجودة ، بل لم تجد الرسالة فى تاريخ السودان من الاحتفال ما بلغته على يد المهدى واتباعه . وقد تنوعت الرسائل وتعددت انماطها وتباين بناؤها حسب مقتضى الحال . وعندنا ان المهدى مزج بين نمط الرسائل الخصوصية التي كان يكتبها الناس والرسائل القصيرة التى كان يضعها العلماء واساليب الرسائل الملوكية ، وخرج علينا بنمطه الخاص من الرسالة . وقد حافظت الرسالة على طابع العلاقة المباشرة بين المهدى وقارئه ، وهو بخلاف ما يكون عليه الوضع لو انصرف المهدى الى وضع الكتب . ان الرسالة مخاطبة جماهيرية بينما الكتاب مخاطبة للخاصة . والرسالة فيها خصوصية لأنها تخاطب القارئ الفرد بأعتباره المعنى مباشرة ، ولذلك كان اثرها على القارئ اقوى من اثر الكتاب .

أســــلوبه :–

وقبل ان نتعرض الى وصف اسلوب المهدى وبيان مميزاته عن قرب لابد لنا ان نشير الى الصعوبة التى تواجه مثل هذه المحاولة وهى صعوبة تحديد النماذج التى كتبها المهدى بنفسه . فقد جرت نظم الديوان على ان تنسب كل المحررات الصادرة من الديوان الى شخص المهدى ، وبالتالى فاننا نجد ضمن الوثائق المنسوبة الى المهدى ما حرره

---

(١) حوليات كلية آداب جامعة ابراهيم باشا ، المجلد الثانى ، العدد الثانى ، ص ١٤٤

الكتاب باسمه . ومما يزيد الأمر صعوبة ان هؤلاء الكتاب كانوا يحاكون اسلوب المهدى ويسيرون على المنوال الذى سار عليه . وقد جرت العادة بأن يبين كاتب المسودة اسمه فى المحرر بجانب تاريخ الوثيقة فى بعض المحررات الصادرة عن الخليفة عبد الله فى زمن المهدى ولكن كتاب المهدى لم يأخذوا بهذه العادة ، وربما كان ذلك تأدبا منهم . ولما جاء المصنفون الاوائل ، ومنهم كتاب المنشورات المطبوعة ، لم يفرقوا بين ما كتبه المهدى وما كتبه الكتاب له ، غير ان بعض المصنفين الاواخر كالمسلمى ومحمد المجذوب صاروا يفرقون بين هذا وذاك ، وقد اشاروا الى ما كتبه المهدى بنفسه بقولهم « بخطه » والى ما كتبه غيره بقوله « بخط الأخوان» . غير ان هذا ليس بالامر المضطرد كما انه من الصعب ان نعتمد كل ما يصدر منهم . وهناك اخبار ترد فى بعض الوثائق تبين بعض مكتوبات المهدى ومكتوبات الآخرين . ومن ذلك ما يرويه المصنفون عن مناسبات الكتابة ، ومثل هذا كثير عند المسلمى وكاتب مصنف الصادق . مثلا يقول كاتب الصادق : « يقول الحبيب احمد النور : كنا جلوسا عنده عليه السلام بعد راتب الضحى بالرهد وهو يقرأ حزب القرآن المرتب بعد اتمام الراتب فلما وصل عند قوله تعالى : ان الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها الى قوله يكسبون صار يكرر فيها ويدعو ثم طلب الدواة والقرطاس فأتيناه بهما فكتب هذا المنشور الآتى» (١) . ومن ذلك ايضا ما يرد فى خطاب من المجذوب ابى بكر ومحمد المجذوب بن الطاهر الى بعض كتبة الخليفة : « . . وكذلك نعلم محمد فوزى ان الكتابة التى حررتها لسيد الجميع الامام المهدى عليه السلام ولما حضر حسن ساله وكتب لك عليها فى حق سيدنا الخليفة فالأمل نسخ صورة ما كتبته انت وما كتبه لك عليه وارساله لنا . . وكذلك نعلم ابو القاسم ان الكلمات التى كتبها لك (يقصد المهدى) لما كتبت الصور الى جهات مصر فانسخها وارسل لنا صورها .. ..» (٢)

وبالاضافة الى ذلك فان اكتشاف نموذج خط المهدى قد سهل علينا الكثير وليس من العسير علينا الآن اذا ما عرضت علينا وثيقة أصلية ان نحدد فيما اذا كانت الوثيقة مكتوبة بخط المهدى شخصيا ام بخط غيره .

---

(١) مصنف صادق ص ٣١٢ ، وقد نقل هذه الرواية عدد من المصنفات . والمنشور المشار اليه هو رقم ٣٤٧ فى المرشد والآثار الكاملة .

(٢) من المجذوب ابى بكر يوسف ومحمد المجذوب بن الطاهر المجذوب الى محمد فوزى واحمدى محمود وابوالقاسم هاشم والمدثر ابراهيم الحجاز فى ٩ جماد آخر ١٣٠٤ ، مهدية ٤١/٣٥/٢ .

والآن دعنا ننتقل الى وصف اسلوب المهدى عن قرب : يكتب المهدى بحرارته باسلوب مباشر لا أثر فيه للتكلف والصناعة ، وفى كلامه قوة وحرارة تنبعان عن ايمانه العميق . وهو فى هذا يختلف عن اترابه من امثال الحسين ابراهيم زهرا والحسن سعد العبادى الذين كانوا يميلون الى الصناعة والتكلف . ولكن ينبغى ان نذكر ان هؤلاء قد تخاوا عن هذه العادة فى مراسلاتهم الرسمية الى المهدى والخليفة . ويتفاوت اسلوب المهدى من حيث البلاغة والتركيب وبناء الموضوع من وثيقة لأخرى ، وغالبا ما يكون ذلك تبعا للفئة التى يخاطبها أو الموضوع الذى يعالجه . ففى الاوامر الادارية لا يسترسل المهدى كثيرا ويكون اسلوبه الى العامية اقرب بينما يسترسل فى الوعظ ويرتفع اسلوبه . واذا استرسل فى هذه المواضيع فان كلامه يتدفق دون توقف بحيث يصعب عليك ان تضع نقطة او فاصلة ، فاذا ما انتهى من ذلك لجأ الى التقرير فى جمل قصار ، بعضها على نحو الحكم ، وقد تكون هذه الجمل موزونة ومسجعة . ويخلط المهدى فى كلامه احيانا بعض الالفاظ المحلية كما انه يتجاوز احيانا عن قواعد اللغة والنحو . واسلوبه فى الخطب أجود انشاءا وارفع بيانا ، وتتميز خطبه عن رسائله بكثرة الاسئلة والتعجب والسجع ومقابلة الجمل والافكار واللعب بالموسيقى اللفظية والتعاطف المباشر مع المستمع بتوجيه الخطاب اليه ومخاطبته دائما بألفاظ النداء . وكان اسلوب المهدى فى أول امره يتسم بالركاكة ولكنه مع مضى الوقت اكتسب سلاسة وانطلاقا وقوة ، ونحسب انه كتب ابلغ ما كتب فى العامين الاخيرين من عمره . ويلاحظ فى بعض الاحيان اثر القراءة والحفظ فى نصوصه ، ومن ذلك وصف الجنة وبيان أهمية الجهاد (١)، فهو يأخذ الصور والاخيلة مما قرأه ويكاد احيانا ان ينقل نقلا . ويكثر المهدى الاقتباس من القرآن والحديث ويضرب للناس الأمثلة بما الفوه فى حياتهم اليومية .

ومن سمات اسلوب المهدى كثرة الجمل الاعتراضية . ومن أمثلة ذلك قوله : «فمن عقل فيها خسر الدنيا ، فانها ليست بدار ، ولم يعمل لدار القرار ، وهى زمن الاكتساب للقـــاء فى دار المآب» (٢) وقوله : «واعلموا ان المهدية هذه قائمة بهذين الأمرين وشرطها الصفا مع الله والصدق بعبودية الله . . والذل والانكسار والالتفات

---

(١) المرشد ٩٦٩ .

(٢) توشكى ص ٤٣ ، المرشد رقم ١٤٢ .

الى الله ، كما فى الحديث : الفقراء جلساء الله ، واختيار الآخرة على الدنيا» (١) ومن ذلك قوله : « اعاذنا الله واياكم» وماشابهه فى مناسباته . ومن قبيل ذلك قوله : «لايخفاك». ومن أوضح الأمثلة قوله : «والمعلوم ان الدنيا جيفة وطلابها كلاب ، خبر مروى صحيح من الصادق الأمين . والكلب لا ينصر الدين . ومن أحب هذه الجيفة التى هى أوضع قدرا عند الله من الدنيا فقد صار اهون على الله واسقط قدرا عند الله من الدنيا التى هى أسقط قدرا من الجيفة» (٢) . وعندنا ان كثرة الجمل الاعتراضية ترجع الى قوة التداعى عند المهدى والى كثرة محفوظه وتزاحم المعانى والصور فى ذهنه وترابط المعلومات والمناسبات . ان هذه السمة تعد مصدرا من مصادر قوة اسلوبه ، بيد انه ينقلب احيانا الى حشو لا يضيف الى القضية ، وانما يشتت ذهن القارئ ويفسد المعنى الذى يقصده المهدى . ومن أوضح الأمثلة على ذلك وضع الحديث : «كما فى الحديث الفقراء جلساء الله » فى الجملة التى استشهدنا بها قبل قليل فانه يفسد تسلسل الكلام ويؤدى الى غموض الجملة كلها . وقد ظهر اثر ذلك من خلط مصنفى الرسائل حول لفظ « واختيار» ، ومن ذلك قوله «التى هى أوضع قدرا عند الله من الدنيا» فى الجملة الاخرى التى نقلناها ، والمعنى يستقيم اذا حذفناه .

وعادة يبدأ المهدى كلامه بتمهيد يدور فى فلك نظرى ثم ينتقل منه الى الغرض المباشر الذى دفعه الى الكتابة وهو فى نظرنا من أهم اجزاء الوثيقة . وهدف المهدى من التمهيد هو ايجاد جو خاص أو اطار عام يدور فيه الأمر المباشر وذلك بتقديم المسببات والمبررات التى يقوم عليها الأمر . وهو بذلك يخلق علاقة بين الأمر المباشر وبين الافكار العامة التى يعمل لها ، وبالتالى فان الأمر المباشر يكون متفرعا عن قاعدة رئيسية ، فالأمر المباشر ليس قاعدة طارئة أو أمرا طارئا او فكرة جاءت عفو الخاطر وانما هو فكرة متفرعة عن نظرية واسعة ولبنة لها مكانها فى البناء الكبير . فالتمهيد اذا همزة وصل تربط بين الآراء المثالية وبين القواعد العملية المباشرة . وفضلا عن ذلك فان التمهيد مجال طيب لشحذ الفكر . اما بالنسبة للباحث فانه يكشف الروح او القوة التى تدفع المهدى الى اتخاذ رأى معين او بناء قضية معينة ، والمسببات والدواعى التى

---

(١) توشكى ص ١٦-١٧ ، المرشد رقم ١٦٨ .

(٢) توشكى ٢١-٢٢ ، المرشد رقم ١٣٧ .

كانت تدفعه لأمر من الامور ، وهو ايضا يلقى كثيرا من الضوء على شخصية المهدى ومدى ارتباطه وتفاعله مع الجو الذى يعيش فيه . ويعتمد نجاح المهدى فى بناء الرسالة على التوفيق بين التمهيد والموضوع المباشر والموازنة بينهما بحيث يؤدى الأول الى الثانى بطريقة طبيعية .

وفى بعض الاحيان نجد رسائل بغير تمهيد ، ومثال ذلك الرسالة التى تبدأ بقوله : « معاوم ان الدنيا عدوة الله وعدوة أوليائه » (١) والرسالة التى تبدأ بقوله : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » (٢). وعندنا ان الرسالتين من أجود ما كتب المهدى . ان هذه الحالة تكون عندما تعالج الرسالة جانبا من أساسيات فكر المهدى .

ومن السمات البارزة فى اسلوبه كثرة الاستشهاد بالآيات القرآنية والاحاديث النبوية . وهذا شئ أساسى وذو دلالة كبيرة لأنه يرفض العمل بالمذاهب والتفاسير التى وضعها العلماء ويصر على الرجوع الى القرآن والسنة وحدهما للهداية واستنباط الاحكام والآداب . وجريا على ذلك فانه لا يستشهد على طريقة رجال الدين بأقوال مالك والشافعى وابن حنبل وغيرهم من اهل المذاهب والرأى . والحالة الوحيدة التى احتج فيها برأى يساند رأيه هى مسألة الزوجات التى ذكرها فى معرض الاباحة لنفسه بأكثر من اربع زوجات (٣) . وقد اعتذر المهدى لنفسه فى هذه الحالة بأن قال بأنه لجأ الى نقل النصوص حتى لا يتزعزع الضعفاء (٤). وفضلا عن ذلك فان الاستشهاد بالقرآن والحديث فى معرض الاستدلال عمل تقليدى عند رجال الدين الذين ينتمى اليهم المهدى ثقافيا . وقد لوحظ ان الأحاديث التى يستشهد بها اقل من الآيات ، وهذا امر طبيعى ، كما لوحظ انه يورد عددا كبيرا من الاحاديث القدسية . وأغلب الاحاديث التى يستشهد بها لا ترد فى أمهات كتب الحديث . ومما يتصل بهذا الأمر استشهاده بالمشاهد التى وقعت فى عصر النبى كقصة النبى وصحبه حين خرجوا ووجدوا شاة القاها اهلها فشبه بها النبى خسة الدنيا (٥) . وقصص الاولياء والأنبياء ترد أيضا للعبرة .

---

(١) المرشد رقم ١٣٧ توشكى ص ١٩–٢٢ .

(٢) المرشد رقم ٥٣ ، توشكى ص ٢٣–٢٧ .

(٣) توشكى ص ١٢٥ ، المرشد رقم ٥٤٢ .

(٤) نفســـه .

(٥) توشكى ص ٢١–٢٢ ، المرشد رقم ١٣٧ ، وقد وردت هذه القصة فى مواضع كثيرة .

ويكثر المهدى من الآيات والاحاديث فى الخطب والمواعظ ، وهى لا ترد اطلاقا فى الحضرات ، وهذا امر منطقى لأن الحضرة عبارة عن اتصال مباشر بينه وبين الرسول وتعتبر سندا كافيا لوضع الاحكام والقواعد . وقد لاحظنا ان الآيات قليلة نسبيا فى الرسائل الصادرة فى أول عهده . وقد خلت بعض الرسائل من الآيات خلوا تاما ، ثم ازداد معدل الاستشهاد مع مرور الايام . وقد حاكاه فى الاستشهاد كتابه ، ولكنهم اكثر افراطا منه فى ذلك .

وعادة ينبه المهدى قارئه الى انه ينقل آية فيقول مثلا : قال تعالى ، ولكنه لا ينبهه عند نهاية الآية . وفى بعض الحالات تنساب الآيات انسيابا طبيعيا وتدخل فى كلامه ، ونحسب ان ذلك عائد الى كثرة محفوظه من القرآن وتمكنه منه وتداعى الآيات فى ذهنه كلما جاءت المناسبة . ومثال ذلك قوله فى خطابه الى الشريف محمد الأمين الهندى : « فاذا تقرر ما ذكر فان تعرضوا عليكم الاعداء قاتلوهم يعذبهم الله بايديكم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين» (١) وقوله : «فعلمه سبحانه لا يتقيد بضبط القوانين ولا بعلوم المتفننين بل يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب»(٢)، ومنه قوله فى خطابه الى محمد حاج احمد: « وليس احد ينفعه عمل صاحبه فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره» (٣) وقوله : «تخلقوا انت واصحابك باخلاق محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم» الخ السورة (٤). واحيانا لا يكمل المهدى الآية بل يأخذ الجانب الذى يريده مباشرة ، واحيانا يجمع جملة من الآيات او اجزاء من الآيات فى نص واحد . اما فى الاحاديث فانه يكتفى بالطرف الذى يريد ويندر ان يأتى بالحديث كاملا . وفى بعض الحالات يسترسل من الحديث الى كلامه مباشرة .

وكان المهدى كثير النظر فى القرآن متأملا فيما يقرأ ، وقد كتب رسائل كاملة تعليقا على بعض الآيات . وقد تابع المهدى طريقة اهل الباطن فى كونه يؤول الآيات تأويلا يناسب أهدافه . ومن ذلك قوله : «والاشارة أيضا بالخلافة لى فى قوله تعالى :

---

(١) مصنف ٤ ب ص ٢٥٦ .

(٢) انذارات ص ٤٩ .

(٣) انذارات ص ٦٩ .

(٤) انذارات ص ١٨٧ .

«ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه» (١) ، فهو هنا يحمل الآية محملا يقصد به نفسه . ومنه تفسيره للآية : «يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله يتم نوره ولو كره الكافرون» بقوله انه «مزيل الفساد والذين يعارضونه هم الذين يسعون بالفساد» ، ومنه تفسيره «الصراط المستقيم» بأنه الصبر على الشدائد ، «واياك نعبد» بانه قطع الرياء من اصله . ومنه تعليقه على قوله تعالى : «لااكراه في الدين» ، اذ يذهب الى ان هذه الآية منسوخة في الظاهر بآية الجهاد وانها ثابته في الباطن . وانما كان المهدى يكره الناس على الانصياع له وقد كفر المخالفين له . وقد فسر الفتنة في قوله تعالى «الفتنة أشد من القتل» بأنها الكفر . وروى الطاهر التاتاى في مجلسه انه قال عن قوله : «وبئس الذين كفروا» انه نزل في حجة الوداع ، فعندها يئس الكفار من تغيير الدين ، ومن هكس الكفار يئسوا منا في تغيير الدين ، وانه قال عن «اليوم اكملت لكم دينكم» ان فيه الدليل على ان جميع الاحكام تؤخذ من الكتاب لا من فقه ومن غيره (٢) .

لقد ورد في كتب المجالس قدر طيب من تفسيره ، وواضح انه ينتمى الى مدرسة التفسير الاشارى الذى يأخذ الباطن بدلا من النقل . وغاية تفسيره استخراج الفائدة الارشادية .

ويستعين المهدى احيانا بالمشاهد والظلال والرموز والقصص الرمزية لتقريب المعنى الى ذهن القارئ أو تركيزه في الذهن . ومن أمثلة ذلك قصة الرجل الذى انقذه خاوصه في التوحيد من الذئب وقصة الصاعدين على الشجرة التي على ساقها الصمغ (٣) وقصة ركاب السفينة التي وقفت في جزيرة ليمتحنوا بما فيها (٤) وتشخيص الصلاة (٥) ومشهد الترك الذين قتلهم (٦) ومشهد الاولياء الذين خالفوه امام الرسول (٧) . وقد توسع الخليفة عبد الله في الاستعانة بالرمز والمشاهد ، ومن ذلك قصة الشعرة

---

(١) رسالة المهدى الى محمد حاج احمد ، انذارات ص ٦١ .
(٢) انظر ذلك في باب التفاسير في مجلس الطاهر التاتاى .
(٣) توشكى ص ٣٩٨-٤٠٤ ، المرشد رقم ٤٨ .
(٤) توشكى ص ٩٥-٩٧ ، المرشد رقم ٢٣٣ .
(٥) توشكى ص ٤٢٦-٤٣٠ المرشد رقم ٩٨٧ .
(٦) انذارات ص ٣٤ .
(٧) انذارات ص ٣٣ .

الواردة فى منشور الشعرة (١) ومنظر الجحيم الذى يعذب فيه مدعى النبى عيسى ومن تبعه (٢) ومسألة الصفوف التى ترمز الى امامته والتابعين له (٣) وحرف الباء ونقطته (٤) والنور الذى جاءه من السماء رمزا للسعداء (٥).

خـط المهـدى وامـلاؤه :

يكتب المهدى كتابة واضحة ويعطى لكل حرف حقه ، فلا يضخم حرفا ويضعف حرفا آخر . وخطه يميل الى الاستطالة وخال من الوقفات القلمية كالفاصلة والنقطة ، ويظهر فى خطه دائرة الميم وسنة السين والشين على اضطراد . وهو ينزع احيانا الى التأنق فى الكتابة فيكثر من الياء المنعرجة فى اواخر الكلمات والميم المبسوطة ، ولكنه لا يتكلف . ويخيل للناظر فى خطه انه يكتب بعناية فائقة ولا يميل الى السرعة فى الكتابة .

ان العامل الأكبر الذى يؤثر على الرسم الاملائى عنده هو الرسم العثمانى ، اى رسم المصحف الشريف . وهو الرسم الذى كان شائعا فى خلاوى السودان . وكان الطلبة يتعلمون به الكتابة وينشأون عليه . وقد ناصر المهدى هذا الرسم فدعا فى منشور الخط الى اتباعه والالتزام به ونبذ ما عداه . وكان سبب ذلك ان الادارة المصرية قد جاءت بالخط التركى المصرى الذى كان سائدا فى الدواوين المصرية فانتشر على ايدى الكتاب الذين عملوا فى الدواوين ، الا ان رجال الخلاوى وعامة فقرا السودان وخريجى مدارسه ظلوا بعيدين عن هذا الخط وساروا على الخط الذى تعلموا عليه . ولما جاء المهدى ولحق بخدمته بعض من كان فى الدواوين المصرية خشى ان يتسرب ما تعودوا عليه ويفسد رسم المصحف فاصدر منشور الخط اتقاء من الجديد والتزاما بالأصل .ومع ذلك تسرب الكثير من آثار الترك الى الرسم ونظم الكتابة عموما .

اما الامر الثانى فهو علاقة الكتابة بالنطق . ومن ذلك انه يكتب كلمة مساء دون الهمزة ، ولكنه يثبتها اذا اتصلت بكلمة اخرى وظهرت الهمزة فى النطق نحو : فى

---

(١) توشكى ص ٣٥١-٣٥٨ .
(٢) توشكى ص ٤٣٢-٤٣٥
(٣) توشكى ص ٣٥٤-٣٥٥ .
(٤) توشكى ص ٢٩٠-٢٩١ .
(٥) توشكى ٢٩١-٣٥٥-٣٥٦ .

المساء والآصال ، ونحو : انقضاء الاحسان ولقاء الرحمان . ويختلط الامر كثيرا فى الالف المقصورة والتاء المفتوحة والمربوطة فانه يكتبها أحيانا على عكس القاعدة . ومثال ذلك انه يكتب كلمة صارت بالتـــاء المفتوحة احيانا وبالتـــاء المربوطة احيانـــا .

وغالبا ما ينزع المهدى الى اهمال الهمزات نحو السما بدل السماء والروس بدل الرؤوس ورايتم بدل رأيتم ولكنه يثبتها فى احيان قليلة . والهمزة المكسورة تقلب ياء نحو المصايب والنايب . ولكنه يثبت الهمزة اذا ظهرت فى النطق . وهو احيانا يكتفى فى ذلك بوضع الهمزة على النبرة واحيانا بوضع الهمزة اسفل الياء . وهو ينقط الحروف كاملا ولا ينزع الى الاستعاضة عن النقط بالسنة فى آخر النون والضاد والشين فى آخر الكلمة . والياء فى اواخر الكلمات منقوط على التوالى . ويستعمل المهدى الحركات اذا كان يخشى من جهل القارئ او كان يريد تسهيل النطق نحو بعد ما وأمر بالمعروف ولكن استعمال الحركات قليل نسبيا .

وهو يستعمل الفتحة على الالف الذى يسبق الهمزة كالشهدَاء والبشاَير والاولياَء وايواَيهم . اما الالف الممدودة فهو يكتبها بألف تسبقه همزة مفتوحة هكذا : ءا اذا كانت فى أول الكلمة نحو ءادم واذا كانت مسبوقة بحرف غير متصل نحو رءا وقرءان واذا كانت مسبوقة بمتصل جعلها قبل الألف دون نبرة هكذا : شنئان ، والمئـــانس والمئـــاب . واحيانا بحذف المدة نحو : الاصال والاجال ، وهذا غير مضطرد . وهناك بعض الشواذ ، فهو يكتب كلمة الرضا احيانا بالالف واحيانا باليـــاء ويكتب التى بلامين وعليها خط افقى ، وايضا يكتبه احيانا مختصرا : ضـ .

ولا يختلف هذا الرسم فى مجمله عن الرسم الذى نعهده فى المخطوطات السودانية ومصنفات الرسائل ، ولكن يكثر الاختلاف فى التاء المربوطة والمفتوحة والالف المقصورة ومبلغ الاهتمام بالهمزة ورسمها على الوجه الصحيح ، وهذه هى المواضع التى تقع فيها الاختلافات بين المصنفات . والمهم هو ان رسم المهدى لم ينقل الى المصنفات حرفياً فى كل الحالات كما خط وانما وقع فى ذلك تجاوز . والسبب الاول فى التجاوز هو ان الناقلين لم يتنبهوا الى أهمية الالتزام الحرفى فى النقل ، والثانى هو ان طريقة الرسم التى اعتاد عليها كل كاتب تغلب عليه ويجرى بها قلمه . واذا اشترك كاتبان فى

النقل بحيث يتولى احدهما النقل بينما يملى عليه الثانى فان العلاقة بين الاصل والمنقول تكون مقطوعة فيما يختص بالتزام الرسم .

أنـــواع المحـــررات وانماطها :

لقد أوضحنا فى مكان آخر الأوجه المختلفة التى يمكن ان يتم على نحوها تصنيف وثائق المهدى ، وسنأخذ فى هذا الطور من الدراسة احدى أسس التصنيف وهى بيان انواع المحررات وانماطها القلمية . والمقصود بالنمط الكتابى هنا هو ما يجعل هذا المحرر يختلف عن غيره أو يتفق معه على اساس شكل المحرر وبنائه .

لقد استعمل المهدى بعض الالفاظ للدلالة على الانماط الكتابية كالمنشور والكتاب والبيان والانذار والصحيفة ، ولكن يبدو ان هذه الالفاظ لم تتطور على يده الى درجة الاصطلاح بحيث ينصرف هذا اللفظ الى ذلك اللون المعين من الكتابة . وقد وصف المهدى احدى محرراته بلفظ الكتاب وقال « كتابى هذا» بينما يصف مكتوبا آخر بالانذار والجواب معا فيقول « انما انذرتكم بجوابى هذا » . وقد وصف مكتوبا ثالثا فقال « الزجر والانذار» ثم وصفه ايضا بقوله «الانذار والبيان» . وجاء فى محرر آخر قوله «وخرجت لكم منشورات فى ذلك» . كما ورد فى محرر قوله «ارسلوا لولد النجومى منشور » . وفى رسالة متأخرة يقول « بعد هذا الانذار والبيان » . وقال فى خطابه الى محمد البدوى « فعلى ذلك لازم ان هذه المنشورة التى بيد الشيخ »(١) . ومن هذه الأمثلة يتضح ان المهدى قد استعمل هذه الالفاظ دون ان يقصد الاصطلاح بها ، واذا ما اخذنا هذه الاوصاف مأخذ الجد فاننا نكاد ننتهى الى ان الجواب والكتاب والانذار والبيان والمنشور شئ واحد . غير ان المهدى لا يفعل فى الواقع اكثر من ان يشير الى ما يكتبه دون ان يكون فى ذهنه فكرة ما عن تصنيف مكتوباته أو تحديد مرتبة الوثيقة التى يحررها او نوعها بالنسبة الى هذا التصنيف .

كان اقدم تصنيف لمحررات المهدى هو ما وضعه مصنفو المنشورات المطبوعة على الحجر . وقد اعتبر هؤلاء كل ما اوردوه فى هذه السلسلة منشورا ، ولذلك نصوا على كلمة المنشورات فى عنوان كل جزء ، ثم صنفوا الوثائق التى اعدوها للسلسلة

---

(١) المرشد رقم ١٤٩

وجعلوها فى أربعة أبواب ، وصار كل باب يحتوى على وثائق معينة ويكون جزء من السلسلة . فالجزء الأول يحتوى على المنشورات العامة التى تمس اسس الدعوة ، وقد روعى فى ترتيب محرراته الترتيب الموضوعى والزمنى معا . ومن هنا يمكننا ان نقول ان كتاب المنشورات اعتبروا ما جاء فى هذا الجزء نمطا معينا . واقرب وصف لذلك النمط هو المنشورات العامة . والمنشور العام كما يؤخذ من هذه الحالة هو ما يعالج المسائل والأسس العامة بصرف النظر عن المرسل اليه . والجزء الثانى يحتوى على المحررات التى وجهها المهدى الى المخالفين له والى بعض اتباعه فى موضوع السلوك والاتباع وقد سماه الكتاب كتاب الانذارات . فالانذار فى اعتبار هؤلاء الكتاب هو ما وجه الى شخص ما بصرف النظر عن موضوع المحرر او موقف المرسل اليه من حركة المهدى وهذا امر فيه نظر . والجزء الثالث يحتوى على الوثائق الخاصة بما يسمى النظم كالعملة والغاء الدعاوى والقضاء الخ وبعض فتاوى المهدى وقد سماه جامعه : كتاب الاحكام والآداب ، وهنا ايضا يوصف المحرر بهذه الصفة بصرف النظر عن المرسل اليه . اما الجزء الرابع فهو جزء الخطب ،وقد نص الكتاب فى عنوانه على لفظ المنشورات ، وعلى هذا فان الخطبة تعد فى نظرهم منشورا . ويمكننا ان ننتهى من هذا العرض الى ان لفظ المنشور قد اطلق على كل محرر صدر عن المهدى ، وربما كان ذلك اقرب الى المعنى اللغوى ، اذ ان كل ما يكتب للنشر يعتبر منشورا ، اى ان المنشور هنا لا يعنى به ما يسمى التعميم كما فى بعض بلاد العرب . ثم ان تقسيم المنشورات الى اربعة انماط هى : المنشورات العامة ، والانذارات ، ومنشورات الاحكام والآداب ، والخطب . ولكن يصعب على المرء ان يجد قاعدة واضحة للفصل بين منشورات الاحكام والآداب وبين المنشورات العامة والانذارات .

وقد وصف كتاب سجلات الصادر بعض الدفاتر بانها دفاتر قيد الاوامر بينما وصفوا البعض الآخر بأنها دفاتر قيد المنشورات . ولما كانت السجلات تحتوى على محررات المهدى والخليفة عبد الله فان هذين اللفظين ينصرفان الى محررات الخليفة أيضا . والذى عليه رأينا هو ان لفظ المنشورات فى هذه الحالة يذهب الى المنشورات العامة التى تعالج المسائل الكبيرة كالجهاد وفتح الامصار وتحركات الجيش والآداب العامة بينما يذهب لفظ الاوامر الى المحررات التى تدور حول المسائل الثانوية التى ليست لها

قيمة ثابته او عامة كالاذن لبعضهم بالسفر أو تسمية ولد او تعيين عامل صغير وما الى ذلك .

ويستعمل بعض مصنفى الرسائل لفظ المنشور للدلالة على المكتوب الذى حرره المهدى بنفسه ، وذلك بصرف النظر عن المرسل اليه أو الموضوع . وفى نفس الوقت يطلق هـؤلاء المصنفون لفظ الاوامر على المحررات التى كتبها كتاب المهدى . وقد قسم محمد المجذوب مصنفه المحفوظ فى باريس الى سبعة اجزاء . وهذا التقسيم نفسه قد يؤخذ اساسا للتصنيف النمطى عنده لأنه — على حد قوله فى المقدمة — قد وضع فى كل جزء ما يتضاها ويتشابه . فالجزء الاول قد خصص للاعمال الدينية الخالصة كالراتب والادعية وقيام رمضان الخ او ما يتصل بها نحو المحررات التى تعالج كيفية قراءة الراتب او تبين فضائله . والجزء الثانى خاص بالمحررات التى وجهت الى شخصيات بالذات وهى قريبة الى الانذارات ، وقد وصف نمطها بوثائق الدعاية الى الله . والجزء الثالث يحتوى على منشورات الاحكام والآداب ، اى المنشورات التى تعالج النظم والفتاوى، وهذا الجزء فى الواقع نسخة منقولة حرفياً عن الجزء الثالث المطبوع . والجزء الرابع يحتوى على المحررات التى تعد فى باب الارشاد العام كالجهاد والغلول والترغيب فى الآخرة وتوطن النفس الخ . اما الخامس فعبارة عن المحررات التى وجهها الى بعض اعوانه كالخليفة عبد الله واحمد سليمان امين بيت المال . والجزء السادس خاص بالخطب . اما الجزء السابع فيتكون من الشوارد التى فات عليه ان يضعها تحت الابواب السالفة . ويمكننا ان نستنتج من ذلك ان المجذوب يقسم وثائقه الى ستة انماط هى : الاعمال الدينية الخالصة ، والدعاية الى الله ، والأحكام والآداب ، والارشاد العام ، واوامره الى كبار اعوانه، والخطـب . وقد سار على خـط قريب من هذا عوض الكـريم المسلمى فى مصنفه «الفيوضات الوهبية» والذى يعد ابلغ ما بلغته مصنفات الرسـائل ، فقد جعل الجزء الاول للعبادات والانذارات والثانى للمحرات التى تعالج اسس المهدية والثالث للاحكام والرابع للخطـب .

ويفيدنا عبد الرحمن حسين الجبرى فى كتابه «الصوارم المهدية او النفحات الوردية فى الشجرة المهدية» بمعلومات طريفة عن بعض وثائق المهدى . فهو يذكر ان اول منشور وجهه المهدى لسائر القبائل هو المنشور الذى ارسله الى الشيخ محمد

الأمين الهندى (١) . ثم يذكر ان اول المناشير الخصوصية لأرباب الملك هو ما وجهه الى الحكمدارية . ثم يذكر فى باب المنشورات الخصوصية المحررات الموجهة الى هكس والضرير والشكرية ومحمد الطيب البصير وغردون واهل مصر والحبشة الخ . ثم ذكر بعد ذلك المناشير العمومية وضرب المثل بمنشور المهدى عن منصب الخليفة عبد الله ومكانته . وبالرغم من ان الجبرى لم يكن يقصد من وراء هذه البيانات ان يضع خطة معينة لتصنيف محررات المهدى فأنا نكاد نتبين من خلالها انه اطاق لفظ المنشور على كل المحررات الصادرة من المهدى وانه قسم هذه المحررات الى نمطين : المناشير الخصوصية والمناشير العامة .

وقد تعرض الدكتور هولت الى انماط المحررات فى مقالة « ثلاث مصنفات رسائل مهدية» ، ونحن نجعل أهمية كبرى لكل ما يقوله هولت فى هذا الصدد لخبرته الواسعة فى كل ما يخص وثائق المهدية ولكونه اول باحث يتعرض الى هذا الموضوع على اساس علمى ناضج . وقد عد هولت اربعة انواع من المحررات تضمنتها مصنفاته الثلاث وهى : المحررات الصادرة من المهدى والخليفة ثم الحضرات ثم الخطب ثم الوثائق المختلفة . ويمكننا ان نصرف النظر عن النوع الرابع لان هولت يعد فيه المحررات الصادرة عن اشخاص غير المهدى والخليفة والروايات والادعية . اما الخطب والحضرات فلا تحتاج الى توضيح سوى ان هولت لا يعتبر الحضرة تحت باب الحضرات اذا كان نصها واردا داخل خطاب او منشور . ومثال ذلك الوثيقة الموجهة الى محمد الطيب البصير والتى تتضمن وصفا لحضرة تنصيب المهدى مهديا ، فان هولت يعدها خطابا لا حضرة وذلك بالرغم من ان الطرف الخاص بالحضرة هو الجزء الأكبر . وقد قسم هولت المحررات الصادرة من المهدى والخليفة الى نوعين ، نوع موجه الى افراد او جماعات صغيرة وهو يسميه بالخطابات ونوع موجه الى جماعات كبيرة كالقبائل أو عامة اتباعه وهو ما يسميه بالمنشورات . وقد اوضح هولت انه من الصعب وضع حد نظرى بين النوعين ، ووجه الصعوبة فى هذا الأمر هو انه اساسا يقوم على مدى دائرة من يخاطبهم المحرر ، فاذا كانت الدائرة صغيرة عد المحرر خطابا واذا كانت كبيرة عد منشورا . ولكن الصعوبة الحقيقية تواجهنا عندما نطبق هذه القاعدة لأن محررا

(١) يقصد المؤلف رسالة المهدى الى الأمين الضرير لا رسالته الى محمد الامين الهندى ، وهذا المؤلف يخلط بين الرجلين ، انظر المرشد رقم ٢١ .

موجها الى شخص أو أشخاص فى مصدر قد يكون موجها الى عامة الاتباع فى مصدر آخر ، ولأن بعض المحررات قد انقلبت من محررات خاصة الى منشورات عامة . ومهما يكن القول حول هذه النقطة فان الذى ينتهى اليه هولت هو اربعة انماط : الخطابات ، الحضرات ، المنشورات ، الخطب .

ويلاحظ فى هذا تباين اساس التصنيف لأنه جعل المخاطب اساسا فى الحالتين الاولى والثانية ، بينما جعل الموضوع اساسا فى الثالثة وجعل نوعية المحرر أساسا فى الحالة الرابعة . والشئ الجديد الذى يجب ان نتنبه له هو ان هولت جعل لفظ المنشور وقفا على نمط معين من محررات المهدى بعد ان كان فيما تقدم من تصنيفات يشمل كل الانمـــاط

وعندنا ان الانماط القلمية عند المهدى اكثر مما عده هولت ومن سبقوه . وينبغى علينا ان نعتبر كل الظروف والملابسات كالمخاطب والموضوع حتى ننتهى الى كل الانماط . ان اوضح الانماط هوالخطبة ، وهى معدة اساسا للالقاء ، وبناوأها بناء تقليدى . وتلى الخطبة الحضرة وهى عبارة عن رواية لما حصل فى عالم نورانى ، وهى تخلو من ادوات المخاطبة . ويشترط فى هذا النمط الا يأتى نصها فى خطاب ، اذ انه فى هذه الحالة يصير ضمن الرسائل لا الحضرات . والنمط الثالث هو الدعاء كدعاء الحرب او ادعية الصلاة . والدعاء موجه الى الله سبحانه وتعالى فى شكل توسل . وهناك النمط الذى يأتى فى شكل مقال أو رسالة على الوجه الذى كان يطلق على الادبيات ذات الهدف ، وهذا النوع يخلو من المرسل والمرسل اليه ، وهو شبيه بالمنشورات العامة . ومن أمثلته المحررات التى تبدأ بقوله : « والله يدعو الى دار السلام » ، وبقوله : « انه قد كثر التضرر والتشكى » ، وبقوله : « هذا الحديث قدسى : اما وعزتى وجلالى» (١) . والنمط الخامس هو الخطاب وهو موجه من المهدى الى شخص بالذات نحو خطابه الى محمد الطيب البصير والضو بن سليمان(٢) . ويشترط ان يكون موضوعه خاصا كالتسلية اى التعزية أو الثناء أو توضيح مسألة خاصة أو نصح مقدم الى المرسل اليه شخصيا . وعلى العموم فان مضمون هذا النمط يدور فى فلك المرسل اليه .

---

(١) انظر المرشد رقم ٢٣٣ و٥٤٢ و٩١٣ .

(٢) المرشد رقم ١٥و٦

والنمط السادس هو المنشور الخاص وهو ما يوجه الى جماعة من الناس كأهالى بربر أو جماعة الخليفة شريف او أهالى سواكن مثلا . والنمط السابع هو الأمر الادارى وهو يخاطب فردا أو جماعة معينة ولكن فى أمر ثانوى . ويشترط فى الأمر الادارى ان يكون موضوعه متصلا بالادارة . وقد وردت نماذج من هذا النمط فى السجل الاول للصادر . والنمط الثامن هو المنشور العام وهو ما يكتب الى كافة الاتباع ، وغالبا مـا يدور موضوع هذا النمـط حول أسس الدعوة وآدابها مثـل منشوره عن مكانة الخليفة عبد الله (١) ومنشور الدعوة(٢) ومنشور حياة الدين(٣) الخ . والنمط التاسع هو الانذار وهو يكتب اساسا للمخالفين للمهدى او الخارجين عليه ومثاله ما كتبه المهدى الى الشلالى(٤) وغردون(٥) وهكس والأمين الضرير والحكمدارية(٦) .

والنمط العاشر هو البيان وهو ما يكتبه لأعوانه وأتباعه واعظا أو موضحا ما يشكل عليهم . ويرد تحت هذا النمط اغلب الفتاوى . وهناك الحاشية يكتبها المهدى فى ذيل محرر يكتبه له احد كتابه او يكتبه هو بنفسه استدراكا لما فات عند التحرير او اشباعا لرغبة بعض العملاء . وقد نقل المصنفون بعض هذه الحواشى بينما اغفلوا نقل المحررات ذاتها . وهناك التعليق على العرائض والتاشير عليها بما يرى كأن يرد على صاحب العريضة او يحول الأمر الى من ينظر فيه . ومثال الاول ما عاق به على عريضة اشراف شرق السودان وعريضة محمد خالد زقل (٧) حين غنمت امواله واحرق منزله فى دارفور ، ومثال الثـانى كثير من الوثائق الموجهة الى الخليفة عبد الله . ومن قبيل ذلك التوقيعات التى يوقع بها المهدى على المذكرات التى ترفع اليه ، وتوجد نماذج كثيرة لهذا النمط فى الوثائق المتبادلة بين المهدى واحمد سليمان .

---

(١) المرشد رقم ٨١ .
(٢) المرشد رقم ٢٢ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٨ .
(٣) المرشد رقم ٤١٨
(٤) المرشد رقم ٣١ .
(٥) المرشد رقم ٢٦٢ و٢٦٣و ٢٦٤و ٣٩٧و٤٥٥ و ٤٧٢ و٥١٨ .
(٦) المرشد رقم ٢١ و٤١ و١٤٥ .
(٧) المرشد رقم ١٣٨ و١٥٢ .

د – درجة المحررات :

المقصود بدرجة المحرر هو علاقة صورة الوثيقة بأصلها من حيث صحة النقل ومدى مطابقتها له . وتقوم هذه العلاقة على اوجه ثلاثة ، اولها قرب الصورة الى الوثيقة الاصلية على الاساس التاجى ، وثانيها مـدى مطابقتها له من حيث صحة النقل ، وثالثها تعدد صور الوثيقة من جراء التعديلات التى ادخلت فيها .

ان القاعدة التاجية لتشبه الى حد بعيد سلسلة الآباء والاجداد التى يرصدها النسابة عندما ينسبون شخصا الى جد معلوم . فالوثيقة الاصلية تمثل الجد الكبير ، والوثيقة التى ندرسها تمثل الشخص الماثل الذى ينسب الى الجد ، والآباء والاجداد يمثلون درجة القرابة ، أى قرب الوثيقة الى اصلها . وحسب هذه القاعدة فان اصل الوثيقة هو الذى يعتبر رأس التاج ، ويمكننا ان نرمز اليه بالحرف(أ) . وكل ما ينقل عن هذا الاصل نقلا مباشرا يعتبر فى درجة ادنى منه مباشرة وهو ما نرمز له بالحرف (ب) . وهذا قد يتعدد ويتفاوت بقدر الالتزام بالنص . وما ينقل من الحرف (ب) يعتبر فى الدرجة (ج) و هكذا . خذ مثلا الوثيقة التى تبدأ بقوله: «ومن اللازم شدة التوصية والتنبيه» (١). فقد نقل مصنف الجزء الاول من المنشورات المطبوعة عن اصل الوثيقة ثم نقل مصنف بيل عن هذا الجزء . فالاصل يعتبر (أ) ونسخة المنشورات تعتبر (ب) ونسخة بيل تعتبر (ج). وهناك مجموعات من الوثائق يمكن ان نعتبرها فى الدرجة (ب) ، وهى صور الوثائق المنقولة بخط كتبة الديوان والخطابات المطبوعة بمطبعة المهدية للتوزيع على المرسل اليهم والوثائق الواردة فى سجلات الصادر ، ذلك لأن هذه المجموعة منقولة عن الاصول مباشرة ولأنها نقلت لأغراض رسمية وصارت عملا ديوانيا .

اما الوجه الثانى فانه يعتمد كليا على مستوى الناقل ومدى فهمه للنصوص التى ينقلها ومدى التزامه فى النقل والعلاقة المادية بينه وبين أصل الوثيقة . فاذا كان مستوى الناقل عاليا وكان على علم بما ينقل فان نصوصه المنقولة تصير صحيحة معتمدة كالنصوص التى ينقلها المسلمى . اما اذا كان قاصرا فان الخطأ يكثر فى نصوصه كالنصوص التى فى مصنف بيل . ثم تأتى بعد ذلك اخطاء الغفلة كالسقط والاضافة والتحريف والتصحيف وما الى ذلك . اما الالتزام فهو مراعاة الدقة فى النقل بحيث تكون النصوص المنقولة

---

(١) المرشد رقم ٢٧٩ .

صورة مطابقة لنصوص الاصل مطابقة تامة . وغالبا ما يخرج الناقلون عن هذه القاعدة لغرض التصحيح أو التصرف فى رسم الكلمات . وقد التزم مصنفو الرسائل فى المهدية التزاما طيبا . فليث هنالك عبث بالنصوص ، بل يؤخذ عليهم عادة عدم النقد لما ينقلون وخلو اعمالهم من مقابلة النسخ ببعضها البعض . ولكن بعض هؤلاء الناقلين انفسهم قد تجاوزوا فى الرسم الاملائى فمضوا يرسمون الكلمات على الاسلوب الذى اعتادوا عليه كما تجاوزوا فى الاجزاء الشكلية للوثائق كالمرسل اليه والتاريخ والمرسل وما الى ذلك . وقد بينا ذلك بتفصيل عند كلامنا عن قواعد التوثيق . وتتصل بهذا الامر حالة اصل الوثيقة ووضوح الخط فيه بحيث يتيسر للناقل نقل نصوصه دون ان يلجأ للاجتهاد . اما العلاقة المادية بين الناقل والاصل فعلى اوجه . اما ان ينقل الناقل عن الاصل مباشرة وهو احسن الحالات ، واما ان يكتبها من الذاكرة ، وهذا قد يعرض النصوص لخطر كبير ، واما ان يقوم شخص آخر بالاملاء من الاصل فيقوم الكاتب بالتدوين ، وفى هذه الحالة فان التزام الرسم الاملائى المتبع فى الاصل يكون بعيدا كما ان صحة النصوص نفسها تعتمد على ما يملى عليه وعلى ما يتلقاه الكاتب وعلى مراجعة ما املى مع اصله ان كانت ثمة مراجعة .

اما الوجه الثالث فهو تعدد نصوص الوثيقة الواحدة . ومثال ذلك منشور الدعوة الذى بلغنا منه ثلاث صور (١) ، ومنشور الصلاة(٢) ، والمنشور الذى يبدأ بقوله : «ان الآخرة خير وابقى»(٣) . ويختلف الغرض من التعديل من مكان لآخر كما ان التعديل نفسه قد يقع على ايد كثيرة ، هناك التعديل الذى اجراه المهدى مثلا فى منشور الدعوة بغرض تحسين عرض امر مهديته ، وهناك التعديل الذى اجراه فى منشور الصلاة والذى هدف الى اضافة فقرات طويلة اليه اكمالا للصورة وهناك الاقتباس ودمج المنشورات لبناء منشور جديد . وهناك تعديلات اجراها مصنفو المنشورات المطبوعة فى النصوص ذاتها بغرض تحسين الاسلوب .

---

(١) المرشد رقم ٢٢و٣٦ و٣٧ و٣٨ ، توشكى ص ٤٥٣–٤٥٨ .

(٢) المرشد رقم ٢٤٣ و٢٤٧ ، توشكى ص ٢٢٩–٢٤٥ .

(٣) المرشد رقم ٤١٤،٦٩٦، توشكى ص ٢٨١،٢٨٨ .

الفصـــل الثــانى

القــواعـــد التـوثيقيـة

تمهيـــد :ـــ

نعنى بالقواعد التوثيقية تلك الامور التى يختص بها علم يسميه الغربيون الدبلوماتيك ، وهو لفظ له تاريخ طويل فى الغرب ولا نجد له مقابلا نصطلح به فى اللغة العربية . وقد سماه بعض الباحثين علم الوثائق ، ولكن هذا اشمل مما يعنيه الدبلوماتيك . وبعضهم سماه السجلات ، وفى هذا غير ما نعنى . وقد وجدت بعد نظر ان القواعد التوثيقية أقرب ، وان كنت اخشى مما يوحيه لفظ التوثيق على يد الموثقين القانونيين الذين يعنون به ضبط عقد متفق عليه على الوجه القانونى واعتماده ، وما يوحيه لفظ التوثيق عند رجال المعلومات والذى يعنى ضبط المعلومة على وجه مقنن عندهم واستخراجها عند الحاجـــة اليها .

وعلم الدبلوماتيك علم جديد استحدثه الغربيون ، وكان أول ظهوره على يد قس فرنسى يدعى مابلون فى القرن الثامن عشر . وبالطبع لم يعرف العرب هذا العلم حتى وفد اليهم من الغرب . غير ان العرب ابتدعوا أمرين يختصان ببعض ما يعالجه الدبلوماتيك . وأول الأمرين علم الشروط ، وهو فرع من الفقه يريك كيف تضع عقدا بين قوم فى صياغة شرعية تقوم بالغرض وتوفيه وتحفظ لكل طرف حقه المشروط بحيث لا يقدح فيه قادح . والثانى اصول الكتابة الديوانية التى وضعها كتاب الداواوين وكتب فيها علماء الديوان من امثال الصيرفى والعمرى والقلقشندى وابن مماته ، وبعض ما يعالجه علم مصطلح الحديث يتصل بمهمة الدبلوماتيك .

غير ان جهود العرب هذه كانت تتجه نحو ضبط الكتابة ونظمها فى حين ان الدبلوماتيك يختص بالدراســـة والتحليل . وقد عرف هذه الضوابط اهلها العاملون فى مجالها والدارسون لرسومها . ورغم ان الشروط واصول الكتابة الديوانية يستقل كل منهما بمجال ويقوم بذاته فانهما يلتقيان حيث يتعرضان الى بناء الوثيقة وهيكلها

وطريقة تحريرها وما وراءها من الامور الظرفية والمادية ، وهى نفس النقطة التى توصل بينهما وبين علم الدبلوماتيك .

وقد انتهى علماء الدبلوماتيك الى تقسيم هيكل الوثيقة الى مراحل ثلاثة ، وتقسيم كل مرحلة الى عناصر . وأولى المراحل ما يسمونه البروتوكول الافتتاحى ، وهو مايسميه العرب الفواتح ، من دعاء ومرسل اليه وتحية ، وثانية المراحل هى الغرض الذى من اجله اعدت الوثيقة ، وهى تتكون من تمهيد وعرض ونهاية الى غرض ، وثالثها ما يسمونه البروتوكول الختامى ، او ما يسميه العرب الخواتم ، من تاريخ وعبارة ختامية ونحو ذلك . والختم له وضع خاص وعلم مستقل وان كان يأتى مع الفواتح أو الخواتم حسب العادة المتبعـــة .

ان اصول الكتابة الديوانية قد وضعت فى وقت مبكر من تاريخ الاسلام . كانت الكتب العربية تستفتح باسمك اللهم حتى نزلت سورة هود وفيها بسم الله مجراها ومرساها فكتبوا بسم الله ثم نزلت بسورة بنى اسرائيل قل ادعوا الله وادعو الرحمن فكتب بسم الله الرحمن الرحيم ثم نزلت بسورة النمل انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم فاستفتح بها رسول الله وصارت سنة . وكان رسول الله يكتب الى اصحابه وامراء جنوده من محمد رسول الله الى فلان ، وكذلك كانوا يكتبون اليه يبدأون بأنفسهم . ولم تزل هذه السنة حتى ولى الوليد بن عبد الملك الذى نظم الداواوين وأمر ألا يكاتبه الناس بمثل ما يكاتب به بعضهم بعضا فجرت سنة الوليد مجراها واعطت طابع المراسلة الرسمية .

وبفضل المدارس الدينية ورجال التصوف والعلماء الوافدين من اقطار اكثر تقدما كالحجاز ومصر والمغرب عرف السودانيون الوثيقة العربية على اصولها الديوانية . وترجع أقدم الوثائق العربية فى السودان الى مطلع القرن الثامن عشر مع أن قيام السلطنات الاسلامية كان فى اوائل القرن السادس عشر . ومع أننا قد نفترض ضياع ماهو اقدم من ذلك الا ان الاقرب الى المنطق هو ان ظهور الوثيقة الديوانية كان نتيجة لانتظام الانظمة وازدياد النفوذ الاسلامى وتعقد مصالح المجتمع بما يستلزم التحرير ، وهو ما يتوافق مع بداية القرن الثامن عشر .

ان كتاب السلطنات الاسلامية – الفونج والفور والعبدلاب وتقلى – يستقون نمط الكتابة من معين واحد هو معين الوثيقة العربية الاسلامية على نحو ما عرف فى مصر الاسلامية، وبالأخص فى العهد المملوكى. ولذلك تشابهت محرراتهم. فلما جاء العهد التركى دخل ما كان شائعا فى الدواوين المصرية من نظم وسارت عليها الكتابة الديوانية. ولما كانت المهدية ابطل المهدى ما كان عليه هؤلاء من رسوم الكتابة ووضع رسما جديدا استمده من التراث الاسلامى ملتقيا فى بعض منه مع ما كان شائعا فى السودان قبل الفتح التركى ومتميزا فى بعضه بما اودع فيه من اغراض وسمات تعبر عن اتجاهه. وقد اتخذ الكتاب رسمه والتزموا به.

ان معرفة قواعد التوثيق عند المهدى مدخل مهم لدراسة آثاره. فوجود عناصر التوثيق فى وثيقة ما وبالشكل الذى اتبع فى زمن الصدور لمن ادلة صحة الوثيقة فى حين ان وجود اضطراب ما فى هذه العناصر او ترتيبها يستلزم الشك ويدعو الى البحث والدراسة حتى نصل الى الطعن او الرفض أو الى القبول مع المبررات التى تدعو الى هذا او ذاك. كذلك فان النظر فى بيانات التوثيق فى وثيقة ما على ضوء التعديلات والتغييرات التى ادخلها المهدى فى عناصر التوثيق وترتيبها من فترة لأخرى مما يساعد فى تحديد الوقت الذى كتبت فيه الوثيقة. فلو علمنا – مثلا – ان المهدى كان يضع اسمه فى مؤخرة الوثيقة حتى أواخر سنة ١٢٩٩ ثم نقله الى أولها أو أنه استعمل اربعة اختام متعاقبة فانه يصير من الامكان الاستفادة من هذه الحقائق فى تحديد زمن صدور بعض الوثائق. وان متابعة بيانات التوثيق فى وثيقة ما ومقارنة نصوصها فى المصادر المختلفة لما يساعد على التوصل الى الاصول الصادرة عن المهدى والنسخ التى اخذت عنها ومدى درجة النقل والتصرف فى النسخ والتغييرات والتعديلات التى ادخلت فى النسخ المختلفة سواء كانت عن طريق الغفلة او الخطأ او المراجعة المقصودة. وقد ساعدتنا هذه المتابعة فى التوصل الى الاصول التى نقل عنها مصنف النجومى وبالتالى الى مكان وزمان النقل، كما ان التوصل الى المراحل المختلفة التى مرت بها الوثائق كان ذا أهمية كبيرة بالنسبة لتاريخ الوثيقة وتكوين عناصرها، وبالنسبة الى العوامل العامة والخاصة التى كانت تدفع المهدى الى مراجعة بعض رسائله.

ومن ناحية أخرى فان التغييرات الرئيسية التي ادخلت في عناصر التوثيق كتعاقب اختام المهدى وتغيير اسمه والغاء الالقاب تقابلها تغييرات فى اتجاهات المهدى وافكاره وتنظيماته ، ومن هنا فان دراسة نظام التوثيق تعطى ابعادا جديده لهذه التغييرات ، كما أنها تعطينا بيانات كثيرة لا نجدها فى مكان آخر عن الالقاب وعن الالفاظ التى اطلقت على طوائف الانصار وما الى ذلك مما يرد فى عناصر التوثيق .

اضف الى ذلك ان دراسة نظام التوثيق قد كشفت عن علاقة وثيقة بين نظم المهدى ونظم السلطنات الاسلامية فى عناصر التوثيق . وهكذا فان دراسة هذا الجانب من نظم الكتابة لا تقتصر اهميتها على الجوانب المباشرة لها فحسب ، وانما تتسع ايضا للمظاهر الثقافية المشتركة بين فترة المهدية والفترات السابقة لها .

وتتكون العناصر الرئيسية للتوثيق عند المهدى من العناصر التى تأتى فى مقدمة الوثيقة وهى الديباجة والمرسل والمرسل اليه والوصف والدعاء ، ثم الغرض ، ثم العناصر التى تأتى فى مؤخرة الوثيقة وهى الخاتمة والتاريخ والختم .

أ ــ الديباجــة :

أول ما تبدأ به وثائق المهدى هو الديباجة ، وهى عبارة عن دعاء دينى يقصد به الاستعانة ، وليست هناك صلة مباشرة بين هذه الديباجة وموضوع الوثيقة ، بيد أنها من الاجراءات الديوانية المهمة .

واتخاذ الديباجة فى المحررات عادة قديمة كما ذكرنا . وقد اعتمد المهدى على الموروث الأسلامى وموروث السلطنات الاسلامية . وكان لدى كتاب الفونج صيغ متعددة للديباجة يختار منها الكاتب ما يراه مناسبا ، وقد يختارون للسلطان او الشيخ صيغة واحدة يستهلون بها كل محرراته ، وهذا من شأنه ان يجعل هذه الديباجة علامة ديوانية يمكن ان نستدل منها على السلطان او الشيخ الذى صدرت عنه الوثيقــة .

وللمهدى ديباجة واحدة لكل مراسلاته . اما الخطبة فلها ترتيبها الخاص ، لأن الخطب المنبرية لا تبدأ بالبسملة ، والحمدلة فيها تأخذ حيزا أطول وتصير احدى اغراض الخطبة . وقد ظهرت ديباجة المهدى هذه فى الوثائق التى حررها قبل المهدية ، ومن ثم فان نصها أقدم من المهدية ، ولكن بالنظر الى انها تصلح لأن تكون شعارا لدعوة

دينية فان ظهورها على الارجح قد توافق مع بداية حركة الاصلاح السابقة للمهدية واللاحقة لانفصاله من الشيخ محمد شريف .

ونص هذه الديباجة هو : بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الوالى الكريم ، والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم . وترد هذه الديباجة فى مقدمة الوثيقة وتنفرد فى الغالب بسطر كامل . ولا يضع المهدى فواصل كتلك الفواصل التى يضعها الفونج بين مقاطع الديباجة . وقد وجدنا ان المهدى قد تجاوز عن نص الديباجة فى حالات قليلة ، منها انه فى احدى رسائله الى احمد سليمان[1] كتب بعد البسملة قوله : «الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لانبى بعده » بعد «الحمد لله الوالى الكريم» الخ وقوله : « الحمد لله المنتقم القهار» بدل : «الحمد لله الوالى الكريم» و« آله مع الاخيار» بدل «وآله مع التسليم » فى انذاره الى الشلالى[2] . واحيانا يغفل المهدى عن الديباجة فيبدأ بالمراحل التالية ، واغلب مايكون ذلك فى التوقيعات التى يكتبها على العرائض .

وقد شاع استعمال هذه الديباجة فى كل المحررات الصادرة والواردة فى عهدى المهدى والخليفة عبد الله كما ان الكتاب استهلوا بها سجلات الصادر والوارد وسجلات المالية وكل محرر كتبوه . وتتكون الديباجة من ثلاثة عناصر هى :

١ – المقطع الاول وهو البسملة :

والبسملة تأتى عادة فى رأس مكتوبات السودانيين ، وخاصة المتدينين منهم على سبيل الاستهلال . وهى من الرسوم الاسلامية الشائعة . وكان من الممكن ان نعتبر وجودها فى أول الديباجة شيئا عاديا على هذا المنوال لولا العناية التى يعطيها المهدى من موقفه الصوفى للبسملة ومعانيها واسرارها . فهو قد افرغ لها طرفا فى منشور الصلاة[3] ، ثم تعرض لها فى الرسالة التى كتبها لمحمد الطيب البصير والتى تبدأ بقوله : ان الدنيا كما تعلمون حالها انها سحارة [4] ، وفى منشور حياة الدين الكبرى [5] .

---

(١) مهدية ١/٨ وثائق احمد سليمان رقم ٤ .
(٢) المرشد رقم ٣١ .
(٣) توشكى ص ٢٣٤
(٤) المرشد رقم ٢٥٤ .
(٥) توشكى ص ٣٢١ ، المرشد رقم ٤١٨ .

٢ ـ المقطع الثانى وهو الحمدلة :

ان الحمد فضيلة من الفضائل التى حث عليها الاسلام ، وقد جعل بعض المتصوفة للحمد درجات وللحامدين مراتب . والحمد طرف من التسبيح . ويشير المهدى الى الحمد فى احدى رسائله فيقول : «النعم وحشية فقيدوها مع الشكر ولا بقاء لها مع النكر»(١). وقد جعل للحمد فقرة طويلة فى أول الخطب كما هى عادة كتاب الخطب . وهو يعنى به ايضا فى الراتب . فالحمد فى هذا الموقع من الديباجة أمر مقصود وله دلالة خاصة .

ونص الحمدلة هو : الحمد لله الوالى الكريم . والمهدى هنا يصف الله سبحانه وتعالى بالوالى ، وهو وصف له دلالته لأن فكرته عن علاقة الانسان بالانسان وعلاقته بالخالق تقوم على أن الله وحده هو الذى يتولى عباده وان الخلق لا يضرون ولا ينفعون فى شئ . وقد ذهب به هذا الرأى الى التوكل المطلق ، فلا تعويل عل السعى فى مجال التكسب والارزاق ولا تعويل على الاسلحة والعدد فى مجال الحرب ، والموت والحياة بيد الله وهو ناصر عباده بجند وبغير جند ، وهو يرزق من حيث لا يحتسب العباد . هكذا طفحت نداءاته لاصحابه ولمن يدعوهم بهذه الآراء . وقد ذهب به هذا الرأى الى الاعتراض على التعويل على الاولياء واللجوء اليهم فى اوقات الحاجة والشدة . وقد وصف الله سبحانه وتعالى بعد وصفه بالتولى بلفظ «الكريم» تعبيرا عن تفاؤله الدائم أو رضائه بما يتكرم الله به عليه . وقد ذكر «الوالى الكريم» بهذا المعنى فى موضعين أولهما خطابه الى محمد التويم الذى يبدأ بقوله : « فالدنيا كما ذكرت لا يخفى حالها»(٢) و الثانى هو منشوره الذى يبدأ بقوله : « ان الآخرة خير وابقى» (٣).

٣ ـ المقطع الثالث وهو الصلاة والسلام على النبى :

يصلى المهدى على النبى وآله ، وقد جعل التسليم مرادفا للصلاة لا معطوفا عليها كما هى العادة . وقد تعرض المهدى الى اهمية الصلاة على النبى فى عدة مواقف وحث

---

(١) نفس المصدر ص ٢٥ .

(٢) المرشد رقم ١٥٠

(٣) المرشد رقم ٤١٤ .

على الأكثار منها ، ومن ذلك رسالته التى تبدأ بقوله : « انه قد قال الله تعالى: وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين» ([1]) .

ان الحمدلة والصلاة على النبى تأخذان حيزا أكبر فى الخطب وتكونان فقرة طويلة . ولما كان للخطبة ديباجة خاصة فانه عدل فيها عن ديباجة المراسلات واستعاض عنها بهذه الفقرة . وديباجة الخطبة عبارة عن شكر لله على نعمه ثم دعاء للنبى وآله مع الصلاة والسلام عليهم . ورغم ان الحمد والصلاة مطاب مستقل فى الخطبة الدينية فان المهدى يمهد بهما لموضوع الخطبة .

وبعد هذا الذى سقناه يتضح ان نص الديباجة لم يأت عفوا وانما كانت وراءه اهداف واغراض مقصودة ، وهو بعد دليل على ان اهتمام المهدى قد امتد حتى الى مثل هذه التفاصيل الدقيقة من اموره . ويخطئ مصنفو المصنفات احيانا بوضع ديباجة المراسلات فى غير موضعها ، فاذا وجدوا ديباجة بنص فيه تصرف وضعوا بدلها الديباجة العامة ، وهذا بالطبع يرجع الى أنهم يريدون السير على المنوال التقليدى الذى استقر عليه المهدى او الجهل باهمية الالتزام بالنص المكتوب . ومن ذلك انه فات على بعضهم التعديل الذى اجراه المهدى فى ديباجة انذاره الى الشلالى لتقوية روح الانذار فوضعوا الديباجة العامة ثم الديباجة الخاصة التى استهل بها المهدى الانذار .

ب — بيانــات التخاطــب :

وتلى الديباجة بيانات التخاطب ، واساس ذلك المرسل والمرسل اليه . وقد اختلفت وثائق المهدية عن وثائق السلطنات الاسلامية فى هذه النقطة ، اذ ان المتبع عند هؤلاء هو أن يأتى الختم السلطانى فى اول الوثيقة بعد الديباجة مباشرة أو قبلها . أما فى وثائق المهدية فان الختم يرد فى مؤخرة الوثيقة . وترد بيانات التخاطب بعد الديباجة مباشرة . وربما كان هذا عزوفا من المهدى عن امارات السلطنة وشارات الدولة .

وتبدأ بيانات التخاطب عادة بكلمة «وبعد» ، وهى كلمة يقصد بها تنبيه القارئ الى البداية الحقيقية للوثيقة ، لأن ما سبق كان مرحلة شكلية . غير ان هذه الكلمة قد ترد بعد بيانات التخاطب ، وفى هذه الحالة فان التنبيه ينصرف الى ما بعد البيانات ، أى

---

(١) المرشد رقم ٤٤٢ .

الى صلب الموضوع ، ويأتى بعد «وبعد» احيانا لفظ «فمن» اشارة الى المرسل ، واحيانا يأتى «اما» قبل «بعد» اشارة الى بداية صلب الوثيقة . والوثائقيون يسمون هذا الموضع بالبعدية .

ومكان لفظ «وبعد» وملحقاته مرتبط بالأمر الذى ينصرف اليه التنبيه . فاذا كان للمرسل وللمرسل اليه كان النص هو «وبعد فمن» ويكون مكانه فى البداية ، نحو : وبعد فمن العبد الفقير الخ ، واذا كان التنبيه لموضوع الرسالة كان النص «اما بعد» ويكون مكانه بعد البيانات وقبل صلب الموضوع مباشرة . وفى بعض الحالات يستعمل المهدى «وبعد» فى هذا المكان .

ويأتى «وبعد» فى المقدمة مقرونا مع التحية فى الوثائق التى صدرت قبل المهدية واوائلها نحو : «وبعد جزيل السلام وكامل التحية الى ذى الفضل وعظيم المزية اخينا وحبيبنا فى الله الشيخ الضو بن سليمان» (١). والاصل فى هذه الوثائق هو ان اسم المرسل كان يأتى فى مؤخرة الوثيقة حسب العادة فى مراسلات الاهالى ، ولذلك فان الوثيقة تبدأ بالمرسل اليه .

والاصل فى المرسل والمرسل اليه هو انهما يردان فى المكتوب اذا كان فى شكل خطاب . اما ما لم يكن كذلك فيخلو منهما ومن ادوات التخاطب كلها ، فالخطب والحضرات والأدعيـة ووصف العبادات تخلو منهـا خلـوا تاما . ومع ذلك فقـد وجدنا بعض المصنفين يقحمون بيانات التخاطب او اجزاء منها على هذه الأنماط ، ومثال ذلك ان مصنف النجومى يضيف المرسل الى الخطبة التى تبدأ بقوله : الحمد لله الذى خلق وابدع (٢).

وتسقط البيانات فى القطع التى يكتبها المهدى فى شكل مقالات او بيانات نحو : روى ان الصلاة اثنا عشر مسألة (٣)، بيان وجوب الجهاد (٤)، من اولياء الله من يخبرنا (٥)،

---

(١) المرشد رقم ٦ .
(٢) توشكى ص ٣٤٤
(٣) نفس المصدر ص ٤٢٦ .
(٤) نفس المصدر ص ٣١١ ، المرشد رقم ٩٦٩ .
(٥) نفس المصدر ص ٤٠٤ .

رأى بعض الأخوان بليلة الجمعة[١]، روى فى بعض الكتب الالهية [٢] ، اما وعزتى وجلالى لا يستنصر [٣] ، والموت فى قوة الشباب[٤]. واحيانا يسقط المرسل والمرسل اليه اذا كان المكتوب تعليقا على عريضة او تأشيرة على مذكرة رفعت اليه من اعوانه . ومثال هذا : انكم قد انتسبتم الى سيد الوجود [٥] ، وقد صار التنبيه بأن المعاملات[٦].

وليست هنالك قاعدة معينة بالنسبة لذكر بيانات التخاطب او عدمه فى تأشيرات العرائض ، لان المهدى كان يثبت ذلك او يغفل عنه دون قاعدة . والحالة الوحيدة التى ينص عليها على ذلك هى احالة الموضوع الى أحد اعوانه للنظر فيه ، فانه فى هذه الحالة يبدأ التأشيرة باسم الشخص الذى يحال اليه . وتسقط بيانات التخاطب ايضا اذا كان المكتوب الحاقا لقطعة أخرى نحو : سأذكر البعض من الواقعات [٧] .

المرســـل :

كان اسم المهدى يرد فى مؤخرة الوثائق فى الفترة السابقة لدعوته كما هى العادة المتبعة فى مراسلات الاهالى، وقد جرى على هذه الخطة حتى السنة الثانية لاعلان المهدية. ويتضح لنا ذلك بصورة واضحة من الوثائق الاصلية التى عثرنا عليها او الصور المنقولة حرفيا عن الاصول [٨] .

ان اسم المرسل كان يأتى فى المؤخرة حتى أواخر ١٢٩٩هـ وهو تاريخ احدث وثيقة تسير على هذا النمط ، والاسم الذى ينص عليه هو محمد احمد عبد الله ، وهو اسمه الاصلى الذى عدله مؤخرا الى محمد المهدى بن عبد الله[٩]. ويستعمل المهدى فى هذه الوثائق ختمه الثانى ، وهو –اى الختم– ينص على الاسم القديم . وقد ورد هذا الاسم ايضا فى داخل نص بعض الوثائق ، ومثال ذلك النسخة القديمة من منشور الدعوة[١٠].

---

(١) المرشد رقم ٤٦٩ .

(٢) توشكى ص ٥١٦ ، المرشد رقم ٩١٢ .

(٣) نفس المصدر ص ٤٣٠ .

(٤) فيوضات المسلمى جـ١ ص ٢٢٤ .

(٥) المرشد رقم ١٢٤

(٦) المرشد رقم ٢٨٧

(٧) المرشد رقم ٤٨٠ .

(٨) درهام ١/١/١٠٠– ٤، ١١ ، ١٢، ٣٠٦ .

(٩) المرشد رقم ٧١ .

(١٠) المرشد رقم ٢٢ .

فالقاعدة الاولى لاسم المرسل بالنسبة لوثائق المهدى هى انه حتى أواخر سنة ١٢٩٩هـ يأتى فى مؤخرة الوثيقة . والقاعدة الثانية هى انه يأتى بالاسم الاصلى المركب الذى عدل عنه مؤخرا : محمد احمد بن عبد الله . والقاعدة الثالثة هى انه لا يضيف لفظ المهدى الى اسمه كما فعل مؤخرا .

ومصنفو المصنفات عادة يخلطون فى هذا الموضع ، لانهم يسيرون على ما جرت عليه العادة بآخرة ، ولانهم لم يدركوا اهمية المحافظة على شكل الوثيقة ، ولانصراف همهم الى النصوص ذاتها . وكقاعدة عامة يسقط المصنفون اسم المرسل من مؤخرة الوثيقة . اما فى البداية فانهم احيانا يحافظون على النص فيبدأون الوثيقة كما كانت بالمرسل اليه نحو رسالة المهدى الى ابراهيم محمود وآخرين (١) ورسالته الى كافة الاخوان من المحبين ومشايخ الدين (٢) ورسالته الى حضرة الاحباب(٣) والى الضو بن سليمان(٤) . وفى بعض الاحيان يقحم اسم المرسل فى بداية الوثيقة . ومن ذلك ان مصنف النجومى يضع اسم المرسل فى مقدمة منشور الدعوة(٥) مع ان المرسل كان يأتى فى مؤخرة النسخة التى ينقلهـا . وقد نص فى هذا الموضع عـلى محمد المهـدى بن عبد الله فى حين ان الاسم الوارد اصلا هو محمد احمد بن عبد الله . ومنه ان مصنف بيل يضع اسم المرسل فى بداية خطاب المهدى الى محمد الطيب البصير الصادر فى اول شعبان سنة ١٢٩٨هـ(٦). ومنه ايضا اضافة المرسل فى المنشور الموجه الى العقلاء الكرام(٧) ، وهذا خطأ عام فى كل المصنفات . كذلك فان الجزء الاول من المنشورات يضع اسم المرسل فى مقدمة رسالة المهدى الى الاخوان المحبين ومشايخ الدين(٨) .

وفى الفترات التالية اى من اواخر سنة ١٢٩٩هـ حتى نهاية المهدية اصبح اسم

---

(١) المرشد رقم ١٠
(٢) المرشد رقم ١٧ .
(٣) المرشد رقم ١٨
(٤) المرشد رقم ٦ .
(٥) توشكى ص ٤٥٣ .
(٦) بيل ص ١١ .
(٧) المرشد رقم ١٩
(٨) المرشد رقم ١٧

المرسل يأتى فى المقدمة . والاسم الذى ينص عليه المهدى هو الاسم المعدل : محمد المهدى بن عبد الله . وقد اتخذ المهدى هذا الاسم على اساس الحضرة التى روى فيها ان الرسول قد امره بتغيير الاسم(١) ، وهذه الحضرة مؤرخة سنة ١٢٩٩هـ ، ولكننا لا نعرف يومه ولا شهره . والمقصود بالاسم الجديد هو ان يواطئ اسمه اسم الرسول ، ومواطأة الاسم بهذا الشكل علامة من علامات المهدية التى وردت واعتقد فيها الناس . وقد اتخذ العلماء المعارضون اسمه القديم حجة عليه على اعتبار انه محمد احمد عبد الله وليس محمد عبد الله . وقد رد عليهم الشيخان الحسن العبادى والحسين ابراهيم زهرا وبينا ان لا معارضة بين اسم المهدى وما ورد عنه لان محمد واحمد من أسماء الرسول . والمعروف ان الاسم الذى اطلقه عليه ابواه هو محمد احمد ، وكان له اخ يدعى محمد ، وهو من المشاهير الذين كان لهم مقام عظيم فى اوائل المهدية ، وكان يعتبر فى مقدمة رجال الحركة الى ان قتل فى واقعة الجمعة بالابيض .

ولما اتخذ المهدى «محمدا» بدل محمد احمد اضاف لفظ المهدى بين اسمه واسم ابيه هكذا : محمد المهدى بن عبد الله . واسم الأب عادة يسبقه لفظ السيد وهو لقب تشريفى يشير الى انه من سلالة الرسول . ويحمل هذا اللقب الاشراف وهم اقرباء المهدى ، كما انه ينسب لوالد الخليفة عبد الله احيانا .

واسم المرسل يكون مسبوقا ببعض الالفاظ الدالة على التواضع والعبودية لله . والنص الذى عليه اغلب محرراته عندما يكون الاسم فى مؤخرة الوثيقة هو : الفقير الحقير . اما فى الفترات التالية — اى بعد ان نقل اسمه من آخر الوثيقة الى اولها— فان التعابير الغالبة هى : عبد ربه ، المفتقر الى الله ، الفقير الى الله ، الفقير المعتصم . وفى حالات قليلة تتردد التعابير التالية : خليفة رسول الله ، العبد الفقير الى الوهاب ، العبد الحقير الذى لاقوام له الا بربه القدير .

واسم المرسل فى وثائق المهدى يسبق المرسل اليه على اضطراد ، وكذلك يفعل الكتاب فى الوثائق الصادرة من الخليفة عبد الله . ولكن فى حالات قليلة لا يثبت المصنفون فى الخطابات المرفوعة اليهما اسم المرسل كرسالة المدثر ابراهيم الى المهدى (٢)

(١) المرشد رقم ٧١ .
(٢) منشورات ص ١٢٦ .

وكرسالة عبد الله النور الى المهدى(١) . ويرجع السبب فى هذا الى انهما وضعا اسميهما فى آخر الخطاب . وقد حذفه الكتاب لنفس السبب الذى جعلهم يحذفون اسم المهدى من مؤخرة وثائق الفترة الاولى .

وفى بعض الاحيان يقدم اسم المرسل اليه على اسم المرسل ، كأن يرى الكاتب حرجا فى تقديم المرؤوس على الرئيس . وهذا يكون فى المكاتبات الموجهة الى المهدى والخليفة . ويعتبر تقديم الرئيس على المرؤوس من الآداب القديمة فى المراسلات ، وقد كان مما اخذه الخليفة ابو جعفر المنصور على ابى مسلم الخرسانى انه كان يقدم اسمه على اسم الخليفة فى مراسلاته . وقد استقر هذا الترتيب فى المراسلات منذ الوليد بن عبد الملك الذى وضع اسس المراسلة الديوانية . ولم يكن هذا التقديم قاعدة عامة فى مراسلات المهدية وانما كان يتوخاه بعض الكتاب تأدبا منهم . ومن ذلك ان الخليفة على الحلو قدم اسم المهدى على اسمه فى رسالته المؤرخة فى جماد اول سنة١٣٠١ھ (٢)، وان الخليفة عبد الله فعل ذلك فى خطابه الى المهدى حول زيارة قبر والده (٣) . ويلاحظ فى هذا الخطاب ان الخليفة لم ينص على القابه وانما نص على اسمه مجردا ، وهذا من باب الأدب . وفى عصر الخليفة نلاحظ ان كتاب عثمان دقنة راعوا هذا الأدب منذ اوائل عهده وان اغلب كتاب المهدية صاروا يراعونه اكثر فاكثر كلما تقدم بهم الزمن .

ويأتى بعد أسم المهدى صفته ثم يرد بعدها اسم ابيه هكذا : محمد المهدى ابن عبد الله . أما فى مراسلات الآخرين فان الصفة تسبق الاسم . فالخليفة عبد الله ينص اولا على الخلافة ثم على الاسم نحو : من عبد ربه الخليفة عبد الله ، او من عبد ربه خليفة المهدى الخليفة عبد الله . وقد لاحظنا ان الفونج كانوا يضعون الصفة قبل الأسم ايضا ، نحو : السلطان بن السلطان ، السلطان بادى بن السلطان نول ، والوزير الشيخ ناصر بن المرحوم الشيخ محمد ابلكيلك ، والشيخ ناصر بن المرحوم الشيخ محمد الامين .

ويتخذ اسم الخليفة عبد الله اوضاعا مختلفة فى مكاتباته ، وذلك تبعا للصفة التى كان يصدر بها الرسائل .

---

(١) المرشد رقم ١٩١ .

(٢) الاحكام ص ٣٤

(٣) صادق ص ٣٢٠ .

اولا : لسنا نعرف الوضع الذى كان عليه اسمه وصفته فى محرراته قبل سقوط الابيض ولكن من المحتمل ان النص على امارة الجيش وخليفة الصديق لم يكن موجودا . وينطبق هذا على الخليفتين الحلو والشريف ، اذ المحتمل انهما لم يحملا لقبى خليفة الفاروق وخليفة الكرار فى هذه الفترة ، ونحن نبنى هذا الاحتمال على القول بأن الخلافة المقرونة بخلافة الخلفاء الراشدين لم تظهر الا بعد سقوط الابيض . وكذلك الحال بالنسبة الى امير الجيش . ومهما كان الرأى حول هذه النقطة فأن القطع بصفة الخليفة عبد الله فى محرراته الصادرة قبل سقوط الابيض لن يكون الا بعد وقوفنا على وثائق أصلية منه ، وهو مالم يتوفر الى الآن .

ثانيا : صدرت محررات الخليفة عبد الله منذ وقت ما فى كردفان بهذا النص: « عبد ربه الخليفة عبد الله بن محمد خليفة الصديق وامير جيش المهدية» . ويبدأ هذا النص بعبارات العبودية ثم يأتى بصفته وهى كونه خليفة ، ثم باسمه كاملا ، ثم بالمنصبين اللذين يشغلهما ، وهما منصب خليفة الصديق ، اى خليفة الخلفاء ، ومنصب امير جيش المهدية . والمنصب الاول مقدم على الثانى .

ثالثا : فى الفترة السابقة لمرض المهدى نلاحظ وجود نص آخر وهو : « عبد ربه الخليفة عبد الله بن محمد خليفة الصديق » ، اى انه أصبح لا ينص على «امير جيش المهدية » . وليس من المستبعد انهم لاحظوا ان النيابة عن المهدى تشمل ايضا الامارة العامة على الجيش فصاروا لا ينصون على الامارة .

رابعا : فى الفترة الواقعة بين مرض المهدى والى مابعد وفاته بأيام صدرت رسائله بصفته : «النائب عن المهدى الخليفة عبد الله بن محمد خليفة الصديق ».
والمحررات التى تصدر عن هذه الصفة هى المحررات الرسمية ، فهو يصدرها بصفته الشخص الذى ينوب عن المهدى فى اثناء مرضه ، لا بصفته خليفة الصديق او امير الجيش . وصفة النيابة عن المهدى صفة قديمة ترجع الى الوقت الذى أصدر فيه المهدى منشوره عن مكانة الخليفة عبد الله ، الا أن صفة النيابة فى الايام الاخيرة لحياة المهدى تعنى انه تسلم كل السلطات وحل محل المهدى بالوكالة عنه .

خامسا: منذ وفاة المهدى وحتى أواخر شهر رمضان – او بالتحديد من ١٠ الى ٢٨ رمضان – صارت الرسائل تصدر عنه بصفته : «عبد ربه النائب عن خليفة المهدى الخليفة عبد الله بن محمد خليفة الصديق» . ان رسائل هذه الفترة لا تصدر عن خليفة المهدى وانما عن النائب عنه ، وهذا يعنى أولا ان وظيفة خليفة المهدى قد تقررت ، وان الخليفة ينوب عنه . ويبدو ان لقب خليفة المهدى لم يقرر بعد وفاة المهدى مباشرة لاننا نجد ان الخليفتين الحلو وشريف والاشراف لم ينصوا فى منشور النعى والبيعة للخليفة عبد الله على هذا اللقب وانما قالوا عنه النائب والوكيل (١). ان النص على النيابة عن خليفة المهدى لمدة عشرين يوما من وفاة المهدى قد يدفعنا الى القول بأن الخليفة عبد الله كان يقوم بتصريف امور الدولة بصفته النائب عن خليفة المهدى طوال هذه الفترة وان الانصار لم ينتهوا الى الشخص الذى يملأ وظيفة خليفة المهدى فعلا الا بعد هذة الفترة . ولكن الاخبار والروايات التى وصلتنا عن حوادث هذه الفترة تشير الى ان الخليفة ولى هذا المنصب فعلا فى نفس اليوم الذى دفن فيه المهدى . وقد أرخ الخليفتان والاشراف بيانهم للانصار عن وفاة المهدى وتخليف عبد الله يوم ٨ رمضان سنة ١٣٠٢هـ ، وهو يوم وفاة المهدى . الا انـه ليس من السهل ان يقبل المـرء ان ينتهى هـذا الامر بهذه السرعة . كما انه ليس من اليسير أن يقبل ان الامر كان قد اجل لنحو عشرين يوما . وعندنا ان الامر كله يرجع الى انهم لم يقطعوا فى صفة الخليفة فترددوا بين النائب والوكيل والنائب عن خليفة المهدى حتى استقروا نهائيا على : خليفة المهـدى .

سادسا : منذ أواخر رمضان وحتى نهاية المهدية صدرت رسائل الخليفة عبد الله بصفته : «عبد ربه خليفة المهدى الخليفة عبد الله بن محمد خليفة الصديق» . ويلاحظ فى هذا الامر أن النص على امارة الجيش قد اختفى . وقد كان ذلك آخر العهد به ، لأن احدا غيره لم يحمل هذه الصفة ، لا فى حياة المهدى ولا بعد مماتـه .

---

(١) توشكى ص ٢٦٦ .

وفى بعض الاحيان لا يأتى اسم المرسل مباشرة ، ولكن ينص عليه بشكل او آخر اى ان المهدى ينص على انه صاحب الوثيقة ولكن لا يجعل لنفسه صفة المرسل ، وهذا يعد اقوى من ان يكون مرسلا والمخاطب مرسلا اليه، ومثال ذلك : وبعد فيقول العبد لله محمد المهدى ان هذا الشهر الذى اقبل (١)، وبعد سأذكر البعض من الواقعات(٢)، وبعد فيقول عبد ربه محمد المهدى انه قد كثر التضرر والتشكى(٣) . ويلجأ المهدى الى هذه الحالة عندما يريد ان يقرر امرا بصفة قاطعة ، وهذا يعطى عنصر التقرير قوة ويجعل المخاطب اوسع واشمل. وفى داخل الوثيقة يلجأ المهدى الى هذا الاسلوب اذا اراد ان يؤكد امرا ، كأن يقول : يقول محمد المهدى بن عبد الله . وقد يزيد التأكد باستعمال كلمة «العزيمة» : فعزيمة منى او فعزيمة من محمد المهدى بن عبد الله .

المرسل اليه :

يرد المرسل اليه فى الوثائق الصادرة حتّى أواخر سنة ١٢٩٩ فى مقدمة النص لأن اسم المرسل كان يأتى فى آخر الوثيقة . وفى وثائق الفترات التالية يأتى المرسل اليه بعد المرسل الا اذا اراد الكاتب ان يقلب الوضع لوجه من أوجه الأدب . وفى حالات شاذة يرد المرسل اليه مع ان المرسل غير مذكور، نحو : وبعد الى كافة الاحباب ما دام قد صدر التنبيه على كافة المؤمنين (٤) . وفى بعض الاحيان يسقط المرسل اليه مع وجود المرسل ، نحو : فان الازواج الغايبون(٥) ، انــه لما أتى الخبر بقتل (٦) ، انه حصلت حضرة نبوية (٧) ، ان التستر فى الامور واجب(٨) . ويقع هذا فى حالتين ، اذا كان المكتوب ردا على مذكرة او تأشيرة على عريضة ، او كانت جهة الصدور الكاتب أو القائل بدل المرسل ، كأن يقول : فيقول عبد ربه محمد المهدى الخ . الا أن المهدى

---

(١) توشكى ص ٣٥٨ ، المرشد رقم ٨٤٣ .
(٢) المرشد رقم ٤٨٠ .
(٣) المرشد رقم ٥٤٢ .
(٤) المرشد رقم ٢٨٧ .
(٥) المرشد رقم ١٩٥ .
(٦) توشكى ص ٤٣٢ .
(٧) نفس المصدر ص ٥١١ .
(٨) المرشد رقم ١٩١ .

يذكر المرسل اليه صراحة فى التأشيرات اذا كانت التأشيرة موجهة الى جهة غير الجهة التى جاءت منها العريضة ، ومثال ذلك التأشيرتان : حيث ان الايام قاصرت[1] ، انك عارف بأمر الحضرة[2]، فان المهدى أشر بهما على بعض العرائض وأحال النظر فيهما الى الخليفة عبد الله ونص على أسمه كمرسل اليه .وفيما عدا هذه الحالات فان القاعدة الرئيسية هى ان يرد المرسل اليه فى كل الحالات التى يرد فيها المرسل وان يذكر بعد المرسل

ويأتى المرسل اليه احيانا فى شكل المنادى نحـــو :اعلموا ايها الأحباب ان فى الجهاد تصفية الايمان والفوز[3] ، احبابى ان الدنيا وما عليها فانية[4]، حبيبى ان المؤمنين لازالوا فى هذه الايام التافهة[5] ، ياجميع المؤمنين من ذكر وانثى ومن حر وعبد صغير وكبير[6] ، اعلموا ايها الاحباب المهاجرين والانصار والمجاهدين .

ويلجأ المهدى الى هذه الحالة اذا اراد ان يعطى لتقريراته قوة اكثر مما يعطيه النص التقليدى للمرسل اليه . ويلجأ المهدى الى النداء فى داخل النصوص للاثارة والتأكيد ، وهذا يرد كثيرا فى الخطب .

وعادة تأتى قبل المرسل اليه تعابير دالة على نوع العلاقة بين المهدى وبين المرسل اليه،نحو : حبيبه، احبابه ، حبيبه فى الله ، احبابه فى الله وأتباعه ، احبابه فى الله واتباعه على سكة رسول الله ، حبيبه وصفيه ، عونه ، اصفيائه ، اعوانه ، صديقه وخليله . وهى كلها الفاظ يقصد بها الوصف لا التحديد . ويلاحظ انه يستعمل اساليب الجمع والتفضيل فى المدلولات الدالة على اصحابه بقوله الانصار والمهاجرين والاصحاب . واكثر هذه التعابير هو الحبيب ومشتقاته ، وهو يعنى ان العلاقة بين المرسل والمرسل اليه تقوم على المحبة الخالصة عن اغراض الدنيا والقائمة على الاخلاص لله . وقد قال المهدى : «والحال ان محبتنا لما هو هنالك من رضاء الله وقربه العظيم المقدار او لنعيم دوام دار

---

(١) المرشد رقم ٥٨٠ .
(٢) المرشد رقم ٩٦٤ .
(٣) المرشد رقم ٩٥٦ .
(٤) المرشد رقم ٢١٦ .
(٥) المرشد رقم ٢٨٣ .
(٦) المرشد رقم ٣٤٧ .

الجوار ، فالحب لغير ذلك نقص فى الحقيقة . والمعلوم ان الحب من الاصحاب انما هو لله »(١). والصوفية يجعلون للمحبة درجات ، ويجعلون الحب لله فى قمة العلاقات البشرية . وقد أخذ المهدى بهذا الرأى وجعل هذه الدرجة لأتباعه ووصفهم بها ، وهذا أثر من آثار الصوفية . وتقوم هذه المحبة على اساس ان المهدى واتباعه يسيرون على نهج الرسول وانهم يقيمون الدين على ما اقامه الرسول واصحابه ، وهذا هو ما يشير اليه المهدى بقوله : «على سكة رسول الله» و « اصحابه كصحبة رسول الله» و« اعوانه على اقامة الدين » . ولا يذكر المهدى هذه الصفات فى الانذارات الموجهة لرجال الدولة كانذاراته للشلالى وهكس وغردون(٢) لأن هذه الصفات خاصة باتباعه .

ومن مميزات الخطاب فى محررات المهدى ان المخاطب فى بعض الحالات اوسع من المرسل اليه المذكور صراحة ، ومثال ذلك خطابه لمحمد الطيب البصير عن مشهد تنصيبه (٣)، فان المرء يحس بان الخطاب موجه الى جماعة لا الى فرد ، ورسالته الى حمد النيل حامد التى تبدأ بقوله : حبيبى ان المؤمنين لا زالوا فى هذه الايام التافهة (٤) ،ورسالته الى محمد التويم (٥)، وعادة لايرى المرء فرقا واضحا بين هذا النوع من الخطابات وبين المنشورات العامة . وقد عدل المهدى بعض الخطابات التى على هذا النمط الى منشورات عامة فعلا

وتتبع المرسل اليه الصفة التى كان يخاطب بها المهدى اعوانه ومساعديه كالامير والنائب والخليفة . ويخاطب المهدى خلفاءه بتعابير شتى نحو : خليله وصفيه خليفة الفاروق — خليفة الصديق وخليلى وصديقى — خليله وصديقه خليفة الصديق — خليله وصديقه خليفة الصديق الاكبر — خليفة الصديق — خليله الأكبر وصديقه خليفة الصديق الخليفة عبد الله خليفة الصديق وامير جيش المهدية .

ويخاطب الامراء والعمال بالاعوان والاحباب والاصفياء . وعادة يضيف صفة

---

(١) توشكى ص ١٩١ ،

(٣) المرشد رقم ٣١ و ١٤٥ و ٢٦٢ .

(٣) المرشد رقم ١٥ .

(٤) المرشد رقم ٤٣٠ .

(٥) المرشد رقم ١٥٠ .

القرابة في خطاباته للاشراف كابن عمه وجد الاشراف . واحيانا يخاطب بالصفة بدل اسم العلم كحبيبه وصفيه المادح بدل محمد التويم .

وعندما يكتب المهدى منشورا عاما فانه يكتب في مكان المرسل اليه قوله احبابه في الله او ما يماثله ثم يترك فراغا لوضع اسماء الشخصيات التي توجه اليهم نسخه . وكان الكتاب يضعون هذه الاسماء حسب ظروف الارسال . ولهذا السبب نجد ان المصنفين الذين اخذوا من الوثائق المركزية يعتمدون غالبا الصفة العامة نحو احبابه في الله بينما يضيف المصنفون الذين ينقلون عن وثائق الامراء اسماء الاعلام التي نص عليها الكتاب في الصور التي وقفوا عليها . وقد فعل ذلك مصنف النجومي ، اذ ان بعض المنشورات العامة التي ينقلها موجهة الى محمد الخير وجماعاته بينما هي موجهة في مواضع اخرى الى عامة الناس . ويمكننا ان نهتدى من هذه الظاهرة الى تحديد الجهة التي نقل منها المصنف . والتصرف في المرسل اليه يتوقف أولا على نوع الوثيقة التي اعتمد عليها المصنف لأن بعضهم ينقلون النص حرفيا وبالتالى يكون المرسل اليه كما في النص الذى يأخذ عنه ، وهو يتوقف ثانيا على تصرف الكاتب واهتماماته . فبعض المصنفين ينصرف غرضهم الى النموذج الانشائي أو الاحكام أو المادة الدينية دون البيانات الشكلية فيغفلون عن المرسل اليه او يعدلون فيه . وقد تصرف كاتب الجزء الاول من المنشورات المطبوعة تصرفا واضحا اذ الغى اسماء الشخصيات واستعاض عنها بأحبابه في الله وما يماثله لأن همه كان منصرفا الى بيان المنشورات التي تعالج اسس الدعوة بصرف النظر عن شخص المرسل اليه وتاريخ الصدور . وبعكس هذا جرى كاتب الجزء الثاني من المنشورات المطبوعة فبين شخص المرسل اليه وتاريخ الصدور لأن الانذار يقوم اساسا على المرسل اليه .

والمرسل اليه في محررات المهدى يعد اساسا صالحا لدراسة نظرة المهدى الى المجتمع وفئاته .

ففى الفترة الواقعة قبل هجرته الى قدير ترد مخاطباته موجهة الى امثال : كافة الاهالى من المحبين في الله (١) — كافة الاخوان من المحبين ومشايخ الدين (٢)— الشيخ

---

(١) المرشد رقم ١٦ .

(٢) المرشد رقم ١٧ .

عبد الرسول واخوانه الذين هم اخواننا فى الله الفقيه عبد الله ابو الصادق والفقيه سليمان ومن يوافقهم من المحبين فى الله الممتثلين لأمر الله ورسوله (١)-... وكامل من معهم من الاهل والاصحاب وكافة المحبين فى دين الله(٢) - حضرة الاحباب فى دين الله والى كافة الاحباب (٣) .

ان الخطاب فى هذه الحالات موجه الى فئة خاصة وهى فئة رجال الدين من الفقرا وزعماء الطرق ، وهى الفئة التى ينتمى اليها المهدى نفسه . ويتضح من هنا ان المهدى كان يتوقع ان تعاونه هذه الفئة فى ثورته ؛ولهذا صرف همه اليهم . هذه الفئة تتكون من جماعات ، اولها جماعة المهدى الخاصة وهم طلبته ومريدوه ، وهؤلاء يعرفون بأهل ابا ، وثانيها رجال الدين ، وثالثها اتبــاع هؤلاء ، وكان المهدى يكثر من القاب التعظيم الشائعة بين هؤلاء نحو الشيخ والخليفة والفقية والاستاذ المعظم وعزيز لمقام وسيد الكرام .

وفى الفترة الواقعة بين الهجرة الى ابا فى اواخر ١٢٩٨هـ وبين أواخر سنة ١٣٠٠هـ صار المهدى يخاطب فئات اوسع وأعم من الفئات السابقة وصار يتخلص من القاب التعظيم المتصلة بهم . ويقوم المرسل اليهم على اساس التبعية له لا على اساس الفئة الدينية ويكون ذلك على ثلاث جماعات ،اولئك الذين سلكوا طريقه وصاروا معه وهم الاحباب ، واولئك الذين يعارضونه وهم الذين توجه اليهم الانذارات ، والجماعات المترددة والمحائدة وهى التى يخاطبها برسائل شبيهة بالانذارات . ويضع المهدى سورا بين هؤلاء ، فهنالك عالم يقوم على الحق والدين السوى وهو عالمه وعالم اتباعه وعالم يقوم على الباطل وهو عالم الآخرين الذين يعارضونه او يتوقفون عنه ، وقد منع المهدى اتباعه من الاتصال بالمخالفين . ويلاحظ فى هذه الفترة ان القاب المهدية لم تستقر على وضع بعد للخلط بين الالقاب القديمة والالقاب الجديدة .

(٢) البداية والموضوع :

ويلى بيانات التخاطب وما يتصل بها الموضوع المباشر الذى من اجله حرر المكتوب ،

---

(١) المرشد رقم ٤٥ .

(٢) المرشد رقم ١٠ .

(٣) المرشد رقم ١٨ .

وهذه عادة تبدأ بعبارة تنبه القارىء ، نحو : اعلموا ، لا يخفى عليكم ، فيا احبابى . وأهم نقطة هنا هى البعدية ، اى وبعد وأما بعد ، وقد سلف الكلام حولها .

والموضوع نفسه ينقسم الى ثلاثة عناصر : التمهيد وعرض الموضوع والغرض الذى يصل اليه . وقد تعرضنا الى مسلك المهدى فى هذا الموضع عند كلامنا عن أسلوبه .

(٣) الخاتمـــة :

ينهى المهدى رسائله بقوله والسلام . او بقوله ولا حول ولا قوة الا بالله ، وما الى ذلك ، ويأتى بعد هذا تاريخ الوثيقة ، وهو بالتاريخ الهجرى . والعادة انهم يذكرون التاريخ كاملا باليوم والشهر والسنة اذا كانت الوثيقة خطابا او امرا ، اما اذا كانت منشورا عاما فانهم فى الغالب يكتفون بتاريخ السنة ، لأن النسخ التى ترسل منها تأخذ اليوم والشهر عند الارسال . ولهذا السبب نجد بعض المنشورات العامة مؤرخة بتاريخ السنة ونجد بعضها يحمل اكثر من تاريخ. والحضرات والادعية والاعمال الدينية الخالصة عادة لا تؤرخ . ويرد التاريخ خارج النصوص وهو يكتب بالارقام ، وهذا بخلاف المتبع عند الفونج والفور الذين كانوا يكتبون التاريخ قبل نهاية النصوص رقما وكتابة .

وكان المهدى فى بعض احواله يهمل كتابه التاريخ . ولهذا فان بعض تأشيراته غير مؤرخة . والشخص الذى يضع تاريخ الوثائق الصادرة الى الجهات هو الشخص الذى يقوم بالارسال ، ولهذا فان تاريخ الوثيقة عبارة عن تاريخ الارسال وليس تاريخ التحرير .

واحيانا يكتب محرر الوثيقة اسمه بعد التاريخ مباشرة ، ولكنهم لا يفعلون ذلك فى محررات المهدى ، تأدبا منهم . وعادة يضع الكاتب اسمه اذا كان الامير او العامل الذى يحرر له أميا . ولوحظ ان الكتاب كانوا يوقعون اسفل رســـائل الخليفة عبد الله التى صدرت فى حياة المهدى .

وفى الفترة التالية اتخذ المرسل اليه صيغة موحدة بحيث ابعدت الفاظ التعظيم القديمة ووضع بدلها القاب المهدية . وفى هذه الفترة صار المهدى ينظر الى جماعاته نظرة فئوية ، وذلك على عدة أوجه . فهم ينقسمون الى انصار ومهاجرين ، والى اهل بوارق وغيرهم ، واهل البوارق انفسهم ينقسمون الى خلفاء وامراء ونقباء ومقدمين وانصار ، والى انصار وواردين والى سابقين ومحدثين وابكار .

واهل البوارق هم الفئات المنضوية تحت رايات الخلفاء ، وهى ثلاث رايات تتبع كل راية منها خليفة . ويلى الخليفة امير الامراء فالامير ثم النقيب ثم المقدم ثم الانصار . ويقابل اهل البوارق الواردون وهم الذين يأتون الى معسكر المهدى عندما يستنفرهم وهم غير المسجلين فى سجلات القوات الدائمة . واحيانا يعرف هؤلاء بالمهاجرين .

وفى السلك الادارى نجد ايضا الخليفة وقاضى الاسلام ونائب الاحكام والقاضى والعامل والنائب عن المهدى ، ويذكر هؤلاء بنفس ترتيبهم المرتبى . وقد ذكر المهدى لفظ الوزير فى حالات قليلة (١) ، ولكننا نستبعد انه يصطلح به على فئة معينة .

كانت اول وظيفة خلقها المهدى هى وظيفة النائب عن المهدى ، وقد عين محمد الطيب البصير ومحمد الامين الهندى تحت هذه الصفة . ثم اطلق على مساعديه فى الاقاليم لفظ الخليفة ، وقد وجدنا عبد الرحمن النجومى ورحمه منوفل يحملان هذا اللقب فى بعض الوثائق الاصلية الصادرة فى هذه الفترة (٢) . وفى نفس الوقت ظهر لقب أمير الامراء وهو لقب الشخص الذى يلى خليفة الراية . ثم عدل المهدى عن هذا الترتيب فجعل لقب الخليفة وقفا على الخلفاء الثلاثة الذين هم قادة الرايات الثـلاثة واطلق لقب الامير على القادة العسكريين وعلى حكام الاقاليم ، بينما الغى لقب النائب عن المهدى . وصار هذا اللقب مؤخرا وقفا على الخليفة عبد الله وان كان لا يذكر مع اسمه . وفى رجب سنة ١٣٠١هـ جعل لقب الامير وقفا على القادة العسكريين واطلق على حكام الولايات لقب العامل ، والغى كلمة المقدم وجعل بدلها النجيب ، وهو يكتب احيانا بالقاف بدل الجيم . وصار الاقليم الادارى يعرف بالعمالة بدل الامارة . كذلك الغى الالقاب كالشيخ والفكى والسيد والفقير (٣) . وقد كرر الخليفة عبد الله الغاء هذه الالقاب مرة اخرى وطالب باستعمال الانصار والاصحاب والاخوان والاحباب (٤). كذلك منع المهدى لفظ الدرويش(٥) .

---

(١) المرشد رقم ٩٧ ، الانذارات ص ١٧٨ .

(٢) مهدية ٨/١--٩ مختلفة رقم ١ ، ٣٣ .

(٣) المرشد رقم ٣٢٠ ، ٣٢٥ ، ٣٢٨ .

(٤) يونس الدكيم الى الخليفة فى ٢٠ الحجة ١٣٠٤ ، مهدية ١/٢٢/١٦٥ ، ويونس الدكيم الى الخليفة فى ١٩ صفر ١٣٠٥ ، مهدية ١/٢٢/٢٢٥ .

(٥) المرشد رقم ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ .

والقصد من المهاجرين والانصار يختلف من مكان الى مكان وليست لهما صفة ثابتة كتلك التى لاصحاب الرسول . فالمهاجر قد يعنى الشخص غير المسجل فى البوارق اذا ذكر مع أهل البوارق ، وقد يعنى كل اتباع المهدى اطلاقا اذا كان الكلام عن الهجرة والجهاد ، وقد يعنى المهاجرين معه من ابا الى قدير اذا كان الكلام عن السابقين . والانصار قد يعنى الذين اجتمعوا معه فى قدير او الذين نصروه فى الوقائع او فى دعوته عامة ، وقد يدل على الفرد العادى اذا ذكر مع الامراء والنقباء ومن اليهم .

وينقسم الانصار ايضا الى سابقين ومستجدين . والسابقون هم اهل ابا اولا وهم الذين كانوا مع المهدى عندما اعلن المهدية ، وثانيا الابكار وهم اهل ابا والجماعات التى هاجرت معه الى قدير واشتركت فى الوقائع الاولى . وهناك رسالتان تعالجان افضلية هؤلاء على غيرهم(١) .

ويفاضل المهدى بين اتباعه والمسلمين عامة ، ثم يضع اتباعه فى مراتب . والمكان الذى يضع فيه اتباعه هو مكان صحابة الرسول . فالمهدى هو خليفة الرسول وليس هناك من هو ارفع منه الا الرسول . وخلفاؤه الاربعة هم خلفاء خلفاء الرسول وبالتالى لهم مقام الخلفاء الراشدين ، ويرد بقية الانصار على هذا المنوال بحيث يكون ادناهم درجة فى مرتبة عبدالقادر الجيلانى ، وهو فى نظر السودانيين اكبر الاوليــاء .

وقد جرى الخليفة عبدالله وكتابه على النمط الذى سار عليه المهدى فى صفة المرسل اليه وموضعه ، ولكنهم عدلوا عن الحبيب وأوضاعه المختلفة فى ربيع اول سنة ١٣٠٥هـ / ١٧ نوفمبر–١٦ ديسمبر ١٨٨٧م وجعلوا بدله المكرم والأعوان المكرمين .

ويلاحظ فى صفة المرسل اليه فى الوثائق الموجهة الى المهدى والخليفة ان تعظيم الاتباع لهما وتوقيرهما كان يزيد كلما مضى الوقت ، ويظهر ذلك جليا من القاب التعظيم ومن تقديم اسميهما على اسم المرسل .

ج – الوصف والدعاء :

الوصف عبارة عن بعض التعابير الدالة على مدح المرسل اليه او الاشارة الى

---

(١) توشكى ص ٨١ –٨٢ و٨٥–٨٨ .

مقامه ومدى صلته بالمرسل ، وهو يأتى عادة قبل المرسل اليه ، نحو : الحبيب عالى المهمة واستاذ المكرمة وفى العزمة شيخ الجماعة والسنة النقى الشريف . اما الدعاء فانه يأتى بعد المرسل اليه نحو : وقاه الله من التكدير .

والدعاء والوصف مرتبطان بقيمة الشخص المرسل اليه . وعادة يطول الدعاء اذا كان الوصف قصيرا ويقصر اذا كان طويلا. ولايرد الدعاء والوصف فى المنشورات العامة الا نادرا . واغلب المنشورات العامة التى يرد فيها الدعاء والوصف كانت فى الاصل رسائل شخصية ثم عدلت الى منشورات عامة . وهذه الظاهرة احدى العلامات التى نتوصل بها الى المنشورات العامة التى كانت فى الأصل رسائل شخصية ومن ثم الى النصوص المراجعة .

(٣) التحيــة :

يذكر المهدى التحية قبل المرسل اليه فى الرسائل التى صدرت فى الفترة الاولى ، اى حتى اواخر سنة ١٢٩٩ه . وفى الفترات التالية ترد التحية بعد المرسل اليه . ولا تذكر التحية فى المنشورات العامة ، واذا وردت يكون حكمها كحكم الوصف والدعاء من حيث انها ايضا تدل على ان المنشور كان فى الاصل رسالة شخصية ثم عدل الى منشور عام .

(٤) الخـتم :

ويرد الختم بعد التاريخ وهو آخر ما ينتهى به المحرر . والخطة فى موضعه هى ان يرد بعد الكلام والتاريخ مباشرة . واذا اراد الكاتب ان يضيف شيئا بعد ان ختم فلابد ان يختم الاضافة أيضا . فالختم عند المهدى واتباعه علامة من علامات الاثبات الدالة على صحة ما جاء فى الوثيقة . وهذا يختلف عن خطة الفونج والفور الذين كانوا يضعون الختم السلطانى فى رأس الوثيقة مشيرين بذلك الى ان الوثيقة ككل وثيقة رسمية . فالفرق بين ختم المهدى وختم سلطان الفونج والفور هو ان ختم الاول يذهب الى صحة المكتوب فى حين يذهب الثانى الى ان المكتوب ككل مكتوب سلطانى ، وبالتالى فهو صحيح .

وختم المهدى عبارة عن مسطح ترد فيه بعض النقوش ويطبع به على الورق . وقد استعمل المهدى اربعة أختام متعاقبة ، وهى :

الختم الأول :

وهو أقدم أختام المهدى المعروفة ؛ وقد أتخذه المهدى فى سنة ١٢٩٢ هـ / ١٨٧٥م عندما اجازه استاذه الشيخ محمد شريف لاعطاء الخلافة لمن يستحق من المريدين . وهذا الختم عبارة عن مسطح بيضوى الشكل . ويتكون نقشه من اربعة أسطر ، فى السطر الأول : لا اله الا الله ، وفى السطر الثانى : محمد رسول الله ، وفى السطر الثالث : محمد أحمد عبدالله ، وفى السطر الرابع التاريخ وهو ١٢٩٢هـ . وقد ظهر فى وثيقة واحدة (١) كتبها المهدى قبل سنة ١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م مجيزا بها أحد اتباع السمانية بمرتبة الخليفة نيابة عن استاذه الشيخ محمد شريف نورالدائم. والتاريخ الذى ينقشه هو تاريخ حصوله على اعطاء الاجازة من محمد شريف، وهو نفس التاريخ الذى ينقشه فى الختم الرابع .

الختم الثانى :

وقد حل محل الأول فى تاريخ غير معروف، وان كان من المحتمل أن ذلك وقع بعد انفصاله عن محمد شريف . وهو عبارة عن مسطح بيضوى الشكل مثل الختم الأول . وابعاده ٢٦سم عمودياً و٨ر٢ أفقياً . وهو شبيه الأول فى نقشه تماماً الا أن تاريخ نقشه غير ظاهر ، ويبدو ان الختم كان متآكلا من هذا الجانب . وقد ظل مستعملا حتى ١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م .

الختم الثالث :

وهو الختم الذى حل محل الختم الثانى وهو أول ختم يصدره فى المهدية . واقدم وثيقة تحمل هذا الختم رسالة (٢) صادرة من المهدى بعد ٧ صفر سنة ١٣٠٠هـ / ١٨ ديسمبر سنة ١٨٨٢ وآخر وثيقة صدرت به رسالة (٣) صادرة

---

(١) المرشد رقم ١ .

(٢) مهدية ١/٨ مختلفة رقم ٢ / ٣ .

(٣) مهدية ١/٨ مختلفة رقم ٤ .

من المهدى فى ٢١ ربيع أول سنة ١٣٠١هـ/ ١٨ يناير سنة ١٨٨٤م . وهو عبارة عن مسطح ذى ثمانية أضلاع ، وتبلغ ابعاده أفقيا وعموديا ٢ سم ، ونقشه : فى اعلى الختم : لا اله الا الله ، وفى اسفله محمد رسول الله وفى الطرف الايسر البسملة وفى الطرف الايمن التاريخ وهو سنة ١٢٩٩ ، وفى وسطه الاسم محمد المهدى عبدالله. وقد سرق هذا الختم من منزل المدثر ابراهيم ضمن بعض الأوراق يوم سقوط ام درمان وذلك قبل ان تتسلم المخابرات الأوراق التى فى عهدته . ثم ظهر فجأة فى أواخر سنة ١٨٩٨ بحوزة خادم مدير شركة كوك للسياحة ، وسلم الى المخابرات . وهو موجود الآن بمتحف بيت الخليفة بأم درمان .

الختم الرابع :

وهو الختم الذى حل محل الختم الثالث ، وهو يشبه الختمين الأول والثانى ، اذ هو بيضوى الشكل ، وابعاده أفقياً وعمودياً ٢٢ مليمترا . ويتكون نقشه من اربعة أسطر ، فى السطر الأول : لا اله الا الله ، وفى الثانى : محمد رسول الله ، وفى الثالث محمد المهدى عبدالله ، وفى الرابع التاريخ وهو ١٢٩٢ . وقد بدأ العمل بهذا الختم فى ربيع الثانى سنة ١٣٠١هـ / ٣٠ يناير – ٢٧فبراير سنة ١٨٨٤ واستمر حتى وفاة المهدى . ولم نعثر على جسم هذا الختم .

ويعتبر ختم المهدى ختماً للدولة علاوة على انه ختمه الشخصى . وقد نص فى الختمين الثالث والرابع على صفته أى المهدى ، ولايضع المهدى لفظ ابن بين اسمه واسم ابيه . واختامه البيضوية تشبه ختم الوزير ناصر بن الوزير ابى اللكيلك وزير الفونج . وكما أن الفونج كانوا ينقشون المكتوب فى اربعة اسطر فان المهدى ينقش فى ختمه اربعة أسطر . ومضمون هذا النقش هو نفس مضمون نقش الفونج ، لأنه ينص على العناصر الاربعة التى ينصون عليها وبنفس الترتيب ، وهى الابتهال والاسم واللقب والتاريخ . ومن هنا يتضح ان المهدى قريب الى الخطة التقليدية التى عرفها السودانيون فى شكل الختم وأوصافه والذى هو على اصوله العربية الإسلامية .

والتاريخ المذكور فى الختم هو تاريخ اصداره الا فى حالة واحدة . وتاريخ الاصدار فى حالة الفونج والفور يساعد فى التوصل الى تواريخ ارتقاء السلاطين

لتلازم تواريخ الارتقاء الى العرش مع تاريخ صناعة الاختام . أما فى حالة اختام المهدى فان التاريخ يشير الى مواضع مهمة من تاريخ حياته .

وتاريخ الختم الثالث هو ١٢٩٩ ، والظاهر ان العمل به بدأ مع انتقال المرسل من مؤخرة الوثيقة الى مقدمتها والتعديل الذى اجراه فى اسمه ، لأن الاسم الذى ينص عليه هو الاسم الجديد ، ولأن ظهوره يبدأ مع ظهور التعديلات التى أشرنا اليها . ويمكن القول اعتماداً على هذا أن العمل بهذا الختم بدأ فى أواخر سنة ١٢٩٩ .

أما تاريخ الختم الرابع فهو ١٢٩٢ بينما صدر الختم حقيقة فى ربيع الثانى سنة ١٣٠١هـ . ومعنى هذا هو ان المهدى قد جعل لختمه تاريخ الاجازة له من قبل الشيخ محمد شريف لتخليف المريدين .

ان النص على هذا التاريخ أيا كان الحادث الذى يشير اليه ينبغى أن يشير أهتمام الباحث لأن الاختام الأخرى نصت على تاريخ الصدور فى حين أن هذا ينص على تاريخ مبكر جداً . ولابد ان هذا يعنى ان المهدى يعتبر هذا الحادث القديم الذى يسبق تاريخ اختلافه مع استاذه معلما هاما يمكن ان ينص عليه فى الختم الذى يمثله ويمثل النظام الذى اقامه . وبالنظر الى ان الفرق الوحيد بين هذا الختم والختم الذى يسبقه هو هذا التاريخ فان القصد من اصداره ليس الا اعتماد هذا التاريخ المتقدم. ومن المحتمل ان المهدى قصد بذلك ان يعطى اعتبارا خاصا الى الفترة ما بين اجازة محمد شريف له وبين اعلان الدعوة .وبمعنى آخر فان الحركة الاصلاحية التى قام بها قبل المهدية اعتبرت طرفا مهما لأنها تقع فى اطار الدعوة الى اشادة الدين وتحقيق الامانى التى استهدفتها المهدية . ولسنا نعتقد ان هذا يعنى ان الفترة المذكورة جزء من المهدية ، فالمهدية تبدأ فى منتصف سنة ١٢٩٨ حين ابلغ المهدى بأنه اختير مهديا ، ولكننا نعتقد انه يجمع بينها وبين حركة الاصلاح لأن الروح واحدة ولأن الاغراض والاهداف واحدة . وترد فى منشورات الدعوة اشارات تدل على انه يعتبر الحركة الاصلاحية مقدمة للمهدية ، فهو يذكر انه كان يعمل لأقامة الدين وتشييد اركانه وانه كان ينتظر ظهور المهدى ليكون عونا له وانه عاهد الفقرا الذين اجتمعوا عليه على اقامة الدين وصار يسير على هذه الخطة الى ان نصب مهديا .

واتخذ الخليفة عبد الله ختما دائريا يميل الى الاستطالة افقيا ، وقد نقش فيه قوله : حسبى الله ونعم الوكيل ، ثم التاريخ وهو سنة ١٣٠٢. وهذا يختلف عن اختام المهدى ، لأن الخليفة لا ينص على أسمه ، وانما يتخذ من هذه الجملة شعارا له وشعارا لنظامه . فالختم ليس ختما شخصيا وانما هو علامة للنظام .

ان استعمال الاختام الرسمية كتقليد ديوانى كان معروفا فى السودان منذ عهد السلطنات الاسلامية وهو قائم على تقاليد الديوان الاسلامى . ولذلك ليس غريبا ان يتخذه المهدى .

وكان الختم فى عهد المهدى فى عهدة شخص يسمى أمين الختم . وكان هذا الامين هو الذى يتولى اعتماد الرسائل الصادرة من المهدى . وكان أول شخص يتولى هذه الوظيفة هو عبد الله التجانى ، وهو جعلى . ولما قتل عبد الله هذا فى واقعة الجمعة فى الابيض انتقلت امانة الختم الى فوزى السودانى التلغرافجى . ولما قتل فوزى فى واقعة هكس انتقلت الى فوزى محمود بادى . ولما قتل فوزى اثر فتنة الاشراف انتقلت الى المدثر ابراهيم وظلت عنده حتى سقوط نظام المهدية .

اما ختم الخليفة عبد الله فقد بقىَ عند المدثر ابراهيم الى ان سلمه للمخابرات بعد سقوط امدرمان ، وهو موجود الآن فى متحف بيت الخليفة .

أما بالنسبة لأختام العمال والامراء فقد ظل هؤلاء يستعملون اختامهم القديمة الى ان ابطل الخليفة عبد الله العمل بها حوالى سنة ١٣٠٤هـ/١٨٨٦م-١٨٨٧م (١) . ويبدو انه دفع الى اتخاذ هذه الخطوة بعد ان كثر تزوير الاختام (٢). وبمقتضى هذا الامر ابطل الخليفة الاختام القديمة وجمعها من الامراء والعمال(٣) . وصارت القاعدة الا يختم على المكاتبات الرسمية الا من يحمل اجازة الخليفة ويحصل على ختم

---

(١) يونس الدكيم الى الخليفة فى غاية القعدة ١٣٠٤ ، مهدية ١٨٤/٢/١ .

(٢) يونس الدكيم الى الخليفة فى ١٨ صفر ١٣٠٥ ، سالم عثمان الى الخليفة فى ٢٦ ربيع اول ١٣٠٥ ، مهدية ١٥٠/٥/٢ .

(٣) انظر اشارة يونس الدكيم الى امر الخليفة بذلك وعدد الاختام التى جمعها وانواعها - يونس الدكيم الى الخليفة فى غاية القعدة ١٣٠٤هـ ، مهدية ١٤٩/٢٢/١

من عنده[1] . وكان النقش على الختم يختلف باختلاف درجات العمال والامراء ومراتبهم ، فكبار العمال والامراء يحملون اختاما ذات عبارات رمزية او مأثورات ، وصغارهم يحملون اختاما بأسمائهم . ومن امثلة اختام الكبار ختم عبد الرحمن النجومي ونقشه (انصر يارحمان عبدك عبد الرحمن) . واذا كتب عامل لا يحمل الختم رسالة الى الخليفة كان عليه ان يعتمده بأمير يحمل ختما[2] .

---

(١) يونس الدكيم الى الخليفة فى ١٨ الحجة ١٣٠٤ ، مهدية ١٦٣/٢٢/١ .
(٢) انظر ذلك فى مهدية ٢٠٦/١٤/٢ ، ٢٢٦ .

الفصـــل الثـــالث

ديـوان المهدية ومايتصـل بـه

لم يعرف الانصار فى تاريخهم لفظ الديوان ولا ديوان الانشاء ولا عرفوا جمع الذين يقومون بشئون الكتابة فى صعيد واحد أو تحت ادارة واحدة ، وانما كان لمن يتولون امرا من الأمور كتاب يلازمونهم فى اماكن اقامتهم وفى تحركاتهم ويقومون لهم بأعمال الكتابة . وكان اللفظ المستعمل لوصفهم هو الكاتب منسوبا الى الشخص الذى اوكل بالكتابة له أو الجهة ككاتب الخليفة وكاتب حمدان وكاتب الراية الزرقا وكاتب المهدى . واحيانا كان يشار اليه بمعتمد السر او مؤتمنه (١) وصفا لصفته لا اصطلاحا عليه . وان فى ذلك لدلالة على مدى الربط بين الكاتب وبين الشخص الذى يكتب له ، كما انه يدل على عدم وجود فكرة موحدة لشئون الكتاب والكتابة . وقد استعملنا لفظ الديوان هنا لأننا نقصد اكثر من مجرد كاتب ، فان قصدنا يذهب الى نظم الكتابة واساليب الكتاب ، والى الكتاب والظروف التى سادت فى محيطهم . وقد كان هناك كتاب فى كل الاقسام والادارات المختلفة التى ظهرت فى المهدية ككتاب بيت المال وكتاب المحاكم وما الى ذلك ، كما كان هناك كتاب للرسائل والمحررات المتصلة بالادارة غير المال والقضاء ، وهؤلاء ينقسمون الى مجموعتين ، اولاهما واهمهما هى مجموعة كتاب التحريرات وهم الذين يتولون صياغة المحررات ويساعدون فى الاجراءات واخراهما هى مجموعة كتاب القيودات الذين يتولون نسخ المحررات وعملية الأرسال ونحوها .

كانت الوظيفة الرئيسية لكاتب التحرير هى تحرير الوثائق الصادرة وتسلم المحررات الواردة وعرضها على الرئيس المختص وتحرير الردود عليها حسبما يتفق الاجراء . وكان يتبع ذلك بحفظ الرسائل الواردة وصور من الصادرة (٢). وكان الكتاب يقومون باعمال السكرتارية كاستخراج المحررات القديمة عند لزومها (٣)

---

(١) ابراهيم محمد الى الخليفة فى ٢٩ رمضان سنة ١٣٠٦ ، مهدية ٢/١٨ / ٤٩٢ و٤٩٥ .

(٢) المرشد رقم ٣٣١ .

(٣) المرشد رقم ٥٤١ .

والارشاد الى الاحكام الصادرة (١) وتحديد المواعيد للمقابلات (٢) واستقبال الواردين (٣) وكتابة عرائض المظلومين اذا اقتضى الأمر . وقد ورد فى خطاب صدر فى ٢٦ شعبان سنة ١٣٠٢هـ قوله : «شكينا بما حصل بنا وأمرنا بتقديم اعراض وحكا لنا بخشمه قال لنا تقدموا بكتابة المدثر». وقد اوكل لبعضهم مهمات خطيرة وحساسة كارسال المدثر ابراهيم الحجاز ، وهو رئيس كتاب الخليفة عبد الله ، الى حمدان ابى عنجه بجبال النوبا لمعاونته فى تصفية قوة محمد خالد زقل . كذلك ارسل أحمدى محمود بادى لمعاونة الزاكى طمل عند تسلمه قيادة القلابات بعد وفاة حمدان ابى عنجة (٤) . وقد احتل الكتاب مكانة ممتازة، وكان بين المهدى وبعضهم صداقة وود وبين الخليفة وبعضهم ثقة ، وهذا مما رفعهم اجتماعيا ، ويبدو ذلك جليا من الرسائل الاخوانية الكثيرة التى كانت تصلهم من الاصدقاء واصحاب المطالب والرجاءات . وقد كان هذا المركز طبيعيا بالنسبة لعلاقتهم الوثيقة بالخليفة ويقابل مؤرخ الديوان ، كما هو الشأن عامة بالنسبة لمؤرخ النظم فى المهدية ، شح البيانات واقتضاب المعلومات التى تتعلق بالديوان ونظم الكتابة، ومن هنا فان اعطاء صورة متكاملة للديوان يبدو امرا صعبا .

ويبدو ان المهدى كان له كتاب يساعدونه فى التحرير ، أو نسخ ما يكتبه هو بنفسه منذ ان كان بجزيرة ابا . فقد وصلتنا محررات أصلية مكتوبة فى هذه الفترة بخط غير خط المهدى(٥) . غير ان خلق الديوان المنظم القائم على الكتاب الذين يحترفون الكتابة وعلى أسس تنظيمية كان عملية تدريجية ولم تكتمل صورته بتقسيماته وفروعه الا فى عهد الخليفة عبد الله .

ان المصادر لا تفيدنا بشئ عن الكتاب فى الايام الاولى للمهدية . وان أول ما يقابلنا من اخبارهم هو مقتل عبد الله التجانى امين ختم المهدى فى واقعة الجمعة بالابيض(٦) . ثم نسمع بعد ذلك عن مقتل خلفه فوزى التلغرافجى فى احدى المناوشات

---

(١) المرشد رقم ٨٢٦ .
(٢) المرشد رقم ٦٨٠
(٣) المرشد رقم ٧٣٠ .
(٤) انظر رسالة من احمدى محمود الى الخليفة ، غرة رجب سنة ١٣٠٦ ، مهدية ٢/١٨ / ٣٤٤ .
(٥) درهام ، : صندوق ١٠٠/١/١ وثائق رقم ١٢/١١ .
(٦) على المهدى ص ٥٠ .

التى سبقت واقعة هكس (١). وهناك دلائل كثيرة توحى بأن امور الكتابة قد استقامت الى درجة بعيدة بعد فتح الابيض . وقد صدر فى هذه الفترة منشور الخط الذى ينظم اساليب الرسم الاملائى(٢) . كذلك بلغتنا سجلات للجهادية والغنائم ترجع الى هذه الفترة . وليس هذا بالامر الغريب اذا نظرنا الى انتظام الادارة الذى تبع فتح الابيض واهتمام المهدى بوضع التنظيمات الادارية ووفرة الورق الذى غنم فى هذه المدينة . وكان مما ساعد على ذلك انضمام بعض كتبة المديرية الى ديوان المهدى . وبعد هذه الفترة تتوالى البيانات عن الكتاب واعمالهم .

وبعد سقوط الخرطوم نلاحظ ان الكتابة قد اتسعت بصورة واضحة كما نلاحظ انهم صاروا يسجلون المحررات الصادرة فى سجلات خاصة . كذلك نلاحظ كثرة الاوامر الادارية ، وهذا فى حد ذاته يكشف عن تطور خطير ، اذ ان الديوان بعد ان كان يقوم على عمل الكتاب الكبار صار يتسع لعمل صغار الكتاب الذين يستلزم وجودهم تحرير الردود الروتينية ونسخ الوثائق التى يكتبها المهدى او الكتاب الكبار لتوزيعها بصورة واسعة وتنظيم عملية التوزيع والبريد وتسجيل الصادر والوارد فى سجلات .

وتعطينا تقسيمات سجلات الصادر وتفرعاتها فكرة عن تقسيم العمل فى الديوان وتطوره ، لأن كل تقسيم فى الديوان يظهر فى شكل دفتر جديد أو صفحات مخصصة لمحررات الفرع الجديد أو القسم الجديد . وعلى هذا فان ظهور دفتر جديد يعالج موضوعا قائما بذاته يدل على ميلاد قسم جديد . وبطبيعة الحال فان تضخم العمل وازدياده هو الذى كان يدعو الى التقسيم وظهور الفروع الجديدة فى داخل الديوان .

لقد كان الديوان عند فتح الخرطوم تنظيما موحدا ، ولم يكن هناك تقسيم للسلطات أو توزيع للعمل على نمط منظم ، وقد ظهر ذلك جليا فى تسجيل كل المحررات الصادرة عن الديوان فى سجل واحد ، هو السجل الاول والذى بدئ العمل به فى أول ربيع اول سنة ١٣٠٢هـ / ١٩ ديسمبر ١٨٨٤م . وفى شعبان سنة ١٣٠٢هـ/ مايو — يونيو ١٨٨٥ ظهر قسم جديد اوكل اليه امر الوثائق الخاصة بتعيين الامراء

---

(١) نعوم شقير ص ٣٩٩ .
(٢) توشكى ص ١٥٧ .

والعمال، وقد تمثل ذلك فى ظهور دفتر الامارات الذى بدىء العمل به فى ١١ شعبان سنة ١٣٠٣هـ / ٢٨ مايو ١٨٨٥ .

وفى أول رمضان سنة ١٣٠٢ / ١٥ يونيو ١٨٨٥م ظهر قسمان جديدان ، احدهما قسم يقوم بأمر الوثائق التى تدعو الى المهدية والتمسك بآدابها ، وهو الذى يسمى بمحررات الدعاية الى الله ، والثانى قسم العفو والاحسان، وهذا بدأ بمظالم اهالى الخرطوم . لقد دون عمل هذين القسمين فى دفتر الصادر رقم ٥ الخاص بالدعوة ودفتر العفو والاحسان .

وفى أواخر شوال سنة ١٣٠٢هـ / يوليو — اغسطس ١٨٨٥م نشهد ظهور قسمين جديدين هما قسما الشكاوى والعروضات وهو القسم الذى يقوم بالتعليق على العرائض وتقديمها للخليفة عبد الله والاتصال بشأنها بأصحاب الشأن وتحرير الردود عليها ، وقسم يقوم بتحرير المنشورات العامة المتصلة بالجهاد والتنظيمات العامة . ان ظهور هذين القسمين يتمثل فى ظهور دفاتر الشكاوى والعروضات التى بدأ العمل بها فى ٢٦ شوال سنة ١٣٠٢هـ / ٢٠ اغسطس سنة ١٨٨٥م ودفاتر المنشورات العامة التى بدأ العمل بها فى ٢٣ شوال سنة ١٣٠٢هـ / ١٧ اغسطس سنة ١٨٨٥م .

وفى نفس الوقت كان هناك القسم العمومى وهو الذى تفرعت عنه الاقسام السابقة ، وقد كانت المهمة الرئيسية لها هى تحرير الأوامر الادارية . وفى ٢٤ رجب سنة ١٣٠٣ / ١٠ مايو سنة ١٨٨٥م قسم هذا القسم بدوره الى اربعة أقسام ، الغرب ويشمل كردفان ودارفور والسودان الغربى ، وقسم الجزيرة وهو يشمل ما بين النيلين وشرقا الى حدود الحبشة وجنوبا الى اعالى النيل ، وقسم الشرق والشمال وهو يشمل المناطق الواقعة شمال الخرطوم الى الحدود الشمالية والمناطق الشرقية ، وقسم البقعة وما حولها .

وكانت هناك دواوين للتحرير فى الاقاليم المختلفة وفروع المرافق التى تقوم عليها الادارة ، ولكن لم يعرف الديوان على النمط الاقليمى الخالص الا فى اماكن قليلة كشرق السودان مثلا ، وانما كانت الصورة العامة له هى ان يكون للامير كاتب سر يحمل كل ما يصله من المحررات وربما صورا لما يصدر منه، وبجانب ذلك

كان للمرافق كتابها كبيت المال والشونة والجيش . وبمعنى آخر فان المحررات وكل ما ينتجه الديوان يتبع للامير وليس للاقليم الذى يحكمه ، كما ان الكاتب تابع له شخصيا وليس للادارة الاقليمية . وعلى هذا فان الأمير يحمل معه محرراته اينما ذهب ، كما أنه يأخذ معه كاتبه ، ولا يترك محررات اقليم ما لخلفه . وعندما يموت امير من الامراء تجمع محرراته وترسل للديوان العام فى امدرمان(١) .وهذا بخلاف دواوين الحسابات والمخازن التى تتكرر فى كل مركز كبير .

وقد ذكرنا ان ديوان شرق السودان ديوان اقليمى ، والمقصود هو ديوان افافيت فى طوكر . لقد غنمت المخابرات الحربية المصرية وثائق هذا الديوان ، وكانت هذه الوثائق محفوظة فى منزل عبد الله ابى بكر يوسف كاتب سر الأمير عثمان دقنة . وان ما وجد فى هذا الديوان ليعطى فكرة واضحة عن الادارة فى فى هذا الاقليم ، وهو يشمل وثائق بيت المال بكامل فروعه ومحررات الامراء الذين تتابعوا على حكم الاقليم والمحررات التى وردت اليهم . وعلى هذا فان هذه الوثائق وثائق ديوان اقليمى وليست وثائق امير معين .

وكان من أشهر كتاب المهدى والخليفة المدثر ابراهيم الحجاز وابو القاسم احمد هاشم واحمدى محمود بادى وفوزى محمود بادى واحمد النور والصديق ابو صفية واخوه عبد الكبير . ويرد ذكرهم ببعض التفصيل عند كلامنا عن العلماء .

وفى التاريخ القصير للمهدية تعاقب على الديوان كتاب كثيرون . كان أولهم عبد الله التجانى ، وهو زميل المهدى فى الغبش ، وقد قتل فى واقعة الجمعة كما قلنا ثم خلفه فوزى التلغرافجى ، وقد قتل بدوره فى واقعة شيكان (٢) . ثم خلفه فوزى محمود بادى واستمر حتى كانت فتنة الأشراف الثانية فخلفه بعد قتله المدثر ابراهيم الحجاز ، وقد ظل هذا فى مكانه حتى نهاية المهدية .

وكان الكتاب يتقاضون المرتبات نقدا وعينا حسب النظام الذى اتبع فى المهدية .

---

(١) يفيدنا احمدى محمود فى رسالة منه الى الخليفة فى غرة رجب ١٣٠٦ (مهدية ٣٤٤/٨/٢) بارسال وثائق حمدان الى امدرمان . كذلك حصرت محررات عثمان آدم وارسلت الى امدرمان بعد وفاته .

(٢) نعوم شقير ص ٣٩٩ و ٦٠١ .

وكان المرتب النقدى يدفع على اساس المرتبة او الفئة التى ينتمى اليها الكاتب فى حين كان يدفع المرتب العينى على اساس افراد العائلة .

وبالنسبة الى ذلك فان المرتب النقدى هو الذى يمكن ان يدلنا على موضع الكتاب ومكانتهم بالنسبة الى الفئات الأخرى . ان كشف مرتبات دنقلا عن محرم سنة ١٣١٣ (١) يوضح ان حامد البدوى كاتب يونس الدكيم قد تقاضى عن هذا الشهر ٣٥ ريالا وان كلا من مساعديه قد تقاضى ١٠ ريالات ، وذلك فى حين تقاضى وكيل بيت المال ٢٠ ريالا وامين الشونة ١٥ ريالا ، وكل من أمين المبيوعات وامين النقود وأمين الزكوات سبعة ونص ريالا . اما فى طوكر فان كاتب اول بيت لمال كان يتقاضى ١٠ ريالات من جماد أول سنة ١٣٠٦ ثم عدلها الامناء فى شوال الى ١٥ ريالا . والكاتب الثانى كان يتقاضى ستة والثالث خمسة ثم عدلها الامناء من شوال الى ٨ ريالات . وفى نفس الوقت كان كاتب عثمان دقنة يتقاضى ٤٠ ريالا وكاتب الادارة ٦ ريالات ونائب الشرع ١٠ ريالات والترجمان خمسة ريالات (٢) . ان هذه المرتبات توضح ان كتاب الامراء الذين كانو يتولون التحرير كانوا يتقاضون مرتبات عالية ، وفى ذلك دلالة على اهميتهم البالغة ومكانتهم العالية . وبالطبع فان هذا يعطينا ايضا صورة لمركز كتاب الديوان العام فى امدرمان .

حفـــظ الوثائـــق :

تتوقف عملية حفظ الوثائق والاهتمام به على درجة وعى الكتاب وعلى درجة التنظيم فى الديوان . ويبدو ان الكتاب لم يبدأوا بحفظ الوثائق الصادرة عن المهدى والمحررات التى تصل الى الديوان الا فى وقت متأخر . وهذا بالطبع امر مرتبط بنمو الديوان وتطوره . ولكن من الواضح انه كان هناك اهتمام خاص بالمنشورات التى يحررها المهدى بنفسه ، وبالخصوص تلك التى ترتبط بمواضيع هامة او شخصيات كبيرة . وقد نجم عن عدم الاهتمام بحفظ ما هو ليس من المهدى فقدان الغالبية العظمى من المحررات التى كانت تصل الى الديوان . بل الواقع ان ما بلغنا من ذلك لا يتعدى اكثر من ستين وثيقة ، كما ان ما بلغنا من محررات مساعديه واعوانه

---

(١) سجل المرتبات : المهدية ، القسم الرابع ، دفتر رقم ٢ .

(٢) سجلات المرتبات : المهدية ، القسم الخامس دفتر رقم ١٥ ، ١٩ ، ٣٧ .

لا يتعدى المائة . وكان من أثر ذلك ايضا ان ما بلغنا من محررات المهدى فى الايام الاولى صارت قليلة جدا . ونحن لا نكاد نجد المجموعة الكاملة لوثائق الديوان الا بعد صدور سجلات الصادر . ولما انكمش التسجيل فى سجلات الصادر انكمش محصولنا من صور الوثائق . والسجلات نفسها لا تعطى الصورة الكاملة لأنها سجلات للصادر فقط . وفى رجب سنة ١٣٠١هـ / ٢٧ ابريـل — ٢٦ مايو سنة ١٨٨٤م اشار المهدى الى أهمية حفظ الرسائل ، بل وكانت هذه أول اشارة الى اهتمام الانصار بحفظ محرراتهم والسيطرة عليها للاغراض الادارية . ومما يؤكد اهتمامهم بالحفظ منذ هذه الفترة تضخم عدد الوثائق التى وصلتنا من هذه الفترة وما بعدها .

ولم تكن هناك قاعدة عامة للحفظ ، فقد قام كتبة الخليفة والمهدى بحفظ الوثائق فى بيوتهم . وكان عثمان آدم يحفظ وثائقه فى منزله ويودعها فى الصفائح . وقد وصف أحمد كريم الدين الطريقة التى اعد بها وثائق حمدان ابى عنجه عند ارسالها الى امدرمان بعد وفاته ، ولأهمية هذه الوثيقة نورد نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الوالى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم

وبعد . . . فالى جناب قدوة الدين الجاد على طريق السلامة عند رب العالمين سيدى وسندى خليفة المهدى عليه السلام الخليفة عبد الله بن محمد خليفة الصديق رضى الله عنه واهلك كل من عاداه آمين ، من العبد الضعيف المسكين احمد كريم الدين ، اقدم بين يدى عال مقام سيدى جزيل السلام وادعو له عند ربى بدوام العز والنصر على الدوام .

ثم اعرض متأدبا لمسامعه الذكية قايل سيدى حسبما اشير من لدن مكارمكم العلية بكريم الصادر لعبدكم فى ١٠ الجارى سنة ١٣٠٦ عن حصر كافة الاوامر الكريمة الصادرة من جنابكم لوالدى المرحوم حمدان ابى عنجة وارسالها لصوبكم بمعرفة المكرم احمد على لحفظها وعلى ان لا يضيع منها امر لاجراء الذمة عند الله ، فامتثالا لشريف الامر قد بادرت بحصر الجميع شهرا بشهر وسنة بسنة من ابتداء سنة ١٣٠٢هـ ولبحر سنة ١٣٠٦هـ التى توفى فيها المرحوم فبلغ مقدار المظاريف ثلاث

وستون ظرفا داخلها ستمائة وثلاثة وستون امرا في بحر الخمس سنوات المذكورة . وقد جعل كل وارد سنة واحدة ببقجة المظاريف شمعة من الجهتين وعلى ظهر كل بقجة اسم السنة وعدد مافيها ، والكل داخل واحد خرج بقرى امين متين مقفول من الجهتين بطبلتين بساقية ، وداخله ايضا ما كان صادرا للمرحوم من لدن سيدى يعقوب ومن سيدى خليفة الفاروق وعثمان آدم منحصر فى تسعة مظاريف ملفوفة وحدها ، وكذلك الاوامر المضبوطة سابقا بمعرفة المرحوم من محمد خالد داخل شنطة زرقا انجليزية من غير وقوف منا على عدد ما فيها . ولم يكن معنا الآن الا الباقى من الحريق من وارد الجهات وهو محفوظ داخل خرج وقفة ولكن الاغلب منه لا ثمرة له ولم يكن حجزه سابقا الا الخشية من تدعى له الضرورة .

ولقـــد استبقنا تسليم الخاتم لحمدين حبيب الله فى يوم وفات المرحوم وقبل دفنه بمحضر من ملء المسلمين اداء للذمة وابعاد التهمة . وما زال العبد رهين اشارة جناب سيده طامع فى نيل عفوه ورضاه مع الثقة منه بربه وتوكله عليه وصدق محبته فى ساداته ابتغاء مرضات الله والامر فما ابديته لله وصايب رايكم وارجو الصفح عن هذا والا اخرج عن شريف الفكر طرفة العين ولا اقل منها سيدى والسلام .

٢٩ جماد آخر ١٣٠٦

مع ما توضح سيدى ان مفاتيح الخرج تسلمت للمكرم احمد على ليسلمها المندوب منه وبيده ايضا الخرج بما فيه حسب الاشارة الكريمة مفصلات ما ذكر واضح معا الثقة عليه لزمت الحاشية . فى تاريخـــه

تبرز لنا هذه الوثيقة مسائل ذات اهمية بالغة . فقد افادنا الكاتب بأن الخليفة كلفه بحصر كافة الاوامر الكريمة الصادرة من الخليفة الى حمدان ابى عنجة وارسالها بمعرفة الأمير احمد على لحفظها وعلى الا يضيع منها امر لاجراء الذمة عند الله . ومن هنا يتضح ان حمدان لم يكن يحمل معه اوامر المهدى المرسلة اليه . وربما كانت هذه الاوامر قد سلمت الى الديوان العام من قبل على اثر حملة البحث عن وثائق المهدى وجمعها ، والقول بالارسال بمعرفة احمد على قد يعنى ان احمد على هذا كان قائما بأمر جيش القلابات بعد وفاة حمدان ، وان النية كانت تتجه الى اختياره فى القيادة لولا ظروف جدت على الوضع وادت الى اختيار الزاكى طمل . كذلك فان القول

باجراء الذمة عند الله قد يفيد بظلال القدسية التى اضفيت على وثائق المهدى والخليفة . وقد اتبع كريم الدين التصنيف حسب التتابع الزمنى فرتب الوثائق شهرا بشهر وسنة بسنة . وقد افادنا ببيانات هامة عن اوامر الخليفة لحمدان ، فقد وضعها فى ٦٣ مظروفا وذكر ان جملتها تبلغ ٦٦٣ امرا وأنها صدرت فى خلال خمس سنوات . وقد وضع محررات كل سنة فى بقجة وكتب على كل بقجة السنة وعدد المحررات التى تحويها . وقد وضع محررات يعقوب وعثمان آدم والخليفة على الحلو فى ٩ مظاريف . وقد افادنا بأنه وضع محررات محمد خالد زقل التى اخذها حمدان معه منذ اعتقال زقل فى صندوق ودون ان يقف على محتوياتها ، وهذا نوع من الأدب لأنه لم يكن مأذونا بالنظر فيها . وهـــذه الواقعة نفسها ذات أهمية لأنها تعنى ان اوراق زقـــل سلمت لحمدان وان الأخير كان يحملها مع اوراقه ولم يسلمها للديوان العام . كذلك يفيدنا الكاتب بأن حرق الوثائق التافهة كان متبعا فى المهدية . ويبدو من قوله انهم كانوا يحفظون اوامر الخليفة ومحررات الامراء اليه حفظا دائما بينما كانوا يحرقون الوارد من الجهات كلما تقادم عليه الزمن . وقد اوضح الكاتب ان ختم حمدان قد سلم للامير حمدين حبيب الله بمحضر القوم قبل دفن حمدان .

البريـــد :

يرتبط البريد بالديوان من حيث توزيع المحررات وايصالها والمحافظة على سلامتها . وقد جرت العادة على ان يحمل رجل البريد ، وهو يعرف بالهجان ، حرفا خاصا متفقا عليه بين الخليفة وبين الأمير او العامل ، فيعطيه له عند وصوله ، واذا لم يعطه يعتبر مزورا . وكان من الشروط ان يكون الهجان رجلا ذكيا عاقلا ، حيث انه بالأضافة الى توصيل الخطابات كان عين الخليفة على العمال واذنه التى ينصت بها على حوادث الاقاليم والوقوف على نشاط العملاء ومسلكهم . وقد جاء فى رسالة لمحمد احمد رحمه الى الخليفة (١) ان الاخير طلب اليه ان يكون الهجانة الذين يرسلهم بالبريد ممن لهم الدراية بالبلاد ليكتشفوا خبر الجيش ويعودوا سريعا . وقد اشترط الخليفة على يونس ان يكون البوسطجى ملما بالاخبار الحاصلة (٢) والا يرسل

(١) ٧ جماد أول سنة ١٣٠٥ ، مهدية ٢/٥/ ٢٢٢ .

(٢) يونس الدكيم الى الخليفة عبد الله ١٧ ربيع اول سنة ١٣٠٥ ، مهدية ١/٢٢/ ٢٧٤ .

البوسته «الا مع أهل التمييز الذين اذا سألهم السيادة عن احوالنا يخبرون بها على الوجه الاتم» (١)، وحرص ايضا على ان يكو ن الهجانة من الذين يثق بهم ، ولذا خابر يونس بألا يأمن على البوسته المبعوثة اليه الا من يكون من الاخوان القدام . كذلك كان يتفادى الهجانة المرور بالاماكن المضطربة خشية على البريد . وفى حالات كثيرة كان يحدد لهم الطريق والمدة للتأكيد .

وكانت الرسائل توضع فى مظاريف ، وقد كانوا فى حالات كثيرة يطوون الجواب فى صورة مظروف ثم يكتبون العنوان من الخلف (٢) ثم صاروا يصنعون المظاريف فى المطبعة .

آداب الكتابـــة :

وكانت هناك آداب عامة ومعارف يسير على هديها الكتاب فى المهدية . وترجع هذه الآداب والمعارف فى اصلها الى مصدرين ، أولهما واهمهما الثقافة التقليدية التى سادت فى السودان قبل الفتح المصرى ، وهى التى سار على منوالها أيضا كتاب الفونج . وقد عالجنا بعض جوانب هذه القضية عند كلامنا عن القواعد التوثيقية . اما المصدر الثانى فهو نظم الكتابة التى وفـــدت على البلاد مع الادارة المصرية . وقـــد اعتبر المهدى القضاء على هذه النظم مهمة رئيسية وواجبا مقدسا ، فمنع محاكاة الترك فى كل شئ وحث على اتباع الرسم الاملائى الذى اتبع فى المصحف بدل الرسم الذى اتبعه الترك . غير ان القضاء نهائيا على اثر الترك لم يكن ممكنا فى تلك الظروف . فقد استعان الأنصار بكتبة الادارة المصرية فى شئون الكتابة ، وقد وفد هؤلاء على دواوين الادارة الجديدة بالاساليب والنظم التى عملوا بها . ومن هنا فان المرء يقابل احيانا بعض رواسب تركية فى وثائق المهدية كلفظ المصلحة للدلالة على قسم أو لفظ الترسانة وما الى ذلك . وكانت معارف السودانيين التقليديين تفتقر الى نظم المال والقيد المنظم، ولهذا لم يكن هناك بد من ان يحذو الأنصار حذو اعدائهم فى اساليب القيد كسجلات الصادر والحسابات وشئون المال بينما عادوا فى تحرير محرراتهم الى الاسلوب التقليدى المتعارف عندهم . وقد

---

(١) يونس الدكيم الى الخليفة عبد الله ، ٢٥ ربيع أول سنة ١٣٠٥ ، مهدية ٢٧٨/١٢/١

(٢) انظر مهدية ٥/د/٧ .

اشار الأمير مساعد قيدوم الى آداب الكتابة ومعارفها عندما وصف محمد مصطفى كاتب الأمير يونس الدكيم بقوله: لمعرفته بالاصول وريسانه في الامور . وقد فصل الخليفة عبد الله ما اجمله مساعد في وثيقة تعيين الكاتب محمد ود حسن الذى عين فى وظيفة كاتب سر الامير عثمان الدكيم عامل بربر . يقول الخليفة مخاطبا الكاتب :

« نظرا لرأينا الحسن فيك فقد ارسلناك الى المكرم عثمان الدكيم لتولى خدمة الكتابة عنده ما دمت قد امضيت وقتا طويلا فى معيتنا ،وفهمت اغراضنا. يجب عليك ان تكون عالى الهمة فى المهمة التى عينت من اجلها ،دقيقا فى تنفيذها باخلاص وثقة وانكباب على العمل كما يجب ، فتعزف عن الدنيا ولا تتدخل فيما لا يعنيك ، وكن للمكرم عثمان الدكيم كالميت بين يدى غاسله ، وبادر الى تنفيذ اوامره ، واقرأ له مباشرة جميع الرسائل الواردة منا اليه ، واذا امرك ان تقرأ اى شئ لغيره من الاخوان كما يتطلب الدين الحنيف فاقرأه له . واذا امرك ان تخفى امرا فيجب ان تخفيه ولا تفضى به الى اى مخلوق . وبعد ان تعرض عليه الرسائل ويخبرك بالردود التى يرغبها اجب عليها ملتزما الاوامر دون اى توان ولا تخبر بها احداً » (١) .

وكان من آدابهم الا يحاسب الأمير كاتبا عينه الخليفة أو الأمير يعقوب او ان يرفعه عن الكتابة . وكان لا يؤذن للامير بتعيين كاتب الا بعد الرجوع الى الخليفة أو يعقوب . وقد منع الامراء من تبادل الرسائل الا باذن الخليفة . وقد عاتب الخليفة قريبه الأمير محمود ود احمد لأنه حرر خطابا لأخيه ابراهيم الخليل دون اذنه ، كما اخذ عليه مبادأته الأمير عثمان دقنة بالكتابة مع انه يكبره فى السن ودون اذن سابق من الخليفة . وكان على الكاتب ان يراعى صفة المحرر والمخاطب بحيث يكون القول لائقا للمقام. فاذا كتب عن حادث وكان من المتوقع ان يتلى المحرر فى المساجد وينشر بين الناس كان عليه ان يراعى ما يذكر للعامة وما لا يذكر ، وهذا بخلاف ما يحرر للخليفة خاصة .

---

(١) مهدية ١/٤/٢٥٤ ، رفعت رمضان ص ٢٩٩ .

الفصل الرابع

المطبعة الحجرية

ربما لا يحس ابناء هذا الجيل الذين يجدون الكلمة المطبوعة سهلة ميسورة مدى ما تلعبه المطبعة فى حياتهم اليومية وحياتهم العقلية . فهم يجدون الكلمة المطبوعة كلما دعت الحاجة الى الكلمة ، فى الكتب وفى الصحف الدورية وفى الجرائد اليومية التى تطبع وتوزع فى يومها ، فى بطاقات الدعوة وفى تذاكر القطار والحافلات . ولكثرة ما يجدونها سهلة ميسورة ، ولاتصالها بحياتهم الى هذا المدى ، لا يقف ابناء جيلنا ليتخيلوا عالما بدون المطبعة ، أو ينظروا فيما تخلقه المطبعة من انقلاب عندما تظهر لأول مرة فى مجتمع من المجتمعات .

لقد قدر لأنصار المهدى ان يغنموا مطبعة حجرية صغيرة ، وان يستعينوا بها الى اقصى مدى الاستعانة ، لخدمة فكرهم وتوصيل أوامر القيادة وتوجيهاتها الى الاتباع فى اطراف البلاد والى من يدعونهم الى دعوتهم خارج بلادهم . وهذا مثال لما يبلغه العزم الصادق والسعى الدؤوب لقهر الصعاب التى تعترض السبيل وبلوغ الهدف . ففى مدى خمس عشرة سنة او نحوها تمكن الانصار من طبع مجلدات من الكتب والمصنفات وعدد ضخم من الرسائل والمحررات ، وان يبلغوا فى ذلك حدا من الجودة والاتقان ، بالرغم من المصاعب الكثيرة ، الفنية منها وغير الفنية ، التى وقفت فى سبيلهم .

لقد كان التأليف والتصنيف فى عصر المهدية خدمة للعقيدة ، وكانت الكتابة سبيلا من سبل الدفاع والجهاد ، مثلها فى ذلك مثل السيف . ولو نظرت فيما كتب المهدى واصحابه لخدمة دعوتهم وادركت مدى الحرب الكلامية التى دارت بين المهدى وانصاره من جهة وبين اعدائهم من جهة اخرى ومقدار ما كان يبذل فى سبيل الاقناع لأدركت مكان القلم واهمية ما كان يكتب ، ومن ثم ما كان يطبع .

ظهرت المطبعة العربية لأول مرة فى الشرق فى اوائل القرن الثامن عشر بسوريا ولبنان واسطنبول فاحدثت صراعا بين مؤيدين ومعارضين ، اذ بينما رحب بها البعض واستبشر بعد ان رأوا فعلها فى المجتمع الاوربى ، عارضها آخرون وعدوها نكرا ،

لخوفهم على قدسية الكتابة العربية من ان تفسدها الآلة ، وحرصهم على الحرف المخطوط الذى ألفوه واستأنسوا اليه . الا ان التجربة مرت سريعة لأن هذه المطابع ماتت بسرعة . ثم جاءت المطبعة الى مصر فى نهاية القرن على يد نابليون وتلقاها المصريون ، بما فيهم بعض قادة الطوائف الدينية الذين يخشى منهم ، بترحاب . وفى ١٨٢٠ أنشأ محمد على باشا ، والى مصر ، مطبعة بولاق المشهورة والتى كان من ضمن مطبوعاتها الوقائع المصرية . اما بالنسبة الى السودان فلا نعرف تاريخ دخول المطبعة فيه بوجه قاطع ، ولكن يمكن القول على وجه الاطمئنان بان الادارة المصرية كانت تستعين بها على الأقل فى اواخر سنواتها . وقد تقبل المجتمع السودانى المطبعة ، رغم تقليديته وتزمته احيانا ، ولم ير فيها ما ينكر . والواقع ان هذا المجتمع وقف على الكلمة المطبوعة قبل ان يرى المطبعة نفسها ، وكان المطبوع الذى عرفه يدور حول الدين وعلومه ، وحتى المصحف الشريف كان قد بلغ السودان مطبوعا ، فلا وجه للاعتراض على حساب الغيرة على الدين . وهكذا جاءت المطبعة الى السودان بعد ان اطمأن المجتمع المسلم اليها وألفها .

لقد استجلب المصريون مطبعة صغيرة بغرض طبع المستندات المالية كدفاتر الحسابات واوراق الدمغة وما الى ذلك من وسائل الادارة . ويبدو من المطبوعات التى وقفنا عليها ومن بقايا المطبعة المحفوظة فى متحف بيت الخليفة بأمدرمان انها كانت من النوع الذى يكتب على حجرها ، وهى بخلاف النوع الذى يحفر فيه . ولما قامت الثورة المهدية حاول المصريون على عهد عبد القادر حلمى باشا استغلالها فى الدعاية فطبعوا فيها الرسائل التى تهاجم المهدى وتندد بدعوته ، كما أنهم طبعوا بها أثناء حصار الخرطوم بونات غردون المشهورة عوضا عن النقود المعدنية . ولما سقطت المدينة فى يد انصار المهدى استولى الانصار على المطبعة وعلى كميات كبيرة من الورق كانت مودعة فى المخازن الحكومية بجانب ما غنم من المنازل ودور التجارة ، وقد استقر عزم الانصار من أول وهلة على الاستفادة من هذه الآلة الجبارة لاستنساخ الاوامر ، وصدر أمر من قيادتهم لالحاق كل من له خبرة بالطبع او التجليد بادارة المطبعة ، وهو نوع من استنفار الكفاءة والاستفادة من الطاقات الفنية على نحو ما يتم الآن فى ظروف الشدة والحروب . ولم يمض زمن حتى دارت الآلة ودفعت بمئات النسخ .

ولقد كان لهذه المطبعة أثر واضح فى تطور الحركة الفكرية ، اذ امكن طبع عدد من الكتب وسلسلة من المصنفات التى تحوى مختارات من منشورات المهدى ورسائله وعدد من الكتيبات والوثائق . وقد تمكن الانصار بواسطتها من اصدار عدد من النسخ المعتمدة بعيدا عن اضطرابات النقل . وقد زاد الطبع من قيمة الكلمة ومهد لها انتشارا واسعا . وكان صدور الاجزاء المطبوعة من المنشورات فتحا فى مجال التصنيف ، اذ كان الانصار الى ذلك الوقت لا يعرفون مصنف الرسائل الذى يجمع بين دفتيه عددا من المنشورات ، وانما كانوا ينسخون ما يقفون عليه فيما اتفق لهم من ورق . ولما وضعت الاجزاء المطبوعة نموذج مصنف الرسائل احتذى منواله النساخ الذين فقدوا مصدر الرزق بعد ان ابطل نقل الكتب القديمة ونشطوا فى نقل رسائل المهدى وتصنيفها فى مجلدات . وقد أدى ذلك بدوره الى مزيد من الاهتمام بمنشورات المهدى والبحث عنها والى دخول فنون النقل التى عرفها النساخ المحترفون فى تصنيف المنشورات كبيانات التصحيح وعلاماته واعتماد القراءات المختلفة واساليب التبويب والترتيب والتعليق على النصوص والتقديم لها .

واذ ذكرنا محاسن المطبعة ومزاياها على هذا الوجه وما كان لها من اثر طيب فلابد لنا من ان ندرك مخاطرها . منها أن الخطأ الذى يقع فى المطبوع ينتشر بين الناس بمدى ما يطبع منه ، ولان الناس يعتمدون الكلمة المطبوعة ويثقون فيها فان الاخطاء تأخذ سندا قويا . وهكذا انتقلت اخطاء المصنفات المطبوعة الى المصنفات الخطية التى نقلت عنها .

وكانت هناك ثمة متاعب جمة تواجهها ادارة المطبعة . وكانت اولى هذه المتاعب ازمة الورق التى لازمت الانصار طوال تاريخهم ، فقد كان اعتمادهم على الورق الذى غنموه ولم يكن لهم مصدر غيره . وكان ما يصرف من ذلك لاغراض الادارة مبلغا كبيرا . وقد شدد الخليفة فى الشح على صرفه وبالغ فى ذلك حتى أمر فى يوم من الأيام الا يصرف الورق والا تفتح مخازن الورق الا باذن منه . ويمكننا ان نتصور كميات الورق التى كانت تستهلكها الادارة من واقع وثائق ادارة المطبعة : ففى شهر صفر سنة ١٣١٦هـ استهلكت مصلحة العمارة ، اى الادارة التى تشرف على مبانى الدولة ، خمسين فرخا ، واستهلك قسم الخصم والاضافة ببيت المال ٣٠ فرخا ، والترسانة ٢٠٠ فرخا ، ووابوران من الوابورات ٢٠ فرخا . وفى شهر واحد فى سنة

١٣١٥هـ كان مرتب قسم الحسابات ١٥٠ فرخا ، واليومية ١٠٠ فرخا . فاذا اضفنا الى ما ذكر الوحدات الأخرى فى العاصمة والاقاليم يمكننا ان ندرك مدى الكميات التى تستهلكها الادارة من الورق . وبالطبع كان ذلك يلقى بظله ويؤثر فى نشاط المطبعة .

وكانت المطبعة نفسها عبئا ثقيلا . فقد استهلك فى طبع الطبعة الاولى من المصنف المتعلق بمقام الخليفة ٤٩٥ فرخا بالرغم من ان ما طبع منها لايزيد على ١٠٠ نسخة . وكتاب الاحكام استهلك عشرة افرانخا . وبلغ ما استهلكته الدفعة الاولى من الجزء الاول من المنشورات والرواتب اربعة ألف فرخا . ومما زاد العبئ عدم اخلاص بعض عمال المطبعة ، وكان اغلبهم من المولدين المعادين للمهدية . فقد وجدوا فى مجالهم سبيلا للتخريب وافسدوا كثيرا من الورق والحبر وما اعدوا من الواح الطبع ، الا ان المراقبة الحصيفة على الاعداء كانت بالمرصاد ووضعت حدا لعبثهم .

ان ادارة المطبعة كانت تابعة لبيت المال ، وكان المسئول عنها يعرف بأمين المطبعة ووكيل المطبعة ، و كان مسئولا عن مخازن الورق ايضا كما كان العهد به فى الادارة المصرية . وقد تولى الادارة مختار محمود بادى ، شقيق أحمدى وفوزى المشهورين ، منذ انشاء المطبعة حتى سقوط امدرمان ، وهو الذى سلم المطبعة للادارة الجديدة واعطى نعوم شقير البيانات التى اوردها عن المطبوعات . وكان ابراهيم المطبعجى كاتب المطبعة ومقدم العاملين فيها . الا انه يبدو مما جاء فى وثائق المطبعة ان ابراهيم هذا كان مسئولا عن المطبعة لفترة ، وربما كان ذلك لتعرض مكانة محمود للاهتزاز لوقت ما لسبب من الاسباب ، وربما كان ذلك أثناء محنة اخويه احمدى وفوزى . وكان من العاملين بالمطبعة — بخلاف محمود وابراهيم — محمد ذهنى وابراهيم وحسن على ومحمد عمر وعبد الله وأحمد محمد . وكان بالمطبعة قسم للتجليد يرأسه الحاك السيوفى ، وكان يجلد بالجلد احيانا ، اما غالب تجليده فكان بالورق المضغوط . وقد صنع بيوتا جميلة لمجلداته .

وكان اعداد المطبوعات والأشراف على طبعها من مهام كتاب الخليفة ، وبالأخص ابو القاسم أحمد هاشم والمدثر ابراهيم الحجاز ، ولكن يبدو ان المسئولية الاولى كانت مناطة بالأول . وهناك ما يدل على انهما كانا يقومان بمراجعة مسودات الطبع . وقد عاون أحمد على قاضى الاسلام بقدر . اما الكتاب الذين اعدوا المسودات فهم حسن ساله ومحمد الأمين أحمد وعمر الازهرى وعبد الغنى السلاوى وعبد الكبير الكنانى .

وقد تصرف هؤلاء عند اعداد النصوص قليلا . كما جمعوا فى حالات قطعا لم تكن موصولة فى الأصل . ولذلك نجد فى بعض المواضع تباينا فى القراءة بين نص المطبوعات ونص الاصول . وهنا وهناك وقعت أخطاء من قبيل السقط وما اليه . وكان التعديل فى الانذارات والاحكام والخطب طفيفا بالمقارنة الى ما وقع فى الجزء الاول حيث عمد المصنفون توخى الخطاب العام الذى يتسق مع الأسس العامة التى يعرضونها فى هذا الجزء .

وليست لدينا قائمة موثوقة بمطبوعات هذه المطبعة ، ولكننا بالرجوع الى البيانات التى اعطاها نعوم شقير فى مناسبات مختلفة والى وثائق المطبعة واحصاء ما بلغنا من المطبوعات نفسها نستطيع ان نصل الى فكرة قريبة من واقع ما طبع .لقد اعد نعوم قائمة بالمطبوعات وضمنها التقرير الذى وضعته المخابرات الحربية المصرية عن سقوط امدرمان ودولة المهدية . وفى تاريخه المشهور والذى صدر فى ١٩٠٣ اورد بيانات . ثم اعد قائمة اخرى فى ١٩٠٥ بناء على طلب ونجت باشا الذى كان عندئذ المندوب السامى البريطانى بالقاهرة . وقد ارسلها اليه وبين انه استقى معلوماته من محمود بادى وانه اشر على المطبوعات التى وقف عليها . والحقيقة ان هذه القائمة ليست منضبطة ، وبالطبع فان مسئوليتها تقع على محمود . ويدرك من مراجعة موقف نعوم ازاء مطبوعات المهدية انه لم ينظر فيها بقدر كاف . وقد بينا فى دراستنا عن نعوم وتاريخه (١) انه عند اعداد تاريخه عول على الرواية ولم يستغل وثائق المهدية التى وقعت فى يده .

كان اول ما طبع فى مطبعة المهدية عدد من خطابات الدعوة التى ارسلت الى اقاليم السودان المختلفة ، والى خارج البلاد كمصر ومراكش وشنقيط ونيجيريا . وتحت ايدينا الآن عدد من هذه الرسائل . وبعد وفاة المهدى طبع عدد من منشورات الخليفة عبد الله ومن اميزها انذاراته الى الملكة فكتوريا ملكة بريطانيا ووالى مصر وسلطان تركيا . وقد استمر طبع الخطابات الهامة حتى نهاية المهدية . وتوجد بدار الوثائق مجموعة من هذه الوثائق .

(١) نشر هذا البحث فى كتاب : دراسات فى تاريخ المهدية ، المجلد الثانى ، باصدارة قسم التاريخ بجامعة الخرطوم ، ويتضمن البحوث التى قدمت للمؤتمر العالمى لتاريخ المهدية ، الخرطوم ٢٩ نوفمبر — ٢ ديسمبر ١٩٨١ ص ١٣٧ — ٢٦٠ .

وكان الراتب أول كتاب يتم طبعه فى المهدية . وقد ظهرت الطبعة الاولى منه فى رمضان سنة ١٣٠٢هـ . وتوجد النسخة الوحيدة من هذه الطبعة فى مكتبة كلية الدراسات الشرقية بجامعة درهام بانجلترا . وتبلغ صفحات هذه الطبعة ٤٨ صفحة . وقد نقل أصلها عبد الكبير الكنانى عن نسخة المدثر الحجاز التى اعتمدها المهدى . ثم جاءت الطبعة الثانية بخط حسن ساله فى السنة التالية ، الا اننا لم نقف بعد على نسخة منها . وقد تلتها الطبعة الثالثة فى سنة ١٣٠٥هـ . وتوجد النسخة الوحيدة منها فى مكتبة درهام . اما الطبعة الرابعة ، والتى لم نعثر على نسخة منها ، فقد صدرت فى نفس السنة . وفى هذا العام ايضا ظهرت الطبعة الخامسة ، وهى فى حجم أكبر ، اذ تبلغ صفحاتها ٢٠٨ صفحة ، وقد كتبت بالخط الصحراوى . وتوجد نسخة من هذه الطبعة فى دار الوثائق . والطبعة السادسة مكتوبة بالخط الصحراوى أيضا ، وهى صادرة فى سنة ١٣١٠هـ ، وتوجد نسخة منها فى دار الوثائق . وفى نفس السنة صدرت الطبعة السابعة والتى كتب أصلها محمد الأمين ، وليس يعرف الآن اثر لهذه الطبعة . وقد كتب محمد الأمين أصل الطبعة الثالثة عشر فى سنة ١٣١٠هـ وطبعات أخرى فى سنة ١٣١٤هـ وسنة ١٣١٥هـ . ولعلنا نلاحظ تعدد الطبعات وكثرتها فى السنوات الاولى ثم معاودة النشاط مرة أخرى فى أواخر أيام المهدية .

فى ١٣٠٤هـ انجزت المطبعة انجازا باهرا ، اذ طبعت كتيبات صغيرة تتضمن بعض رسائل المهدى حول بعض العبادات كالصوم وصلاة القيام وحول مقام الخليفة عبدالله والاجزاء الاربعة من مصنفات المنشورات — وان كنا غير واثقين من تاريخ طبع جزء الخطب — ورسالتى الحسين ابراهيم زهرا والحسن سعد العبادى ونصيحة العوام . انها بحق أزهر ايام المطبعة . وفى السنوات التالية صدر طرف من فتوح الشام للواقدى يبلغ ثلاث ملازم وكتاب الرجبية فى المواريث . وقد بلغنا خبر الأخير عن نعوم شقير ، ولا يرد له ذكر فى اوراق المطبعة . اما الاخريات فلدينا نسخ منها بدار الوثائق . ويذكر نعوم رواية عن مختار بادى انهم طبعوا كتابا يسميه كتاب النصائح وانهم ارسلوه الى الخارج غير أننا لم نقف عليه ولا على خبره فى اوراق المطبعة. وعلى ما يبدو فانه يقصد المحررات المطبوعة التى ارسلت الى الخارج . وهناك ادلة نستقيها من اوراق المطبعة تدل على صدور مصنفين يتضمنان نصوصا عن مقام الخليفة عبد الله وبعض محررات موجهة اليه من

المهدى ، ولسنا ندرى لو كانا متطابقين أو كانا مصنفين مستقلين . أن اولهما صدر فى ١٣٠٧ . ويمكن الزعم بانه جـاء تأكيدا لمكانة الخليفة عبـد الله وتعزيزا لمقامه ردا على حركة الاشراف والحروبات القبلية . وصدر الثانى فى رمضان ١٣١٤ بينما كانت جيوش كتشنر تتقدم . وقد ضاع المطبوعان . اما الطبعة الثالثة فقد صدرت فى ١٣١٥. وهنا ايضا لا ندرى ان كان مستقلا عما سبقاه ام كان صورة عنهما او احديهما . وتبلغ صفحاتها ٥٧ صفحة ومحتوياتها ٦١ قطعة . والنسخة الوحيدة منها وجدت عند المرحوم محمد السيد بن الخليفة عبدالله ، وعنها صورت النسخة المحفوظة بدار الوثائق .

ان اداء المطبعة كان — من غير شك — نشطا. وقد ادت دورا مهما فى خدمة الكلمة. وكان مستوى الطبع نفسه جيدا . الا ان عدد ما طبع فى كل نوبة كان قليلا ، لصغر المطبعة وصعوبة الرسم على الحجر وشح الورق . لذلك كان عدد المستفيدين من المطبعة محدودا ، وكانوا بحكم الواقع كبار الامراء والعلماء ومن اليهم ، اى انهم لم يتعدوا اهل السلطة ومقربيهم . ولعلك ترى معى أن نشاط المطبعة قد انحسر بعد ان بدأ بداية نشطة ، فلم يطبع بعد ١٣٠٤ الا الراتب ومصنفات الاوامر المتعلقة بالخليفة عبدالله . وظاهر ان المطبعة لم تبدأ بخطة معدة للطبع ، وآية ذلك التداخل بين المصنفات الصغيرة ، اذ كان يمكن أن يقل عددها بتنظيم مادتها والغاء المنشورات التى تتكرر بينها ، وآيته ايضا انهم بعد ان قطعوا شوطا فى طبع الجزء الثانى وجدوا ان ترتيب مادته لا يوافق ما ارادوا فاوقفوا طبعه واعدوا طبعة ثانية . وهذا لا يكون اذا كانوا على خطة منذ البداية .

ثم أن مجال المطبعة كان محدودا ، بمعنى انها سخرت لخدمة المهدية وترسيخها ، ولم تعن بالمادة الحرة من الشعر والنثر واغراض الناس العادية .

ان مطبعة المهدية قد ادت دورا عظيما فى خدمة الفكر — هذا حق من غير شك ، ولكن صداها كان — لأسباب موضوعية — ضعيف الاتساع لمحدودية المطبوعات التى صدرت عنها ، ومحدودية كميات ما كان يطبع من كل ، ولاقتصارها على لون محدد من المادة . وبمقارنة المادة المطبوعة بالمادة المخطوطة فى أدبيات المهدية نجد ان الحرف المخطوط قام بالدور الأكبر فى خدمة هذه الادبيات .

الفصـــل الاول

رجـال ومـواقــف

بدأ الفكر السوداني المكتوب من شعر ونثر على ايدى خريجى مسائد السودان والتى بدأت بمسيد اولاد جابر المشهور . ويبدو ان ادبيات السودان قبله كانت مقولة غير مكتوبة . وقد اورد كتاب الطبقات المشهور لود ضيف الله بعض أخبار عن مؤلفات السودان ، وهى مادة على قلتها مهمة لمن يرصد تطور الفكر السوداني . ويرد فى تاريخ كاتب الشونة اخبار عن بعض المؤلفات وقدر كبير من الاشعار والاخبار الأدبية . ويبدو ان شعر السودان كان بالدارجة ثم بدأ يتجه نحو الفصحى بفضل خريجى المسائد. ولما جاء العهد التركى صرنا نقف بجانب الشعر الركيك على شعر فصيح اللغة كثير العناية بالبيان . وقد نشر احد شعراء هذا العصر بعض شعره — وان كان ضئيلا — فى مجلة الجوائب المصرية ومجلة اخرى فى القسطنطينية . اما المؤلفات فقد اتجهت عموما نحو اللغة والدين ، وقليل منها كان فى التاريخ . وكانت الأدبيات الصوفية كثيرة وغزيرة ، ويكفى هنا ان نذكر على سبيل المثال لا الحصر جهود احمد الطيب البشير وحفيده عبد المحمود من السمانية ، واحمد بن ادريس الرباطابى والخليفة ابوبكر ود المتعارض من الختمية ، ومحمد مجذوب من المجاذيب واسماعيل الولى بن عبد الله مؤسس الاسماعيلية ومحمود بادى ، فقد كتبوا كثيرا من النثر والشعر . وقد توطدت الصلات بين علماء السودان وعلماء مصر بفضل الازهر وتأثيره وبفضل علماء مصر الذين عملوا بالسودان وبالاخص احمد السلاوى المغربى ومحمد راسخ وحسين المجدى وجعفر مظهر . وعلى العموم فقد ظل الفكر يتقدم ويزداد نضوجا مضمونا واسلوبا حتى جاءت المهدية وتعدل مسار الفكر . بيد أن أغلب ما ألفه السودانيون من كتب وما جمعوه من مخطوطات قد ضاع فى ظروف الاضطرابات والحروب وبالأخص نتيجة للحملة على العلماء ومؤلفاتهم فى عهد المهدية . وما بقى من هذه المؤلفات غير معروف الا فى حدود ضيقة ، لأن اغلبها ما يزال مقتنيات خصوصية تحتفظ بها الأسر بعيدا عن فضول الباحثين . غير ان بمكتبة جامعة الخرطوم قدرا طيبا كما أن دار الوثائق القومية جمعت مجموعة لا بأس بها .

المهــدى :

لقد تقدم القول بأن الاتجاه الفكرى للمهدى كان اتجاها سلفيا ، بمعنى انه كان يرى مثاله فى عهد الرسول وخلفائه الراشدين ويقتدى بما كانوا يفعلونه ويلتزم بأن يكون مصدر الأمور القرآن والحديث الصحيح وحسب وينكر الشوائب التى دخلت الدين وجوانب الخرافة وينشد صفاء العقيدة والتوحيد المطلق ، كما تقدم القول بالغائه للمذاهب والطرق الصوفية ونسخه لتراث العلماء .

كان ذلك حين عرضنا التصور الذى يحمله المهدى لمهديته ، اما هنا فانا نتعرض الى الموضوع من زاوية اخرى وهى مدى ما اثاره هذا الاتجاه على المجتمع من ردود فعل واثر ذلك فى مسار الفكر .

ان الاتجاه السلفى كان أصيلا فى نفس المهدى . فهذا هو مشربه ومزاجه ومانماه بقراءته وتربيته ، ولكنه ازداد وترسخ بعد أن جاءت المهدية ، لأن من أخبار المهدى فى التراث الاسلامى انه يلغى المذاهب والطرق ويبطل التراث ليعيد الى الدين ما كان له من نقاء على عهد الرسول ويوحد بين المسلمين ويخط لهم خطا واحدا لا يختلفون فيه ولا يتفرقون عنه .

أما الغاء المذاهب فلم يقابل بمعارضة ولا بحجج لأن السودان لم يعرف الخصومة بين المذاهب وصراعاتها . وكان أهل السودان جميعا — ومايزالون — من اهل السنة ، وكان غالبهم الأغلب على المذهب المالكى ، وقليل منهم كانوا شافعية ، وهؤلاء كانوا من اتباع ابن قرم المصرى ، وكانوا فى مدينة اربجى التجارية البائدة ومدينة بربر التجارية الباقية ، أى ان تأثير الشافعية كان فى بعض المدن فقط . ولايسجل التاريخ صراعا أو توتراً بينهم وبين المالكية . ثم طبق المصريون فى العهد التركى المصرى المذهب الحنفى فى محاكم السودان بالرغم من غلبة المذهب المالكى بين جمهور السودان ، وهذا ايضا لم يخلق توتراً . والسودانيون قوم وسط لايشتطون ولايحبون من يشتط ، وقد قبلوا ان يكونوا على المالكية فى وجه وعلى الحنفية فى وجه آخر ولم يروا فى ذلك انفراطا ولاخروجا عن السوى . وقليل من علمائهم هم الذين كانوا يفرقون مابين المذاهب من خلاف فى حين كان الجمهور مستقراً على ماهو

عليه دون ان يعكر مزاجه خلاف ، وهذا بخلاف الأمر فى البلاد الاسلامية التى تتعدد فيها المذاهب كمصر والشام والحجاز ، اذ ان لكل مذهب علماء متخصصون وقاعدة من الاتباع ، ولكل مذهب قضاة ومفتيون ونهر متخصص في معاهد الدراسة . فى مثل هذه الحالة يؤدى الغاء المذاهب الى صراع وفتنة ، أما فى السودان حيث السيادة لمذهب واحد فالأمر مختلف . والمهدى نفسه لم يتحزب لمذهب وانما الغى المذاهب كلها وحاول أن يبقى الناس على القرآن والحديث الصحيح واجتهاده . وانك إن نظرت فى اجتهاده فانك تجده على غرار المذهب الشافعى فى اغلب العبادات بينما هو وفى غير العبادات على غرار المذهب المالكى ، وفى النظرة والوجدان كان على هدى الصوفية . ولم يغير في الميراث شيئاً . وقد وصف بعض العبادات وطلب من اصحابه أن يتبعوا ما وصف ودل على امور وطلب منهم ان يلتزموا بها ووضع احكاما وشدد عليها ، وبين آدابا وطلب ان يراعوها . وكل ذلك كان محض اجتهاد فى اطار الإسلام السلفى ، بغير احتجاج بمذهب أو اعتماد على قول عالم ، باعتبار انه المرجع الأعلى . وكان مايقوله من الشام في الاحكام أو الامور وجها من اجتهاده . وفى الدروس التي كان يلقيها على اتباعه والتى دون بعضها فى كتب المجالس قدر كبير من آرائه.

اما الغاء الطرق الصوفية فهو الذى أدى الى توتر . فالمهدى قد ظهر فى مجتمع تسيطر عليه الطرق الصوفية وتستحوذ على القدر الأكبر من نشاطه الفكرى . والمهدى نفسه نشأ فى هذا الجو وصار من أخلص مريدى أحدى الطرق وهى الطريقة السمانية . وفضلا عن ذلك فانه قرأ فى أدبيات التصوف وتشرب بها . ولما جاءت المهدية كان خطابه موجها لرجال الدين ، قبل غيرهم ، واملة فيهم كبيراً ، وكلهم كانوا من رجال الطرق ليكونوا عونا له . وقد عاشت المهدية أيامها الأولى على نمط طريقة صوفية وجاءت تنظيماتها كتنظيمات الطرق من خلفاء ونقباء وبيارق وشارات الأقطاب وألوانهم. ثم بدأ المهدى يتخلص من أثر الطرق ونظمها شيئا فشيئا حتى أعان منع الطرق وحظر نشاطها كليا في منتصف ١٣٠١ . ومع ان المهدى قد اتخذ هذا الخط تمشيا مع القول بأن المهدى يلغى المذاهب والطرق ويوحد كلمة المسلمين ويوجههم فى طريق واحد فان انكاره على رجال الطرق بعض تصرفاتهم قديم وبالأخص ما كان متصلا بالاهتمام بالمظاهر الاجتماعية والجرى وراء المنافع الدنيوية وميلهم الى الخرافة بما يبعد عن صفاء العقيدة .

ان الغاء الطرق قد أدى الى اعتراض من قبل رحال الطرق واتباعهم وتوقف عن المشاركة مع المهدى ، وقد سبق ان اشرنا الى كتاب الخليفة الى اتباع التجانية وكتاب المهدى الى محمد الامين دفع الله وحامد محمد سلفاب فى ذلك والى اعتراض أحد عمد باره على منع الجزولية .

كذلك الغى المهدى كتب التراث الإسلامى ما عدا كتبا بعينها أجاز قراءتها من وقت لآخر ، وهكذا ابطلت الشروح والحواشى والمتون التى اعتمد عليها العلماء لقرون . ان المهدى لم يأمر بحرق هذه الكتب كما يقال ، اذ نحن لم نقف على مكتوب منه فى ذلك واللفظ الذى استعمله عند حظر استعمال هذه الكتب هو انه نسخها : أى أبطلها لكى يهتدى الناس بما هو أصح ، أى الكتب التى أجازها وما بثه هو بين الناس من أدبيات مكتوبة ودروس مقولة . وحجة المهدى فى هذا الاجراء تقوم على نقطتين ، الأولى خبر ورد فى آثار المهدى المنتظر بأن المهدى يلغى شروح العلماء ويبقى الناس على الدين الخالص الذى يدعو اليه . والنقطة الثانية هى أن هذه الكتب فى نظره قد باعدت بين الناس وبين الإسلام الصحيح لكثرة انشغالها بالفروع بينما يريد المهدى أن يرجع بالناس الى أصول الدين اعتماداً على القرآن والحديث الصحيح والكتب المعتمدة ليستقى منها الجميع على صفائها ونقائها .

وفى ذلك يقول المهدى فى كتابه الى بلل صابون : « ان جوابك الذى ارسلته الينا صحبة الفقه محمد بن سبيل وصل الينا . . . . حيث قد اتبعت وسلمت لأمر المهدية وتركت ما تعلمه لالتماس الاقتداء بنا واتباعنا فى جميع ماشرعه الله من الدين . . . . واما ما سألت من أنى نسخت جميع الكتب من فقه وتوحيد وحديث الا القرآن العظيم فأن جميع الكتب الذى ذكرتها مصدرها من القرآن العظيم وان عمل بالقرآن بالآية المحكمة والاحاديث الصحيحة وذلك جامع لجميع ماذكرته من الكتب خصوصا الفقه . واما التوحيد فمندرج فى القرآن العظيم وداخل فى قول لا اله الا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم والاهتداء بكتابه ، فمن ابتغى الهدى فى غيره فقد اضله الله كما فى الحديث . وحيث علمت ذلك وانى مجدد ما اندرس من السنة وتفسير القرآن على ما جاء به فيازمكم الاقتداء والعمل بالوجه الذى علمتم من الآية المحكمة والحديث الصحيح . واما الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم وقراءة القرآن للرجال فان

الجهاد افضل ثوابا واعظم اجراً وقد حصل لى الاذن بتركها لاجل الجهاد . واما قراءة الاولاد ودراسة القرآن وتلاوته للمجاهدين فلا مانع منها . واكثروا فى ادبار الصلوات ومثلها من التهليل والتكبير والصلاة على النذير البشير حسبما كان عليه اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بان تقولوا لا اله الا الله محمد رسول الله ، وتصلوا على النبى صلى الله عليه وسلم بالصلاة الانسية وغيرها من الصلوات الواردة وشمروا فى طاعة الله ورسوله واكثروا من الاذكار وقوموا دين الله واحيوا مساجد الله ونوروها باقامة الصلوات المفروضة بالجماعة والراتب مع الرابطة لذلك وعليكم بازالة البدع والمنكرات فيها وترك جميع المحرمات على حسب ما نهى الله ورسوله عنه » .

ويقول فى كتاب الى حمدان العركى : « فقد وصل الينا جوابك الذاكر فيه وكتبك ، اترك ما ذكر من تصانيف العلماء وغيرهم واستعمل بتفسير القرآن والحديث النبوى والسير الصحيحة المسنودة . واما ما ذكرته من كشف الغمة فانه فى غاية القبول » .

وكان له موقف أيضا مع العلماء . أنه يوقر العلم ويجل العلماء . وقد تقدم لك أنه اجاز بعض الكتب وانه أجاز للمجذوب بعض أدعية . وقد قال فى منشور عام ان مرتبة العالم التابع له كمرتبة النبى المرسل(١) . وقد اعترف للشيخ الأمين الضرير بعلو مقامه فى العلم ومكانته . وكما تعلم فانه وجه اتباعه عند هجومهم على الخرطوم الى مراعاة العلماء والاعيان وان لايمسوهم بسوء . وفى مجالسه كرس المهدى قدرا كبيراً من العناية ليبين أهمية العلم ومكانة العلماء .

هذا من جانب ومن جانب آخر فانه يعترف للعلماء بدورهم التاريخى وهو أنهم حافظوا على الدين وخدموه حتى أوصلوه اليه . ومعنى ذلك أن دورهم التاريخى ينتهى بأن يكونوا تابعين اليه ومعاونين له . وبالنسبة الى اجتهادات رجال المذاهب فانه يرى أنهم كانوا رجالا فى أزمانهم وانه رجل هذا الزمان : هم كانوا رجالا ونحن رجال ولكل زمان حال ولكل مقام مقال . فالاجتهاد اجتهاد حتى يصل اليه الأمر ومن بعده لايكون الا التابع له .

---

(١) المرشد رقم ٩٧١ .

ولكنه يأخذ على العلماء بعض أمور ، منها أنهم عاونوا على فرقة الناس نتيجة اختلافاتهم وانهم كانوا مطية للحكام وسكتوا عن الحق وتهاونوا فى أمور الدين وقبلوا بالاحكام الوضعية وانهم أنشغلوا بالدنيا ونعمها ، ولما جاء هو ليقيم الإسلام الصحيح انحاز بعضهم الى الحكومة حفاظا على وظائفهم ومقامهم الاجتماعى بدلا من أن ينضموا اليه لاقامة الدين وكان لهم دور الضال والمضل .

ثم لم يعد الناس بعد أن وجدوا طريق الهدى على يديه فى حاجة الى اجتهاد العلماء ، وحيث انه المرجع الأعلى والذى يأخذ من الرسول مباشرة ويصل الى الحكم الصحيح فلا معنى للاستعانة بالعلماء ومؤلفاتهم . وحيث أن اصحابه يقتدون به فهم أيضا فى غنى عن المؤلفات ، والعالم لا يكون عالما حقا الا اذا استقام وصار معه مقتديا به وعونا له على بناء الدين .

الخليفــة عبد الله :

كان والد الخليفة عبد الله معلم خلوة يعلم الصبيان بحلة الدافورى بدار التعايشة ويعد التعاويذ على نحو ما يفعل اغلب فقرا الخلاوى ويضرب الرمل ليكشف للناس ما خفى عليهم ، وكان التعايشة يرجعون اليه اذا ارادوا حربا ، فاذا وافقهم مضوا اليها واذا نصح بغير ما ارادوا تشاءموا وكفوا . وكان من مشاهير تلاميذه ابنه الأمير يعقوب والأمير احمد على — وهو قريب الخليفة وبخلاف احمد على قاضى الاسلام — وأخوه الأمير حامد على والمساعد قيدوم وفضل المولى صابون وهو اخ لحمدان ابى عنجه (١). اما ابنه عبد الله فلم تتملكه الرغبة فى الانتظام فى التعليم .

وقد اختلف الناس حول محصوله من التعليم فقيل انه كان متعلما وقيل انه كان اميا ثم تعلم بعد ان صار خليفــة . واول من قال فى ذلك الزبير باشـــا رحمة فيما روى لنعوم شقير . وخلاصة ما يرويه ان والد عبــد الله كان عالمــا بالرمــل ونال حظوة عند التعايشة واشتهر عندهم بعــلم الغيب والتقوى وانهم كانــوا يأخذون برأيه اذا نووا حربا . فلما كبر قام إبنه عبدالله بمقامه فى هذه الصناعة . وعند انتشاب الحرب بين الرزيقات والزبير دعاه الرزيقات ليعاونهم بالتعاويز على نحو ما يفعل التعايشة «وكان الرزيقات قد استخدموا فقيها من فقهاء التعايشة يقال له عبد الله محمد آدم تور

---

(١) نعوم شقير ص ٢٧١ .

شين ليقرأ لهم الاسماء فى خلوته لعلها تقبض على سلاحى » . وقد قبض عليه الزبير وعزم على قتله الا أن العلماء الذين معه افتوا بعدم قتل الاسير وحذروه من قتل رجل يعتقد الناس فى صلاحه (١) .

ان مؤدى هذه الرواية هو أن عبد الله كان متعلما بقدر يجعله فى عداد الفقرا الذين يرجع اليهم ويعتقد فيه بانه يبطل السلاح وانه خلف اباه عند كبره فيما كان يقوم به . ولكننا نشك فى رواية الزبير من اساسها ونذهب الى انه اختلاق هذه القصة . ولو انك نظرت فيها مليا لتبين لك وجه الاختلاق . فعبد الله لم يكن اكبر ابناء والده ولا افقههم ليخلفه ، وكان يعقوب هو الاكبر والمتقدم فى التعليم ، وقد بقى على رأس الاسرة بجلته عندما توجه ابوه ومعه عبد الله شرقا بنية الحج . وقال انه كان يقرأ للرزيقات الاسماء وهو فى خلوته ، وكانت الخلوة فى ام دافورى بدار التعايشة بينما كانت حرب الزبير فى دار الرزيقات ، فكيف كان القبض عليه . وكيف كبر والده حتى خلفه ابنه على ما كان يقوم به وهو الذى قام بعد عدة سنوات بهجرته الى الشرق بنية الحج ، ولو ان الرزيقات لجأوا الى الاستعانة بالتعاويذ للجأوا الى الوالد عبدالله الأقدر على العمل لا الى ابنه عبد الله أو الى الابن الأكبر يعقوب وهو الاكثر تعليما . ثم ان الزبير اضاف الى الرواية أن عبد الله عرض عليه المهدية ، فبان بذلك غرضه وهواه ، وهو أن يضع نفسه معارضا لفكرة المهدية .

وقال نعـوم أن الخليفة كان « على جهله يتولى الخطابة فى الجامع » ، اى خطبة الجمعة ، « . . . . وقد كان فى بادئ الامر اميا لا يحسن القراءة ثم تعـلم مبادئ القراءة والكتابة على اخيه يعقوب بعد توليه الخلافة » (٢) .

وذهب ابراهيم فوزى نفس المذهب وقال : « ان التعايشى كان اميا يجهل القراءة والكتابة . وكان اذا ام الناس فى الصلاة الجهرية يسر فى القراءة حتى لا يسمع من وراءه قراءته التى يرجح الاكثرون انها لم تكن قرآنا » (٣) .

وقد تبنى الدكتور عبد العزيز امين عبد المجيد نفس الرأى فقال . . « لم يكن له من الدروس والتحصيل والعلم والتصوف نصيب . . . وكان ــ كما تواترت الروايات ــ

---

(١) نعوم شقير ص ٢٧٠ — ٢٧١ .
(٢) نعوم شقير ص ٨٩٩ .
(٣) فوزى ج ١ ص ١٠٢ .

يكره العلماء ولا سيما اذا تعارضت آراؤهم مع سياسته ، وهذا طبيعى مع كل سياسى له خطة يريد تنفيذها ... ان الرجل كان يجهل الفقه الاسلامى ويعرف الشيء القليل من قواعد الدين واصوله ، وقد صار التعليم الدينى فى عهده فى حكم العدم» (١) .

ان ما يمكن ان نخرج به من هذه الروايات هو ان عبد الله لم يكن اميا ، بل حصل على قدر من التعليم فى خلوة ابيه ، ولكنه لم يكن بالقدر الذى يكفى ، فزاده باجتهاده ، كان ذلك على يد يعقوب أو غيره ، ليكون بمستوى مسئوليته . ونحن نعتقد ان ذلك كان قبل توليه الخلافة ، لأنه كان يؤم الانصار فى حياة المهدى ، وقد القى اليه المهدى مهمة الامامة فى الجمعة الاخيرة التى مات بعدها ، ولو انه كان اميا لا يحسن القراءة بالجهر لما اوكل اليه المهدى امامة الصلاة . وقد قرأ الخليفة يوم وفاة المهدى وتخليفه خطبة دعت اليها المناسبة ، وهى خطبة اعدها له مساعدوه ، ولكنه لا يلقيها على الجمع ويسمعهم اياها وهو امى لا يقرأ .

ولكنه مهما كان تعليمه الاساسى وما زاد عليه فانه لم يكن عالما ولا صاحب قلم . ونحن لم نقف على شئ كتبه ، مهما كان أمر ما كتب او مستواه ، ولا سمعنا خبرا بأنه كتب شيئا . واذا كان المهدى قد اعتمد على الكتاب على جانب ليعاونوه فيما لا يتفرغ له فان عبد الله قد اعتمد عليهم كليا . وقد توفر له فى الديوان مجموعة من امهر كتاب السودان واكثرهم علما ودراية . ولكن ليس من شك انه كان رجل سياسة وادارة وحرب بما يغطى على ضعفه فى العلم ، بل ويجعله قائدا مقتدرا يوجه من عداه الى ما يفعل ، وقد دبر الحكم وابتدع فيه رسوما واستحدث فيه امورا لم تكن فى عهد المهدى . وهو من غير شك يحتل مكانا عظيما فى تاريخ السودان .

أما الخليفة على الحلو فقد قرأ على يد المهدى فى خلوة الجزيرة أبا ، وليس من المستبعد انه قرأ فى غيرها قبل ان يأتيه . وقد لازمه من بعد ، وكان من بين الجماعة التى اصطدمت مع جماعة رضوان الذى عينه محمد شريف خليفة له فى الجهة بدلا عن محمد أحمد (المهدى) عندما وقع الخصام وطرد محمد احمد من حضرته . وقد جرح الحلو فى هذا الاصطدام . ويروى ان المهدى نادى الحلو ليكون بيمينه عندما اتجه

---

(١) عبد المجيد ، د. عبد العزيز امين : التربية فى السودان ج ٢ ص ١٠١ .

بجيشه لملاقاة جيش راشد ايمن وامره بقراءة سورة براءة حتى يصل لمحل العدو ، فاندفع الحلو يقرأها بصوت جهورى ليسمعها الجيش . كل ذلك يدل على قرب الحلو الى المهدى ووضع دينى خاص وسط الجماعة ، ولكن الحلو لم يكن عالما ولم نسمع انه كتب شيئا ، ولم يوضع فى موقف يؤثر فى مجرى الفكر سواء كان فى عهد المهدى او الخليفة .

كذلك لا نسمع شيئا عن علم الخليفة محمد شريف ولا نعرف له شيئا مكتوبا او موقفا ذا دلالة علمية .

والأمير يعقوب — وهو الرجل الثانى فى عهد الخليفة — كان على قدر من التعليم ، وكما روت الروايات فانه علم الخليفة قدرا بعد ان صار مهما . ولكن تعليمه لم يرق به الى درجة العالم ، وهو لم يل منصبا يجعله يؤثر فى مجرى الفكر ، بل كان جهده مكرسا فى مجال الجيش والسياسة .

وعلى ذلك فان الحلو وشريف ويعقوب ، وهم فى قمة هرم النظام بعد المهدى والخليفة ، لم يكن لهم تأثير فى المجال الفكرى ، وبذلك يصير المهدى والخليفة والعلماء الذين خدموا تحتهما هم القوة الفاعلة والمؤثرة —معا— فى الحركة الفكرية .

ولقد اتهم الخليفة عبد الله بكراهة العلماء . ذكر ذلك ابراهيم فوزى والدكتور عبد العزيز امين عبد المجيد ونعوم شقير . وقد نقلنا من قبل ما قاله الاول والثانى . اما الثالث فيقول : «اما العلم فقد حاربه الخليفة جهده شأن الجاهل الغشوم وجمع العلماء كلهم فى امدرمان واذلهم ولم يسمح لهم بتعليم كتاب الا القرآن ومنعهم تعليم تفسيره فساد الجهل فى أيامه وفسدت الآداب العمومية وساءت الاحوال »(١). لقد ورث الخليفة اتجاه المهدى نحو العلماء وهو الا يسمح للعلماء بمسار خاص يكون مناوئا او منافسا للمهدية . ومن الطبيعى ان يشتط الخليفة اكثر فى هذا المنحى باعتبار انه ليس عالما ولاحساسه بأن العلماء لا يعترفون له بما كانوا يعترفون به للمهدى. ولكن القول بكراهية العلم ومحاربته فيه قدر كبير من المبالغة . وسوف ترى انه خصص دروسا فى الدين فى مسجده ، وانه جعل لابنه الأكبر شيخ الدين مؤدبا من العلماء . وقد كرس جهدا

---

(١) نعوم شقير ص ١٢٦٢ .

كبيرا لخدمة فكر المهدية . فالامر ليس كراهة للعلم والعلماء وانما هو غيرة على المهدية والتزام بما ورثه . ولعل مما يمثل حساسية الخليفة المفرطة فى الأمر قصة كتاب الصواعق التى عثر عليه مساعد قيدوم وارسله الى الخليفة مع كتاب يقول فيه « تحصلنا على كتاب واحد من كتب الاحاديث النبوية يسمى الصواعق المحرقة فى الرد على اهل البدع والزندقة فيما يتعلق بمناقب الخلفاء الراشدين ومآثرهم وفضائلهم والرد على الزيغ والشبه سيما الأطناب فيما يتعلق بخلافة سيدى ابى بكر الصديق رضى الله عنه . وما دام انه لا رشد لنا فى شئ والقدوم على اى شئ الا بعد صدور الاذن .... » . وقد جاء الرد من الخليفة بما يصوره مكتوب مساعد الثانى : «الاشارة الشريفة فى الكتاب السابق العرض وانه متى كان موجودا لدينا ما يماثله نبعثه لكنز فلاحنا بلا اطلاع منا او غيرنا عليه .... لم يكن بيدنا ما يماثله مطلقا ولا حاصل منا استعمال لهذا الكتاب او نظيره ، وانما هذا الكتاب وجدناه بيد المكرم حسين نقيب الاشراف لوحده وما استطعنا القدوم ولا الاطلاع عليه قبل رفعه للسيادة» .

العلمـــاء :ـــ

عندما تصدى المهدى لمهمته التاريخية ، وهى بناء المجتمع الاسلامى وانشاء الدولة الاسلامية فى السودان ، وقف بجانبه عدد من العلماء واسهموا معه فى هذه المهمة .

اضطلع العلماء تاريخيا ، ونعنى بهم كل اولئك الذين تلقوا دروسا فى علوم القرآن والفقه وما اليها من علوم الدين فوق ما تلقوه فى خلاوى القرآن ، بدور مهم فى المجتمع السودانى . فقد عمل بعضهم فى التعليم وبعضهم عمل فى القضاء والفتيا وبعضهم فى امامة الصلاة وبعضهم كرس جهده فى الارشاد الدينى . وبعضهم عمل بالطب جامعا بين التعاويذ والآيات وبين الأدوية البلدية . وبعض منهم خدم السلطنات الاسلامية فى القضاء والامامة والكتابة . وهكذا نجد عددا من العلماء المرموقين فى سنار وقرى والفاشر وتقلى . وقد بلغنا بعض ما حرروه وبعض ما كانوا يقومون به . ان هذا التقليد ، أى أن يعاون العلماء فى عمل الدولة ، تقليد مهم ، وقد نما وتطور فى عهد هذه السلطنات الاسلامية . وكلما تقدم الزمن كانت هذه السلطنات تتقدم وتتعقد اعمالها وتزداد مشاركة العلماء .

ولما جاء العهد التركي التحق عدد كبير من علماء السودان في وظائف هذه الادارة كقضاة وكتاب، ومعاونين في امور كثيرة ومعلمين في المدارس المختلفة . ولقد تطورت مهمة العلماء في هذا العهد وازدادت خطورتهم . وكان اسهامهم في خدمة الادارة المصرية هو المدرسة الكبرى لتدريبهم . وبالاضافة الى ذلك فان الكثيرين من رجال الادارة كانوا يعنون بالعلم والعلماء ويقدمون الكثير من الدعم والتشجيع للعلماء . ونذكر من هؤلاء بالخصوص احمد السلاوى الذى شجع المدارس السودانية وعين خريجيها في القضاء . وقد اولى عنايته لمجموعة من العلماء كان لهم اسهام كبير في تطور فكر السودان . وهم احمد ابوعلى كاتب الشونة والامين الضرير وابراهيم عبد الدافع والزبير ود ضوا . وممن شجع علماء السودان جعفر مظهر باشا ، وهو الذى خلق وظيفة مميز العلماء للشيخ الضرير . ومنهم الشريف حسين المجدى العالم الذى القى الدروس في بربر وفي مسجد الخرطوم ، وهو أصلا من المغرب ، وقد درس عليه عدد من مشاهير السودان . ومنهم محمد راسخ الاديب الشاعر والذى خلق صلات حميمة مع أدباء السودان . وكان عدد من ذهبوا الى الأزهر قد ازداد في هذا العهد ؛ وقد عاد عدد منهم واسهموا في حركة الفكر .

وعندما قام المهدى بمهمته جاء العلماء بعلمهم وخبرتهم فعمل بعضهم في ديوان الكتابة واجادوا ، وكان من هؤلاء فوزى محمود وأخوه احمدى وابو القاسم هاشم والمدثر ابراهيم . أن هؤلاء قد تعاونوا في مجالات اخرى كاعداد الاجزاء المطبوعة من المنشورات ومعاونة الخليفة في الامور الدقيقة مثل المهمة التى قام بها المدثر للاعداد للقبض على محمد خالد زقل والمهمة التى قام بها احمدى لتدبير الامور للزاكى طمل عند توليه الامارة خلفا لحمدان ابى عنجه . وبعضهم عملوا في القضاء، ومن هؤلاء عبد القادر ام مريوم واسماعيل عبد القادر وعثمان احمد البطحانى واحمد حمدان من اعضاء محكمة امدرمان . ومن قضاة الاقاليم المشهوريين اسماعيل الازهرى الذى صار مفتيا للسودان في العهد الثنائي والباقر اسماعيل الولى وعمر الازهرى ودوليب الامام وابراهيم العركى وعثمان عبد المطلب ومحمد البدوى رئيس علماء السودان في العهد الثنائي والمجذوب ابوبكر . وبعض العلماء خدموا في بيت المال وفروعه بالعاصمة والاقاليم . وبعض منهم تولى الامارة وجاهد بالعلم والسيف معا . وفي نفس

الوقت وقف عدد من العلماء في المعارضة . ومن هؤلاء الشيخ محمد على الزاكى ببلدة ود الزاكى جنوب الخرطوم على النيل الابيض بالضفة اليمنى . وقد اورد خبره نعوم شقير وذكر انه كتب الى المهدى معددا امورا خالف بها الشريعة . ومنهم محمد نور احمد من عمد بارا . وقد ذكره نعوم شقير ايضا وقال انه احتج على الحظر على قراءة الجزولية . ومنهم المضوى عبد الرحمن وهو من ذرية الشيخ ادريس ود الارباب ، وقد اكمل تعليمه بالازهر بمصر ثم استقر بكركوج يعمل بالزراعة ويدرس فى حلقة التدريس. وقد هاجر الى المهدى ومكث معه مدة ثم عاد الى الجزيرة وهو ينكر عليه بعض أمور فابتعد ، ثم أنضم مرة أخرى وحارب فى صف المهدية بعد ان قويت شوكتها ، ثم انسحب وذهب الى مصر . وقد عارض المهدية على اسس دينية بالقياس الى شروط المهدية والاسس الفقهية . ومنهم القاضى ميرغنى تميم ودفع الله بقوى بالجبال .

وفيما يلى نذكر بشكل مختصر بعض العلماء الذين كان لهم دور مهم فى بناء الدولة وادارتها وفى الحركة الفكرية . وقد ذكرنا فى اطراف اخرى من هذا الكتاب اسماعيل الكردفانى صاحب السيرة والطراز والحسين ابراهيم زهرا والحسن العبادى صاحبى الرسالتين فى المهدية ، فليرجع اليهم القارئ ان شاء فى مواضعهم .

آل هاشم :

الهاشماب اسرة مشهورة ولها تأثير بالغ فى تاريخ السودان . وقد برزت الاسرة فى فترة المهدية فى خدمة الخليفة عبد الله ثم برز بعض افرادهم فى قضاء العهد الثنائى وبعض المناصب المرموقة . ولما ظهرت جمعيات القراءة فى بداية حركة المثقفين كان للهاشماب دور مرموق . وظهر منهم فى الصحافة احمد يوسف هاشم الذى لقب بابى الصحف واصدر صحيفة السودان الجديد . وظهر فى الطب والادب عبد الحليم محمد . وظهر فى الادب والسياسة محمد احمد محجوب . وكان عبيد حاج الامين من قادة ثورة ١٩٢٤ ، وكان من بين ضباط مايو اثنان منهم هما ابو القاسم محمد ابراهيم وابو القسم هاشم . وفى المهدية ظهر عبد الحليم مساعد الهاشمى فى الامارة بينما ظهر ابو القاسم واخوته فى الكتابة الديوانية والأدب .

واسرة الهاشماب فرع من الجودلاب من الجعليين ، وهم اصلا من قرية الكمير

قرب شندى ، وهم بيت دين قديم . وقد نزح جدهم هاشم الذى منه اسمهم الى بربر ودرس بها القرآن والحديث حتى توفى . وابنه احمد درس عليه ثم انتقل الى برى باطراف الخرطوم ودرس القرآن والكتابة وما الى ذلك . ثم اتصل بالشيخ محمد المبارك وتزوج ابنته الفقيرة آمنه . وقد انتقل بها الى بربر واستقر بها وعمل بها قاضيا . ولأحمد هاشم ابناء منهم مساعد والد الامير عبد الحليم مساعد وابو القاسم هاشم ، وهو أشهر الأبناء ، والطيب وهو اخ غير شقيق لابى القاسم .

اما ابو القاسم فقد ولد ببرى فى ١٢٧٥هـ / ١٨٦٠م وحفظ قدرا من القرآن على جده محمد المبارك . ثم نزح مع ابيه وامه الى بربر وعمره نحو العشرة والتحق بمدرسة بربر حيث كان والده احمد هاشم يعمل قاضيا . وقد التحق من بعد بخلوة محمد الخير بالغبش ثم اتصل بحسين المجدى الأزهرى ونزح معه الى الخرطوم واخذ منه النحو ودرس عليه جمع الجوامع فى الاصول .

ولما قامت المهدية وسجلت انتصاراتها بكردفان عاد الى بربر وعمل مدرسا فى جامعها . وقد اتصلت الاسرة بالمهدى من هناك بعد ان اصبح الجو لصالح المهدية فرحب بهم المهدى بمراسلات فجاء احمد وأبناؤه الى امدرمان . وقد التحق ابو القاسم بديوان الكتابة فكتب للمهدى والخليفة عبد الله . وكان كاتبا مجيدا ومرموقا ، وهو الذى حرر خطابات المهدى الى خديوى مصر وعلماء مصر واهالى مصر . وكان ابو القاسم مقربا الى المهدى والى الخليفة وموضع ثقتهما ، ولما جاء العهد الثنائى عين ابو القاسم فى سلك القضاء الشرعى وعمل فى بلاد مختلفة واسهم بقدر وافر فى تنظيم سلك القضاء الشرعى وارساء قواعده . وكان وهو فى القضاء يدرس العلم . وكانت له حلقة مشهورة فى مدنى يؤمها الناس . وفى سنة ١٩١٢م عين شيخا للعلماء خلفا للشيخ محمد البدوى وأصبح مشرفا على المعهد العلمى . وهو الذى ابطل نظام الحلقات واستبدله بالفصول الدراسية ، واليه يعزى الفضل الأكبر فى تأسيس المعهد العلمى ، اذ أنشأ هيئة كبار العلماء وعهد اليهم النظر فى تقييم المقررات ووضع الامتحانات وتنفيذها واجازة الشهادات . وهو الذى نظم المعهد فى فصول ومراحل وبرامج محددة وجعل للطلاب قيدا ، وهو الذى وضع أسس الشهادة فجعل الشهادة الاهلية بعد ٨ سنوات والشهادة العالمية بعد ١٢ عاما ، وهو الذى بنى جامع امدرمان وجامع الهاشماب .

وكان ابو القاسم هاشم شاعرا مجيدا وكان مولعا بالمدائح النبوية ، وله ديوان شعر مطبوع سماه روض الصفا فى مدح المصطفى. ويورد له كتاب شعراء السودان قدرا من الشعر . وقد وصفه مؤلف هذا الكتاب باللغوى المدقق والبارع فى المسائل العلمية والادبية . وكان هو وأخوه الطيب عضوين فى الوفد الذى ذهب الى لندن لتهنئة ملك بريطانيا على النصر فى الحرب العالمية الأولى .

اما الطيب احمد هاشم فقد ولد فى بربر فى ١٢٧٣هـ / ١٨٥٧م وتتلمذ على يد محمد الخير بالغبش وتفقه على الشيخ عبد الحى الطرابلسى والحسين زهرا . ثم عين كاتبا بمحكمة بربر ، وقد بقى على هذا الحال حتى سقطت المدينة للمهدية . وقد انتقل مع ابيه واخوته الى ام درمان وعين مؤدبا لعثمان شيخ الدين الابن الاكبر للخليفة عبد الله فدرسه التاريخ والقرآن والاحاديث النبوية وآداب اللغة وما الى ذلك .

وفى أول العهد الثنائى عين قاضيا لمركز الخرطوم ، وبعد قليل صار مفتيا للديار السودانية . وقد اختير ــ كما قلنا ــ عضوا فى الوفد الذى ذهب باسم السودان لتهنئة ملك بريطانيا على النصر على المانيا . وقد توفى فى ١٩٢٤م . وللطيب شعر يورد كتاب شعراء السودان قدرا منه . وبدار الوثائق القومية قدر من شعره بخط يده .

وابراهيم احمد هاشم ولد فى بربر فى ١٢٨٩هـ/٧٢ــ١٨٧٣. وقد التحق بخلوة الغبش وحفظ القرآن بها . وقد وصف بأنه كان كثير الحفظ ومولعا بمدح النبى ، وقد اورد له كتاب شعراء السودان قدرا من الشعر .

اما محمد احمد هاشم فقد تعلم فى الخلوة حسب تقاليد الاسرة ولكنه لم يشتهر باسهام مثل اخويه، ويذكر له نسخ النسخة الوحيدة الباقية من كتاب سعادة المستهدى والطراز المنقوش لاسماعيل عبد القادر الكردفانى .

محمد عمر البنا :

آل البنا اصلا من الجعليين ولكنهم استوطنوا فى رفاعة وظهر منهم فى المهدية محمد عمر البنا واشتهر بشعره . وفى العهد الثنائى والعهد الوطنى اشتهر ابنه عبد الله معلما وشاعرا . وكان استاذا للغة العربية بكلية غردون التذكارية . وحفيده ادريس البنا رجل اعلام وسياسة وشاعر .

ولد محمد عمر البنا برفاعة في ١٢٦٤هـ / ٧–١٨٤٨ وتعلم بها ، وكان تخرجه من المدرسة التى انشأها الشيخ الامين الضرير بناء على طلب الشيخ ابو سن شيخ الشكرية . وقد عمل فى اول عمره بالتجارة فى القضارف الا ان بضاعته قد احترقت ، ومن ثم ترك التجـارة ومال الى العلم فالتحق بالازهـر فى ١٢٨٧هـ / ٧٠–١٨٧١ ولبث به بضع سنين ، ولما قامت المهدية ناصرها ، وقد القى على المهدى قصيدته المشهورة فى حرب الداير والتى مطلعها :–

الحرب صبر واللقاء ثبات ❁❁❁ والموت فى شأن الاله حياة

وهى قصيدة مشهورة . واذكر ان المرحوم عبد الرحيم الامين حفظنا هذه القصيدة ونحن بالسنة الاولى بمدرسة حلفا الوسطى ، وقد عدل فى الشطر الثانى فقال «شأن البلاد» بدلا عن « شأن الاله » فقلب الامر من الدين الى الوطنية حثا لنا على التعلق بالحركة الوطنية ، وكانت البلاد عندئذ تتحرك بموجة المؤتمر . وبعد الفتح التحق محمد عمر البنا بالقضاء وخدم برفاعة ، ثم عين مفتشا للمحاكم الشرعية ، وقد توفى فى الثالث من فبراير ١٩٦٩م . ويورد كتاب شعراء السودان بعض شعره .

مدثـر الحجـاز :

وينتمى آل الحجاز الى الجهيناب ، وهم فرع من الكمالاب والذين هم بدورهم فرع من الجعليين . وينتمى بيت الحجاز الى بيت علم قديم ، وكان جدهم محمد عبد الوهاب فقيها مرموقا . وكانت له صداقة مع حمد المجذوب فقيه الدامر المشهور وليها . قيل جاء محمد المجذوب لزيارة قبر محمد عبدالوهاب وتلى قصيدتين احداهما فوق قبره والاخرى فى المسجد ثم جاء الى حفيده الحجاز وقال له انما جئتكم بأمر من الرسول لزيارة قبر جدكم وانشاد القصيدتين وتخطيط مسجد جامع له ، ومن ثم خطط جامع الحجاز ببربر .

وقد برز من اسرة الحجاز فى فترة المهدية اثنان هما المدثر ابراهيم الحجاز وعمه سليمان الحجاز .

اما المدثر فقد ولد فى ١٢٨٣هـ/٦–١٨٦٧م ببربر – قيل بالمخيرف وقيل بقوز السوق . وكان ابوه ابراهيم افندى الحجاز مأمورا بمديريتى بربر ودنقلا . فلما شب المدثر حفظ القرآن على يدعمه الشيخ الحجاز . ثم الحق تلميذا بمديرية بربر ليتمرن على

الكتابة والقراءة والحساب على ما كان معهودا فى تلك الايام لتدريب البادئين فى عمل الدواوين . وقد درس العلوم الشرعية على الشيخ محمد احمد جلال الدين بالدامر ثم على الشيخ محمد الخير عبد الله خوجلى بالغبش . وقد ادى فريضة الحج واتيح له ان يكون على صلة ببعض علماء مكة . ولما اندلعت الثورة المهدية هاجر الى المهدى ولحق به فى قدير . وقد ضمه المهدى الى الخليفة عبد الله ليكون كاتبا له ، وما زال نجمه يصعد حتى صار الكاتب الاول وصاحب الختم فى ديوان الخليفة عبد الله بعد مقتل فوزى محمود. وكان له دور فى بعض الحوادث خلاف عمله فى الكتابة . ومن ذلك انه بعث بالرسائل والخطط الى حمدان ابى عنجه لتصفية قوة محمد خالد زقل الذى كان يخشى من وصوله الى امدرمان على رأس جيشه فيكون عضدا للخليفة محمد شريف الذى كان ينازع الخليفة . وقد وصف المدثر بالدهاء والمقدرة، وكانت ثقة الخليفة فيه لا تهتز . وكانت داره بجوار دار الخليفة . وبعد الفتح ابلغ المدثر بسرقة ختم المهدى منه . وهذا هو الذى ادى الى ان يقوم ونجت ونعوم شقير بجمع مكاتبات المهدية والمحافظة عليها .

برز المدثر فى الكتابة الديوانية وابدع فى مهمته ، وقد روى انه كان يمتلك مكتبة فى بيته . وللمدثر شعر ، ومنه تشطير نهج البردة . وقد اورد له كتاب شعراء السودان بعض شعره .

ولحفيده المرحوم محمد مجذوب المدثر كتاب عنه عنوانه «ميسور الرقيم فى شئ من سيرة الوالد مدثر بن ابراهيم» اورد فيه بالاضافة الى الاخبار والفوائد التاريخية قدرا من اعماله .

سليمان الحجاز :

وسليمان الحجاز كان وكيلا لقاضى الاسلام ، وهو عم المدثر. وقد استمر فى وظيفته لفترة ولكنه لم يتقدم ليتولى منصب قاضى الاسلام مما يعنى انه كانت لهذا المنصب شروط اضافة الى العمل القضائى البحت . وقد اوفده الخليفة الى كردفان لينظر فى عمل محاكمها فكتب تقارير مهمة تجلو الكثير عن هذه المحاكم واعمال القضاة (١) ، وهى — من بعد — دليل على مقدرته فيما كان ينظر فيه .

(١) Holt, P.M The archives of the Mahdia, p 6-7.

آل بــــاى :

كان محمود بادى عالما مرموقاً ببارة ، وقد تخرج من الأزهر . وهو أصلا من الفونج الذين استوطنوا بدنقلا ، وله صلة قرابة بالامير سعيد محمد فرح المشهور. وقد أخذ محمود الطريقة على السيد محمد عثمان الميرغنى الختم . وهو خال السيدة رقية بنت جلاب التى تزوجها السيد محمد عثمان الميرغنى وولد منها ابنه السيد محمد الحسن الميرغنى . وقد تولى محمود قضاء قسم باره . ثم تولى منصب مفتى كردفان. وقد وصفه الشيخ عبدالمحمود نور الدائم بأنه صاحب تصانيف الا أنه لم يسم ايا من تصانيفه . وقد وقفت على قصاصات من بعض مؤلفاته واخذت باسلوبه المتين وسمو فكره ، وهو بحق يستحق قدرا من الالتفاتة من المؤرخين والعناية بمؤلفاته .

ولمحمود ابناء كان لهم دور بارز فى المهدية ، وقد اسهموا بالقدر الوافى فى الكتابة الديوانية . كتب احمدى ومحمد فوزى للمهدى والخليفة ، وقد اجادا الكتابة . وكان فوزى قصيراً قايل الجسم . واسمه أصلا محمد وجاءه لقب فوزى من مدير كردفان . ومناسبة ذلك انه كان لهذا المدير ابن اسمه فوزى ، فلما مات سمي صاحبنا عليه لأنه كان قايل الجسم . وعندما تولى الزاكى طمل امارة القلابات خلفا لحمدان ارسل الخليفة احمدى ليرتب الأمور له . وكان احمدى وفوزى من بطانة الاشراف واشتركا فى صراع الاشراف ضد الخليفة وقتلا من جراء ذلك على يد الزاكى طمل . أما خليل محمود فقد تولى امارة المطبعة ومخازن الورق واستمر فى وظيفته حتى نهاية المهدية . وهو الذى استقى منه نعوم شقير ما اورده عن مطبعة المهدية والمطبوعات الصادرة منها . والخليل هذا ابن اسمه محمود وهو الذى نسخ نسخة الابانة فى شأن الختم التى حصلنا عليها من باره ، وذلك بدليل انه صوب فى احدى صفحات هذه النسخة ووقع على التصويب بخطه . واحد احفاد خليل هذا ، وهو الدكتور محمد عثمان ، اتى الى دار الوثائق ببعض وثائق المهدية وسمح لها بتصويرها . وكان من ضمن هذه المجموعة صفحات وقصاصات من وقائع عثمان دقنه ، وهى الوقائع التى نشرناها بعنوان مذكرات عثمان دقنة . وحفيد آخر باع لدار الوثائق مخطوطا لكتاب الابانة النورية فى شأن صاحب الطريقة الختمية وبعض اوراق اخرى . وقد حققنا هذا المخطوط .

ولمحمود بادى ابن آخر اسمه عشارى ولكننا لم نقف له على اسهام .

وكما ترى فان اسهام آل بادى كان فى الكتابة الديوانية وطباعة آثار المهدى .

الطاهر محمد التاتاى :

لسنا نعرف الا معلومات ضئيلة عن الطاهر لأن اسمه لم يرتبط بحدث كبير حتى يروى عنه الرواة .

وقد ورد اسم ابيه أو جده ـ الامر غير واضح لأن مصدرنا اكتفى باسم تاتاى ـ فيمن اخذوا الطريقة على محمد عثمان الميرغنى الختم على ما رواه كتاب الابانة فى شأن صاحب الطريقة الختمية ، ولما كان مؤلف هذا الكتاب لايذكر الا كبار من اخذوا وبلغوا مرتبة عالية فى سلك خلفاته فمن حقنا ان نزعم له مكانا عالياً بين اتباع الختم .

وكان الطاهر التاتاى زميلا للمهدى فى مدرسة محمد الخير بالغبش ، ويبدو انه كان على صلة وثيقة به ، اذ يروى على المهدى ان الطاهر ومحمد احمد حاج عطوه هما اللذان لفتا نظر المهدى الى أن استاذه يتلقى المرتب من حكومة الترك وان مايقدمه من أكل غير مباح (١) .

وقد التحق الطاهر بخدمة الترك قاضيا ؛ ولما قامت الثورة المهدية انضم اليها . وقد خدم أميرا على عهد المهدى بالقضارف ، وكان معه من الامراء الحسين عبدالواحد والسمانى والطيب الطريفى ، وقد تداركوا وتنازعوا كثيراً حتى برم المهدى . ثم اصبح قاضيا فى عهد الخليفة عبد الله . وكان على صلة نسب به . وما تزال حتى اليوم تتواصل العلاقات الاسرية بين اسرته واسرة الخليفة . وكان على صلة ايضا باسرة محمود بادى . ولم يشتهر الطاهر فى القضاء ولا فى الإدارة ولكنه كان عالما جليلا ، ودليلنا على ذلك مجالسه الذى بين ايدينا والذى لايمكن ان يتم الا على يد عالم متمكن . ودليل آخر هو مخطوطاته القيمة فى الفقه والتى يحتفظ بها حفيده الدكتور عزالدين المهدى .

وقد وضع الطاهر مجالسه الذى دون فيه ما كان يلقيه المهدى فى مجالسه من المواعظ والدروس مرتبا فى ابواب وغايات ، وكان ذلك بتكليف من الخليفة عبدالله .

---

(١) على المهدى ص ١٢ .

ونفس هذا التكليف يعني صلته بالخليفة اولا وثقة الخليفة فيه ثانيا وعلو شـأنه في العلم ثالثاً . وقد وضع الطاهر بذلك السابقة فاحتذى به الآخرون ، فهو الذى فتح باب التصنيف فى هذا الباب وصاحب الفضل فى شكله . ولم يبلغ احد ممن تبعه ما بلغه ، فمجلس التاتاى هو أحسن المجالس وأوفاها . وقد تعرضنا الى مجلسه فى مكان آخر من هذا الكتاب ، فلا نطيل بالتكرار .

ابراهـيم شـريف الدولابى الكردفـانى :

عالم وشاعر مشهور ، وهو ممن ذكره كتاب شعراء السودان ونقل له شعراً . وكان مولده فى عائلة الدواليب الدينية المشهورة بجبل الحرازة بشمال كردفان ، ومن هنا جاءت شهرته بالنسبة للعائلة والموطن ـ الدولابى الكردفانى . وقد اخذ العلم عن جده ولد دوليب والعالم طه ثم على حسين المجدى عالم الخرطوم المشهور . ثم سافر الى مصر والتحق بالأزهر الشريف . وبعد عودته تولى القضاء بكردفان على عهد الترك . ولما جاءت المهدية انضم اليها وعمل قاضيا . وقد اسهم بعمله وشعره فى حركة الفكر فى المهدية . ومن اهم اعماله قصيدته المشهورة فى رثاء المهدى والتى استهلها بقوله : كيف التئام فؤادى المفطور ، وهى ترد فى شعراء السودان .

آل ابو صـفية :

وهم بيت دين مشهور بالابيض وينتمون الى قبيلة البديرية . وكان الطاهر ابوصفية اشهرهم ، وكان عالما ومبشراً اسلاميا ، وقدجاهد فى سبيل الإسلام فى جبال النوبا واخضع منها بعض الجبال ونشر فيها الإسلام .

وابنه عبدالصمد ولد فى ١٨٢٥م وخلف اباه عند موته وواصل الجهاد فى جبال النوبا . ولما جاءت المهدية لحق بالمهدى فى قدير وشهد معه وقائع الابيض وشيكان والخرطوم . وفى عهد الخليفة احتفظ بمكانته . وعند بداية العهد الثنائى عاد الى الابيض وحاول العودة الى الجهاد من اجل الإسلام فى الجبال ولكن الحال كان قد تغير وحيل بينه وبين ما رغب . وفى النهاية صار ناظراً على البديرية . وكانت وفاته ١٩١٥م .

وكان بدوى ابوصفية عالما جليلا . وقد تتلمذ على الشيخ احمد بن عيسى الانصارى واخذ الطريقة على احمد الطيب البشير مؤسس السمانية فى السودان . وقد جاهد فى سبيل نشر الإسلام فى الجبال وحارب الزبالعة اتباع ابى جريد الذين يوصفون بفساد العقيدة . وشرف الدين اخوه عمل كاتبا ومستشاراً فى مملكة تقلى فخدمها بعلمه الوافر وعقله الراجح . وكان من عادة مكوك الجبال الاستعانة بالعلماء فى امور الدولة والاستئناس بما يرون فى الامور . وقد احتل العلماء فى هذه البلاد مكانة عالية . وهنا نذكر الدور الذى لعبه العلماء فى بلاط الملك آدم عمر المشهور بام دبالو وما كان لهم من دور فى افساد علاقته بالمهدى . وكان على رأس هؤلاء القاضى ميرغنى تميم ودفع الله بقوى .

ومحمد بن بدوى ابوصفية كان ممن انضم الى المهدى وصحبه من قدير . ولشدة اخلاصه للمهدى وولائه لدعوته لصق به لقب الدرويش ، فلما تضايق منه واشتكى الى المهدى استنكره عليه وعلى اتباعه فى بعض مناشيره ومنع اطلاقه على الانصـــار . وكان منشأ لقب الدرويش ان المهدى واتباعه كانوا على نحو دراويش الصوفية المنقطعين للعبادة ، ولكن اعداءهم جعلوه تبخيسا لهم ، وقد شاع بالرغم من استنكار المهدى ومنعه . وكان محمد مقربا الى المهدى . وقد اشترك فى واقعة ابى طليح .

وكتب أخوه عبد الكبير للمهدى وللخليفة ، وهو ممن نسخ المنشورات المطبوعة ؛ واحمد اخوه كان اميرا فى الجيش ، وكان يقود راية فى طوكر عند سقوطها للجيش المصرى فى ١٨٩١م .

عمـــر الازهـــرى :

وهو عمر بن عبد الله الصاردى وامه رباطابية . وكان مولده فى ١٢٧٠هـ/ ١٨١٥-١٤م، قيل ولد فى بربر وقيل ولد فى الصوفى من اعمال القضارف . وقد درس القرآن ومبادئ الفقه واللغة على مشايخه اولاد الفقه الازرق والذين هم فرع من المجاذيب ، وقد سافر الى مصر وعمره عشرون عاما والتحق بالازهر الشريف. ثم عاد الى السودان فى اواخر التركية وتزوج ابنة شيخ العلماء الامين الضرير وعمل بتدريس العلم فى الفقه والنحو والبيان والبديع والمعانى وما الى ذلك . وقيل أنه كان متمكنا

من اللغة العربية وانه كان حاو الفكاهة . وفى المهدية تولى القضاء ، وقد عاون فى نشر آثار المهدى . وقد تولى نسخ بعض اجزاء المنشورات المطبوعة . وكان هذا هو اسهامه الاكبر فى خدمة فكر السودان . وفى العهد الثنائى تولى القضاء وخدم فى مناطق كثيرة . وقد وصفته ادارة المخابرات بانه متعصب دينيا ، وسبب ذلك انه أخذ على بعض الضباط لأنهم كانوا يدخنون السجائر داخل خيمة المولد . وفى آخر عمره فقد عقله ووصف بأنه غرقان . وقد توفى ١٣٣٣هـ .

وكان له من الأبناء ثلاثة : الشفيق وقد مات مبكرا ، الامين وحسن، وقد امتهنا التدريس .

وكان حسن متمكنا من اللغة العربية وحاو الفكاهة ، ويبدو انه ورث عن ابيه فى ذلك . وكانت له قدرة بحيل الحواة . وكان يحفظ قدرا كبيرا من الشعر العربى ويطالع كتب التراث . وكان شاعرا مجيدا وضم فى شعره قدرا كبيرا من الفكاهة والعبث والذكاء . وكان له بجريدة السودان الجديد باب مشهور بعنوان طرائف ابن عمر ينشر فيه هذا اللون المحبب من الشعر . وتحتفظ دار الوثائق بقدر كبير من شعره .

وقد درس حسن الأزهرى فى مدرسة حلفا الوسطى لفترة طويلة ، وكان مشهورا مرموقا فى هذه المدرسة . وقد درست عليه العربية والدين اربع سنوات واشهد له انه كان يترك اثرا كبيرا فى قلوب طلابه وان كان كسولا فى تدريسه ونادرا ما يراجع لطلابته ما يكتبون . وكان قديرا فى تدريس النحو وتحفيظ الشعر . وقد قرأ علينا طرفا كبيرا من صهاريج اللؤلؤ للبكرى وحفظنا قدرا منه اضافة الى طرائف ادبية كثيرة .

محمد المكى اسماعيل :

وهو الابن الاكبر لاسماعيل الولى مؤسس الطريقة الاسماعيلية وخليفته فى الطريقة ، وقد تكلمنا عنه وعن اسرته وعلاقتهم بالمهدية عند كلامنا عن اسماعيل عبدالقادر الكردفانى صاحب السيرة والطراز وكلامنا عن أحمد اسماعيل الازهرى ورسالته فى دحض المهدية . واحمد الازهرى اخوه ، وكان شاعراً وعالماً . والباقر اخوه ايضا ، وكان شاعراً وقاضيا فى المهدية والعهد الثنائى . وله اخوة عديدون . واسماعيل عبدالقادر ابن اخته .

والد محمد المكى بالابيض فى ١٢٣٧هـ/ ١٨٢١ - ١٨٢٢م ونشأ فى كنف ابيه وتعلم واخذ الطريقة عليه وخلفه فى رئاسة الطريقة بعد وفاته . وكان يسلك المريدين فى الطريقة الاسماعيلية وفى الطريقة الميرغنية . وقد صارت رئاسة الطريقة فى سلالته ، اذ خلفه ابنه اسماعيل ، وخلف الاخير ابنه ميرغنى ، وجاء الخلف تباعا ابنا عن اب الى الشيخ الحالى . ولما جاءت المهدية انضم اليها محمد المكى وآل اسماعيل الولى جميعا ماعدا احمد الازهرى . وقد ظل على ولائه للمهدية حتى نهايتها ولم يؤثر فى علاقته ما لحق بابن اخته اسماعيل . وبعد المهدية عاد الى الابيض بأمر الحاكم العام واستقر ومارس نشاطه فى قيادة الطريقة . وقد وصفه السراج بأنه كان زاهداً متقللا من الدنيا (١) . وقد حج الى بيت الله وكانت وفاته بالابيض فى ١٣٢٤هـ/ ٦ - ١٩٠٧م .

ولايبدو انه كان لمحمد المكى نشاط بارز فى المهدية ، وقد عاش فى ظلها يواصل الولاء وينال الحظوة من الخليفة عبدالله ، وكان من ذلك بغلة مبراطور الحبشة التى غنمت بعد واقعة القلابات واهداها اليه الخليفة تكريما له .

وكان محمد المكى عالما جليلا ، وقد وصفه السراج بانه قرين والده فى العلم (٢) وذكر ان له مؤلفات كثيرة وخص بالذكر منها كتاب « رحمة المنان فى مقدمة الصبيان » وكتاب « البرق الساطع فى مدح الحبيب الشافع » (٣) . وفى مجموعة مخطوطات الشيخ أحمد الفكى عبدالله بالابيض والتى صورتها دار الوثائق القومية ورد المخطوطان السابقان . وموضوع المخطوط الأول هو الفقه ، أما الثانى فهو ديوان شعر فى مدح الرسول . وترد فى المجموعة ذاتها ادبيات اخرى له ، وهى :-

- منظومة بدر اللالى وزهر النجوم والليالى -- وهى فى النحو .
- قصيدة العقود الدرية فى مدح خير البرية .
- الاحاديث السنية فى الحث والترغيب على الطريقة الاسماعيلية .

---

(١) السراج ، محمد عبد المجيد المناهج العلية فى تراجم السادة الميرغنية ، ص ٢٩ .
(٢) نفســه .
(٣) نفســه .

- التحفة المخزونة فى النصيحة والحث على الطريقة المصونة .

- اجوبة السيد المكى على اسئلة الشيخ احمد بن حمد البيلى .

ويتضح لك مما سبق ان محمد المكى كتب فى موضوعات دينية عامة كالفقه وفى آداب الطريقة والوعظ الصوفى وفى الشعر التعليمى وفى مدح الرسول .

احمـــد على قاضـــى الإســـلام :

وهو بخلاف الامير احمد على قريب الخليفة عبدالله والذى نافس الزاكى طمل فى امارة القلابات بعد وفاة حمدان ابى عنجة . وهو من فقهاء بنى هلبة ، وكان عند اندلاع الثورة المهـــدية يتولى القضاء فى شكا بدارفور فهجر الوظيفة والتحق بالمهدى . وقد شارك فى واقعة الابيض وابلى فيها .

وكان اول قاضى للاسلام فى المهدية هو احمد ود جبارة ، وهو من أصل سورى ومن خريجى الازهر . وقد استشهد فى هجوم الجمعة على الابيض فخلفه فى القضاء ود حلاب ، وكانت فترته قصيرة ، اذ توفى اثناء حصار المدينة . ويذكر المهدى فى خطابه الى والد احمد جباره معزيا له فى وفاة ابنه انه عين ابنه عبدالله جبارة مكان أخيه احمد ، ولكنه لا يوضح هل الولاية على القضاء ام على امارة الراية ام على الامرين ، الا اننا لم نقف على خبر يدل على ان عبد الله تولى القضاء بينما نعلم انه كان اميرا فى الجيش ، بل واميرا مرموقا . ويمكن الوصول من ذلك الى ان المهدى عنى تعيينه اميرا على راية اخيه احمد جبارة .

وبعد ود حلاب جاء احمد على ، والذى هو أشهر قضاة الاسلام فى المهدية وأحد دهاة العهد . وقد استمر فى نفس الوقت أميرا على رايته اضافة الى منصبه فى القضاء . وفى عهد المهدى لم يكن له نفوذ كبير خلاف الاهمية التى تضمنها وظيفته ببريقها الدينى . ولم يكن احمد من خاصة المهدى المقربين . وكان بالنظر الى نفوذ الاشراف القوى والخلفـــاء أبعد ما يكـــون تأثيرا فـــى مجرى الامور . ولم تكن له يد قوية فى القضاء لأن المهدى نفسه كان معنيا بالقضاء وما كان ليسمح لاحد بالهيمنة عليه . وكان الأمناء يباشرون النظر فى الشكاوى والمظالم بعيدا عن تدخل قاضى الاسلام بمقتضى ما خولة لهم المهدى من سلطات خاصة . وكان نواب الشرع :

ويعنى بهم القضاة ، ينظرون فى الدعاوى بقدر من الحرية عن رئاسة القضاء. وبالعودة الى ما صدر من المهدى من القضاء يبدو ان قاضى الاسلام كان همزة وصل بين المهدى ونوابه وانه كان يفتيهم فى بعض أمور تسهل عليه بينما كان يرفع ما يصعب عليه الى المهدى .

وفى عهد الخليفة تبدل الوضع لأن الخليفة صرف الامناء وجعل لقاضى الاسلام الهيمنة على القضاء . وقد اصبح الخليفة فى حاجة الى دهاء احمد وحنكته فى ظروف الصراعات الطاحنة بينه وبين الاشراف وبينه وبين مختلف القوى القبلية والاقليمية . وقد توطدت صلته بالخليفة الى درجة بعيدة وتمتع بنفوذ واسع . ولكن الخطر جاءه من هـــذا الجانب ، اذ كلما ازداد المستشار قـــربا من السلطان كلما كان اقرب الى الخطر وعرضة الى المقصلة . وقد تجرع من هذه الكأس كثيرون يتردد صداهم فى التاريخ ، ابتسم لهم الحظ فصعدوا مع نجم السعد مراقى المجد والقوة ثم هوى بهم فنكبوا وساءوا مصيرا .

وكان عمله مزدوجا بين الشريعة والسياسة ، بين عدالة القاضى ودهاء السياسى ، وقد اتهم — وربما بحق — بأنه مال بالاكثر الى السياسة وصراع القوى ، وسماه البعض بقاضى الدنيا ، وهو اسوأ ما يسمى به قاضى الشريعة . وكان موقفه قويا عندما كان الخليفة وبطانته يصارعون الاشراف وزعماء القبائل ، فلما جرد هؤلاء وانتهى امرهم بدأ الصراع داخل البطانة من أجل الحظوة والنفوذ ، ومن هنا جاءت الخطورة المباشرة .

كانت الخطوة الاولى لافوله عندما رفعه الخليفة من امارة رايته بعد ان تلقى شكاوى بمحاباته لاهل رايته . واذا تذكرنا انه كان تابعا للراية الزرقاء التى تتكون اساسا من البقارة ويقودها الامير يعقوب لادركنا ان وراء الامر صراعا بين الرجال الذين حول الخليفة ويكونون فريق النفوذ وان القاضى احمد كان طرفا فيه . ولابد ان يعقوبا كان له ضلع فى ذلك .

اطاح يعقوب اولا بالزاكى طمل الذى كان قد انتصر على الحبشة فى واقعة القلابات المشهورة واتهم بجمع اموال هائلة والتدبير للاستقلال بمنطقته ، وقد قاد

الحملة عليه القاضى احمد والامير احمد على وآخرون من المقربين حتى قبض عليه وجرد من امواله ونسائه وسجن حتى مات جوعا . كان ذلك فى ١٨٨٣م . ثم جاء دور القاضى احمد فى ١٨٩٤م ، اذ اتهم بقبول الرشوة وجمع اموال هائلة ومداخلات فى الضربخانة — سك العملة — متحزبا لفريق دون الآخر ، وقبض عليه وجرد من امواله ونسائه وسجن فى نفس المكان الذى سجن فيه الزاكى ومنع عنه الغذاء حتى مات . لقد تجرع من نفس ما سقاه للزاكى .

ان احمد لا يذكر بعلمه ولا يشتهر بعدالة الشريعة وطهرها مثل خلفه الحسين زهرا ، ولكنه يأخذ مكانه فى التاريخ عن جدارة بدهائه وحنكته وبما كان يدبر من امور فى صراعات القوى لصالح الخليفة عبد الله .

الفصـــل الثـــانى

مســار الفـكــر

المهـــدية والتراث :

بالاتجاه الذى اختطه المهدى ازاء الطرق الصوفية والعلماء ومجمل التراث وجاراه فيه الخليفة عبـــد الله ، وبصرامة أكثر ، تعطل النشاط الفكرى التقليدى ، الا ماكان يمارس سرا ولايكون له مردود محسوس فى المجتمع ، واصبح هناك فكر مطارد وفكر سائد هو فكر النظام . ومن المؤسف ان هذا الفكر المطارد لايظهر فى هذه الدراسة بوزنه الكامل ، ولكن سبب ذلك معروف ، وهو ان مادته ليست متوفرة . وقد رصدنا بعض المواقف من واقع صداه فىوثائق المهدى وخليفته وليس من مادة المعارضة بشكل مباشر ، وهو أمر يؤكد غياب صوت المعارضة فيما وصلنا . وربما كانت فرصنا اوسع فى المادة الشعرية ، لأن بعض الشعر الذى قيل فى معارضة المهدية شائع بين الناس سواء كان في المدونات أو فى صدور الرجال الذين يروونه فى المناسبات .

اما الفكر السائد فهو فكر المهدى ، وقد تقدم الكلام عن ذلك بزوايا مختلفة فى مواضع كثيرة من هذا الكتاب ــ بل ان الكتاب نفسه مكرس بجملته لهذا الغرض.

ولكن ما هو البديل للتراث وجهد العلماء ؟ انه حجية المهدى ، وما هى هذه الحجية ؟ انها القدرة على الاستخراج من القرآن والحديث الصحيح والالهام والتلقى عن الرسول مباشرة والقدرة على الوصول الى الحكم الصائب الذى كان يصدره الرسول لو كان حيا . وما هو مستند هذه الحجية ؟ هو كونه المهدى المنتظر الذى يكون على يده احياء الدين واقامته على ما كان فى عهد الرسول . ولكن هذه الحجية خاصة به ولايكون لغيره ، وقد انتهت بوفاته ، فماذا يكون الوضع ؟

ان باب الاجتهاد الذى فتح له على مصراعيه لم يفتح لغيره ، وقد اصبح دور العلماء هو الاقتداء به لا الاجتهاد . هكذا طلب المهدى فى بعض كتبه صراحة . وصحيح انه عندما أمر بترك الكتب القديمة دعا العلماء الى العودة الى الكتاب والسنة

لاستنباط الاحكـــام ويكون بذلك دعاهم الى الاجتهاد ، ولكن لم يكن مأموناً لهم ان يجتهدوا او ان يقولوا في امر قولا الا داخل حدود ضيقة لخوفهم من الوقـــوع ولتوجس النظام من ثقافة العلماء وتوجههم . بل من الواضح انه حتى في امور القضاء العادية واداء العبادات كان المعاونون يستفتون المهدى قبل ان يقروا رأيا . ولعل أوضح الأمثلة في ذلك سؤال رجل في مقام المدثر ابراهيم الحجاز من العلم عن سجود السهو .

ونتيجة لذلك حصر النشاط الفكرى في وجهة واحدة هي موضوع المهدى والمهدية ، واتجه من ثم الى تمجيد المهدى والمهدية ، وكان ذلك بالأخص في مجال الشعر والتاريخ ، والى نقل آثار المهدى والتصنيف فيها .

وقد توفي المهدى وهو ما يزال يحارب الترك في جبهات كثيرة ويتصدى للمعارضين في مواقفهم ويبنى نظامه الإسلامى ويؤطر له ، وبالتالى فانه لم يؤت الفرصة ــ ولا الوقت ــ ليستكمل ما اراد ، ولم يقدر له ان يجمع حوله جماعة من العلماء يكونون مدرسة ويحملون رسالته من بعده ليستكملوا ما لم يكمل ويفصلوا ما اجمل ويطوروا مع الزمن اتجاهه وافكاره . وكان العلماء الذين خدموا معه ومع الخليفة معاونين في أمور الدولة ، وكجزء من عملهم قاموا برصد انجازات الدعوة من رسائل وامجاد . وقد وضعوا علمهم وخبرتهم في خدمة النظام بجد . ولكنهم لم يجتمعوا في اطار مدرسة فكرية ينتمون اليها فكراً ويخدمونها بالدراسة . وقد هجروا ما كانوا يخـــدمونه سريعا والتحقوا بخـــدمة الحـــكم الثنائى دون ان يشعروا بحرج ، ماعدا المدثر ابراهيم الحجاز ، وقد نكصوا وعادوا جميعاً الى الطرق وكأنهم لم يكونوا طرفا في نظام الغى الطرق وابطلها . وقد ظهرت عاقبة ضمور نشاط العلماء في عهد الخليفة ، اذ بينما كان النظام يتركز ويقوى على الصعيد العسكرى والادارى لم يقع ما يواكب هذا الحال على الصعيد الفكرى . ويحق لنا ان نقرر ان المهـــدى فاح في ثـــورته واسس دعـــوة دينية عظيمة ووضع لها الاطر وجمع حولها المريدين ، ولكنه لم يخلف مدرسة فكرية ينتظم فيها علماء وحواريون يحماون هذا الفكر ، وكان ذلك لازما لزوم الضرورة في نظام يقوم على عقيدة دينية ، ولكنه لم يؤت الوقت كمـــا قلنـــا . ان ضعف نفـــوذ العلماء

فى المهدية واضح وكان له مردود سىء، اذ لو وجدت هذه المدرسة الفكرية لخفف من غلواء الخليفة فى أمور كثيرة ، بل وكان يمكنه ان يستفيد من وجـود مثل هذه الجماعة المفكرة . ان وجود جماعة الاخوان فى المملكة العربية السعودية ، خلف النظام السياسى للمملكة ، همها فكر الامام محمد بن عبدالوهاب ومراعاة الالتزام بـه فى شتى ضروب الحـياة هو الذى ضمن النجاح للنظـام السعودى ، والذى يقوم على التعاضد بين الأخوان والبيت الحاكم . وكذلك الحال بمدرسة الأمام محمد عبده ، فان تأثيره على المجتمع المصرى كان بالغاً بفضل تلاميذه .

ان مسايد السودان ومدارسه وخلاويه هى التى كانت تغذى السودان بالعلماء ، وكان من المؤمل ان تواصل رسالتها الدينية لولا ظروف المهدية التى شغلت الناس عن التعليم والعلم وشلت نشاط المعلمين . ان التعليم كان نشاطا تطوعيا فى السودان ولم تتعهد مسئولية الدولة تشجيع الحاكم لشيوخ المدارس والطلبة بالعون المادى كنوع من الاريحية ورجاء الثواب فى الآخرة ، وليس استشعاراً بأن هذا الضرب من النشاط من واجبات الحكم . وقد ورثت المهدية هذا التقاليد فلا تلام بأنها لم تفتح المدارس ، ولكن الظروف التى ترتبت على قيامها قد اوقفت المدارس القائمة ، وهذا بدوره قد اضعف فرص قيام مدرسة علمية . ومع ذلك ليس من الصواب ان نقول ان العلماء لم يكن لهم دور وانهم جمدوا كليا ، ذلك لأن الخليفة كان يرجع اليهم فى الأمور الدينية ويستأنس برأيهم ، وكان لهم رأى يسمع فى المنازعات . ومن قبيل ذلك وثيقة العلماء فى تأميم المشارع ومحاكمتهم للخليفة شريف .

وكان من الظواهر البارزة ان النشاط الفكرى انتقل من الاقاليم الى مراكز المهدية ، وبالاخص ام درمان ، ودار فى اطار النظام ، وذلك بعكس ما كان عليه الحال قبل المهدية ، اذ ان مدارس السودان كانت تقليديا بعيدة عن العواصم السياسية ومستقلة عن نفوذها .

لقد وضعت فى هذه الفترة مجموعة من المؤلفات نحسب انها كثيرة اذا قيست بقصر عهد المهدية وجملة المؤلفات السودانية الى قيام المهدية . وقد ذكرناها فى مواضع مختلفة . فبعضها ذكر عند مناقشة فكرة المهدية ، مثل رسالتى الحسن

العبادى والحسين ابراهيم زهرا ورسالة العوام . وقد ذكرنا معها مؤلفات المعارضين. وذكرنا بعض المؤلفات عند كلامنا عن مراكز الثقافة . وقد كرسنا الباب الاخير من هذا الكتاب بجملة اخرى من المؤلفات والمصنفات .

وواضح من عرضنا لهذه المؤلفات ان علماء السودان كانوا على دراية جيدة بالتأليف والتصنيف . فالمؤلفات مقسمة الى خطبة وابواب وفصول ، وكل فصل مخصص لغـــاية . والخطبة مكرسة لبيان الموضوع ، ومطلع الخطبة مفتاح للقضية المعروضة . وقد اجاد كتاب السودان فى كتابة مطالع الكتب والرســـائل . ويعرض علماء السودان — اعنى المجودين — المادة بما يدل على قراءة واسعة واستيعاب وفهم . والقضية تبدأ بالمطلع ثم تتطور حتى تصل نهايتها . والقضايا تعرض بموازنة صحيحة ، فلا تأخذ قضية ما حيزا الا بما تستحق . والاسلوب رصين منضبط ، والبيان عربى . ويمكنك بثقة ان تضع مؤلفاتهم فى مصاف المؤلفات العربية . ويكفى لاثبات مانقول ان يضع نعوم شقير تاريخ الكردفانى — اى سعادة المستهدى — فى مصاف تاريخ ابن الاثير وابن ابى الفدا ومن اليهما .

ولما عالج العلماء تراث المهدى وارادوا ابقاءه على الزمن من جانب ونشره بين الناس من جانب آخر وضعوه فى مصنفات ووضعوا للتصنيف ضوابط حتى تجرى النصوص مجراها الصحيح . وقد ادخلوا فيه اصول النسخ وعلاماته على النمط الذى سار عليه المصنفون والنساخ فى التراث العربى . وكل ذلك اوردناه عند مكانه بالتفصيل . وما نريده هنا هو أن العلماء قاموا بما قاموا به وهم على دراية وعلم ، وقد سموا بذلك سموا عظيما .

وكان مما عنى به العلماء الخط والعناية بجودته ، والحكمة من ذلك واضحة فى المصنفات ، ولكنهم فعلوه ايضا فى الرسائل الموجهة للناس ، وليس ذلك لمجرد تقليد ديوانى فحسب وانما ايضا لاستشعارهم بأهمية ما يكتبون ومكانه عندهم ، فهو جزء من العمل الدينى واداة له وفى ذلك قال القدماء ان مكاتباتهم مكاتبات شريفة وفعل مثلهم كتاب ديوان المهدية اذا ذكروا مدوناتهم . وقد بلغك ان المهدى عنى بالخط والزم كتابه بالرسم العثمانى واكد عليهم ان يعطوا لكل حرف حقه من الرسم .

ويلاحظ ان السودانيين لا يميلون عادة الى زخرفة الصفحات وتزيينها بالاشكال، بل ان بعضهم لا يكتبون حتى على سطور منتظمة او داخل مستطيل منتظم . ولكن القليل منهم عني بالجمال، ومن هؤلاء ناسخ نسخة البرياب من طبقات ود ضيف الله الذى يرسم بعض الاشكال الزخرفية فى الهوامش الجانبية بالوان مختلفة من الحبر، وهى غالبا تأخذ شكل سيف عليه بعض العبارات . وفكرة هذه الزخرفة مأخوذة فيما يبدو من الزخرف الذى فى بداية كل حزب فى القرآن. ونجد أيضا فى افتتاحية الاجزاء المطبوعة من المنشورات شكلا زخرفيا يتكون من قبة تتوسط عمودين وتستقر على أرضية مستطيلة ، وقد غطى الشكل كله بزخارف نباتية . ويبدو ان المزخرف قصد من وراء ذلك الايحاء بالقداسة والبركة ، ولذلك عمد الى القبة والاعمدة والزخرف النباتي . وكان بعض الكتاب يتأنقون فى الكتابة ويتخذون من بعض الحروف سبيلا للزينة . ومن هؤلاء عوض الكريم المسلمى الذى يمد حرف الميم وكاتب مصنف الحدود والاحكام الذى ينهى الرسائل فى شكل مثلث ثم يضع فى راس المثلث ميما . وحبرهم الغالب هو الاسود،ويوجد منه نوعان، نوع محلى مصنوع من السجم والصمغ، ونوع مستورد ، والنـــوع الاخـــير اثبت على الورق وأبقى . واستعمل المصنفون المتأنقون الحبر الملون كالاحمر والاخضر والأصفر فى المواقف المهمة كالبسملات والصلاة على النبى . وقد جاءوا بهذه الالوان من الحبر الملون، وهو ارحم على الورق من الحبر الكيمائى الذى يأكل الورق اذا طال الزمن . وكان الراتب ، ذلك الكتاب المهم الاثير عند الانصار ، مجالا للمتأنقين فى النقل . فقد كتبت نسخ منه بخط جميل . وقد عنى بعض الناسخين بالفواصل ومد الحروف وتعريجها، وبتحبير المواقف بالالوان ، وبالترويسة فى أوله واطرافه وآخره بالوان مختلفة . ولقد وقفت على نسخ من الراتب فى غاية الرونق والجمال ، ومن ذلك راتب محمد خالد زقل .

وكانت صناعة التجليد صناعة متصلة بصناعة مجلدى السروج والاخراج وصناعة الاحذية البلدية ، وكان المجلدون يزخرفون الغلاف المصنوع من الجلد بخطوط متصلة ومتشابكة واشكال دائرية على النحو الذى نعهده فى اغمدة السيوف واكياس الاحجبة ، الا ان الجاك السيوفى مجلد مطبعة المهدية قد باشر تجليد مطبوعات المطبعة بغلاف من الورق المضغوط والذى يكسوه ورق عليه اشكال زخرفية ،

وقد جمعت اجزاء الغلاف بالقماش ودقيق القمح . وقد اطلق المجلدون على الغلاف لفظ السجل . ويوضع الكتاب بعد تجليده فى كيس من الورق أو الجلد له فتحة بجانب واحد وله حزام يسند لسان هذه الفتحة ، وهذا الكيس يعرف بالكبك . وقد صنع السيوفى كبك المطبوعات بالورق المضغوط والورق المزخرف على النحو الذى عليه السجل .

وقد اقتضت الظروف لسك عملة تأكيدا لقيام النظام الجديد واملا فى عملة مبرئة للذمة بغير نقص ، ولذلك اصدر المهدى عملته الذهبية الخالصة التى لم يدنسها خلط تأكيداً لمثله العليا ، وعملتيه الفضيتين النقيتين ، وهى أول عملة معدنية تضرب فى السودان . أما العملة الورقية الأولى فكانت بونات غردون المشهورة اثناء حصار الخرطوم والتى طبعت على ذمة الخزينة المصرية ، ولم تصدر عن المهدية عملة ورقية . وفى عهد الخليفة عبدالله صدرت عملات تباينت فى تركيبها من الفضة والنحاس ، وقد ضربت عملات المهدية على غرار العملات العثمانية والمصرية الا حيث جرى التعديل بقصد التباين . وقد قام بصناعة السك الصاغة وبعض من كانوا يعملون فى صيانة الاسلحة . ومن قبيل ذلك صناعة الاختام ، ولكن السودان عرف صناعة الاختام منذ عهد السلطنات الإسلامية . وكان معدن الاختام يستورد جاهزاً من مصر فيقوم النحاتون بالنقش المطلوب . وبعض الاختام كانت تصنع محليا من الحديد والنحاس وسن الفيل والخشب . وقد انيطت صناعة الاختام ببيت المال لرجال فنيين فى هذه الحرفة ووضع لاصدارها واستعمالها نظام . وما فعل المهدى فى السك وضرب الختم جاء من التراث الإسلامي . وبالطبع فان صناعة السيوف والحراب والقرب قد انتعشت . وقام فنيون بتصليح البنادق التالفة وقام آخرون بصناعة البارود . وقد تقدم الكلام عن المطبعة الحجرية وادارتها . كل هذه كانت متصلة أو امتدادا لحرف الحدادة والصياغة والدباغة ، والمهم فيها ان الانصار كرسوا هذه الحرف لخدمة نظامهم وانهم استنفروا اهل الحرف لغايتهم .

التعليم :

وكان التعليم فى السودان الى قيام الثورة المهدية يقوم على عدة اوجه :

١ــ الخلوة ، وهى قاعدة التعليم العريضة فى السودان مثلما هو الحال فى البلاد الإسلامية الأخرى . وقد قامت آلاف الخلاوى فى اصقاع السودان المختلفة وبعضها ارتبط باسر دينية كبيرة . وكانت الخلوة تعلم الصبيان القراءة والكتابة وتحفظ قدراً من القرآن اضافة الى تعليم امور كالحساب واداء الفرائض . واغلب خريجى الخلاوى كانوا يندمجون فى الحياة العامة بينما كان القليل منهم يتجه الى مدارس أعلى مستوى .

٢ ــ المدارس والمسائد ، ويتجه اليها الطلبة المجتهدون من مرحلة الخلوة لحفظ المزيد من القرآن ودراسة علوم القرآن واللغة العربية وعلوم الدين المختلفة، وذلك حسب رغبة الطالب وحسب سمعة اساتذتها والعلوم التى يدرسونها . وكان الطلبة عادة ينتقلون من مدرسة الى اخرى رغبة فى تجويد العلوم وتنويعها . وقد بدأت أول مدرسة نملك اخباراً موثوقة عنها فى دار الشايقية ، وهى مدرسة أولاد جابر المشهورة ، ثم اتسع النطاق وتعددت المدارس وانتشرت فى بلاد كثيرة . وعندما جاءت المهدية كانت أشهر المدارس هى مسائد آل عيسى وبالاخص كترانج الواقعة جنوب الخرطوم ومدرسة الغبش قريبا من بربر ، وقد تلقى المهدى فى كلتيهما ، ومدرسة الدامر ، ومدرسة ام حقين بالجزيرة اسلانج .

٣ ــ المساجد ، ارتبط المسجد بالتعليم فى السودان من قديم الزمان كما هو الحال فى العالم الإسلامى . وكانت اغلب الخلاوى بجوار المساجد ويقوم الشيخ بالامامة والتدريس . ونفس كلمة مسيد الشائعة فى السودان محرفة عن كلمة المسجد، وهى تطلق عموما على المسجد وخلوة الدراسة . وفى عهد الترك استغلت المساجد فى المدن الكبيرة لتعليم الصبيان على نحو ما يتم فى الخلاوى وتعليم الكتابة والدين للكبار . وكان اهم هذه المساجد مسجد الخرطوم ، وكان موضعه مكان مسجد فاروق الحالى ، وهو اقدم مساجد الخرطوم . وقد درس فيه الأمين الضرير وابراهيم عبد الدافع والشريف المغربى حسين المجدى .

وفى العهد التركى نال عدد كبير من الخلاوى والمدارس والمسائد العون المادى من الحكومة ، احيانا مساعدة فى البناء وغالبا لاعاشة الطلبة ومرتبات للاساتذة كما بذلت محاولات كثيرة لترقية نمط التعليم الذى تقدمه هذه المؤسسات . وقد

حظى بعض خريجيها بوظائف الدولة في مجالات مختلفة ، وهؤلاء هم الذين عاونوا المهدى والخليفة من بعد فى العمل البيوقراطى .

٤ ــ أسست الإدارة المصرية عدداً من المدارس فى المدن الكبيرة على غرار المدارس الحديثة في مصر ، وكان اغلب طلبتها من ابناء موظفى الحكومة واعيان المدن . واشهر هذه المدارس مدرسة الخرطوم التى درس فيها الطهطاوى ، ولكن شهرتها ترجع الى مجرد الحدث التاريخى وارتباطها بالطهطاوى ، أما فى مردود التعليم فان أثرها لا يذكر . ولكن هذه المدارس كانت تشكل التجربة الأولى للتعليم الحديث فى السودان ، وكان من شأنها ان تقرب بين الخريج السودانى والخريج المصرى ، وان توصل بين الخريج السودانى واوروبا على نحو ما تم فى مصر . ولما اوصدت هذه المدارس فى المهدية انقطع هذا الوصل وحرم السودان من هذا الرافد الحضارى المهم والذى يهىء لتحديث الفكر . وعند قيام العهد الثانى عاد السودان الى النمط الحديث من التعليم ، ولكن النمط كان انجليزيا هذه المرة بدلا من الاوروبى المتمصر ، وهذا الذى باعد بين برامج التعليم فى مصر وبرامجه فى السودان . وكان تركيز التعليم الحديث بما يؤثر على وضع التعليم التقليدى . وفى النهاية كانت الحصيلة عظيمة ، اذ ان هذا هو الذى جعل السودان فى وضعه المتميز من حيث كوادره المتعلمة .

٥ ــ المدارس الارسالية ، وكانت مرتبطة بالنشاط التبشيرى المسيحى ، ولم يكن لها الا مردود محدود .

٦ ــ الازهر الشريف ،وقد اتجه اليه طلبة السودان من قديم ، وعندما جاء فتح محمد على كان للسودانيين رواقان ، رواق البرابرة ــ سكان الشمال ــ ورواق الفور . وفى عهد محمد على جاء الرواق السنارى . وقد ازداد عدد الذين يلتحقون بالازهر نتيجة لنمو العلائق بين السودان ومصر فى العهد التركى .

وعندما جاءت المهدية تعدل وضع التعليم بشكل جذرى . فقد انقطع الالتحاق بالازهر وقضى على التبشير المسيحى ومدارسه واوصدت المدارس الحديثة وابطلت دروس المساجد وقتل او مات اغلب من كانوا يلقون الدروس فيها . وقد

هجرت المسائد والمدارس نتيجة لاضطراب الاوضاع والتحاق اغلب المدرسين والطابة بالجهاد ، وضمر تعليم العلوم ولم يبق الا نشاط ضئيل يقوم به بعض العلماء فى بيوتهم بغرض الخير وبما تسمح به الظروف فى وقت كان فيه الحظر قويا على التراث التقليدى من العلوم .

اما الخلاوى فقد سمح بها خصوصا اذا كان المعلم موضع الثقة ، ومن المؤكد ان الاطفال فى المدن ومراكز الجيش كانوا يتلقون مايتيسر من التعليم . الا ان ظروف الجهاد والحياة غير المستقرة القت بظلالها فهجرت اغلب الخلاوى .

ولكننا نظفر رغم هذه الظروف ببعض الاشراقات . ففى رسالة من المهدى نقف على اجازة لبعض انصاره بفتح خلوة لتعليم الصبيان وتحفيظ القرآن ، مما يعنى ان تعليم الخلاوى كان مسموحا به . وفى رسالة اخرى نقف على اجازة مماثلة ولكن باضافة مهمة ، وهى الا يخرج شيخ الخلوة للجهاد الا اذا خرج امير الجهة اليه بنفسه ، وهو شرط يدل على مكانة معلم الخلوة والاحترام الذى يحظى به .

وفى العاصمة نقف على بعض الانشطة التعليمية المهمة . فقد افتتحت مدرسة لتعليم الصبيان من اسرى الحبشة ، ولاشك ان هذه الالتفاتة كانت موجهة لادخال هؤلاء فى حظيرة الإسلام أكثر من كونها لمجرد التعليم . كذلك افتتحت مدرسة اخرى لتعليم ابناء الامراء وعلية القوم وعهد امرها الى عثمان فريد ، وهو والد طلعت ورضا فريد عضوى مجلس قيادة عهد ابراهيم عبود واخوة آخرين . وكان يعلم اللغة والحساب والدين . وكان بعض العلماء يتولون تعليم ابناء الكبار وتثقيفهم على نحو ما كان يقوم المؤدبون قديما لابناء الخلفاء والوزراء . ومن ذلك ان الطيب أحمد هاشم تولى تعليم عثمان شيخ الدين الابن الأكبر للخليفة عبدالله وتثقيفه ، وقد درسه آداب اللغة العربية والتاريخ والحديث فيما يروى سعد ميخائيل فى كتاب شعراء السودان . وكان هذا — فيما يقال ايضا — مولعا بالشعر ومجالس الانس حتى دفعه ابوه الى القيادة وشغله بامور الدولة . ومنه ان احمد العجب كان معلم اولاد البشرى بن المهدى . واحمد هذا هو والد صديق العجب ، وقد ورد ذكرهما عند الكلام عن مصنفات الرسائل .

وقد اضطلع جامع الخليفة بام درمان بدور مهم فى خدمة المجتمع . هنا كانت محكمة الإسلام ، وهى اعلى هيئة قضائية فى المهدية ، تعقد اجتماعاتها ، وهنا كان عشرات الآلاف من الانصار يؤدون الصلوات الخمسة يوميا والصلوات الموسمية ويقرأون الراتب بعد صلاتى الصبح والعصر . وكان اسهام الجامع فى مجال التعليم بارزاً . فبتكليف الخليفة عبدالله تولى الحسن سعد العبادى — لفترة — القاء دروس فى المعاملات والحديث . وقد استقدم الخليفة الحسين ابراهيم زهرا من بلده فى الجزيرة فى ١٨٨٥ لالقاء دروس فى الحديث والمواريث ، وقد ظل يقوم بهذه المهمة حتى تولى رئاسة القضاء . وظاهر من هذا عناية الخليفة بالحديث والتى تنبع من ارتكاز ان استنباط الاحكام فى المهدية كان يقوم على القرآن والحديث . وظاهر ايضا ان الضرورة العملية استدعت العناية بالمعاملات . والعلم بالمواريث ضرورة لحاجة الناس اليها عند تقسيم التركات . واعلماء السودان عناية خاصة بهذا الجانب من الاحكام ولهم مؤلفات مشهورة عندهم . وكما يلاحظ سعد مخائيل عن حق فان المهدى لم يدخل تعديلات فى احكام المواريث .

وفيما يذكر كتاب التربية فى السودان كان بعض الشيوخ يعطون الدروس فى القرآن والحديث للبنين والبنات فى حجرات صغيرة مجاورة للجامع ، وكان عدد قليل من الاولاد الذين يحضرون هذه الدروس يحفظون مايلقى عليهم من القرآن ، وكان المتبع ان يرسل عدد منهم بعد اتمامهم دراستهم الأولية الى بيت المال ليصيروا تلاميذ تحت التمرين ويتعلموا اعمال الديوان (١) .

ويذكر ابراهيم فوزى ان الخليفة شرع فى ١٣١١ — ١٨٩٣ فيما يشبه تعليم الكبار فى ايامنا . قال : «وفى ١٣١١ شرع فى قراءة السور الصغيرة من القرآن الشريف . وخطب فى الناس قائلا يجب على كل فرد من افرادكم صغيراً كان أو كبيراً أن يحضر بعد ثلاثة ليالى اوحا من الخشب ويبتدىء فى كتابة القرآن كما يفعل صبية المكاتب فاجابه احدهم بان كثيراً من الناس يحفظون القرآن عن ظهر قلبهم ومنهم العلماء والفقهاء فالاولى أن تكون القراءة الزامية بالنسبة للأميين والذين لايحفظون القرآن فأجابه التعايشى بان حفظة القرآن والعلماء والفقهاء لاتنفعهم

---

(١) التربية فى السودان ج ٢ ص ١٠١ .

معرفتهم ولاتغنى عنهم فتيلا الا اذا امتثلوا ما أشرت به عليهم فاجابوا بالسمع والطاعة وانصرفوا الى حوانيت النجارين لصناعة الألواح فارتفعت أثمان الالواح وكان الفائز من يتحصل على لوحه قبل الميعاد لكيلا يصبح تحت طائلة العقوبة . وبعد ثلاثة ايام أحضر جل الناس الألواح. فلما رآهم رقى منبر الخطابة وقال لهم هيا ابدأوا بقراءة القرآن من أوله وعلى كل أمير ان يجمع اتباعه فى المسجد بعد غروب الشمس ويوقد ناراً من الحطب يحيط بها الناس ويقرأون ألواحهم على ضوئها حيث يصير الأمير كفقيه يعلم الصبيان فينتهر هذا ويزجر ذاك وهكذا ثم يمر التعايشى متفقداً تلك الحلقات كأستاذ أكبر ويقف على كل حلقة ويبدى ما يعن له من الانتقاد ... والحاصل ان الناس ظلوا أكثر من عامين عاكفين على القراءة فى المسجد والتعايشى يتلذذ بالتبختر حولهم وتفقد احوالهم التى كانوا يتكلفون فيها ويرفعون اصواتهم بالقراءة » (١) .

كان من نتيجة هذا التعليم الذى فرضه الخليفة ان تعلم جمهور كبير من الناس القراءة والكتابة وحفظوا قدراً من القرآن وعرفوا من علوم الدين مايحتاجون اليه فى حياتهم . ومما يؤكد ذلك مايرويه الاستاذ حسن نجيلة عن كبار الكبابيش الذين تعلموا اثناء مقامهم فى ام درمان ، اذ وجد كبار الكبابيش يقرأون ويكتبون ويحفظون ماتيسر من القرآن بينما كان ابناؤهم لايمكنون الخط (٢) .

وكان من اهم انشطة التعليم والتربية فى المهدية الدروس التى كان يلقيها المهدى على اتباعه ، وكانت تتناول اموراً كثيرة كالتفسير والحديث والوعظ . وقد كرس قدراً من ادبياته ليعلم الناس اداء الفرائض . وقد تبعه الخليفة فى ذلك فوعظ اصحابه .

الشعر :

أما الشعر فقد ظل على عهده لم يتغير فى بنائه وتركيبه سواء كان شعراً فصيحا أو قوميا يقال بالدارجة . وكان شعراء العهد مخضرمين نشأوا فى العهد التركى المصرى ثم واصلوا المشوار فى المهدية . وانما جاء التغيير فى اغراض الشعر وموضوعاته. فقد وجه شعراء المديح ، وكلهم ظهروا واشتهروا قبل المهدية ماعدا واحدا ظهر

---

(١) نوزى ج ٢ ص ٣١٢ .
(٢) نجيلة ، حسن : ذكرياتى فى البادية ص ٢٩ .

فى المهدية واشتهر وهو احمد محمد ابوشريعة ، كثيرا من شعرهم الى مدح المهدى والخليفة عبدالله والامراء . كذلك اتجه الشعر الفصيح الى تمجيد البطولة والحث على الجهاد ووصف المعارك . وكان من المناسبات المهمة التى قيل فيها الشعر وفاة المهدى ، اذ يندر ان تجد شاعراً عاش فى تلك الايـــام ولم يرث المهدى . ومما اثار الشعر بناء قبة المهدى ، وقد قال فيه اسماعيل الكردفانى غرته الفريدة . ومما قيل فى الوقائع قصيدة محمد عمر البنا فى حرب الدائر وقصيدة محمد المجذوب فى هندوب . وقد حظى بعض الأمراء من امثال حمدان ابى عنجة ومحمد الزاكى عثمان ببعض المدح .

وقد وجه المهدى قدراً من العناية الى الشعر بشقيه الدارجى والفصيح لما لذلك من أثر فى النفوس وبث الحماس فى قلوب الاتباع والرهبة فى قلوب الاعداء . وليس بين ادوات الفن ما هو اسرع تأثيراً فى النفوس واوسع سريانا بين الناس من الشعر . فاذا انشد الشعر انشاداً أو غناء كان له وقع أى وقع . وكان المهدى يطرب للشعر وينظر فى محاسن مايعرض عليه ومعايبه ، وخير الشعر عنده ما كان يثير الحماس وما يحمل الموعظة الحسنة ، أى ان الشعر عنده يرتبط بالجهاد من جهة وبالتربية الدينية من جهة أخرى . وفى كتاب منه الى أحمد محمد ابى شريعة(١) يبين ما يكون عليه مضمون الشعر المأذون عنده ، اذ يقول انه اذن له بأنشاد الشعر فى الجهاد ومدح الرسول والمهدى . وكان يبدى رأيه فيما ينشد امامه أو ما يعرض عليه ؛ ومن ذلك انه انكر على شاعره تعرضه الى الشيخ المنا اسماعيل ، وكان هذا قد اختلف مع المهدى واعدم بعد ان كان من أقوى رجاله ، بما يعنى أن الذى يخالف المهدى يذوق حال المنا — اى ينال الخسران — فمنع المهدى التعرض الى المنا واعلن ان المنا معفو عنه . ومنه ما كتبه الى محمد الطاهر المجذوب مستحسنا شعره(٢) ، وما كتبه الى الطيب احمد هاشم مثنيا على قصيدتين رفعهما اليه(٣) ، وان كنا لسنا على يقين من مصدر ماطرح من آراء ، اذ ربما يكون الأمر بتحرير احد العلماء وليس

---

(١) المرشد رقم ٤٩٥ .

(٢) المرشد رقم ٢٧٧ .

(٣) المرشد رقم ٥٢٤ .

من المهدى شخصيا. وقد نال شاعره الأول محمد ود التويم مكانة عظيمة وفاز بلقب خايفة حسان بن ثابت — شاعر الرسول .

وكان الخليفة عبد الله كثير العناية بالمداح ، وقد خصص دارة لمنشديه .

وأشهر شعراء المهدية محمد المجذوب الطاهر ومحمد عمر البنا وعمر الازهرى وابو القاسم هاشم وأخوه الطيب واسماعيل الكردفانى والحسين زهرا وابراهيم شريف الدولابى . وقد سلف ذكرهم . ويأتى قدر من شعرهم فى كتابى شعراء السودان ونفثات اليراع . وفى الشعر القومى برع محمد ود التويم واحمد محمد ابوشريعة واحمد ود سعد ، وقد اورد لهم الاستاذ قرشى محمد حسن كثيرا من الشعر .

وأغلب ما قيل فى مدح المهدى والخايفة كان بالشعر القومى الذى أنشده المداح. بيد أن اغلب ذلك قد ضاع بعد سقوط المهدية لان بعضهم ارتد وبعضهم تصور ان المهدية انتهت ولم يعد يرى ما يدعوه الى حفظ ما كتب منه ، وبعضهم كان يخشى منه على نفسه فى جو الحملة على الانصار فتخلص مما عنده ، وبعضهم كان يحمل ما عنده فى صدره ولم يدون ، فلما مات قبر معه شعره . وهكذا صار شعر المهدية نهبا للضياع . ولكن الله قيض لشعر تلك الفترة الاستاذ قرشى محمد حسن الذى كان كثير الرغبة والعزم فجمع قدرا كبيرا من الشعر ونشره فى مجلدات . وكان فى أول أمره معنيا بالأدب الشعبى وشعراء المدائح عامة ولكنه خصص بآخرة عنايته لشعر المهدية ، وقد أدى بذلك خدمة علمية جليلة ، اذ جمع شعرا لتسعة من الشعراء ابرزهم محمد ود التويم واحمد ود سعد واحمد محمد ابو شريعة واحمد ود تميم .

وبينما كنت اقوم بفهرسة وثائق المهدية وقفت على قدر من الشعر فصورته وجمعته فى مجلد . واغلب ذلك بخط الطيب احمد هاشم ، ولابد ان قدرا منه من شعره .

وبجانب هذا الشعر الذى يقوله الموالون للمهدية كان هناك شعر يقوله المعارضون، ومن ذلك قصيدة محمد شريف نور الدائم الذى سلف ذكرها . وقد كان اغلب الشعر المعارض باللغة الدارجة ، ولذلك كان تأثيره عظيما. وقد نال من الخليفة القدر الأكبر. وقد أشتهر فى ذلك شعر الحاردلو الذى هو اشعر شعراء الشعر القومى فى السودان .

ولد الحاردلو فى البطانة فى ١٨٣٠ تقريبا ، واسمه محمد احمد عوض الكريم ،

والحـــاردلو لقبه . وهـــو من اسرة ابى سن المشهورة والتى لها صدارة قبيلة الشكرية . وقد توفى بريره — وهى من بلاد الشكرية المشهورة — فى ١٩١٦ . واخوه عبد الله كان شاعرا ايضا ، وقد اشترك مع الحاردلو مطارحا فى مسدار الصيد . وهناك آخرون من الأسرة اشتهروا بالظرف والشعر .

كانت قبيلة الشكرية تتمتع بمكانة عظيمة فى عهد الترك لقوتها وقربها من الخرطوم ، وقد تولى بعض شيوخها ارفع المناصب . فلما جاءت المهدية عارضوها بقوة ثم انضموا اليها بعد ان اوشك ان يغمرهم مدها . وقد حاولت القبيلة — كغيرها من القبائل الكبيرة—ان تكون بعيدة من طائلة السلطة المركزية بينما كانت هذه السلطة مصرة على اخضاع كل القوى ، وهكذا عاش الشكرية فى جو التوتر . وقد بلغهم من ذلك اذى كثير . وفيما يخص الحاردلو فان الخليفة عبد الله عين عبد الاه احمد ابو سن وكيلا لقبيلة الشكرية فى كسلا فاتخذ عبد الاه اخاه الحاردلو نائبا له .وقد امرهما ان يكونا تحت امرة الأمير حامد على بكسلا وان يمدا الانصار بجهات سواكن بالمؤن . الا أن الشكرية نفروا من ذلك ، فاعتقل عبد الاه والحاردلو وبعض اهلهما بسبب ذلك . ثم عفا عنهم الخليفة بعد ان سويت العلاقات . وقد قال الحاردلو شعرا جيدا بليغا فى ذم المهدية وسخر من بعض امرائها ، وهو شعر شائع يتناقله الناس . ويورد الشيخ محمد عبد الرحيم فى كتابه نفثات اليراع (ص ٢٠—٢٥) بعض هذا الشعر ..

وللحاردلو شعر كثير فى الغزل والوصف والصيد بجانب الشعر السياسى . وقد جمع حفيده الدكتور ابراهيم الحاردلو شعره ونشره فى ديوان ،الا انه استبعد ما كان هجاءا فى المهدية ، وليته لم يفعل ، فهذا جزء من التاريخ الأدبى والسياسى ولابد ان يبقى تراثا .

مراكــز الثقافــة فى المهديــة :

كانت أولى مراكز الثقافة بطبيعة الحال مدينة امدرمان التى أسسها المهدى وسماها البقعة المباركة والتى صارت عاصمة الحكم ومركز الدعوة والارشاد . وقد تجمعت فى هـــذه العاصمة المحررات الرســمية التى صدرت عن المهـدى ، وهى

المادة التى تقوم عليها حركة التدوين والتصنيف ، كما ان كتاب ديوان المهدية وهم صفوة كتاب القطر كانوا يساهمون بالقسط الاوفر فى هذا الحركة لمعرفتهم الواسعة بمكتوبات المهدى ولكون هذه المكتوبات متوفرة تحت ايديهم ولاشرافهم المباشر على اعداد المصنفات المطبوعة والكتب التى صدرت عن مطبعة المهدية . وقد لعبت المطبعة الحجرية دورا بارزا فى خدمة التدوين والتصنيف ، فهى قد وفرت الكلمة المطبوعة وجعلتها فى متناول الايدى وادت الى ذيوع النصوص على منهاج موحد بدلا من اختلافات النسخ اليدوية . وقد كان الجزء الاول من المنشورات المطبوعة والذى اعد تحت اشراف كتاب الديوان المباشر هو اول نموذج لمصنف الرسائل يعرفه الناس ، وقد صار المصنفون يسيرون على منواله ويحتذون حذوه ثم صاروا يطورونه . وبفضل هذه المطبعة صدرت السلسلة المطبوعة من المنشورات وعدد من المصنفات الصغيرة ، وقد وفرت هذه بدورها عددا ضخما من المحررات صار مادة مشتركة لكل المصنفات المخطوطة . وقد طبع فى هذه المطبعة طرف من كتاب فتوح الشام للواقدى ، كما طبعت رسالتا الحسين ابراهيم زهرا والحسن سعد العبادى عن المهدى والمهدية ، ونصيحة احمد العوام ، وكتاب الرجبية فى المواريث ، وفى امدرمان كتب اسماعيل عبد القادر الكردفانى تاريخ المهدى والمهدية والذى سماه : سعادة المستهدى بسيرة الامام المهدى ، ثم كتابه الصغير : الطراز المنقوش ببشرى قتل يوحنا ملك الحبوش . وبتكليف من الخليفة عبد الله وضع الطاهر محمد التاناى مجلسه الذى دون فيه بعض ما كان يرويه المهدى فى مجالسه من المواعظ ، وقد حذا حذوه آخرون من امثال ابكر علوان ووضعوا مصنفات فى المجالس . وبتكليف من الخليفة أيضا بدأ جمع محررات المهدى التى كانت بأيدى الناس ، وتوجه محمد الأمين — وهو من كتاب الديوان — الى اقليم كردفان لهذا الغرض . وفى امدرمان وضعت مصنفات كثيرة اخذ مصنفوها مادتها من الأجزاء المطبوعة من المنشورات ومن المحررات الاصلية التى كانت تكتشف من وقت لآخر فى بيوت الكتاب والأمراء وما كان بايدى الناس فى الاقاليم . وقد كتب عوض الكريم المسلمى مصنف الفيوضات الوهبية فى امدرمان ، ويبدو انه كان على اتصال وثيق ببعض كتاب الديوان وببعض المصنفين الآخرين .

وعلى العموم فان امدرمان قد اضحت مركزا ثقافياً مهما نشطت فيه حركة

التدوين والتصنيف والنشر . وقد قامت هذه الحركة على أكتاف العلماء والكتاب الذين تجمعوا فى هذه العاصمة واعتمدت على الامكانيات المادية المتاحة كالمطبعة والمحررات الرسمية . هذا فيما يتصل بثقافة النظام القائم . اما فيما عداها فيبدو ان كتاب الديوان واصحابهم فى الاقاليم كانوا يشغلون انفسهم بتأليف الشعر الوجدانى ، وكان ميدانهم المفضل هو موضوع الاخوانيات كالتهانى فى المناسبات السعيدة وتقريظ المؤلفات والود الأخوى . ويلاحظ أيضا كثرة الشكوى من الغربة والشوق وعسر الحياة ، وهذا جانب له وزنه الخاص فى المهدية ، اذ ترك معظم الناس اوطانهم ليستقروا فى النقاط الحربية ويعيشوا حياة الجهاد القاسية بعيدا عن الأصدقاء والأحباب .

ومن الجوانب الأدبية التى أخالها من اعظم ما كتبه الكتاب الخطابات الاخوية التى كان يتبادلها الكتاب فى الموضوعات الاخوانية او فيما يتصل بأعمالهم الثقافية ، ومن قبيل ذلك محررات التهنئة أو الاعتذار التى كان يحررها الكتاب لأمرائهم لترسل باسمائهم الى الخليفة . وقد رأيت ان الكتاب المتمكنين من امثال محمد مصطفى كاتب الامير يونس الدكيم كانوا يجدون فى هذا المقام المجال لابراز البراعة الادبية والحس الفنى .

وفى شرق السودان ، وهو المركز الثقافى الثانى ، قاد المجاذيب حركة عظيمة للتدوين والتصنيف ، وقد تركزت هذه الحركة فى قرية افافيت التى اتخذها امير الامراء عثمان دقنة مركزا له حتى سقطت فى يد الجيش المصرى فى اوائل ١٨٩١م . وقد كان المجاذيب على وفاق عظيم مع حركة المهدى ، واليهم يعزى الفضل الأكبر فى أنتشار هذه الحركة فى شرق السودان . وقد تبوأ بعض افراد الاسرة مناصب عالية فى ادارة اقليم الشرق . وكانت للمجاذيب طريقة خاصة أنشأها جدهم حمد بن محمد المجذوب الكبير فى اوائل القرن الثامن عشر ولهم خبرة سابقة فى التأليف والتصنيف وقدم راسخة فى العلم ، وقد اقبلوا يخدمون التراث الفكرى لحركة المهدية بحماس عظيم . وكان على رأس هذه الحركة محمد المجذوب بن الشيخ الطاهر والمجذوب ابوبكر يوسف .

أما الشيخ الطاهر فقد كان كبير المجاذيب وشيخهم بالشرق ، وكان الأمير عثمان دقنة احد مريديه ، وهو الذى هيأ الجو لانتشار المهدية فى الشرق بمعاونته

الصادقة لعثمان دقنه عندما عاد اميرا على الشرق من قبل المهدى . ويبدو ان الشيخ الطاهر كان مهتما بالجانب الدينى من المهدية علاوة على اتجاهه المعادى للنظام المصرى . وقد حفظت مصنفات الرسائل المحررات التى تبادلها الشيخ الطاهر مع المهدى فى هذه المسائل ، ويفيدنا ابنه محمد المجذوب فى مقدمة مصنفه المحفوظ بدار الوثائق الفرنسية بأن والده كان يحثه على وضع هذا المصنف الذى يجمع تراث المهدى وييسر تداوله بين الناس .

اما المجذوب ابوبكر يوسف فقد تولى الكتابة للامير عثمان دقنة ، وقد وجدت كل المحررات الرسمية التى تخص عمالة عثمان دقنة فى منزله بأفافيت . وأغلب هذه المحررات محفوظة الآن بدار الوثائق القومية ، اما باقيها فمحفوظ بمكتبة كلية الدراسات الشرقية بجامعة درهام . ويتصل المجذوب بالمجاذيب عن طريق الام ، فأمه عائشة بنت محمد المجذوب بن قمر الدين الذى تتلمذ على الشيخ احمد بن ادريس ، وكان والده أبوبكر يوسف من الارتيقة ، وكان تلميذا مخلصا للشيخ محمد المجذوب ، ثم تزوج ابنته الوحيدة وانجب منها المجذوب هذا وابنين آخرين لم يبلغا شيئا من الشهرة وهما عبد الله والأمين . وقد اشترك المجذوب مع قريبه محمد المجذوب بن الطاهر المجذوب فى الاتصال بكتاب الخليفة عبد الله بجمع نصوص المنشورات وتصحيحها عليهم . ولعل اهم عمل قام به هو تصنيف مجموعة خطابات المهدى ثم الخليفة عبد الله الى عثمان دقنة ومعاونيه فى مجلد واحد ، وهذا المصنف محفوظ بدار الوثائق القومية ، الا ان به سقطا فى نصفه . وللمجذوب مصنف آخر محفوظ بمكتبة كلية الدراسات الشرقية بدرهام وهو عبارة عن مصنف رسائل من المهدى . وعلى العموم فقد كان المجذوب مصنفا ممتازا ومتمكنا من موضوع محررات المهدية ، كما كان متأنقا فى الكتابة مجيدا لها .

اما محمد المجذوب بن الشيخ الطاهر فقد اعد فيما نظن مخطوط وقائع الشرق الذى وصف فيه وقائع المهدية فى الشرق منذ ان حل به عثمان دقنة موفدا من المهدى ، وهو سفر مهم لأنه يعطينا وجهة نظر اتباع المهدى فى حوادث الشرق ، وقد نقل عنه نعوم شقير واسماعيل عبد القادر فى الفصول الخاصة بحوادث شرق السودان .

وقد صنف محمد المجذوب ايضا مصنف الفيوضات الوهبية المحفوظ بمتحف باريس ، وقد اعد ليكون مصنفا ضخما من سبعة اجزاء الا ان النسخة الحالية تقف عند نهاية الجزء الثالث. ولعل اهم هذه الأجزاء الجزء الثالث، وهو منقول عن كتاب الاحكام والآداب المطبوع الذى ضاع اصلـــه .

وكان محمد المجذوب شاعراً مجيـــدا .

الباب الرابع

الآثـــــار

الفصل الأول

التاريخ

فى التاريخ جانب يستهوى الحاكم ويفتنه ، وهو انه يتناول فى جانب منه امجاد الناس ، فيأمل ان يصل به الى تمجيد أفعاله والحض من اعدائه واعمالهم وان يجعل ذكره قويا باقيا . وهو فى نفس الوقت يخشى ان يرتد عليه ويقول فيه كلمته بغير الوجه الذى يريد . لهذا كان المؤرخ مقربا حينا ، ومغضوبا عليه حينا ، وموضع التوجس فى أغلب الأحوال . ولهذا ايضا ابتدع بعض الحكام وظيفة مؤرخ النظام ليسجل الحوادث بالوجه الذى يراد ويثبت الأمجاد .

ولأهل العقائد والدعوات عناية خاصة بالتاريخ ، لأن التاريخ طرف من قوام ما يدعون اليه وثبات ما ساروا فيه ، ولأنه يحمل لابنائهم أمجاد آبائهم وبلائهم فى سبيل الدعوة . والنصر والظفر ليس مجدا فحسب وانما هو نصر المؤمنين وانتصار كلمة الحق ان شئت بوجه ، او حتمية التاريخ ان شئت وجها آخر من الطرح ، أو غلبة حركة متقدمة على اخرى فى شكل عنصر غالب أو لون أو حضارة ان شئت الوانا أخرى .

فالتاريخ عند اصحاب الدعوات ليس ترفا وانما هو مطلب . ولهذا لا نستغرب ان تكون سيرة المهدى وانتصارات المهدية وامجادها مما يهم لها الخليفة عبد الله وان يسخر لها اقدر الكتاب ، ولا نستغرب ان يكون مؤرخه مقربا واثيرا ثم ينقلب حظه فتطاله النقمة وتنكب به النزوة . وكان هذا حال اسماعيل عبد القادر الكردفانى ، مؤرخ المهدية الأول ، الذى سما سعده فى حال الرضا ثم هوى فى حال الشك والريبة .

والانصار عامة يعنون بتاريخ المهدية ويتحمسون له لأنهم مأخوذون بتراث آبائهم ومرتبطون به ، ولأن هذا التاريخ جزء من تكوينهم الاجتماعى .

وأهم ما يعنون به من تاريخهم موضوعات ثلاثة : أولها المهدى وما يتصل بسيرته منذ ان ولد حتى توفى وما كان يتصف به من الصفات وما يتخلق به من خلق وبمقامه وكراماته . وثانيهما ما يتصل بالمهدية نفسها بدءا بما ورد عنها فى التراث

الاسلامى وانتهاء الى مطابقة حال المهدى لهـذا الذى ورد فى التراث . وثالثها الحوادث والوقائع . اما الموضوع الأول فيقع فى طرفين ، أولهما ما كان قبل المهدية وثانيهما ما كان بعد اعلان المهدية . وعن الطرف الأول أورد المؤرخون شيئا يسيرا ، لا يخرج عن خطوط عامة . اما الطرف الثانى فقد تداخل مع حوادث المهدية ووقائعها وعادات المهدى وصفاته وقد غلف بمغالاة الأصحاب والاعداء واوهامهم . ومحصولنا عن الموضوع الثانى طيب لأن الاصحاب والخصوم عادوا الى التراث وابرزوا ما جاء فيه عن المهدى المنتظر بشكل جيد . وقد بدأ الأمر بمؤلفات ثلاثة للغزى وأحمد الأزهرى والأمين الضرير ، وضعت بتحريض عبد القادر حلمى باشا ، وقد ذهبوا الى ان شروط المهدية ليست منطبقة فى المهدى وان دعاويه بعيدة عن الشرع وان أمره لا يعدو ان يكون خروجا على شرعية الخلافة . ومن الطرف الآخر جاءت رسالة الحسين زهرا والحسن العبادى ، وهما ينتهيان الى أن الشروط الواردة عن المهدى المنتظر منطبقة فى المهدى ، وان الخلافة العثمانية ليست خلافة شرعية ، وبالتالى يسقط التحجج بطاعة ولى الأمر . ورسالة ثالثة هى رسالة العوام ، وقد كرست لبيان عدم شرعية الخلافة العثمانية وضرورة اسقاطها على يد المهدى هذا أو غيره . وهناك بيان طيب فى سيرة الكردفانى عن الآثار الواردة بشأن المهدى ومطابقتها مع حال المهدى . اما المهدى نفسه فقد انكر الشروط والعلامات من أساسها وذهب الى أنها مناقضة لقدرة الله وتصرفه فى الكون وان الله يرسل المهدى متى شاء واينما شاء وكيفما شاء . وعلى العموم فان هذا الطرف يعتمد على مطالعة التراث وحسن استيعابه .

أما الموضوع الثالث فكان الاعتماد فيه على الرواية . لقد كان أعتماد الكردفانى ونعوم شقير على الرواة ، الا فى حال حوادث الشرق فى عهد المهدى حيث عتمدا على سجل الوقائع . كذلك اعتمد على المهدى على الرواة . وعبد الوهاب الانصارى أورد ما أورد من ذاكرته ومما سمعه . وجمع محمد عبد الرحيم بين ما قرأ وبين ماجمع .

هذه الموضوعات الثلاثة مرتبطة ببعضها البعض اشد الارتباط ، لأنها جميعا تصب فى مهدية المهدى وثباتها فيه خلقا وخلقا وسيرة ومطابقة ذلك كله مع الاثر المروى عن المنتظر وانه مؤيد فيما يفعل فلا يخطأ ومنصور فلا يهزم . وخليفته على اثره مؤيد منصور .

هذا الذى دفع الخليفة عبد الله الى العناية بسيرة المهدى وادبياته وانتصاراته وتمجيد انتصاراته هو نفسه .

بين أيدينا ثلاثة أعمال فى التاريخ كتبت فى المهدية ، الأول فى سيرة المهدى وأمجاده لأسماعيل عبد القادر الكردفانى ، وهو سعادة المستهدى بسيرة الامام المهدى ، والثانى لنفس المؤلف فى انتصارات الخليفة والتى توجت بانتصاره على الحبشة فى القلابات وهو الطراز المنقوش ببشرى قتل يوحنا ملك الحبوش . أما الثالث فهو وقائع شرق السودان ، وهو لم يكتب ليكون تاريخا يقرأ وانما قصد به أخطار المهدى بما وقع فى الشرق من حوادث . وفيما يلى نتناول الأعمال الثلاثة :—

سيرة المهدى والحرب الحبشية :—

ينتمى اسماعيل عبد القادر الكردفانى مؤلف السيرة والطراز من جهة أمه الى عائلة دينية مشهورة بكردفان . فأمه عائشة بنت الشيخ اسماعيل الولى بن عبد الله مؤسس الطريقة المنسوبة اليه والذى يكثر مريدوه فى كردفان ، وبالاخص فى مدينة الابيض — حيث توجد رئاسة هذه الطريقة — واطرافها . وله اتباع فى العاصمة المثلثة وجهات الدبة بالمديرية الشمالية . ويقال انه وضع اربعين كتابا فى التصوف واللغة وما الى ذلك من العلوم المتصلة بالدين . وهناك مؤلف يرد فيه ثبت مؤلفاته مرتبة حسب سنوات صدورها(١) . وله اولاد كثيرون . وقد خلفه فى زعامة الطريقة ابنه محمد المكى الذى مال الى المهدى وأيد دعوته . اما أبنه احمد الأزهرى — وهو شقيق أم أسماعيل — فقد تعلم فى الازهر الشريف بمصر وابتعد فى ثقافته عن مشرب أهله ، وأتخذ موقفا معاديا من المهدية ، وهو مؤلف الرسالة المعارضة : النصيحة العامة لأهل الاسلام ، التى يأتى الكلام عنها فى مكان آخر . وقد عين أحمد شيخا للاسلام وقاضيا لعموم غرب السودان وارسل الى مقره بالابيض مع قوة عسكرية ، ولكنه لقى مصرعه على يد اصحاب المهدى فى واقعة وقعت قرب مدينة بارة . أما من جهة ابيه فلا نعرف شيئا .

ولد اسماعيل فى الابيض فى ١٢٦٠هـ/ ١٨٤٤م واخذ المراحل الأولى من

---

(١) هو كتاب النشأة الدنية فى المناقب الاسماعيلية ، وهو مخطوط ، ومؤلفه مجهول .

تعليمه في هذه المدينة . ثم اخذه خاله أحمد الأزهري الى الازهر الشريف فانتسب اليه طالبا ، وقيل استاذاً ايضا لفترة . ثم عاد الى السودان ، بعد ان قضى هناك ثماني سنوات ، مع قافلة قطعت الصحراء الى الفاشر . وهناك حظي باكرام السلطان ، وقيل انه كان يبغي ابقاءه في بلاطه . ثم عاد الى الابيض وعين مفتيا لكردفان — ومن هنا حاز لقب المفتي والذي صار في احفاده ايضا ، كما حاز خاله أحمد لقب الأزهري لصلته بالأزهر وصار اللقب بالمثل في احفاده . وقد ظل اسماعيل في هذه الوظيفة حتى جاء المهدي بقواته الى كابه وارسل انذاره المشهور الى أهل الأبيض ، فخرج اليه مع من خرج والتحق بالمهدي واخذ البيعة . ثم التحق بالقضاء ، مثله في ذلك مثل آخرين كانوا في خدمة قضاء الترك ثم صاروا في قضاء المهدية ، وخدم في عهدي المهدي والخليفة . وفي عهد الاخير صعد نجمه وتلألأ ، قيل حتى خشي قاضي الاسلام أحمد على على نفسه منه . ومما يدل على علو مقامه تقريظه لكتاب الطراز السنية للحسن سعد العبادي ، اذ لولا ارتفاع مكانته لما طبع تقريظه مع الكتاب. ومنه انه كان من جماعة من الفضلاء والقضاة اصدروا وثيقة بايلولة المراكب والمشارع الى بيت المال . ومنه ايضا انه من العلماء الذين قضوا بادانة الخليفة محمد شريف واصدروا في ذلك وثيقة تعد من أقوى وثائق المهدية . ويجيء اسمه هنا الرابع من بين ٢٨ عالما . ثم الدليل الاكبر وهو اختياره من بين العلماء ليكتب سيرة المهدي .

كتب اسماعيل السيرة والطراز في ١٨٨٩ وبلغ بذلك قمة المجد . وطابت العلاقات بينه وبين الخليفة عبدالله حتى نكب في ١٨٩٣ وارسل الى الرجاف مسجونا ومنفيا وصحب في الباخرة مسجونا آخر هو محمد خالد زقل عامل المهدي في دارفور وعامل الخليفة في الشرق ثم في دنقلا ومن ابرز رجال الأشراف ، هوى هو ايضا مغضوبا عليه وارسل مسجونا . وقد بقي اسماعيل مسجونا في الرجاف في أشد الضيق والعناء حتى مات في ١٨٩٧ ، قيل ان مرفعينا اختطفه وهو ملقى لايستطيع حراكا من شدة الجوع .

تلك ولاشك مصرع بشع لمفكر عظيم ونهاية محزنة لعالم مال الى المهدي طوع ارادته وخدم المهدية قاضيا وعالما لسنوات طويلة وكتب سيرة المهدي وصنف في أمجاد الخليفة .

ومن الغريب ان ماصار اليه اسماعيل لم يؤثر فى العلاقة بين خاله محمد المكى وبين الخليفة عبدالله .

اما السيرة فقد لحق بها غضب الخليفة فامر فاحرقت نسخها الا واحدة خبأها احد الكتاب ، وهى التى وصلت الينا .

ترى لماذا وقعت هذه النكبة الشديدة على هذا العالم الجليل وهو الذى قام بما قام من عمل مهم لخدمة النظام ؟ أولها ان التوجس من العلماء والمفكرين ديدن الأنظمة العقائدية التى تنظر الى الأمور بمعيارها ولاتقبل بغير هذا المعيار مهما كان مقام المفكر ومهما كان سمو فكره . وقد زاد من ذلك غيرة المهدية على توجهاتها ، وهى توجهات تقوم على منهج أتى به المهدى وخالفه فيه بعض العلماء ، بل أنكر هؤلاء عليه المهدية نفسها . ولهذا هاجم المهدى من سماهم علماء السوء ومقلدة العلماء ونظر الأنصار الى العلماء بعامة وخريجى الأزهر من أمثال اسماعيل بخاصة بالريبة والشك . وبمجىء الخليفة عبدالله ازداد الأمر سوءاً ،ولما كانت تصرفات الخليفة حيال اعدائه ذات طابع قمعى فلا يستبعد الانسان مثل هذه القسوة حيال من يتوجس منه مهما كانت الظروف المحيطة بالقضية .

ويقول نعوم شقير فى أسباب النكبة : « علت منزلة اسماعيل عبدالقادر ونفذت كلمته فحسده القاضى أحمد وسلط عليه بعض اخصائه فسعوا به عند الخليفة فشهد بعضهم انه سمعه يقول : كيف تطاق ان تسلم أمور الرعية كلها الى رجل جاهل غشوم مثل عبدالله التعايشى ، وشهد آخر عليه انه قال : انى والخليفة كاسماعيل باشا المفتش مع اسماعيل الخديوى . وقال آخر انه ملأ السيرة مغامز تحط من شأن المهدية وتدل على انكاره اياها . ففعلت هذه الوشايات فى رأس الخليفة فعل النار بالهشيم فنفى اسماعيل عبدالقادر الى الرجاف » (١) . وعندنا ان النكبة جاءت لاسباب ، منها المنافسة بين المقربين الى الخليفة ونكاية كل بالآخر. وهذا مابينه نعوم فى الفقرة التى نقلناها . ومنها اثارته لبعض حساسيات المهدية . فهو أزهرى الاتجاه . وهو متسامح ازاء المخالفين للمهدية فلا يعتبرهم كفاراً

---

(١) نعوم شقير ص ٨٣٩ .

كما هم فى نظر المهدية بل يسميهم بعض اتباع الديانة . وهو بحكم الضرورة يبين فى السيرة امجاد قواد المهدى ، والذين كان أغلبهم من الاشراف وابناء النيل الذين هم خصوم الخليفة ، بينما لايظهر قادة البقارة الذين بيدهم الأمر بصورة مرضية . ومع انه خصص الطراز لتمجيد شخص الخليفة وانتصاراته ، فان ذلك لا يقلل مما جاء فى السيرة ولايعوضه . فالسيرة حملت صورة لمرحلة ماضية تثير حساسيات باقية لايسلم منها مؤلف فى مثل تلك الظروف . واكثر من ذلك انه طعن فى ولائه اذ قالوا ان بعض مدحه يقصد به الذم . ولكن لو كان السبب فى النكبة متعلقا بكتابه وما جاء فيه من مآخذ فلماذا تأجلت المؤاخذه لسنوات ! ان هذا السؤال يضعف كل ما ينسب الى مادة الكتاب . ولعلنا نرى أن الأمر يرجع الى صراع الرجال حول النفوذ وان الأزهرية وعداء العلماء ومآخذ الكتاب قد استغلت من قبل اعدائه .

وضع اسماعيل تاريخه — بشقيه السيرة والطراز — بتكليف من الخليفة عبد الله وليس من المهدى كما يروى سلاطين فى كتابه السيف والنار . وقد اعتمد فى تأليفه على الروايات والأقوال التى جمعها ممن شهدوا الوقائع وما كان يتناقله الناس . وليس فى سيرته ما يدل على انه عاد الى الوثائق ليستخرج منها البيانات ويبنى عليها احكامه . بل يبدو واضحا انه لم يكن مدركا لهذا المنظور للوثائق والتاريخ . ان هذا المنظور حديث عهد ، لم يكن معروفا فى عهد اسماعيل ، وحتى نعوم شقير الذى درس فى المدارس العصرية لم يأخذ بهذا المنظور واعتمد على الرواية ، فلا يؤخذن على اسماعيل انه لم يأخذ به . وقد أورد اسماعيل جملة من الوثائق والقصائد حسب مناسباتها فى السيرة والطراز اكمالا للصورة أو بيانا لفائدة . ويلاحظ انه أتى فى الطراز بوثائق اكثر مما فعل فى السيرة . ولا يضيف اسماعيل من مشاهداته الخاصة الا قليلا، بل اننا لا نحس بشخصه الا فى مواضع قليلة . وذلك لأنه التزم التباعد عن اقحام نفسه فى السيرة . وقد استعان فيما روى عن شرق السودان بسجل الوقائع الذى وضعه احد اعوان عثمان دقنة ولم يبتعد عنه الا فى مواضع لخص فيها أو عدل عبارة بعبارة . ويلاحظ هنا انه عبر عن موقف متساهل مع الختمية ، فهو لا يشتط فى اخذهم كما فعل كاتب الوقائع والذى عبر عن الموقف المشترك للمهدية والمجاذيب حيال الختمية ، فلا يعتبرهم كفارا بل يعدهم بعض اهل الديانة . وربما كان ذلك

لأنه لم ير ، كما يتوقع من رجل أزهرى ، فى موقفهم كفرا أو ربما غلبت عليه علاقة اسرته بمؤسسى الختمية . وليس مستبعدا انه استعان بمدونات اخرى مثل هذه ولكننا لا نملك من الدلائل ما يحدد شيئا . والموازنة بين ابوابه وفصوله جاءت مناسبة ، الا أنه يستطرد فى بعض المواضع لمجرد انه وقف على مادة أكثر أو لأنه يريد ان يرضى الجهة التى يكتب لها تاريخه ، فيما هو يقصر فى مواضع لأنه لم يجد مادة . وقد كتب بلغة منضبطة تؤدى المعنى الذى يريده دون اخلال وببيان عربى فصيح يخلو من اثر العامية . وقد قسم عمله الى ابواب ، وكل باب الى فصول ، وخصص لكل موضوعا . وعلى معيار مؤرخى المسلمين ازاء وقائع عهد الرسول ، غزوة اذا قادها الرسول بنفسه وسرية اذا قادها شخص غيره ، فان اسماعيل جعل ماقاده المهدى بنفسه غزوةً وجعل ماقاده غيره سرية . وسيرته ليست سيرة لشخص المهدى فقط وانما تتداخل سيرة المهدى مع سيرة الدعوة . وقد أطرى المهدى ودعوته ، ثم أطرى الخليفة وعدد امجاده واشتط فى الحالين ، ولكن بياناته عن الحوادث والوقائع جاءت منطقية مع الحقيقة . وفى وصفه للحوادث نجد الجيوش امامنا تتعارك بغير مقدمات عن الاعداء واستعداداتهم وتحركاتهم ، وربما كان ذلك لأنه لم يقف على مصادر تعينه على تبين ما يجرى فى الطرف الآخر ، فهو يكتب بما توفر عنده . وهذا بخلاف ما نجد عند نعوم شقير الذى يورد بيانات كافية عن الجيوش وتحركاتها يرويها عن مصادره الثرة . ومع أن المرء يدرك ان المؤلف كتب تاريخه لخدمة وجهة نظر معينة وتحت سلطان قاهر ولم يكن فى مقدوره الا ان يعبر عن مايراد منه ، فان تاريخه جاء قويا فى تبويبه متينا فى تصديه للوقائع . وقد انتصر لعلمه عندما تباعد عن تكفير المخالفين كما انتصر لضميره عندما مدح بما يشتم منه الذم فى مواضع لا تستقيم عنده على الوجه الذى يراد به . واذا وضعنا اعتبارا لهذا لتبين لنا موقفه المستقل ، وهو ما يرتفع به كمؤرخ . وقد جاء تاريخه أول ما كتب فى تاريخ المهدية . فهو الذى شق هذا الطريق الوعر وعبده فى ابوابه وفصوله ، وسهل بذلك تناوله على من جاء بعده . وقد اعطى للمؤرخ الوطنى شرف السبق فى هذا المجال .

وفى تقدير نعوم شقير ان اسماعيل الف «سيرة نفيسة ضمنها وقائع المهدية . . ولكنه طلاها بطلاء كثيف من الاطراء والتماق للمهدى وخليفته واضطر الى ذكر

كثير من الكرامات والخوارق المنسوبة اليهما مما لم يكن في اعتقاده . . . فاذا هي مع كثرة ما فيها من الاطراء والتملق للمهدى والخليفة قد ضمنت الحقيقة احسن تضمين وانطبقت حقائقها على ما تحريت جمعه في مصر فزدت به ثقة واستشهدت بالسيرة في مواضع كثيرة من التاريخ»(١). وقد وضعه في تقريره الى ونجت في مصاف أبن الأثير وابن خلدون والمقريزى وأبى الفداء .

لقد حرص نعوم على الوصول الى تاريخ الكردفاني وبحث عنه بغير كلل حتى ظفر في ١٨٩٥م بالنسخة الوحيدة التي بقيت منه ، وهي نسخة بخط محمد أحمد هاشم وتتضمن السيرة والطراز ، والاخير اعتبر جزءا من السيرة . وقد استعان به عندما وضع تاريخه واعترف لصاحبه بالفضل . ثم اختفى التاريخ مرة أخرى وظللنا نبحث عنه هنا وهناك حتى ظهر ضمن أوراق ونجت باشا التي اهديت الى مكتبة كلية الدراسات الشرقية بجامعة درهام .

سعـــادة المستهدى بسيرة الامـــام المهـــدى :ـــ

يقع هذا الكتاب ـــ اعنى نسخة محمد احمد هاشم الخطية ـــ في ٣٠٥ صفحة وفي طبعتنا في ٣٣٦ صفحة ، وهو مقسم الى خطبة ومقدمة وثمانية ابواب وخاتمة .

ذكر الكردفاني في الخطبة دواعي التأليف وتكليف الخليفة اياه بوضع السيرة ثم دواعي وضع السيرة بالنسبة للشخصيات العظيمة مستشهدا بما فعل كتاب السيرة النبوية في الاسلام . وفي المقدمة ذكر بعض الأحاديث والأخبار الواردة عن المهدى المنتظر وظهوره ، وهو بعض ما نجده في مؤلفي زهرا والعبادي ، بل في كل الكتب عن المنتظر . وفي الباب الاول يحاول اثبات اتصاف مهدى السودان بما ورد في شأن المهدى المنتظر والذى سبق الكلام عنه في الفصل السابق . وفي البابين الثاني والثالث تعـــرض لأخـــلاقه واوصافه ، وصلاحه المبكر ، مستعرضا جوانب من حياته . وقد أوقف الباب الرابع للكلام عن نشاط محمد احمد قبل المهدية واتصالة بعلية القوم بشأن اصلاح الحال . وفي الباب الخامس ذكر اقبال الناس عليه بعد اعلان الدعوة ، واجتماع القبائل الضاربة في نواحي أبا لمناصرته ودفاعهم عن دعوته ، ثم يمضي

---

(١) نعوم شقير ص ٨٣٨-٨٣٩ .

فى الباب التالى ليصف واقعة الجزيرة أبا . وفى الباب السابع يصف هجرته الى قدير ومسير ثورة المهدى حتى سقوط مدينة الأبيض واستيلائه على اقاليم كردفان . وفى الباب الأخير يتكلم عن الغزوات والسرايا والمعارك التالية ، ويصف فتوح المدن ويذكر البعوث التى جاءت والوفود التى اتت مسلمة ومبايعة . وفى الخاتمة يذكر وفاة المهدى ثم اعتلاء الخليفة عبد الله ويورد مرثية نظمها الشاعر ابراهيم بن شريف الكردفانى يرثى بها المهدى ، معقبا بعدها بأن المراثى كثيرة « وقد افردت بالدواوين كأمداح المهدى عليه السلام » . يتعرض الكردفانى بعد ذلك الى بناء جامع الخليفة ويذكر بناء قبة المهدى ويذكر عنها تفاصيل لا ترد فى مصدر آخر ، وقد اورد قصيدته المشهورة فى قبة المهدى :

سمت قبة المهدى مجدا وسـؤددا ونيطت بها الجـوزاء عقدا منضدا

وقد صدر تحقيقنا للسيرة فى ١٩٧٢ ، ثم صدرت ترجمة هايم شاكد لها بالانجليزية اعتمادا على اطروحته للدكتوراه بجامعة لندن .

الطراز المنقوش ببشرى قتل يوحنا ملك الحبوش :ـ

يقع هذا الكتاب فى ١٨٢ صفحة ، والنسخة الوحيدة منه مكتوبة بخط محمد احمد هاشم ومحفوظة بمكتبة الدراسات الشرقية بجامعة درهام ، وقد اثبت الناقل واقعة النقل وتاريخه ، وهو ١٣٠٨هـ ، فى صفحة بنهاية الكتاب . وقد قسم المؤلف رسالته الى خطبة ومقدمة وثلاثة أبواب . أما فى الخطبة ، فيذكر الكردفانى ان الخليفة عبد الله عهد اليه أمر وضع رسالة «تتعلق بحرب الحبشة متكلفة ببيان واقعة القسيس يوحنا التى أفضت به الى الهلاك والدمار» وانه شرع فى وضعها مستعينا بروايات من شاهدوا الوقائع ، وانه فرغ من كتابتها فى شوال سنة ١٣٠٦هـ . اما المقدمة فلبيان « ما ورد من المهدى من الأخبار والبشائر والكمالات فى حق الخليفة عبد الله مع ذكر نبذة من احواله السنية ومزاياه الطاهرة» ، وهو موضوع يعد طريفا . وفى الباب الاول ، وهو يقع فى خمس فصول ، يتناول سرية الدكيم التى توجهت الى القلابات اثر واقعة القلابات الاولى ومقتل محمد ارباب واستقرارها فيها . وقد خصص الفصل الاول منه لبيان مشروعية محاربة الحبشة بالنظر الى حديث من الرسول يمنعها ،

والحجة التى يبرر بها هى أن الحبشة هى المعتدية . وفى الفصول التالية وصف الوقائع . اما الباب الثانى فيتناول سرية حمدان ابى عنجة الذى خلف يونس ، وغزا الحبشة واعد العدة للمعركة الفاصلة . وفى الباب الثالث — وهو يتكون من فصلين — يذكر ولاية الزاكى طمل بعد وفاة حمدان ، وانتصاره فى واقعة القلابات الحاسمة على امبراطورية الحبشة . وقد اعد المؤلف ذلك نصرا اسلاميا كبيراً على الكفر . اما الخاتمة فعن السرايا التى ارسلها الخليفة الى الأقطار الأخرى لنشر الدعوة .

وكما كانت السيرة اول كتاب يكتب فى تاريخ المهدية فان الطراز أول كتاب يكتب فى موضوعه . وقد جاء تأليفه بعد الانتصار على الحبشة فى القلابات والانتصار على أبى جميزة فى الغرب وقبل هزيمة توشكى — هكذا والمهدية تعيش انتصاراتها الحاسمة قبل ان يقلب القدر ظهره .

وقد صدر تحقيقنا للطراز بعنوان الحرب الحبشية بالاشتراك مع الاستاذ محمد سعيد القـــدال فى ١٩٧٢م .

وقائــع شــرق الســودان :—

دونت وقائع شرق السودان منذ ان حل به عثمان دقنة فى أواخر ١٣٠٠هـ حتى وفاة المهدى فى ثلاثة خطابات موجهة الى المهدى . وقد اعدت عوضا عن سكوت عثمان عن مخابرة المهدى بما تم من وقائع وعتاب المهدى له على هذا التقصير . وقد ضاعت الأصول التى أرسلت الى المهدى ، ولكننا نملك عدة نسخ منها : هناك أولا النسخة التى غنمها ونجت فى أفافيت فى فبراير ١٨٩١ ، وهى احسنها ولكن بها سقطا يبلغ عدة أوراق . وهناك ثانيا النص الذى نقله اسماعيل الكردفانى فى سيرته (١) ، ولكن الكردفانى ينقل بتصرف ، فيسقط ما لا يريد ويحور ما يراه على غير ما يريد . وهناك ثالثا ما نقله على المهدى فى تاريخه ، وهو اقرب الى الأصل ، ولكنه ايضا يصرف النظر عن طرف . وهناك رابعا القصاصات التى جاءتنا من بارا ، وهى تفيد فى ملء الفجـــوات .

---

(١) السيرة ص ٢٤٩–٢٨٣ .

ان اهم مصدر للوقائع هو مخطوط افافيت ، وهو الآن بدار الوثائق تحت رقم مهدية ٨ / ٦ . وهو عبارة عن دفتر يتكون من ١٨ ورقة مساحتها ٣٣×٢٣ سم ويبلغ المكتوب منه ١٣ ورقة . وبه سقط بعد صفحة ٨ يبلغ فى تقديرنا ورقة ، وسقط آخر فى نهايته . وقد عثرت عليه المخابرات فى منزل المجذوب بن ابى بكر يوسف ، وكانت به نفس الفجوات التى اشرنا اليها . وعلى الفور تولت المخابرات ترجمته الى الانجليزية ، وهى نفس الترجمة التى ظهرت فى كتاب ونجت . وقد اشار اليه نعوم فى تاريخه ضمن ما يذكره عن واقعة افافيت ولكنه لم يعتمد عليه عند اعداد كتابه وانما اعتمد على ما رواه ونجت . ويلاحظ ان ترجمة المخابرات ليست حرفية ، لأنهم قصدوا المعنى اكثر من كونهم ارادوا النص . وقد تغاضت عن ترجمة ما بعد صفحة ١١ ، اى الطرف الساقط من الخطاب الثانى والخطاب الثالث .

وأهم طرف من الوقائع هو الخطاب الأول ، اذ به وصف الوقائع الكبرى ، وهو اطولها . وقد جاء كاملا فى مخطوط افافيت . ومنه نتبين نشاط عثمان دقنة منذ مقدمه الى الشرق وكيف انتشرت دعوة المهدية ، كما نتبين التداخل القبلى والطائفى والسياسى فيما كان يجرى . والخطاب الثانى موضوعه الصراع بين عثمان والأمرأر ولكن طرفا منه سقط . والخطاب الثالث يتصل بالأمرأر وكسلا وسواكن ، وقد سقط طرف منه ، وهو يخص الحباب .

وقد تولى الكاتب وصف الوقائع والحوادث بدقة واعطى بيانات دقيقة عن الجيوش والقتلى والجرحى . وواضح انه كان مدركا باحوال الشرق وما يجرى فيه كما انه كان على علم بحصيلة الوقائع ، وهذا لا يكون الا رجلا قريب الصلة بالأمير عثمان . ولا شك أن عتاب المهدى قد اثار عثمان ودفعه الى العزم على تعويض مافات بوصف دقيق ، ولابد أنه اختار لهذه المهمة خير كتابه . وهو ليس معروفا لدينا ولكنه احتمالا محمد المجذوب بن الشيخ الطاهر أو المجذوب بن ابى بكر يوسف .

وتغطى الوقائع فترة مهمة ، وهى فترة المد للمهدية فى الشرق ، فيها حوادث جسام وملاحم عظيمة . وكما قلنا فان عثمان لم يكتب خطابات الى المهدى يبين فيها وقائعه على نحو مافعل الامراء الآخرون حتى عوتب وحرر هذه المدونة ، وهكذا تكون الوقائع

هذه مصدرنا الوحيد من جهة عثمان . ولم تدون المخابرات المصرية شيئا ذا بال عن وقائع الشرق فى هذه الفترة . وهكذا تكسب الوقائع اهمية زائدة باعتبارها المصدر الوحيــد فى غياب مدونة اخــرى أو مصدر آخــر من طرف المهدية أو من طرف المخابرات ، وهو كل ما نعرفه عن حوادث الشرق فى هذه الفترة .

وقد قمنا بتحقيق الوقائع ونشرناها بعنوان : مذكرات عثمان دقنة .

الفصل الثاني

مصنفات الرسائل

المصنف كتاب يتضمن نصوصا من المهدى ، واحيانا من اتباعه أيضا ، من رسائل وخطب ومرويات وغيرها .

وتنقسم المصنفات الى طائفتين ، اولهما الطائفة المطبوعة بمطبعة الحجر ، وقد اعدت هذه الطائفة في عهد الخليفة عبد الله ، وهى تعد مصنفات اساسية وذات صبغة رسمية ، ولم يكن صدورها بعيدا عن تيارات السياسة . وأهم مافى الطائفة سلسلة المصنفات التى تتكون من اربعة اجزاء ثم مصنف مستقل عن السلسلة وهو الذى يحتوى على الوثائق التى تتعلق بمصنف الخليفة عبد الله ومقامه وعمله . اما ماعدا ذلك فكتيبات صغيرة تحتوى على منشورات من المهدى تتعلق ببعض العبادات او بمكانة الخليفة عبد الله ومنصبه . اما الطائفة الثانية فهى المصنفات المنسوخة بخط اليد ، اى المخطوطة ، وهى التى تكون الكثرة الغالبة من المصنفات المعروفة . واحسب ان ما صنف بخط اليد كان كثيرا ، الا ان بعضه قد ضاع اثر زوال دولة المهدية وسياسة الضغط على الانصار فى اوائل العهد الثنائى .

ويلاحظ ان المصنفين لم يفردوا لوثائق الخليفة عبد الله مصنفات مثلما فعلوا بوثائق المهدى ولم يطبعوا منها الا وثائق مفردة — وذلك يعنى أن التصنيف كان مكرسا لآثار المهدى فقط .

وفى السنوات التى تلت الاستقلال ظهرت مصنفات مطبوعة ، منها :

(١) كتاب العبادات للامام المهدى ، وهو صادر ضمن مكتبة الانصار التى كان السيد الصادق المهدى يطمع فى تكوينها لاحياء « التعاليم الاسلامية والتنبيه لمضار العادات السودانية ، مما ورد ذكره فى مناشير الأمام المهدى وروى عنه » . وهو يتضمن تقديما ثم مقدمة طويلة للسيد الصادق ، ثم تتلو النصوص المعنية ، وهى وصف اداء الصلاة ومنشور الصلاة وكيفية المناجاة والصيام ثم بيانات لبعض العبادات ، ثم بعض الادعيــة .

(٢) بحث نشره الدكتور حسين مؤنس بعنوان وثائق عن مهدى السودان فى حوليات كلية آداب القاهرة (١) عن المصنف المحفوظ بجامعة ييل بالولايات المتحدة الامريكية ، وقد نقل مؤنس فى نهاية دراسته جملة من النصوص .

(٣) الرسائل المتبادلة بين المهدى وحياتو بن سعيد ، وقد اعد المطبوع عدد من ابناء نيجريا المقيمين فى السودان . وهو يحتوى على عدد من المحررات المتبادلة بين المهدى وحياتو بن سعيد وبعض المناجيات ثم قصيدة فى نسب المهدى . وكان الناشرون على اتصال بالسيد عبد الرحمن المهدى ، وطبع مطبوعهم على نفقة رابطة شباب الأنصار من أبناء الفلاتة السودانيين . وقد اعدوا مطبوعا ثانيا هو « كتاب صحيح الخبر عن الامام المهدى المنتظر » لمؤلفه سعيد بن الشيخ حياتو وهو كتاب طريف فى بابه .

ليس هناك حجم معين لمصنف الرسائل يلتزم به المصنفون او عدد من المحتويات يقفون عنده وانما تتفاوت المصنفات من حيث الحجم والاتساع حسب ظروف التصنيف. هناك مثلا مصنف صغير الحجم والاتساع مما يمكن حمله فى الجيب ، وهناك مصنفات كبيرة فى الحجم الا ان صفحاتها قليلة . وبعض المصنفات تبلغ صفحاتها ما يزيد على المائة ، وبعضها يتكون من عدة أجزاء ، كل جزء منها يعتبر مجلدا ، كالسلسلة المطبوعة وفيوضات المسلمى .

التصنيف :—

وقد اتبع المصنفون طريقين لبيان تتابع الورق ، هما الترقيم والتعقيب . والترقيم هو ان يضع الكاتب على الصفحات ارقاما متتابعة ، وقد يكون ذلك توريقا اذا رقمها ورقة ورقة كما فى مصنف كمبردج ، وقد يكون تصحيفا اذا كان بالصفحة . اما التعقيب فهو ان يضع الكاتب فى اسفل القفا الكلمة التى تبدأ بها الوجنة ، أو فى نهاية الورقة الكلمة التى تبدأ بها الورقة التالية ، وهو الاساس الذى يسير عليه كتاب المخطوطات السودانيون غالبا .

وعادة يضع المصنفون تعليقاتهم فى هامش الصفحة ، والاصل فى ذلك هو

---

(١) مؤنس ، د. حسين : وثائق عن مهدى السودان ، الحوليات مجلد ٢ ، عدد ٢ سنة ١٩٥٣ .

الهامش الذى على يمين القفا والذى على يسار الوجنة ، الا ان بعضهم يستعملون الهوامش الأخرى بدافع الغفلة او عدم الالتزام . ويضع المصنفون فى الهامش البيانات المتصلة بمعارضة النصوص كالسقط والزيادة والالحاق والاستدراك والتصحيح ، وقد اتخذ بعضهم علامات للهامش والمتن لتدل على نوع التصرف او صفة التعليق . وترد فى الهامش ايضا تعليقات القراء الذين وقفوا على المصنف ، وبعض البيانات والاشارات المختلفة كأسماء الكتاب ، او الاشارة الى أجزاء الرسائل ، او المواقف ، او عدد الرسائل . اما التعليقات المتصلة بالرسائل ذاتها كالمقدمات التعريفية او ظروف كتابتها فان مكانها فى الاصل هو المتن ، غير انها ترد احيانا فى الهامش .

ولا يعطى المصنفون - الا فى حالات قليلة - معلومات عن أنفسهم وعن ظروف التأليف او مصدر المحررات ، وهذا يضع الباحث فى وضع ضعيف ازاء الخلفية التاريخية والمصدرية للمصنف . ومن القلائل الذين ذكروا مثل هذه البيانات عوض الكريم المسلمى ، فهو يذكر اسمه ومكان التصنيف وتاريخه فى نهاية مصنفاته . ومنهم محمد المجذوب بن الطاهر المجذوب الذى جعل لمصنفه مقدمتين يذكر فيهما ظروف التصنيف وأغراضه ومنحاه .

وعادة لا يطلق المصنفون على مصنفاتهم اسماء او عناوين محددة تميز هذه من تلك ، والواقع ان هذا يشكل عقبة ، اذ يفتقر الباحث الى اداة معتمدة يشير بها الى مصنف دون غيره فيضطر الى ابتكار اسماء او ارقام يشير بها اليه . وهناك مصنفات قليلة يطلق عليها اصحابها اسماء مبهمة نحو « كتاب الانذارات » و« كتاب الاحكام والآداب » وهما مطبوعان ، ومصنف «الفيوضات الوهبية لصاحب الخلافة المصطفوية محمد المهدى المنتظر » لعوض الكريم المسلمى ومصنف « الفيوضات الوهبية فى مراســلات وواردات المهدية » للمجذوب ابى بكر يوسف ومصنف « الفيوضات الالهية لمحمد المجذوب ابن الطاهر المجذوب . ولكن يؤخذ على هذه العناوين انها غير محددة ، اذ انها تشير الى نوع المحررات وليس الى المصنف بعينه . وقد تكون هناك عدة مصنفات فى باب واحد من المحررات . ولفظ الفيوضات ايضا لا يصلح عنوانا للتحديد ، لأن الفيوضات لفظ يشير الى طبيعة محررات المهدى كما يراها اتباعه . وقد استعمله المسلمى ومحمد المجذوب والمجذوب بن ابى بكر فى هذا المعنى لا للدلالة على التسمية . يقول محمد المجذوب فى مقدمة مصنفه : « وجمع نذر من الفيوضات

الوهبية فى مآثر واردات المهدية ، وهى مراسلاته للجهات ومنشوراته للاحباب والولاة وخطبه الزواجر » الخ . ومن قبيل ذلك ايضا لفظ النفحة الذى اطلقه الشيخ حسين الجبرى على مصنفه .

ويقف المرء احيانا على صفحات خالية من الكتابة كما هو الحال فى الجزء الرابع من فيوضات المسلمى ، ومصنف عثمان دقنة ومصنف الصادق ومصنف بيل ، وهى تعنى ان الكاتب قد اجل الكتابة فيها لسبب من الاسباب .

ويضع أغلب المصنفين خطا او خطين بين الهامش والجزء المكتوب من الصفحة بحيث يكون المكتوب محاطا داخل مستطيل، واحيانا يكون هذا الخط بالحبر الملون وبالاحمر فى الغالب . ويضع البعض فواصل واضحة بين القطعة والأخرى فى حين لا يهتم البعض بهذه الفواصل . فالسلسلة المطبوعة من المصنفات تضع خطا او خطين بين الرسالة والاخرى ،ودفتر الحدود والاحكام يختم كل قطعة فى شكل مثلث ويبدأ القطعة التالية فى صفحة جديدة . اما مصنف النجومى ومصنف الصادق ومصنفات المسلمى فان محتوياتها ترد واحدة وراء الاخرى دون فاصلة ، وقد يفوت على الباحث المتعجل ان ينتبه الى بعض محتوياتها .

وفى بعض الاحيان يقدم المصنفون بعض القطع بمقدمات صغيرة تدور حول امور مثل المرسل والمرسل اليه وصفة المحرر ونوعه وظروف الكتابة أو المكان الذى وجد فيه المحرر ، غير ان مضامين المقدمة تتفاوت من مكان الى آخر حسب اهتمام المصنف وما اتيح له من بيانات . وقد لوحظ ان بعض المقدمات تتكرر حرفيا فى عدد من المصنفات ، وهذا فى الواقع يعنى ان هناك رابطة ما بين هذه المصنفات : اما ان المصنفين كانوا على اتصال ، واما ان احدهم نقل عن الآخر ، واما ان احدهم اعتمد على نفس الكراسات والمصادر التى اعتمد عليها الثانى ، او انهما يستمدان من مراجع ذات مصدر واحد . ويذكر بعض المصنفين لفظ «صورته» او «صورة منشور» مشيرين بذلك الى الفرق بين الاصول الصادرة عن ديوان المهدى وبين صورها التى ينقلونها ، وهذا تصرف يدل على فهم حسن . كذلك يشيرون الى المحررات بقولهم «بخط الامام» او «بخطه» أو «بخط الاخوان» او «بخط الاصحاب» ليفرقوا بين ما كتبه المهدى بنفسه وبين ما كتبه الكتاب واصدروه باسمه . واحيانا

يوردون وصفا لبعض جوانب المحرر كأن يقولوا «بختمه» ، اى ان الوثيقة التى نقل عنها مختومة بختم المهدى ، وهذا قد يدل على ان مصدره وثيقة اصلية والا فانه يكون قد نقل هذا حرفيا عن غيره .

وينقل المصنفون بعض الحواشى فى الوقت الذى يغفلون فيه عن المحررات نفسها . ومثال ذلك التحشية لخطاب المهدى الى طه عبد الباقى (١) وتحشية المهدى لخطابه الى حمدان ابى عنجه (٢) . ويعـــزى السبب فى ذلك الى ان المصنفين كانـــوا ينقلون الحواشى التى كتبها المهدى بنفسه ويتركون الكتاب الاصلى الذى كتبه الكتاب لأن اهتمامهم كان منصبا على آثار المهدى .

وليس يبدو لاول وهلة ان هناك خطة معينة يتبعها المصنفون عند ترتيب المحررات الا اذا كانت المحررات مسلسلة حسب تتابعها التاريخى على النحو الذى جرى عليه ترتيب محتويات كتاب الانذارات المطبوع ومصنف الآثار ، ولكن الترتيب الزمنى ليس فى الواقع الا اسلوبا من أساليب الترتيب .ففى مصنف النجومى نجد خطا من المناسبات يربط بين محتوياته فى حين نجد ان مصنف الجزء الاول من المصنفات المطبوعة اختط ترتيبا مزدوجا ، وهو مراعاة تاريخ الصدور وتوافق الموضوع . وربما كان اوضح عمليات الترتيب هو تقسيم المصنف الى عدد من الاجزاء ، اذ لابد ان يسبق ذلك تصنيف المحررات الى ابواب بحيث يكون كل جزء مختصا بباب . فالجزء الاول من المصنفات المطبوعة خاص بالمنشورات العامة والثانى بالانذارات والثالث بالآداب والاحكام والرابع بخطب المهدى . وقريب من هذا الترتيب اجزاء فيوضات المسلمى . ومن دلائل الترتيب السابق للتصنيف ان بعض المصنفين يضعون الاعمال الدينية الخالصة كالراتب والادعية والعبادات والمنشورات المتصلة بها فى أول مصنفاتهم ، ثم يأتون بعدها بالانـــذارات ومحررات الدعايـــة الى الله . وقد جرى على ذلك المسلمى ومصنف الصادق . وقد اشار الاخير الى التزامه لهذه القاعدة فقال « ولنختم الاذكار والأدعية بصورة سبب مشروعية الصلاة على النبى» (٣) ،

---

(١) المرشد رقم ٩١٤ .

(٢) المرشد رقم ٦٦٢ .

(٣) مصنف صادق ص ٨٨ .

اذ يتضح من قوله هذا انه قصد ان يضع الادعية والاذكار جملة واحدة فى مفتتح مصنفه وانه اضاف الرسالة التالية لاتصالها بالادعية لكونها عن الصلاة على النبى .
وقد أحس محمد المجذوب بأهمية الترتيب والتبويب فقال فى مقدمة مصنفه المحفوظ بالمكتبة الوطنية بباريس : « هذا وانى لم اراع الاسبق » . ثم ذكر انه قسم مصنفه الى ستة أجزاء وجعل فى كل جزء ما يتضاها ويتشابه ، وانه فصل الاجزاء عن بعضها لكى يضيف الى كل ما يجده فى بابه . ومن باب الترتيب والتصنيف وضع المحررات الموجهة الى الامراء فى مؤخرة الجزء الثالث من فيوضات المسلمى ، اذ ان هذه المحررات اقل اهمية من المنشورات العامة والانذارات وما يتصل بنظم الحكم .

ويضع المصنفون الاسئلة الموجهة الى المهدى قبل رد المهدى عليها مباشرة ، غير ان المسلمى اتبع اساوبا مغايرا فى مصنفه الذى كان بحوزة المرحوم محمد المهدى ابن الخليفة عبد الله ، اذ انه يورد الاسئلة جملة واحدة ثم يورد بعد ذلك الردود متخذا نفس الترتيب ، واحسب ان ذلك من فرط الفصل بين ماهو من المهدى وماهو من غيره . وكان المصنفون فى اول امرهم لا يهتمون بنقل المحررات الصادرة من غير المهدى . وربما كانوا يعتبرون اسئلة الانصار مجرد ملاحق لردود المهدى ، فالجزء الاول من المصنفات المطبوعة يضع المحرر الوحيد الذى ينقله من غير المهدى فى الهامش ، وقد بلغت جملة ما نقلته الاجزاء المطبوعة من هذه الطائفة من المحررات ١٦ محررا ترد كلها فى الجزء الثالث ، ويتكرر واحد منها فى الجزء الاول . ومن هنا يبدو ان الاهتمام بها فى الجزء الثالث راجع الى العلاقة الوثيقة بين الفتاوى الواردة فى هذا الجزء وبين الأسئلة التى وجهت الى المهدى بشأنها . فمحررات غير المهدى فى هذا الجزء ليست مقصودة لنفسها وانما هى ملاحق للفتاوى. ومع تقدم الزمن واتساع مدى محتويات المصنفات صرنا نجد مزيدا من محررات الآخرين كمحررات الخليفة عبد الله وخطابات حياتو بن سعيد . كذلك اتسع باب المصنفات للروايات المنسوبة الى المهدى والحضرات والادعية بعد ان كانت وقفا على الرسائل . وبمعنى آخر فان مدارك المصنفين قد توسعت وصارت نظرتهم شاملة لكل آثار المهدى ومعاونيه بعد ان كانت وقفا على رسائله وحدها . وكان اول ما ظهر من وثائق الآخرين المحررات الموجهة الى المهدى فى شكل استفسار ، وكانت هذه دائما تأتى قبل ردود المهدى

عليها . ثم جاءت الوثائق التى ارسلها الخليفة عبد الله الى عملائه ، ثم محررات قاضى الاسلام الصادرة فى شكل فتاوى . ومما يلفت النظر ان الرسائل التى وجهها المهدى الى الخليفة عبد الله وتلك التى كتبها عن مقامه ومنصبه قد بدأت تظهر شيئا فشيئا وتزداد مع مضى الوقت . ومع ذلك فان المصنف الذى جمع فيه الخليفة هذه الرسائل لم يتضمن كل ما صدر فى هذا الباب . وقد تبع الاهتمام برسائل الخليفة الاهتمام بالمحررات التى وجهها المهدى الى الخليفتين على الحلو ومحمد شريف ثم محرراته الى أحمد سليمان وغيره من كبار الانصار .

ظهـــور المصنـــف :ـ

لقد اهتم انصار المهدى بمحررات المهدى وخاصة ما يعالج منها الأمور المتصلة بالدعوة ونظمها وعنوا بنسخها وحفظها منذ وقت مبكر . ولما نجحت الدعوة وصارت بعض الاقاليم تحت حكم المهدية وصدرت المنشورات التنظيمية التى تعالج شئون الدعوة والحكم والادارة اصبح لزاما على عمال المهدية وامرائها ان يحتفظوا بهذه المنشورات ، لأن نظام الحكم كان يقوم عليها ، ولهذا ظل المهدى يشير فى مكاتباته اليهم الى اهمية الالتزام بالتعاليم التى بثها فى منشوراته ويؤكد ان هذا الالتزام شرط من شروط الامارة والعمالـــة .

وكان الحكم والنظام الاجتماعى فى المهدية يقومان على القرآن والحديث ومنشورات المهدى ، وتعتبر الاخيرة فى عرفهم الفقهى مفسرة وموضحة للقرآن والحديث ومبينة لاحكام الدين والنظام الاسلامى . وقد عدت المناشير ـــ وبحق ـــ ركنا مهما من اركان المهدية ، لأن المهدية تقوم اساسا على القواعد والمبادئ التى تتضمنها المنشورات ، خاصة ولم يضع المهدى رسالة جامعة او كتابا يشرح فيه مذهبه ويجمع فيه مقاصده ومراميه . فالمنشورات هى الاساس الوحيد الذى ينسب الى المهدى بطريق مباشر . ويعتبر الانصار ان المهدى كان على علاقة خاصة ، فوق علاقة البشر ، بالمولى سبحانه وتعالى وبالرسول ، فهو يتلقى الارشاد والحكم عن الرسول اما مباشرة فى الحضرات النبوية واما عن طريق غير مباشر بواسطة الخضر ، وعلى ذلك فان الاحكام والتوجيهات الواردة فى مناشيره تعتبر تعبيرا عن رغبات الرسول وتوجيهاته ، وهى على هذا تسمو على كل ما كتبه البشر . وبالاضافة الى ذلك فان

المهدى يفيدنا بأنه يتلقى الارشاد والتوجيه عن الله سبحانه وتعالى بغير حس أو لمس او صوت او نظر ، وهو يهتدى الى الاحكام الصائبة عن طريق الالهام . ولهذا قالوا انه معصوم عن الخطأ وان الرسول لو كان حيا لما اصدر الا هذا الذى يصدره المهدى . وقد ذهب علماؤهم الى ان المنشورات من كلام الله وانها كلم مقدس ، ومن هؤلاء الحسين ابراهيم زهرا الذى يقول فى رسالته «ان المهدى يعتبر معبرا عما يلقيه الله اليه من كلام فيستفاد من هذا ان جملة المنشورات الصادرة منه عليه السلام ترجمة عن كلام الله تعالى الذى يلقيه اليه فى قلبه وان ارواح تلك المنشورات كلام الله تعالى ، فيجب حينئذ وجوبا مؤكدا العمل بذلك وجعله فى المرتبة العالية من الاعتناء به والاعتبار له ونقله وحفظه لما علمت ان روحه كلام الله تعالى» (١) .

وبالغاء الطرق الصوفية التى كانت تستحوذ على النشاط الدينى وتوقف نشاط المدارس الدينية التقليدية التى كانت تغذى المعرفة الدينية والحظر على النشاط العقلى للعلماء ومنع تداول الكتب وابطال العمل بالمذاهب ، فان مناشيره قد اصبحت المصدر الدينى الوحيد وصارت تقوم مقام التفاسير والمؤلفات الدينية .

وكان المهدى فى نظر أتباعه رجلا مقدسا وبالتالى اضفيت روح القداسة على آثاره المكتوبة وكل ما هو منسوب اليه . وقد عد حمل محرراته نوعا من التبرك . ولهذا نجد مصنفات صغيرة يمكن حملها فى الجيب . وقد عد بعض المصنفين تصنيف المنشورات تبركا وعملا دينيا عظيما . ولما توفى الامام المهدى ازدادت قدسيته وصار اتباعه يسعون لما كتبه وما خلفه من آثار ، وهذه عادة من طبيعة البشر ، اذ تزداد قيمة الزعماء فى نظر الاتباع وتتضخم عظمتهم فى اعينهم بعد ان ينتقلوا عن مسرح الحياة .

وقد كان بقاء وانتظام النظام الذى بناه المهدى وخلفه عليه الخليفة عبد الله مرتبطين اشد الارتباط ببقاء الدعوة الدينية واستمرارها وايمان الناس برسالة المهدى واستمرار حماسهم لها ، ولهذا فقد كانت مصلحة النظام والدعوة اولا ومصلحة الخليفة عبد الله الخاصة ثانيا تستدعيان جمع آثار المهدى والمحافظة عليها ونشرها فى اوسع نطاق . وقد عبر الخليفة عبد الله عن ذلك بقوله : «ومن جملة موجبات التمسك

---

(١) الآيات البينات ص ١٣-١٤ .

بسكته (يقصد المهدى) حفظ جميع ماصدر من فمه الشريف وخصوصا ما سطره ببنانه من المواعظ والأحكام» (١) . ومن ناحية أخرى فان حماس الخليفة عبد الله لآثار المهدى ومنشوراته ونشرها بين الناس كان من شأنه ان يظهره بمظهر الرجل الذى تستمر على يده الدعوة المهدية والرجل الذى يحافظ على تراث المهدى ، وقد كان ذلك عملا عظيما ومهمة مقدسة فى اعين المتدينين المتحمسين للجانب الدينى من حركة المهدية . وربما قصد الخليفة عبد الله من وراء طبع المصنفات الصغيرة التى تتضمن اعمالا دينية خالصة كدعوة رمضان ورسالة الصيام والادعية ان يدعو هؤلاء المتحمسين الى جانبه وان يثير فيهم الحماس الدينى .

وكانت هناك اسباب سياسية مباشرة تتعلق بموقف الخليفة وطبيعة خلافته ، اذ ليس مصادفة فقط ان تصدر مصنفات تحتوى على منشورات تعالج مركز الخليفة عبد الله ومقامه عندما احتدم النزاع بينه وبين الاشراف فى اوائل حكمه ، وان تصدر مصنفات اخرى عندما تجدد النزاع بين الطرفين فى سنة ١٨٩١ . وقد اهتم الخليفة منذ بداية صدور المصنفات المطبوعة بنشر الرسائل التى كتبها المهدى عنه وعن مقامه بين الناس ومرتبته العالية ، ولاشك انه كان يبغى من وراء ذلك السند الدينى عن طريق الاحتكام الى النصوص الصادرة من المهدى شخصيا . وليس هناك من شك ايضا فى ان موقف الخليفة عبد الله من هذا الجانب كان قويا . وقد جمع الخليفة عبد الله عددا من هذه المنشورات التى تبين مكانته ومقامه وتحدد موقف اتباعه وعددا من المحررات التى وجهها اليه المهدى بصفته نائبه ثم طبعها فى مصنف. وقد صدرت طبعة ثانية لهذا المصنف فى اواخر المهدية .

ومن اثر السياسة على التصنيف ان الطبعة الثانية من كتاب الانذارات قد اسقطت الحاشية التى اثنى فيها المهدى على محمد خالد زقل وواساه فيها اثر تدمير منزله بدارفور بينما نقلتها الطبعة الاولى من هذا الكتاب ، والواقع ان هذه الحاشية هى القطعة الوحيدة التى اغفلها مصنف الطبعة الثانية من محتويات الطبعة الاولى ، بل ان الحاشية لا ترد فى مطبوع آخر . ولعلنا ندرك سبب هذا ، فقد كان محمد خالد

---

(١) خطابه الى اهالى كردفان عن مهمة محمد الامين الوارد أدناه .

من كبار الاشراف الذين ناوأوا الخليفة ولم يكن من الحكمة ان يذكر اسمه فى مطبوع على نحو يفيده .

ويضاف الى هذه العوامل عامل آخر يتصل بالحركة الثقافية وهو موقف النساخ الذين كانوا ينسخون المخطوطات ويتخذون النسخ حرفة يتكسبون بها ، فقد اتجه هؤلاء الى نسخ منشورات المهدى وتصنيفها بعد ان حظر تداول الكتب وتوقف نسخ المخطوطات وبارت تجارتهم التى نشأوا عليها . وقد افاد دخول هؤلاء حركة تصنيف الرسائل ايما فائدة لأنهم حملوا معهم النقل المنهجى والنسخ على اصول فصار المصنف على ايديهم اقرب الى عمل المحترفين منه الى عمل المتحمسين وحسب .

وقد بدأت حركة جمع محررات المهدى منذ ان كان المهدى على قيد الحياة ، وهاهو المسلمى يقول فى آخر فيوضاته انه بدأ جمع المحررات منذ ان كان المهدى بالابيض . غير ان الخطوة الحاسمة فى حركة الجمع والتصنيف قد بدأت على يد الخليفة عبد الله بعد وفاة المهدى بقليل . والحق انه لولا ما بذل الخليفة لضاع أغلب آثار المهـــدى .

ففى أواسط سنة ١٣٠٣هـ ١٨٨٦م أرسل الخليفة عبد الله الى كردفان محمد الأمـــين أحمد ليجمع محررات المهـــدى التى كانت بايدى الناس وحمله الخطاب التالى الى اهالى كردفان بخصوص مهمته :

« وبعد فمن عبد ربه خليفة المهدى عليه السلام الى احبابه انصار الدين بكردفان عملا ونقبا وغيرهم ، تولاهم الله وحفهم برضاه ، آمين . احبابى بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فنعرفكم انه بالنظر لكون الاجتهاد فى أمور الدين مطلوب ، ومعلوم ان قدوتنا ودليلنا الى ربنا هو المهدى عليه السلام ، وخير الهدى ماجاءنا به عن جده المصطفى عليه السلام . ومن جملة موجبات التمسك بسكته حفظ جميع ماصدر من فمه الشريف وخصوصا ما سطره ببنانه من المواعظ والاحكام ، فقد اقتضى نظرنا توجيه الحبيب محمد الأمين احد نواب المهدية ببقعة الابيض للبحث عن جميع ما صدر من المهدى عليه السلام بخطة الشريف وجمعه والحضور به لطرفنا ، نظرا لكون ذلك الحبيب ممن له الدراية التامة بخط المهدى عيه السلام . فبحال وصوله

بطرفكم ، احبابى ، فينبغى ان كل من يكون بطرفه ورقة بخط المهدى عليه السلام فى اى قضية او مجرد مذاكرة فليسلمها لهذا الحبيب بعد نقل صورتها ، وخصوصا الاوراق التى كانت بطرف الحبيب ضو الدين ، فليأت بها جميعها بطرفنا ، ولا ينبغى ان يكتم احد منكم شيئا من ذلك عن هذا الحبيب ، ولو كانت الورقة فى امر خصوصى فليسلمها له ويأخذ صورتها ، حيث ان المقصود حفظ جميع الاوراق التى صدرت من المهدى عليه السلام بخطه الشريف ، فان ذلك من الامور المهمة فى الدين ، وحفظه من الشتات والانتفاع بما فيها مما لابد منه . فابذلوا جهدكم ، احبابى ، فى مساعدة هذا الحبيب فى ذلك الامر والتفتيش معه لخط المهدى عليه السلام فى اى محل وبأى صفة . فان المعهود ان خطه عليه السلام يوجد بتلك الجهة كثيرا ، فلا تقصروا فى ذلك ، شكر الله سعيكم ، هذا والسلام ، ٢ جماد أول سنة ١٣٠٣» (١) . ويبدو ان حركة الجمع هذه مرتبطة بالرغبة فى اصدار المصنفات المطبوعة .

وفى نفس الوقت بدأت المصنفات المطبوعة فى الظهور ،وكان أول ماظهر المصنفات الدينية الخالصة كالراتب ووصف العبادات وماهو متصل بمنصب الخليفة عبد الله . ثم ظهرت سلسلة المصنفات المطبوعة فى النصف الثانى من سنة ١٣٠٤هـ/١٨٨٧م . وقد اقتدى المصنفون ، من بعد ، بهذه السلسلة واخذوا عنها طابع المصنف . ثم تلا ذلك طبع الكتب التى عالجت أمر المهدية ودافعت عنها كرسالة زهرا ورسالة العبادى ورسالة العوام . كذلك طبع طرف من كتاب فتوح الشام للواقدى . وقد كلف الطاهر التاتاى من قبل الخليفة بتدوين ما كان يلقيه المهدى فى مجالسه ، فتولى التاتاى هذه المهمة ووضع مجالسه ، وهو اقدم المجالس . وقد كلف الخليفة عبد الله ايضا ابابكر علوان بوضع كتاب فى المجالس يدون فيه احاديث المهدى ، وقد تم له ما أراد . ولكننا لم نظفر بهذا العمل الى الآن . وفى نفس الوقت اعد اسماعيل عبد القادر الكردفانى بتكليف من الخليفة عبد الله سفره القيم فى سيرة المهدى وهو سعادة المستهدى بسيرة الامام المهدى وسفره الآخر وهو الطراز المنقوش ببشرى قتل يوحنا ملك الحبوش.

لم يظهر مصنف الرسائل اذا عفوا وانما كانت هناك اسباب ودواعى اجتماعية وسياسية وفكرية تدعو الى ظهوره وتجعله اشباعا لرغبات متعددة . واذا ما نظرنا الى

---

(١) صادر رقم ٩ ص ٢٦١ .

حركة جمع التراث التي اعقبت وفاة المهدي والتي بينا عناصرها الرئيسية في السطور السالفة فاننا سنجد ان مصنف الرسائل يشكل العصب الرئيسي لتلك الحركة ، ليس لأنه المستودع الرئيسي لما كتبه المهدي من الرسائل والمنشورات فحسب ، وانما لأن الجانب الأكبر من نشاط الكتاب والمصنفين كان منصرفا اليه ايضا .

نمـــاذج :ـ

١ ـ الكراسة : الكراسة عبارة عن جملة من الاوراق في شكل دفتر أو ملازم ينقل فيها صاحبها عددا من الوثائق ، وكان من الممكن ان نعدها مصنفا صغيرا لولا أنها عمل مؤقت لا يهتم صاحبه كثيرا بنظم التدوين والتأنق والتبويب وما الى ذلك مما يعنى به مصنفو المصنفات . والكراسة نوعان ، نوع معد لاغراض ادارية ، وهذا النوع في الغالب يسجل وثائق متعلقة بموضوع او شخص حسب القضية التي يهتم بها المصنف ، وربما كان هذا اقدم انواع الكراسات وان كان ما بلغنا من نماذجه قليل جدا . اما النوع الثاني فعبارة عن توطئة للتصنيف المنظم ، وكان هم الكاتب منه هو تدوين ما يقف عليه من الوثائق توطئة للنقل منها في المصنفات . وقد اشار الى مثل ذلك ابراهيم رمضان امين بيت المال في خطاب الى مختار بادى امير المطبعة فقال : «متى طلب منكم الحبيب عبد الغنى كراس من منشورات الاحكام تعطوه اياه لنقله وعودته واخذ خلافه حتى ينتهى نقل ذلك المجموع المكتوب» (١).

وقد لعبت الكراسة دورا خطيرا في حركة تصنيف المصنفات لأن مدى ما يجمعه المصنف من الكراسات هو الذى كان يحدد ابعاد مصنفه واتساعه ، ولأن طبيعة محتويات المصنف ولونه كانت تتشكل حسب النماذج التي تتضمنها كراساته. ولما كان المصنفون يتبادلون هذه الكراسات أو ينقلون عن بعضهم البعض فان اثرها بقي واضحا في المصنفات المختلفة ، وقد دلت الجيوب المتشابهة في المصنفات الخطية على مدى ارتباط مصنفيها ، ولعل اقرب مثال لتلك الجيوب المتشابهه ما نجده في مصنف الصادق ومصنف المسلمى ، اى الفيوضات ، ومصنف محمد المهدى ان الوثائق ١٤١ الى ١٥٨ الواردة في الصادق ما بين صفحة ٣٢٢ و٣٣٦ هى نفس الوثائق ٨٢ الى ٩٩ الـــواردة في مصنف محمد المهدى ما بين ٤١٦ و٤٤٨ وهى نفس ١٣٢ الى ١٤٩ الواردة في الجزء الثاني من الفيوضات ما بين صفحة ٢٠٢ و٢١٢. ويمكننا

(١) ابراهيم رمضان الى مختار بادى في ١٣ شعبان ١٣٠٤ ، مهدية ٨٦/٦/٢ .

ايضا ان ندون التعليقات والبيانات التالية التى تتكرر فى المصنفات الثلاثة : ان المصنفات الثلاثة تقدم رسالة المهدى الى صالح الملك التى تبدأ بقوله : ان هذه الدار منقضية بقولها : «صورة ما كتبه عليه السلام لصالح الملك الشايقى حالما كان المذكور بالسجن (او فى السجن) حين اراد ان يفرج عليه بعد ان قدم المذكور عرضا له عليه السلام يرجو الافراج عنه »(١) . وجاء ايضا قبل خطاب المهدى الى الخليفة عبد الله الذى يبدأ بقوله : ان الأمور مقدرة ، القول التالى فى المصنفات الثلاثة : صورة ما كتبه عليه السلام له يأمره فيه بترك المنازعة التى حصلت مع العامل محمد عثمان ابى قرجة وباقى العملاء بديم الهوى محل محاصرة جماعة عبد الرحمن النجومى للخرطوم وذلك حين سعت الوشاة فى ضبط الحبيب ابى قرجة المذكور والمكاتبة التى كتبها عليه السلام لابى قرجة يبشره فيها ويذاكره حين رغب التخلى عن الامارة هى من سبب ذلك وستأتى صورتها فى الجزء الثانى ان شاء الله تعالى وهى التى ذكرها عليه السلام لخليفته رضى الله عنه بقوله ـــ ولذلك كتبت الجواب الذى وصلك على يد محمد فوزى الخ (٢) . وفى المصنفات الثلاثة نفس المقدمة للرسالة التى تبدأ بقوله : «حيث ان الايام قد قاصرت والاشتياق الى الله اشتد » ، وهى : «صورة ما كتبه عليه السلام له بأمره فيه بسرعة ارسال الجبخانة الى فتوح مدينة سنار صحبة احد ذو همة ، يقول احمد النور فى هذا الخطاب اشارة الى انه عليه السلام نعى نفسه الكريمة وفيه انذار بانتقاله عليه السلام الى دار كرامته واخبار شدة اشتياقه الى محبوبه الذى هجر من اجله كلما (كل ما) سواه كما يفهم من تلاوته ، وادل دليل على ذلك انه تحرر فى شعبان وانتقل عليه السلام فى رمضان»(٣) . وجاء بعد نهاية الرسالة التى تبدأ بقوله : «حيث ان دوكة من الاصحاب» ، القول التالى فى المصنفات الثلاثة :« انتهى ماوجد جملة واحدة من مخاطباته عليه السلام لسيدنا خليفة الصديق رضى الله عنه وهذه صورة منشور كتبه عليه السلام فى ايام واقعة الاخ دوكة المذكور فى النهى عن الشماته اذا وقع على احد حد وطهر منه او تاب الخ فأحببنا كتبه هنا لمناسبته وان وجدنا زيادة من مخاطباته عليه السلام لخليفته المذكور سنضعها فى مناسبتها ان شاء الله تعالى» (٤) .

---

(١) مصنف صادق ، ص ٣٢٢ ، مصنف مهدى ص ٤١٦ ، فيوضات المسلمى ج ٢ ص ٢٠٢ .

(٢) مصنف صادق ٣٢٣-٣٢٤ ، مصنف مهدى ص ٤١٨-٤١٩ ، فيوضات المسلمى ج٢ ص ٢٠٢-٢٠٣.

(٣) مصنف صادق ص ٣٣٠ ، مصنف مهدى ٤٣٣-٤٣٤ ، فيوضات المسلمى ج ٢ ص ٢٠٧ .

(٤) مصنف صادق ص ٣٣٠ ، مصنف مهدى ص ٤٣٦ ، فيوضات المسلمى ج ١ ص ٢١١ .

كذلك نجد في مصنف النجومي بعض تعليقات ومقدمات مصدرها كراسات اعتمد عليها المصنف . ومن ذلك قوله : « قف منشورة الخرطوم، يعني التي نشرها وارسلها للفقراء المحاصرين الخرطوم وغيرهم» (١) .

وقد بلغنا من النوع الاول من الكراسة ، اى الكراسة التي تعد لأغراض الادارة ، عدد قليل . هناك كراسة تتكون من ورقتين وتحتوى على عدد من محررات ارسلها الأمير مساعد قيدوم عندما كان في دنقلا الى الأمير عبد الحليم مساعد الذى كان يتولى قيادة القوة المرابطة في صرص ، بالقرب من حلفا . لقد صدرت هذه المحررات في اواخر سنة ١٣٠٥هـ وقد نقلها كاتب قيدوم بخط يده . وهو يحذف منها البيانات التوثيقية كالمرسل اليه والديباجة والبداية ويذكر في مقدمتها موضوع المحرر والتاريخ والمرسل اليه (٢) وهذا يعني انه يريد المحررات كمفكرة له لغرض ادارى . وهناك كراسات اخرى ثلاثة اعدها كتاب الخليفة عبد الله لاغراض ادارية ايضا . منها كراسة تتكون من عشر صفحات وتحتوى على خمس رسائل صادرة من الخليفة عبد الله الى على سعد عامل المهدية بشندى في سنة ١٣٠٣هـ .ان ابعاد الصفحة في هذه الكراسة تبلغ ٢٥×١٧ سم وتبلغ مسطرها ٢٤ سطرا . ومنها كراسة تتكون من اربع صفحات تبلغ ٢٥×١٤ سم ومسطرتها ٢٣ سطرا ، وقد نقل الكاتب فيها ثلاث رسائل صادرة من الخليفة عبد الله الى بعض اعوان المرضى ابى روف في موضوعى الزكاة والجهاد ، وهى صادرة في ١٣٠٣هـ . اما الكراسة الثالثة فتتكون من ١٢ صفحة ، طول الصفحة منها ٢٥ سم وعرضها ١٧ سم ، ومسطرتها ٢٦ سطرا ، وهى تحتوى على تسع رسائل صادرة من الخليفة عبد الله في سنة ١٣٠٤هـ الى محمد عبد الكريم عامل المهدية بسنار ورسالة واحدة صادرة من الخليفة عبد الله الى الامير محمد ود شيخ ادريس . وقد نقل الكتاب المحررات الواردة في الكراسات الثلاثة من سجل الصادر رقم (٩) واوضحوا امام كل محرر موضعه في السجل برقم الوجه اى الصفحة .

---

(١) توشكى ص ١٦٤ .

(٢) مهدية / قسم ١ ، هذا المجلد غير مرقم — استدللنا على الراسل من خط الكاتب لأنه قريب الشبه الى خط كاتب مساعد قيدوم ، وقد جاء في خطاب من عبد الحليم مساعد الى مساعد قيدوم في غرة رجب ١٣٠٥ ما يفيد بأن محتويات بعض الوثائق كانت مثار أخذ ورد بينهما .

اما النوع الثانى من الكراسة فهو الاهم بالنسبة لدراستنا عن المصنفات ، لكونه قد اعد لينسخ منه المصنفون ، وقد وقفنا على عدد كبير من هذا النوع ولكننا بدافع الايجاز سنشير الى عدد قليل منه :

كراسة كانت بداخل مصنف الفيوضات للمسلمي المحفوظ بمكتبة جامعة درهام ، وهو الآن تحت رقم ١/١/١٠٠ . وتتكون هذه الكراسة من ٢٧ صفحة وتحتوى على ٣١ قطعة كلها من المهدى . وقد نقل الكاتب هذه المحررات من الاصول حرفيا ، وآية ذلك ان اسم المهدى يرد فى بعض المحررات على الوجه الذى كان به فى اوائل المهدية ، فالاسم يأتى فى مؤخرة المحرر لا فى أوله وهو الاسم المركب : محمد احمد ابن عبد الله ، لا الاسم الذى اعتمده مؤخرا : محمد المهدى ابن عبد الله (١) .

وقد وجدنا بداخل نفس المصنف عددا من الوثائق الاصلية ، ولسنا نشك فى ان المسلمى كان ينقل فى مصنفه الكبير من الكراسة ومن هذه الوثائق. وقد عثرنا على كراسة كانت بداخل مصنف الصادق ، وهى من مصادر كاتب الصادق التى اعتمد عليها .

المصنفـــات المطبـــوعة :

تتكون سلسلة الاجزاء المطبوعة من المنشورات من اربعة اجزاء ، غير ان الجزء الثانى صدرت منه طبعتان مختلفتان ، ولهذا يحق لنا ان نقول ان السلسلة تبلغ خمسة مجلدات . ويتضمن الجزء الاول المنشورات التى تعالج الأسس الرئيسية التى تقوم عليها حركة المهدى ، كالدعوة واتجاهاتها العامة والصلاة والجهاد ونحو ذلك من الأمور الأساسية للدعوة . اما الثانى فيتضمن الوثائق الموجهة الى افراد وجماعات صغيرة ، وموضوع هذا الجزء هو المسائل الفرعية المتصلة بقطاعات معينة من المجتمع وخاصة المعارضين للمهدية والمناوئين لها ، وقد اطلق على هذا الجزء لفظ «الانذارات» واشتهر به لهذا السبب ، بيد ان الجزء يتضمن بجانب الانذارات للمعارضين عددا من المحررات الموجهة الى كبار اتباع المهدى . وقد رتبت الطبعة الاولى منه على اساس الموضوع ، ثم صرف النظر عنها قبل ان تبلغ كمالها وبدئ فى الطبعة الثانية ، وهذه الطبعة مرتبة حسب تتابع الرسائل زمنيا . ويرد فى الطبعة الثانية كل ما فى الطبعة الاولى خلا التعليق الذى كتبه المهدى على عرض محمد خالد زقل ، وهذا التعليق لا يرد فى

---

(١) وثيقة ٩ ص ١١ ، ووثيقة ١٠ ص ١٢ .

أي مطبوع آخر ، ونحسب ان تجاهل المطبوعات لهذا التعليق يعود لأسباب سياسية لكون ان محمد خالد من الاشراف الذين يخاصمهم الخليفة .

اما الجزء الثالث فهو ما يعرف بكتاب الاحكام والآداب ، وهو يتضمن المنشورات التى تعالج الاحكام والآداب والفتاوى التى أفتى بها المهدى وقاضى الاسلام احمد على . وقد طبع من هذا الجزء عدد يسير ، ولم نقف حتى الآن على نسخة منه ، غير ان ابعاده قد اتضحت وصورته قد اكتملت فى اذهاننا بعد ان وقفنا على مصنفات نقلت منه . ويتضمن الجزء الرابع خطب المهدى ، وليس يعرف على التحقيق متى طبع هذا الجزء ، ولكن هناك ما يجعلنا نحتمل انه طبع بعد سنة ١٣٠٤ وقبل سنة ١٣٠٧هـ .

ان محتويات الجزئين الاول والثانى والرابع تبلغ ٢٠٠ قطعة . فاذا اضفنا الى ذلك محتويات الجزء الثالث كما هو وارد فى مصنف آدم حامد وهو ١٢٦ قطعة، فان جملة محتويات سلسلة الاجزاء المطبوعة تبلغ ٣٢٦ قطعة . ويمكننا ان نصنف هذه المحتويات على الوجه التالى : قطعة واحدة عبارة عن رؤيا ، محرر واحد صادر من الخليفة عبد الله ، ١٥ سؤالا وخطابا الى المهدى ، وتسعة خطب كلها من المهدى و ٣٠٠ قطعة صادرة من المهدى .

والتداخل بين الاجزاء ومعالجة بعض المحررات لأكثر من موضوع فقد وردت جملة من الوثائق فى اكثر من جزء . هناك ١٣ قطعة ترد فى الجزأين الاول والثانى معا و٢١ قطعة فى الاول والثالث ومحرران فى الثانى والثالث ومحرر واحد يتكرر فى الأجزاء الاول والثانى والثالث .

ومما يلاحظ ان الجزء الثانى يخلو من الاسئلة الموجهة الى المهدى . وبالجزء الاول سؤال واحد . اما الجزء الثالث فيرد فيه ١٦ سؤالا ، ومن ضمنها السؤال الوارد فى الجزء الاول ، وانما كثرت الاسئلة الموجهة الى المهدى فى الجزء الثالث لأن هذه الاسئلة متصلة بالفتاوى التى اصدرها المهدى ردا عليها والتى نقلها كتاب الاحكام والآداب . ومن الملاحظ ايضا ان السلسلة المطبوعة تدور اساسا حول ما كتبه المهدى ، ولا تنقل وثائق الآخرين الا لأنها مصاحبة لمحررات المهدى ، ولا يرد فى السلسلة

اى من الوثائق التى وجهت الى المهدى ، كرسالة غردون ورسائل حياتو بن سعيد ، كما أنها تخلو من المرويات والادعية ووصف العبادات والاذكار والراتب . والغالبية العظمى من محتويات السلسلة مما كتبه المهدى بنفسه .

ومما يلاحظ ان الطبعة الثانية من الجزء الثانى قد كررت نقل رسالتى المهدى الى حمد النيل حامد ، كما ان الجزء الثالث ينقل رسالة محمد عثمان ابى قرجة الى المهدى فى حين انه لا ينقل رد المهدى عليها .

وبمقارنة محتويات الاجزاء المطبوعة بمحصولنا من وثائق المهدى ، نجد ان محتويات هذه الاجزاء تتكرر فى المصادر الأخرى . وليس فى ذلك غرابة ، لأن الاجزاء المطبوعة سبقت ما عداها ، ولأنها كانت بايدى الناس مما جعلها متاحة للمصنفين .

لقد اخذت نصوص الاجزاء المطبوعة من الوثائق الاصلية التى كانت فى عهدة امير المطبعة ، وقد أشار أمين بيت المال عند الشروع فى اعداد كتاب الاحكام والآداب الى هذه المجموعة فى رسالة ارسلها الى امير المطبعة . واليك نص هذه الوثيقة الهامة : «حبيبى ، حيث اننا قاولنا الحبيب عبد الغنى السلاوى على كتابة مجموع منشورات الأمام المهدى عليه السلام الصادرة فى الاحكام وبالممارسة معه افهمنا على ان المجموع الكبير الذى يكون منشورات الاحكام ضمنه يوجد بطرف خوتكم على الصحة كما صدرت المنشورات من سيد الجميع عليه السلام فالامل فى خوتكم بأنه متى طلب منكم الحبيب عبد الغنى كراس من منشورات الاحكام تعطوه اياه لنقله وعودته واخذ خلافه حتى ينتهى نقل ذلك المجموع المكتوب على ذمة بيت المال» (١). وقد أختار مصنفو الاجزاء المطبوعة ما شاءوا من هذه الوثائق . فأجزاء السلسلة يمكن اعتبارها على هذا الاساس مختارات . ويلاحظ ان المصنفين قد أجروا بعض التعديلات فى النصوص ، وقد هدفت هذه التعديلات اساسا الى تهذيب الاسلوب والتصرف فى الاجزاء الشكلية من الوثيقة بحيث تكون على ما أستقر عليه المهدى مؤخرا وبحيث يكون الخطاب الى عموم الانصار اذا كان الاصل موجها الى شخص .

---

(١) ابراهيم رمضان الى مختار بادى فى ١٣ شعبان ١٣٠٤ ، مهدية ٨٦/٦٠/٢ .

وكان على رأس القائمين باعداد السلسلة كتاب الخليفة عبد الله ، وقد عاونهم فى ذلك بعض المصنفين وبعض موظفى المطبعة .

الجزء الاول : يقع هذا الجزء فى ٢٩٠ صفحة ، وتبلغ ابعاد صفحته ٢٥×١٧٫٤سم ومسطرتها ٢٥ سطرا . ويبلغ الجزء المكتوب من الصفحة ١٩×١٠سم ، وهذا الجزء محاط بخطين ، ويفصل بين الرسالة والأخرى خطان افقيان تكتب بينهما بسملة الرسالة . والصفحات مرقمة ومعقبة معا ، ويرد فى الهامش خطاب المدثر ابراهيم الى المهدى قصاد رد المهدى عليه ، وقد يدل هذا على ان المصنف لا يعتبر هذا الخطاب ضمن المحتويات الاساسية للجزء ، وبالهامش ايضا تعليقات واستدراكات تتصل بالنصوص الواردة فى المتن .

وتبدأ النصوص من الصفحة الثالثة ، وهنا نجد العنوان الكامل للجزء ونصه «الجزء الاول من مناشير سيدنا الامام المهدى المنتظر محمد بن عبد الله عليه السلام اعاد الله علينا من بركاته ونفحنا والمسلمين بأنوار نفحاته آمين» . وفى الصفحة الرابعة اشكال زخرفية نباتية تكون قبة وسط عمودين وترد تحتها الرسالة الاولى . وينتهى الجزء المكتوب بصفحة ٢٩٠ ، وقد جاء فيها : «انتهى الجزء الاول من المناشير الدالة الى الله بدلالة القرآن العزيز للامام محمد بن عبدالله المهدى المنتظر ويليه الجزء الثانى من الانذارات لبعض العلماء ومشايخ الدين والحكام» . ولايذكر المصنف اسماء المصنفين ولاتاريخ الطبع ولكننا نعلم من وثائق المطبعة ان العمل فى طبعه قد بدأ فى شعبان سنة ١٣٠٣ وانتهى فى سنة ١٣٠٤ وان كاتب مسودته هو حسن ساله .

ويتضمن الجزء ٨٠ منشورا من المهدى وخطابا واحدا موجها اليه ، وقد نقل المصنف هذا المحرر فى الهامش . وتتكون محتوياته من طائفتين من النصوص ، طائفة ترد بالصورة التى صدرت بها لأول مرة وهى المحررات التى صدرت كمنشورات عامة منذ البداية ، وطائفة تظهر فى صورتها المعدلة ، وقد كانت هذه قد وجهت فى الأصل الى افراد او لفئات خاصة ثم عدلت الى منشورات عامة . وقد الغى المصنفون فى الحالة الاخيرة اسماء الاعلام ووضعوا بدلها لفظ حبيبى او احبابى وما ماثلهما من التعابير الدالة على اتباعه بصفة عامة .

والموضوع الذى تدور حوله محتويات المصنف هو الاسس الرئيسية التى تقوم عليها حركة المهدية والخطوط الاساسية لسياسة المهدى، كالدعوة والتبشير ، والخلافة والامامة ، والجهاد ، والغنائم ، والوعظ . وهناك وثيقتان فقط مؤرختان وهما الوثيقة الرابعة والحادية والثلاثين ، وقد اخطأ المصنف اذ أرخ الأخيرة بيوم ٥ محرم سنة ١٣٠٠ھ والصواب ان تاريخه ٥ محرم سنة ١٣٠١ ھ . وأقدم رسالة فى المصنف الرسالة الرابعة ، وهى صادرة فى شعبان سنة ١٢٩٨ھ،واحدثها الرسالة رقم ٨٠ وتاريخها شعبان سنة ١٣٠٢ ، اى ان رسائل المصنف قد صدرت فى الفترة الواقعة بين اعلان المهدية وبين وفاة المهدى . وقد راعى المصنف فى ترتيب الرسائل اعتبارين اولهما رصد الرسائل حسب تواريخ صدورها بادئا باقدمها وثانيهما توخى المناسبات التى تجمع هذه الرسالة بغيرها بأى سبب من اسباب التداعى .

الجزء الثانى : يسمى الجزء الثانى من المنشورات المطبوعة بكتاب «الانذارات» ، وهو خاص بالمحررات التى ارسلها المهدى الى بعض الشخصيات او الفئات من الخارجين عليه والعاملين معه بشأن قضايا تتصل بالسلوك . ولهذا السبب فان لفظ الانذارات لا ينبغى ان يؤخذ حرفيا . ولهذا الجزء طبعتان مختلفتان ، سمينا اولاهما الانذارات (أ) والثانية الانذارات (ب) .

الانذارات (أ) : يوجد من هذه الطبعة نحو نيف واربعين نسخة بدار الوثائق ولم نجد لها نسخا فى مكان آخر . وتتكون هذه الطبعة من ٩٦ صفحة ، ومساحة الصفحة تبلغ ٢١×١٤ سم ، ويبلغ الجزء المكتوب من الصفحة ١٦×٨ سم ، ومسطرتها ١٧ سطرا . وهى تشبه الجزء الاول فى الشكل والترتيب وعدم الاهتمام بتواريخ الرسائل والتعقيب والترقيم ، وليس هذا بالشىء المستغرب ، لأن كاتب اصلها هو حسن ساله الذى نسخ الجزء الاول ابضا . وتتضمن الطبعة ٢١ رسالة كلها من المهدى ، وقد اورد المصنف ثلاثا منها فى الهامش . وهو يهمل التواريخ اهمالا ظاهرا ، اذ لم يؤرخ المصنف من الرسائل الا الاولى والثانية ، وهذا بخلاف ما نعهده فى الطبعة الثانية . وأقدم رسالة فى المصنف صادرة فى رمضان ١٢٩٨ھ واحدثها فى ٤ شوال سنة ١٣٠١ھ . ويلاحظ سقوط ملزمة كاملة من هذه النسخة بين صفحتى ٤٨ و٥٧ الا اننا عثرنا على هذه الملزمة فى مكان آخر ، وهى تتضمن انذار المهدى الى غردون

باشا الصادر فى ٧ جماد أول سنة ١٣٠١ وملحقيه . ويعد نعوم شقير هذه الملزمة مطبوعا قائما بذاته ، ولا شك انه مخطئ ، ويتملكنا العجب هنا اذ فات عليه ان يلاحظ الترقيم الذى يدل على انها جزء من كتاب .

ويجئ فى اول المصنف عنوانه ، ونصه «هذا كتاب الانذارات الصادرة من الامام المهدى المنتظر محمد بن عبد الله عليه السلام لبعض العلماء والحكام بالدعاية الى الله واحياء دين الاسلام» . وفى الصفحة التالية نجد اشكالا زخرفية نباتية تكون قبة وسط عمودين ، ثم ترد بعدها النصوص . والرسالة الاولى فى المصنف هى الانذار الموجه الى الحكمدارية . وينتهى المصنف عند صفحة ٩٦ ، والرسالة الاخيرة غير كاملة (١). ولكن هذا لايؤخذ دليلا على ان للمصنف بقية ضائعة ، فقد جاء المصنف مغلفا بغلاف اصفر مما يدل على انه وقف هنا وقفة نهائية . والتفسير الوحيد لهذه الوقفة غير الطبيعية هو ان القائمين بأمرها قد عدلوا عن الخطة التى التزموها فى التصنيف والذى كان امتدادا لتخطيط الجزء الاول ، وانقلبوا يعدون الطبعة الثانية على اساس مختلف .

الانذارات (ب) : تتكون هذه الطبعة من ٣١٦ صفحة ، وتبلغ مساحة الصفحة فيها ٢٤×١٦ سم ، ويبلغ الجزء المكتوب من الصفحة ١٦×٨ سم ، ومسطرتها ٢٧ سطرا. والشكل العام للصفحة هو نفس الشكل الذى نجده فى الجزأين السالفين . غير ان كاتب هذا المصنف يفصل بين الرسائل بفاصلة تتكون من خطين على اضطراد ، بينما تتفاوت هذه الفاصلة فى الانذارات(أ) . وينقل المصنف البيانات الشكلية كاملة كتاريخ الرسالة وشخص المرسل اليه وسائر العناصر التوثيقية ، بل ان ترتيب الرسائل قد بنى على اساس التتابع التاريخى بادئا من الاقدم . وتبلغ الرسائل المؤرخة ٧٦ رسالة من مجموع ١٠٨ رسالة .

وكان اول ما وقفنا عليه من هذه الطبعة نسخة دار الوثائق ، وهى تنتهى عند صفحة ٨٤ ، وما بعد ذلك ضائع . وكنا قد اهتدينا الى مصنفات الشيخ أحمد العجب

---

(١) هذه القطعة موجهة الى محمد خالد زقل حينا والى احمد سليمان حينا آخر ، وحقيقة الأمر انها تعليق وقع به المهدى على عرض تقدم به محمد خالد ذاكرا فيه حرق منزله ومصادرة املاكه فى دارفور على يد سلاطين ، ونحسب ان المهدى وجه التعليق الى احمد سليمان ليقوم لمحمد خالد بما يرى .

وذهب تقديرنا الى ان المجلد الثاني منها عبارة عن نسخة منقولة حرفيا عن الطبعة الثانية من الانذارات ، وقد كونا فكرتنا عن هذه الطبعة على هذا الاساس واحصينا ماهو ساقط في الطرف الضائع . وبعد سنوات من ذلك قدر لنا ان نقف على نسختين كاملتين ضمن وثائق ونجت المحفوظة بمكتبة جامعة درهام فسقطت بذلك اهمية مصنف العجب . وبالنسختين سقط ، وقد دلت الدراسة على ان الساقط هنا هو انذار المهدى الى فخر الدين حسن المعلاوى الصادر فى ٣ شوال سنة ١٣٠١هـ .

ويجىء فى الصفحة الاولى عنوان الجزء ، ونصه : «الجزء الثانى من منشورات الامام منتظر الخاص والعام محمد المهدى بن عبد الله عليه السلام فى الانذارات الصادرة منه لبعض العلماء ومشايخ الدين والحكام وغيرهم بالدعاية الى الله تعالى والهجرة اليه والجهاد فى سبيل الله رب العالمين ذى الجلال والاكرام» . ويتضح من هذا ان المصنف يعتبر الرسائل التى تدعو الى الجهاد والهجرة والتبشير ضمن الانذارات .

وفى الصفحة الثانية نجد اشكالا زخرفية نباتية تكون قبة وسط عمودين ، وهو نفس الشكل الذى وجدناه فى المجلدين السابقين . ثم تبدأ النصوص . والرسالة الاولى فى المصنف هى الموجهة الى ابراهيم محمود وآخرين فى ٤ ذى القعدة سنة ١٢٩٧هـ ، وهى اقدم محررات المصنف ، وآخر رسالة هى رسالته عن خلوة رمضان واعتكافه للعبادة ، وقد صدرت فى نهاية شعبان ١٣٠٢هـ .

وتبلغ محتويات المصنف ١١٠ رسالة كلها من المهدى ، وهى مرتبة زمنيا حسب توالى الصدور . وقد وردت رسالتا المهدى الى حمد النيل حامد مرتين . وعلى هذا تكون الرسائل التى ينقلها المصنف ١٠٨ رسالة ، ومن ضمن هذه الرسائل ملحقا انذار المهدى الى غردون ورسالته الى فخر الدين الواقعة فى الورقة الساقطة .

لقد بدئ فى طبع هذه الطبعة بعد ان توقف العمل فى طبع الطبعة الأولى ، وقد تم طبعها فى نفس السنة : ١٣٠٤هـ .

الجزء الثالث : وهو ما يعرف بكتاب الاحكام والآداب . واصل هذا الكتاب ضائع . وقد وردت اشارات عنه فى وثائق المطبعة ، ولكن بيانات المطبعة تقف عند الملزمة الثالثة . وعلى ما نحسب فان الطبع قد استمر بعد ذلك حتى بلغ الكتاب منتهاه .

ويبدو ان ما طبع منه كان قليلا ، والى هذا تعزى ندرة الاصل . وقد كتب اصله عبد الغنى السلاوى الذى كان قد تخصص فى التصنيف ، وكان اعتماده فى نقل النصوص على المجموعة التى كانت محفوظة عند مختار محمود بادى أمين المطبعة . وقد تم طبعه فى سنة ١٣٠٤هـ .

ويتضمن الجزء الثالث المنشورات والفتاوى التى تعالج الجوانب التى لها مساس بمشاكل المجتمع وتنظيماته ، كالنظم القضائية والمالية والزواج والطلاق وما الى ذلك من الامور المتصلة بالعلاقات الانسانية . وقد اهتم المصنفون ، على غير عادة مصنفى الاجزاء المطبوعة الأخرى ، بنقل قدر كبير من الرسائل الموجهة الى المهدى ، وسبب ذلك الصلة الوثيقة بين الفتاوى والاستفسارات التى جاءت الفتاوى ردا عليها . والعادة انهم يضعون الاستفسار اولا ثم يوردون الرد عليه . وقد فعل المسلمى عكس ذلك فى المصنف الذى يملكه السيد محمد المهدى بن الخليفة عبد الله ، اذ اورد الاستفسارات جملة واحدة ثم اورد الردود عليها بعدها ، وذلك فيما نحسب امعان فى التمييز بين ماهو من المهدى وما هو من الآخرين .

وكتاب الاحكام والآداب لا يتضمن كل ما كتبه المهدى وكتابه فى باب الاحكام والآداب ، وقد جمع المسلمى فى الجزء الثالث من مصنف الفيوضات المحفوظ فى مكتبة جامعة درهام عددا كبيرا مما فى كتاب الاحكام والآداب . ويبدو ان السلاوى نقل ما توفر له فقط ، وكان ما يتوفر للمصنفين عندئذ قليلا .

ان كتاب الاحكام والآداب المطبوع ضائع ،ولكننا وقفنا على خمسة مجلدات متشابهة لاشك انها ترجع الى المطبوع . المجلد الاول هو الجزء الثالث من الفيوضات الالهية لمحمد المجذوب بن الطاهر المجذوب المحفوظ بدار الوثائق الفرنسية والذى يتضمن ١٢٣ قطعة منها ١٠٧ قطعة من المهدى ، والمجلد الثانى هو مصنف الشيخ آدم حامد عمدة الجزيرة ابا ، ويتضمن ١٢٦ قطعة منها ١١٠ من المهدى . وعلى ما يبدو فان مصنف هذا المجلد قد اضاف ثلاث رسائل لم تكن فى الجزء المطبوع ، وهى الرسائل الثلاثة الأخيرة والتى لاترد فى الفيوضات الالهية .

ان هناك دلائل كثيرة تدل على ان اصل هذين المجلدين واحد ، فهما ينقلان

الرسائل بنفس الترتيب حتى نهاية مخطوط باريس . ويلاحظ هنا انهما ينقلان رسالة من الخليفة عبد الله الى اولاد الشيخ نور الدائم فى نفس المكان ، كما يوردان حضرة تغيير اسم المهدى فى نفس الموضع . كذلك نلاحظ انهما ينقلان رسالة من الامير محمد عثمان ابى قرجة الى المهدى فى نفس الموضوع وفى نفس الوقت لاينقلان رد المهدى عليها . وكل هذا دليل على انهما اتبعا ترتيبا معدا من قبل ، لأن مثل هذا الالتقاء لا يمكن ان يأتى عفوا . وقد اتخذ كل منهما نفس الاسم الذى عرف به المطبوع الضائع وهو كتاب « الاحكام والآداب » . ويحذف المجلدان الفقرة الاخيرة من القطعة رقم ١٦ والتى تبدأ بقوله : «اسمعوا ما اقول لكم» كما انهما ينقلان النسخة الحديثة من المنشور الموجه الى زغاوة وجيرانهم (١) . وقد ارخت الرسالة رقم ٤٠ بتاريخ السنة فقط بينما هى مؤرخة فى بعض المصادر باليوم والشهر ايضا . ويتفق المجلدان فى درجة النصوص والقراءات . والمجلد الثالث هو الجزء الثالث من فيوضات المسلمى اما المجلدان الثالث والرابع فقد وجدناهما عند احمد العجب .

واذا كنا قد دللنا على ان هذه المجلدات ترجع الى اصل واحد فان نقلهما عن النسخة المطبوعة يعتبر امرا مرجحا ، لأننا لا نعتقد ان كتابا مخطوطا قد شاع حتى تنقل عنه المصادر الاخرى نقلا حرفيا ، كما ان تعليقات الهامش فيها تدل على انها منقولة عن اصل مطبوع .

ومن مقارنة البيانات التى توفرها هذه المجلدات يمكن ان ندرك ان كتاب الاحكام والآداب المطبوع كان يحتوى على ١٢٣ قطعة ، منها ١٠٧ من المهدى و١٦ قطعة صادرة من بعض كبار اتباع المهدى ، كقاضى الاسلام أحمد على ، والامير محمد عثمان ابى قرجة ، والأمير عبد الله النور ، ونواب الاحكام . وهناك رسالة واحدة من الخليفة عبد الله الى اولاد الشيخ نور الدائم . اما رسائل المهدى فتتكون من ٩٩ رسالة وفتوى وخمس حواش وملحق واحد وحضرة واحدة وبيان لمقدار لباس الانصار .

الجزء الرابع : كان الجزء الرابع آخر جزء فى سلسلة الاجزاء المطبوعة من منشورات المهدى ، ومن غريب الصدف انه كان آخر ما عثرنا عليه من تلك السلسلة .

---

(١) ص ٢٤١ .

وقد حصلت دار الوثائق على نسخة مصورة من الاصل الذى احضره السيد الصادق المهدى فى ١٩٦٣ ، وتبلغ صفحات هذا الجزء ٥٦ صفحة ، اما المحتويات فتبلغ ٩ خطب كلها للمهدى . ولمقارنة ذلك مع محصولنا من الخطب نذكر ان خطب المهدى المتواترة فى المصادر والتى يمكن ردها بثقة الى المهدى تبلغ ٣٢ خطبة . وهناك ثمانية ليست متواترة ولكن لا يمكن الطعن فى نسبتها . وتبدأ نصوص الخطب من الصفحة الثانية . أما الصفحة الاولى فهى صفحة العنوان والذى جاء فى شكل مثلث ونصه كالآتى : « الجزء الرابع من مناشير سيدنا الامام محمد المهدى بن عبد الله عليه السلام الخطب الشريفة والآثار المنيفة نفع الله بها آمين » .

وفى اول الصفحة الثانية زخرفة تتكون من قبة تتوسط عمودين وقاعدة من الزخارف ، وفى اسفلها البسملة ثم بداية الخطبة الاولى .

ومن هنا يبدو ان ما اختاره المصنف قليل بالنسبة لجملة الخطب . ولكن لاشك ان المصنف توخى قدرا من التبصر عندما اختار هذا القدر من الخطب لمصنفه ، لأن مختاراته جاءت من الطائفة الاولى والتى لا شك فى اصالتها ، ولأنه راعى ابراز القضايا التى تتناولها خطب المهدى والمحافظة على التوازن بينها .

ويبلغ طول الصفحة ٢٣ سم وعرضها ١٦ سم ، ويبلغ المكتوب منها ١٩×١٠ سم ، ويقع المكتوب داخل مستطيل يتكون من خطين . والصفحات مرقمة ومعقبة معا ، وتبلغ مسطرتها ٢١ سطرا . وفى هوامشه بيانات تتصل بضبط النصوص ، وهى قليلة نسبيا . والخطب الواردة خالية من التواريخ .

ويضع الطابع فاصلا بين الخطبة والتى تليها ، وهذا الفاصل يتكون من خطين افقيين . ويقع بين الخطين فراغ يبلغ ما يشغل سطرا كاملا ، ولا يحسبن المرء ان ذلك للبسملة كما حسبنا من قبل لأن الخطب الدينية للصلاة اصلا بغير بسملة . والبسملة التى ترد فى اول الجزء لبداية المصنف وليست للخطبة التى تليها .

ولا يرد فى هذه النسخة تاريخ طبعها ، وقد بحثنا عن ذلك فى وثائق المطبعة ولكنها لم تفدنا بشئ ، بل اننا لم نجد اثرا فى هذه الوثائق لجزء الخطب .

وقد كان المسلمى اول ناسخ اهتم بنقل عدد وافر من الخطب ، بل انه افرد

الجزء الرابع من الفيوضات لباب الخطب مع انه لم ينقل منها شيئا فى المصنفات التى سبقت الفيوضات . ويفهم من هذا ومن طريقته فى ترتيب الخطب انه اهتم بنقل الخطب بعد ان وقف على الجزء المطبوع . وقد كتب المسلمى الجزء الرابع فى سنة ١٣٠٧هـ ، ومن هنا يمكن ان يقال ان طبع خطب المهدى كان فى هذه السنة او قبلها. وقد تصرف المسلمى قليلا فى ترتيب الخطب ، لأنه اراد ان يرتبها حسب تواريخ الصدور ، وهذا هو الترتيب الذى يفضله المسلمى . وقد اضاف فيما بين الخطبة الاولى والثانية خطبة، واضاف بين الثانية والثالثة سبعا منها وجعل الخطبة التاسعة ما بين السادسة والسابعة . ويفهم من هذا انه كان له نظر فى امر الخطب . وليس من المستبعد انه اضاف بعض الخطب التى اسقطها الجزء المطبوع .

اما بالنسبة الى الخط والشكل العام للصفحة وكتابة العنوان والفصل بين الخطب والزخارف فقد اتبع المصنف نفس الخطة التى اتبعت فى الجزء الاول من المنشورات المطبوعـــة .

وقد وصف جزء الخطب بأنه الجزء الرابع من مناشير المهدى . وهكذا عدت الخطب فى باب المناشير . وقد فعل القائمون بالطبع نفس الشئ عندما عدوا الانذارات فى باب المناشير ، ويفهم من هذا انهم جعلوا كلمة المنشور مصطلحا لكل ما كتبه المهدى ثم جعلوا تحتها التقسيمات المختلفة ، كالخطب والانذارات ، والدعاية الى الله ، والاحكام .

٣ ـ المصنفـات الخطيـة :

ان المصنفات الخطية كثيرة ومتنوعة ومتفاوتة فى الاحجام ، ولقد هدفنا فى الصفحات، التالية الى ان نعطى فكرة عن بعض النماذج المختارة فتعرضنا اولا الى المصنفات التى اخذت عن السلسلة المطبوعة او التى تأثرت بها وهى مصنف الآثار ومصنف ييل ومصنف كمبردج ثم الى المصنفات التى صنفت بعيدا عن هذه السلسلة ، وهى مصنف الحدود والاحكام ، ومصنف ٤ب ومصنف المآل ومصنف المجذوب المحفوظ بدار الوثائق الفرنسية ومصنفى عوض الكريم المسلمى والذى بلغ مصنف الرسائل على يده ابلغ ما بلغ :

الآثـار : ينسب هذا المصنف الى يوسف ميخائيل مؤلف « غردون السودان» ، وقد استعاره منه المستر اقلن Aglen الذى كان مفتشا بمركز الابيض فى سنة ١٩٣٤م ثم اشتراه منه واهداه لمتحف بيت الخليفة فى سنة ١٩٥٤ بينما اهدى مخطوط «غردون السودان» الى محفوظات حكومة السودان (دار الوثائق القومية حاليا) . والاول محفوظ تحت رقم Ex. K. 116 بالمتحف ، اما الثانى فمحفوظ تحت متنوعات ١ / ٢ / ١٦ .

بدأت العلاقة بين يوسف والمستر اقلن عندما سجن الاول بسجن الابيض بتهمة حيازة المشروبات البلدية . وقد اثمرت العلاقة ثمارا طيبا ، فكتب يوسف بتشجيع اقلن مخطوطه عن حياته وعن المهدية ، وقد حاز اقلن على الكتابين ، وبفضله اودعا فى دار الوثائق ومتحف بيت الخليفة وصارا فى ميسور طلاب العلم . وقد ذكر يوسف للمستر اقلن انه نقل محتويات المصنف بنفسه مما كان يلقيه المهدى على كتابه ، ولكن واقع الامر ان يوسف لم يكن له علاقة بديوان المهدى ، بل ولم يكن المهدى يملى محررته على من يتفق وجوده من الكتاب كما يقول يوسف (١). والمصنف بخط غير خط يوسف الذى نعهده فى مخطوط غردون السودان ، وقد أفادنا خبير الخطوط بوزارة الداخلية بأن لا رابطة بين الخطين . ويذكر يوسف نفسه فى أول المصنف ملكيته له بقوله : «ملك يوسف ميخائيل سنة ١٣٠٥هـ» ، واحسب أنه كان يقول غير ذلك اذا كان هو مصنفه لأن التملك يختلف عن التصنيف . ويبدو من طريقة التصنيف ان مصنفها كان ممن يحترفون تصنيف الرسائل . وقد وقفنا له على مصنف آخر عند السيد محمد المهدى بن الخليفة عبد الله ، وهو بخلاف مصنف المسلمى الذى يحتفظ به ايضا. وعلى هذا فان يوسف قد حصل على المصنف بطريقة ما بعد ان صنفها آخر ولم يكن هو نفسه مصنفه . وقد نسبنا المصنف الى موضعه الآن فسميناه مصنف الآثار تفاديا للانطباع الذى تتركه النسبة الى شخص معين .

يقع هذا المصنف فى ٢٥٣ صفحة ، ومساحة الصفحة ٢٤ × ١٦ سم ومسطرتها ١٩ سطرا ، وفى بدايته ورقة بها قوله «ملك يوسف ميخائيل سنة ١٣٠٥» وتليها قائمة المحتويات ثم النصوص . وورق المصنف من ورق الجاير الذى كان يستعمله

---

(١) انظر : امن ١٣/٣/٨ .

كتاب المهدية فى كتاباتهم وهو امر يوحى بان مصنفه كان على علاقة بكتاب الديوان . وقد كتب المصنف نصوصه بخط نسخ واضح جميل ، وحالته جيدة بصفة عامة ، الا ان بعض كلماته قد طمست بفعل الرطوبة والظروف القاسية التى تعرض لها قبل ان تمتد اليه يد الصيانة . والمداد الذى كتب به هو الاسود وتخلله المداد الأحمر فى مواضع مثل بسملات الرسائل . ويكتب المصنف نصوصه داخل مستطيل يتكون من خطين ، ويفصل بين الرسالة والاخرى بفاصلتين تكتب بينهما البسملة ، وذلك على نحو ما فى الجزء الأول من المنشورات المطبوعة . وقد سقط من المصنف ورقتان احداهما نهاية الفهرست واخراهما بداية الرسائل .

والقاعدة الرئيسية فى ترتيب الرسائل هى وضعها حسب تواريخ الصدور ولكن عددا من الرسائل لا تبدو منطقية فى وضعها . واقدم رسالة فى المجموعة هى الاولى وهى صادرة فى ١٤ ذى القعدة سنة ١٢٩٧ه واحدثها الاخيرتان وهما صادرتان فى ٣ رمضان سنة ١٣٠٢ ، اى ان هذه الرسائل صدرت خلال ست سنوات تبدأ بعام قبل الثورة وتنتهى قبيل وفاة المهدى بخمسة ايام .

ويحتوى المصنف على ١١٥ رسالة كلها من المهدى . واغلب هذه الرسائل تعد من الانذارات والمنشورات الخاصة والرسائل الشخصية ، ولا ترد فيها المنشورات العامة الا فى حالات نادرة ، وهى ان وردت تبدو فى الغالب منسوبة الى بعض الشخصيات . كذلك لا ترد الادعية والاعمال الدينية الخالصة ، وليس فيها شئ مما كتبه اناس غير المهدى .

وقد تم تصنيفه فى سنة ١٣٠٥ه او قبلها بمدة يسيرة ، ذلك لأن يوسف كتب فى بدايته «ملك يوسف ١٣٠٥ » ، ومعنى هذا انه جاء لاحقا لمصنف الانذارات (أ) الذى تم طبعه فى شعبان سنة ١٣٠٤.

وكان المصدر الرئيسى الذى اعتمد عليه كاتب الآثار هو الطبعة الثانية من الجزء الثانى من السلسلة المطبوعة اى الانذارات (ب) ، وذلك واضح من الاتفاق فى الترتيب والنصوص ودرجاتها . وقد تصرف مصنف الآثار فى بعض المواضع ، وذلك بأن اسقط ثمانية من رسائل الانذارات «ب» ، وهى نفس الرسائل التى تتكرر فى

الجزء الاول من السلسلة المطبوعة . ويبدو ان المصنف قصد اسقاط ماهو من باب المنشورات العامة . وقد اضاف الى محصول كتاب الانذارات (ب) ١٣ رسالة تعد كلها في باب الانذارات . ومما يلفت النظر ان مما اضافه رسالة المهدى الى غردون الصادرة فى أول محرم سنة ١٣٠٢هـ ، وهى لا ترد فى اى من المصنفات المطبوعة. ويمكن تقسيم محتويات المصنف الى قسمين ، اولهما ما يقع بين الصفحة الاولى وصفحة ٢١٣ وقد سار المصنف فى اعداد هذا القسم حسب الخطة التى يسير عليها كتاب الانذارات(ب) خلا ما يسقطه منه ، اما الثانى فيقع بين صفحة ٢١٣ وصفحة ٢٤٣ وهو قسم لا تتكرر محتوياته فى كتاب الانذارات (ب) ، وقد اعده المصنف اعدادا مستقلا . ويبدو من ذلك ان المصنف نقل الطرف الذى حدده من الانذارات (ب) ثم اتى بهذه المجموعة الجديدة .

ان مصنف الآثار يعد مثالا طيبا للمصنفات التى اعتمد مصنفوها على الاجزاء المطبوعة لانه يعتمد اعتمادا اساسيا على مطبوع معين وينقل عنه النصوص نقلا حرفيا ويسير على منواله فى الترتيب والتصنيف .

مصنف ييل : ينسب هذا المصنف الى ييل لأنه محفوظ فى مكتبة جامعة ييل بالولايات المتحدة الامريكية تحت رقم لاندبيرج ٥٤٣ . وقد وقفت على صورة فوتستات له كانت موجودة بالسفارة السودانية بلندن ، ثم حولت الى دار الوثائق ، وهى الآن تحت رقم مهدية ٨ / ١ / ٥ . وقد استعنت فى سرد المميزات المدنية التى لا تتوفر فى النسخة المصورة بالبحث الذى وضعه الدكتور حسين مؤنس عن المصنف .

ان الصفحة الاولى خالية من الكتابة . وفى الثانية امضاء المصنف واشارة الى الصفحات الساقطة ، وفى اعلى نفس الصفحة الاحرف الأولى لاسم المصنف فى خطوط أفقية طويلة وهى تتكون من (ع.م.ع) وتحته رقم (٢١) ، وفى أدنى الصفحة رقم الكتاب وهو ٥٤٣ ثم رقم الصفحة بالانجليزية . وتبدأ النصوص من الصفحة التالية . وفى الصفحات الداخلية نجد ثلاث سلسلات من الارقام احدها بالانجليزية ، وهو ترقيم الصفحات من الصفحة الاولى الى النهاية وفى بعض الصفحات لا ترد ارقام هذه السلسلة . اما السلسلة الثانية فهى ترقيم الصفحات ابتداء من الصفحة التى تبدأ منها النصوص وهو ترقيم مضطرد . اما السلسلة الثالثة فهى ترقيم المحتويات ،

ونحسب بأنها بخط الدكتور مؤنس . وهذا الترقيم غير مضطرد ايضا ويغفل بعض الرسائل (١) .

ويتكون المصنف من ٤٩٦ صفحة ، الا ان به سقطا يبلغ ١٠٠ صفحة وهو مابين صفحة ٢٥١ وصفحة ٣٥٢ ، وفي كل صفحة عشرون سطرا . ولم نقف على ابعاد الصفحة لأننا اعتمدنا على نسخة مصورة ، ولأن الدكتور مؤنس لا يثبتها . وتبلغ محتوياته الحالية ١٣٨ قطعة ، منها اثنتان مبتورتان في طرفي الحرم ، وهناك رسالة من المدثر ابراهيم الى المهدى ، وهي نفس الرسالة التي تدور حول سؤاله عن الصلاة الشعبانية . وفيما عدا هذه فان محتويات المصنف صادرة من المهدى بشكل مباشر او غير مباشر . هناك ١٢٧ رسالة وخمس حضرات ومرويتان وثلاث قطع دينية . وبالطبع لانعرف ما سقط في الصفحات الضائعة . واقدم رسالة في المصنف صدرت في اول شعبان سنة ١٢٩٨هـ واحدثها في نهاية شعبان ١٣٠٢هـ .

ويكتب المصنف نصوصه بالمداد الاسود الا انه يستعمل المداد الاحمر في البسملات والمواقف المهمة . وورق المصنف ليس من البارشمان كما يذكر الدكتور مؤنس وانما هو من ورق الجاير (٢) . وخط الكاتب خط واضح ، ومن مميزات الاملاء عنده لسان نازل في الدال واختها الذال هكذا (د) (ذ) ، وهذا فيما يبدو من مؤثرات الخط الصحراوى . ولم يكن المصنف على قدر كبير من العلم او الفهم بما يدون ، فأخطاؤه كثيرة ويكثر في نقله السقط .

وكان المصدر الرئيسى الذى اعتمد عليه المصنف هو السلسلة المطبوعة من المنشورات . ولهذا فان قراءات المخطوط تتفق مع قراءات المنشورات المطبوعة

---

(١) مثلا : لا يرقم المنشور الموجه الى اهل البوارق (ص ٦٢) ، ويرقم رسالتين في ص ٢٠٧ و٢٠٩ برقم واحد ، ولا يرقم بقية الرسالة في ص ٣٥٢ ، وفي صفحة ٣٥٦ رسالة تحمل رقم ٧٩ مع ان التي قبلها تحمل رقم ٧٧ ، وفي صفحة ٣٧٥ انتقل من ٩٣ الى ٩٨ مرة واحدة .

(٢) تعجبت من قول الدكتور مؤنس هذا لأن ورق البارشان يختلف عن ورق الجاير اختلافا بعيدا ، ولم يعرف عن السودانيين وخصوصاً في المهدية انهم استعملوا البارشمان وان كانوا من قبل يستعملون جلد الغزال ، ويبدو ان مؤنس يريد ان يقول ان ورقه ابيض سميك ولم يقصد البارشمان بمعناه الفني .

كثيرا . ويبلغ ما ينقله من الاجزاء الثلاثة ١٠٨ رسالة ، وعلى هذا فان المصنف ينتسب الى الاجزاء المطبوعة من المنشورات بنسبة النقل .

مصنف كمبردج : صادر احد الاداريين الانجليز هذاالمصنف من بعض الانصار بجهة الدبة فى المديرية الشمالية فى سنة ١٩٠٧م واهداه لأستاذه بجامعة كمبردج ، وقد قام الأخير باهدائه لمكتبة الجامعة حيث يوجد الآن تحت رقم : B. 12 (g) Edward Browne

وتبلغ صفحات المصنف ٣٧٧ صفحة . اما محتوياته فتبلغ ١٨٨ قطعة ، منها ١٦١ قطعة من المهدى و١١ من الانصار الى المهدى و٧ من كبار اتباعه الى بعضهم البعض . ولم تتوفر لنا مقاسات الصفحة لأننا وقفنا على نسخة مصورة بالمصغر اى المايكروفايم ، ومسطرته تبلغ ١٥ سطرا . والصفحات معتمة على اضطراد ، وليس بها ترقيم ، وقد ورقت ، أى رقمت ورقة ورقة ، باللغة الانجليزية على يد آخر بخلاف المصنف . واغفال الترقيم يجعل تتابع الصفحات غير واضح بحيث يصعب على المرء ان يدرك تسلسل الاوراق ومحتوياتها . وقد تعاقب على كتابته كاتبان ، كتب اولهما الصفحات ١-٨ و ٥٤-١٤٤ وكتب الثانى الصفحات ٩-٥٣ و١٤٤-٣٧٧ .

وبالمصنف خرمان أولهما بين صفحة ٢٦ و٢٧ والثانى بين ٢٢٠ و٢٢١ . ويبلغ الخرم الأول ورقة واحدة كان بها الجزء الاخير من المنشور الذى يبدأ بقوله : « ان فى الجهاد تصفية الايمان » والجزء الأول من المنشور الذى يبدأ بقوله : « لايخفى فناء الدنيا » . أما فى الخرم الثانى فقد سقط الجزء الاخير من الانذار الموجه الى الحكمدارية والجزء الأول من دعاء الوضوء واجزاء أخرى منها أول منشور الحدود .

وهناك ٩ قطع يتكرر نقلها ، وهى فى الصفحات ٨١و٢٠٤ ، ٦٩و٢٠٦ ، ٨٦ و ٢٥٩ ، ١٣٨ و٢٩٥ ، ١٦٤ و ٢٢٦ ، و٢٧ ، ٧١ و٥١ ، ٧٨ و٥٢ ، ٨١ و٥٤ . ويبدو من هذا التكرار ومن اختلاف الخطوط ان مصنف كمبردج عبارة عن مصنفين اختلطت أوراقهما ، أولهما يتكون من الصفحات ١ الى ٨ و٥٤ الى ٢٢٠ . وقد كتب أوله المصنف الأول ثم واصل الثانى الكتابة من صفحة ١٤٤ . أما المصنف الثانى فيتكون من الصفحات ٩ الى ٥٣ و٢٢١ الى ٣٧٧ ، وقد كتبه المصنف الثانى ، وقد سقطت بعض اجزاء هذا المصنف فى الموضع الذى يكون بين ٥٣ و٢٢١ .

وقراءة النصوص فى الطرفين تنتمى الى قراءة السلسلة المطبوعة فى اغلب الحالات . وقد لاحظت ان المصنف يسقط من منشور الصلاة مابين الفاصلتين فى الفقرة التالية :

« لا انقاذ لك الا به ولسر تلك (الحكمة كان النبى .... ومن فرح من تلك) العلايق » . وهذا الطرف الساقط لايرد فى النص القديم لهذا المنشور . وقد لاحظنا ايضا ان المصنف الأول يكتب سنة ١٣٠٤هـ بدل سنة ١٣٠٢ ، ولسنا ندرى سببا لهذا .

مصنف الحدود والاحكام : يقع هذا المصنف فى ٧١ صفحة ، ومساحة الصفحة تبلغ ٢٣ × ١٥ ½ سم ، ويبلغ المكتوب منها ١٨ × ٧ ½ سم ، ومسطرتها ١١ سطراً . وهو يحتوى على ٨ رسائل منها ٧ رسائل من المهدى ورسالة واحدة موجهة اليه من نوابه. اما المصنف فهو سعد عبدالله الحاج الذى صنف مصنفين آخرين ايضاً (١)، وقد سجل اسمه فى نهاية احد هذين المصنفين . وقد جاء فى البداية عنوان المصنف وهــو : « منشوارات الامــام محمد المهدى عليه السلام فى الحدود وغيرها من الاحكام » ، الا ان المصنف يتكون فى الواقع من مصنفين منفصلين وان كانا بخط كاتب واحد ونوع واحد من الحبر والورق وطريقة واحدة فى الكتابة . والمصنف الأول هو مابين الصفحة الاولى وصفحة ٤١ وقد تركت الصفحة التى تليها اى صفحة ٤٢ خالية عن الكتابة كما أنها تخلو من التعقيب الذى يدل على التتابع ، اما المصنف الثانى فهو مابين صفحة ٤٣ وصفحة ٧١ ، وقد بدأ المصنف بذكر صفة الرسالة الاولى به ،وفى هذا المصنف ثلاثة مناشير منفصلة عن بعضها البعض ، لأن هذا المصنف كان يهوى الفصل بين الرسائل بحيث يختم كل رسالة فى شكل مثلث ويبدأ التى تليها فى صفحة جديدة . غير ان التعقيب المتصل فى الصفحات يدل على وحدة المصنف . وقد سقط الطرف الأخير منه ، ولسنا نعرف مقدار هذا السقط .

وهدف المصنف من مصنفيه هو جمع المنشورات التى تعالج موضوع الحدود والاحكــام ، وقــد اشــار الى ذلك فــى العنــوان بوضــوح ، وكــان اعداد المصنف بمعزل عن السلسلة المطبوعة من المنشورات . وهذ واضح من الترتيب المستقل واختلاف القراءات ودرجات النصوص .

---

(١) مهدية ٢/٥/٨/ج/١٩ ، ٢/ج/٢٣ .

مصنف ٤ ب : هــذا مصنف لانعرف مصنفه ولا الجهة التي جاء منها ولكننا وجدناه ضمن وثائق المهدية . ويبلغ حجمه الحالى ١٢٠ صفحة ، وتبلغ مساحة صفحته ١٨×٢٦ سم ، والمكتوب منها ١٩ × ١١½ سم ومسطرتها ١٧ سطرا . ويبدأ من صفحة ١٩٧ وينتهى بصفحة ٣١٦ . وقد سقط فى أوله ١٩٦ صفحة او نحو ذلك ثم عدد من الصفحات لا ندرى مبلغه بعد صفحة ٢٧٦ . ونهايته طبيعية وليس بعدها سقط ، والصفحة الأخيرة منها وجزء من التى تسبقها ليست بها كتابة .

والصفحات معقبة باضطراد ، وهى مرقمة ايضا ، غير ان الترقيم يقف عند صفحة ٢٧٦ ، وقد اخطأ المرقم فى بعض المواضع . وقد اتممنا ما كان ناقصا منه ووضعنا الارقام الصحيحة فى الاماكن التى وقع فيها الخطأ تسهيلا للاحالات والى الرسائل الواردة فيها . اما الصفحات التى أخطأ فى ترقيمها فهى من ١٩٩ الى ٢٣٢ وهو يضع بدلها ١٩٠ الى ٢٢٢ ، و٢٢٩ مكان ٢٣٩ و٢٣٠ الى ٢٦٦ مكان ٢٤٠ الى ٢٧٦ . وهو يكتب الرقم ٤ هكذا (ع) ويكتب الرقمين ٢و٣ كما تكتب فى المطبعة . وخط المصنف خط ردئ ، والمداد الغالب هو الاسود ويتخاله المداد البرتقالى والمداد البنفسجى اللذان يستعملهما على غير اضطراد فى كتابة بسملات الرسائل وتواريخها ومقدماتها وبعض الكلمات والجمل ورسم الحركات . وفى هامش الكتاب تعليقات شتى وتصحيحات ، وفيه ايضا قطع كاملة .

وفى المصنف عشرون رسالة من المهدى وست رسائل من الخليفة وقطعة واحدة من المرويات . واقدم رسالة فيه صادرة فى منتصف سنة ١٣٠٠هـ واحدثها صادرة فى ١١ محرم سنة ١٣٠٥ ، اى انها تقع خلال اربع سنوات تبدأ من منتصف عصر المهدى وتنتهى فى اوائل عصر الخليفة . ويمكننا أن نستنتج من هذا ان المصنف كتب حوالى سنة ١٣٠٥هـ أو بعدها بقليل . وقد نقل المصنف رسالتين فى الهامش ، وهما منشور المهدى الــوارد فى هامش صفحة ٢٦٣ ، وهــو المنشور الذى أوعد به المخالفين له فى داخل البلاد ، والقطعة الواردة فى هامش صفحة ٢٥٩ ، وهى عبارة عن مروية من اقوال المهدى . ويضاف الى هاتين مكتوبا المهدى المصاحبان لرسالته الاولى الى غردون باشا . وهما يردان فى هامش صفحة ٢٧٢ و٢٧٣ بقلم الرصاص وبخط غير خط المصنف .

وفى المصنف اربع رسائل غير كاملـــة وهى :ـ

رسالة المهدى التى تبدأ بقوله : «ان الأمر كله بيد الله واليه المآب» ، وقد سقط الجزء الاول منها فى خرم المخطوط ، ثم رسالة المهدى الى حياتو بن سعيد ، وقد سقط فى نفس الخرم . ثم الرسالة التى تبدأ فى صفحة ٢١٧ وهى عبارة عن جزء من منشور الصلاة ، وقد ترك المصنف حيزا فى صفحة ٢٢٣ ليكتب فيه بقية الرسالة . ثم منشور الخليفة عبد الله الذى سقط الجزء الاول منه فى الخرم المذكور .

مصنـــف باريس :

هذا مصنف مهم ، من مصنفات مجاذيب شرق السودان ، وقد صنفه محمد المجذوب بن الطاهر المجذوب وغنمته المخابرات اثر واقعة افافيت فى فبراير سنة ١٨٩١ . وهو محفوظ الآن فى دار الوثائق الفرنسية تحت رقم: arabe 5069 ، ولسنا نعرف كيف انتقل الى هذه الدار ولكن من المحتمل انه كان ضمن مقتنيات ونجت

وعنوان المصنف «الفيوضات الوهبية فى مراسلات وواردات المهدية » . وله مقدمتان ، او خطبتان كما يقول المصنف ، وقد تعرض المصنف فى المقدمتين الى طـــرف من حياة المهدى ثم بين اهدافـــه من التصنيف واسلوبـــه فى الجمـــع ، ويقول عن دواعى التأليف : «فدعانى ذلك الداعى الذى هو داعى المحبة فى الجناب ان اتعرض لنفحات بره بأن الوذ بالاعتاب وانصدى الى ان اتشرف بنوع خدمة ارجو الله ان انخرط بها فى سلك الاصحاب واكون من خواص الاحباب» ، ثم يقول : « لما رأيته من ان تداول الايادى كاد ان يذهبها لعدم من يذهبها مذهبها ويسهل للاخوان على ذلك الأمور الاطلاع لصعوبة استقصا متفرقات الرقاع » (١) . ويبدو من ذلك ان محمد المجذوب كان متيقظا للدور الذى يقوم به ويكاد ان يكون من النوع الذى يعرف التصنيف . وفى مكان آخر من المقدمة يقول انه لم يراع النسق التاريخى فى ترتيب المحتويات ، وانه اختار من المنشورات ما كتبه المهـــدى بنفسه « الا فى قليل من الاماكن فنورد بعض ماعرض عليه واستحسنته لتضمنه حكما او معان نفيسة واساليب مستحسنة ، ونذكر ان ذلك بخط الاخوان » (٢) .

---

(١) المقدمة ص ٥

(٢) المقدمة ص ٦ .

وتفيدنا المقدمة ان محمد المجذوب قد وضع مؤلفه فى سبعة أبواب وجعل لكل باب جزءا وهى : الجزء الاول ، ويحتوى على منشور الصلاة والراتب والادعية والاذكار ، اى ان هذا الجزء اوقف على الاعمال الدينية من صلاة وصوم وادعية وتوسلات ، وهذا تطور واضح لما نجده في الجزء الاول من الفيوضات للمسامى ومصنف الصادق حيث تأتى الاعمال الدينية فى البداية وتليها الانذارات . لقد جعل محمد المجذوب للاعمال الدينية جزءا خاصا بعد ان كانت تحتل مفتتح الانذارات . والجزء الثانى ، ويحتوى على منشورات الدعاية الى الله والانذارات . والجزء الثالث وهو يتضمن منشورات تتعلق بالأحكام والآداب . والجـــزء الرابع ، ويحتوى على المنشورات التى تحث على الجهاد والتحذير من الغلول والترغيب فى الآخرة والتزهيد فى الدنيا . وقد خصص الجزء الخامس لمخاطبات المهدى للخليفة عبد الله والحضرات ومخاطباته لكبار اعوانه بينما خصص الجزء السادس لخطب المهدى . اما الجزء السابع فقد جعله لما فات عليه نسخه فى الاجزاء السالفة .

ويقع الجانب الذى وقفنا عليه فى ثلاثة اجزاء ، وهى الاجزاء الاولى التى وصفناها . اما الاجزاء التالية فلم نقف عليها ، ويبدو ان المصنف قد غنم قبل ان يكتمل . ويتكون الجزء الاول من ٧١ صفحة ، بخلاف صفحات الفهرست ، وبه ٣١ قطعة كلها تدور حول العبادة والتعبد كمنشور الصلاة ، والصلاة الشعبانية ، وقيام رمضان ، والصوم والراتب وما يتصل به كالادخالات وكيفية قراءاته وضبط نصوصه ثم الادعية والابتهالات . وهناك رسالتان من أحمد النور الى المهدى فى امور العبادات ورؤية اضيفت الى الراتب ، ثم قصيدة عبد الله الطيب بن قمر الدين المجذوب فى فضل الراتب ومرتبة الامام المهدى ثم سؤاله الى المهدى عن كيفية قراءة الراتب . اما ما عدا ذلك فصادر من المهدى .

اما الجزء الثانى فيتكون من ٨٤ صفحة بخلاف الفهرست ، وتبلغ محتوياته ٤٩ قطعة كلها من المهدى . والموضوع الذى يعالجه هو الدعاية الى الله والانذارات ، اى كيفية نشر الدعوة ودفع الناس لها وتذكيرهم ومذاكرتهم . وقد جمع فيها المصنف اشهر الانذارات والبيانات واهتم اهتماما خاصا بما يتصل بشرق السودان كرسالة

المهدى الى السيد محمد عثمان الميرغنى والسيد بكرى بن السيد جعفر الميرغنى ووثائق تأمير عثمان دقنة على الشرق .

اما الجزء الثالث فهو فيما نعتقد عبارة عن نسخة منقولة عن كتاب الاحكام والآداب الضائع ولكننا لا نعرف مدى التزام المصنف ، هل كان نقاه مطابقا لما وجد ام تصرف بالاضافة والالغاء . وهو يتكون من ١٣١ صفحة بخلاف الفهرست ويحتوى على ١٢٣ قطعة . وقد اعتمد المصنف اعتمادا اساسيا على الوثائق التى توفرت فى ديوان شرق السودان ثم اضاف اليها ما جمعه عن طريق المراسلة . وقد لوحظ انه يهتم بالمحررات المتصلة بشرق السودان وان كان لا يأتى بها كلها لأنه مقيد بما كتبه المهدى او بما اجازه . ويلاحظ ايضا انه ينقل النصوص غير المعدلة لعدد من المحررات مثل رسالة المهدى الى السنوسى ومنشور الدعوة .

فيوضات المسلمى : لقد بلغ مصنف الرسائل على يد عوض الكريم على المسلمى ابلغ ما بلغ ويعد مصنفه المحفوظ بمكتبة كلية الدراسات الشرقية بجامعة درهام اعظم وأوفى المصنفات المعروفة حتى الآن . لقد أخذ المسلمى فكرة الاجزاء المتسلسلة من اجزاء المصنفات المطبوعة الا انه استقل بطريقته الخاصة فى التبويب والتسلسل . وقد جمع المسلمى عددا وافرا من وثائق المهدى وصنفها تصنيفا يقوم على دراية ، فهو يرتبها ترتيبا منطقيا ويفرق بين ما كتبه المهدى بنفسه وما كتبه الكتاب باسمه ، ويجعل لكل قطعة مقدمة يذكر فيها ظروف الكتابة أو ما يعرفه من فوائد .

ويفيدنا المسلمى فى الصفحة الاخيرة من الفيوضات بانه انضم الى ثورة المهدى بينما كان المهدى فى كردفان ، وانه بدأ يجمع المحررات منذ ذلك الوقت . وقد اقام المسلمى ردحا من الزمن فى منطقة دنقلا ، وفيها كتب مصنفا على الاقل ، وهو المصنف المحفوظ عند السيد محمد المهدى بن الخليفة عبد الله . وتوجد بدار الوثائق نسخة مصورة منه . وقد عاد المسلمى بعد ذلك الى امدرمان واقام حتى سقطت دولة المهدية ، وفيها كتب مصنفه المهم والذى نتناوله هنا . وقد درس بالمعهد العلمى بأمدرمان ، وتوفى فى عام ١٩٦٤م دون ان يترك عقبا .

ويبدو من تعاقب محتويات مصنف محمد المهدى ومن التعليقات التى يكتبها

حول المحررات ان المسلمى كان على اتصال بكاتب مصنف الصادق ، ولسنا ندرى ايهما كان يأخذ من الثانى .

ويتكون مصنف محمد المهدى من ٦١٥ صفحة وتبلغ مساحة الصفحة ٢٣×١٦ سم ، وتبلغ المساحة المكتوبة ١٨ × ١٠½ سم ومسطرته ١٤ سطرا . وتوجد نسخة مصورة منه بدار الوثائق تحت رقم مهدية ١٦/٩/٨ . والنصوص منقولة بالحبر الاسود اساسا ويرد الحبر الاحمر فى المواقف المهمة . والصفحات معقبة ومرقمة معا . ولكن الترقيم بقلم الرصاص وبخط يد آخر .

ويفيدنا المسلمى على عادته فى آخر المصنف بظروف الكتابة ، وهو يذكر انه صنف هذا المصنف بدنقلا العرضى فى سنة ١٣٠٥هـ . وترد بعد ذلك معلومة تفيدنا بان المصنف انتقل من المسلمى الى عمر رحمة . وقد سقطت من المصنف ورقة واحدة فى اوله ، وفى نهايته يرد الفهرست ، الا ان هذا بخط يد آخر وورق يختلف عن ورق المصنف . ويبدأ الفهرست ببداية المصنف الحالية ولا يذكر القطع الساقطة فى اوله ، ومن هنا فان الفهرست قد وضع بآخرة وبعد سقوط اول المصنف . ويتضمن المصنف ١٤١ قطعة منها ٧ من الخليفة عبد الله والامراء و١٢٥ من المهدى . وهناك خمسة ادعية واربعة دروس دينية وأقوال مروية عن المهدى .

اما المصنف المهم فهو : كتاب « الفيوضات الوهبية لصاحب الخلافة المصطفوية محمد المهدى المنتظر » ، ويفيدنا المسلمى فى فقرة بنهاية الجزء الرابع انه وضع مصنفه فى امدرمان فى سنة ١٣٠٩هـ ، ثم يضيف أن الزيارة بنت الشيخ القرشى قد عاونته فى اعداد المصنف . ومن غرائب الصدف اننى وقفت على فقرة المسلمى هذه بينما تعاوننى فى ضبط آثار المهدى الاستاذة الزيارة عمر عبد الله ، وهى حفيدة الزيارة بنت الشيخ القرشى التى اشار اليها المسلمى . ويتكون مصنف الفيوضات من اربعة اجزاء وكل جزء منه يختص بموضوع معين . فالجزء الاول يتضمن القطع المتصلة بالعبادات سواء كانت اعمالا دينية خالصة كالراتب والأدعية او رسائل تعالج هذه الناحية ، كما يتضمن بعض الانذارات والبيانات ، وهو يختلف هنا عن محمد المجذوب الذى يجعل الجزء الاول من مجموعة باريس وقفا على الاعمال الدينية الخالصة. ويتضمن الجزء الثانى الرسائل التى تتصل بالاسس الرئيسية لفكرة المهدية ، بينما

يتضمن الجزء الثالث وثائق الاحكام والآداب وما يتصل بهما . اما الجزء الرابع فهو اساسا للخطب ، غير انه يحتوى على اضافات من الرسائل . وتقع الاجزاء الاربعة فى مجلد واحد يبلغ ٩٧١ صفحة بطول ٣٣ سم وعرض ٢٥ سم . ويبدو ان المسلمى قد أخذ فكرة الاجزاء من سلسلة المنشورات المطبوعة التى تجعل كل جزء من الاجزاء خاصا بموضوع معين .غير أن ترتيبه للاجزاء مختلف . فالجزء الثانى عند المسلمى يقابل الاول هناك . وكذلك الثالث والرابع اللذان يقابلان الثالث والرابع هناك . والجزء الاول عند المسلمى جديد لأن الاعمال الدينية الخالصة لا ترد فى الأجزاء المطبوعة . اما الجزء الثانى من المطبوع فليس له مقابل فى اجزاء المسلمى لأن المسلمى يوزع الانذارات والبيانات فى الاجزاء المختلفة . والجزء الاول فى الفيوضات يقابل مصنفه المحفوظ عند محمد المهدى ، وان كانت هناك اختلافات طفيفة . ويلاحظ ان الرسائل لا تتكرر فى الاجزاء الا قليلا ، وهو لا يلجأ الى التكرار الا اذا كانت الرسالة مما يجوز وضعه تحت اكثر من باب . وتتكرر الرسالة الواحدة اذا كانت موجهة لأكثر من جهة .

وقد وضع المسلمى فى أول كل جزء فهرسا بمحتوياته،ويرد الوصف فى الفهرست على اسس مختلفة ، فهو احيانا يصف الرسالة بالموضوع ، واحيانا بالجملة التى تبدأ بها الخ ، وقد نقل المصنف هذا الوصف ايضا قبل الرسائل مضافا اليه بعض البيانات كظروف التصنيف وبيان ما كتبه المهدى بنفسه ، وهو ما يشير اليه بخطه عليه السلام أو ما كتبه له كتابه .

وقد صنف المسلمى الاجزاء واحداً وراء الآخر ، وقد ادى ذلك الى بعض الاضطراب ، واوضح ما يكون هذا الاضطراب فى الجزء الرابع المعد للخطب ، حيث يضع المصنف مزيدا من الرسائل . وهذا يوحى بأن المسلمى لم يكن يملك كل الوثائق الواردة فى المصنف جملة واحدة وانما وقف على محررات كثيرة بعد ان فرغ من التصنيف . ويبدو من الطرف الذى اضافه الى الجزء الرابع انه عثر فى ديوان المهدية او عند شخص على اتصال به على مجموعات من وثائق المهدى الى الامراء .

ويتكون الجزء الاول من ٢٢٧ صفحة ويحتوى على ١٦٣ قطعة ، وهناك فهرست يتكون من ١٧ صفحة . ويبدأ هذا الجزء بالنصوص الخاصة بالعبادات

كالراتب والأدعية والمنشورات التى تعالج الصلاة والصوم . ويلى هذه الطائفة عدد من الانذارات والبيانات . اما الجزء الثانى فيتكون من ٢٢٤ صفحة منها ٧ صفحات للفهرست . ويتضمن الجزء ٢٢٣ رسالة كلها من المهدى . والموضوع الذى تدور حوله وثائق هذا الجزء هو الاسس الرئيسية لفكرة المهدية والاجهزة التى خلقها المهدى ، وهو يقابل الجزء الاول من المنشورات المطبوعة وان كانت هناك اختلافات فى عدد الرسائل وترتيبها وبياناتها . ويتكون الجزء الثالث من ٢٢٤ صفحة ويتضمن ٢٢٤ قطعة تعالج الاحكام والآداب وبعض الانذارات والبيانات . وهناك امتداد لهذا الجزء فى الطرف الثانى من الجزء الرابع . ويبدو واضحا ان الجزء كان فى الاصل ينتهى عند صفحة ٢٠٩ ، ثم اضاف المسلمى ما بعد ذلك بآخرة . وهذا الجزء مرقم بالحبر الاحمر على عكس الصفحات السالفة ، وقد اخطأ المسلمى فى الترقيم اذ كتب ٣٠٠ بدل ٢١٠ ثم انقلب من الورقة التالية يرقم بالحروف من (أ) الى (ط) . ويعتبر الجزء الثالث من أوفى مصادر الاحكام والآداب. ويتكون الجزء الرابع من ٨١ صفحة ، وهو يقع فى قسمين ، قسم الخطب فى ٥٦ صفحة ، وهو الاصل فى الجزء ويتضمن ٣٢ خطبة للمهدى ، وقسم نقل فيه مزيدا من الرسائل . ومن المظنون انه يستدرك هنا مافات عليه ضمه فى الاجزاء السابقة وبالاخص الجزء الثالث . ويبلغ ما اضيف هنا ٩٤ رسالة اغلبها موجه الى الامراء . وقد وقف الترقيم عند صفحة ٤٨ . وجاء الفهرست هنا غير كامل ايضا . ويلاحظ ان الخطبة التى تبدأ بقوله : «الحمد لله الذى من علينا بأيام نستعد بها » لا ترد ضمن خطب المصنف وان كان من المحتمل انه ترك الفراغ الذى نجده فى صفحة ٥٨ و٥٩ لهذه القطعة ، كما يلاحظ ان المسلمى لا ينقل فى هذا الجزء بعض الخطب التى سجلها فى الكراسة التى وجدت مع المصنف .

مصنف النجومى :

يعرف هذا المصنف عادة بمخطوط النجومى او مجموعة النجومى نسبة الى أمير الامراء عبد الرحمن النجومى الذى قاد الحملة التى ارسلها الخليفة عبد الله لفتح مصر . وكانت مخابرات الجيش المصرى قد عثرت عليه بعد واقعة توشكى التى اندحر فيها جيش النجومى . وقد بقى منذ ذلك الوقت ضمن مجموعة وثائق المهدية التى كانت المخابرات تغنمها من وقت لآخر وهو محفوظ الآن فى دار الوثائق القومية

تحت رقم مهدية ٤/٨. وكان الظن الى وقت قريب ان للنجومى علاقة بالمصنف سواء عن طريق الكتابة او عن طريق التملك ، وقد جاءت نسبته اليه لهذا السبب . ولكن الاحتمال الاقوى هو ان المصنف كان ملكا لاحد المحاربين الذين اشتركوا فى الواقعة . وهو اسبق مصنفات الوثائق التى وقعت فى يد المخابرات ، وقد اعطى الفرصة لأول مرة لتقييم التيارات السياسية والاجتماعية التى كانت تشكل حركة المهدية على ضوء وثائق هذه الحركة ، ومن ثم لعب دورا خطيرا فى اعطاء الصورة الداخلية للثورة المهدية لذوى الشأن فى مصر .

ويعتبر المصنف من اشهر مصنفات الرسائل : فقد قامت المخابرات بدراسة محتوياته وترجمت اطرافا منه ، وقد نقل ونجت خلاصة هذه الدراسة وبعض الاجزاء التى ترجمت فى كتابه : « المهدية والسودان المصرى » . كذلك نقـل نعوم شقير بعض وثائقه فى تاريخه ، وعن تاريخ نعوم ترجم ارنست ديترش بعض الوثائق الى اللغة الالمانية . وفى السنوات الاخيرة حظى المخطوط بالتفات الدكتور هولت فى عدة مقالات . ثم كانت اطروحتى الجامعية عنه .

يتكون المصنف من ١٣٤ صفحة ، وتبلغ مساحة الصفحة ٣٤×٢٢سم والجزء المكتوب من الصفحة ٢٨½ × ١٧½ سم . وفى كل صفحة ٣٦ سطرا تقريبا . ومتوسط مافى كل سطر ١٨ كلمة . ومتوسط عدد كلمات الصفحة ٦٤٠ كلمة . وما بين السطر والسطر يبلغ ٩ مليمترات . وقد سقطت منه بعض الاوراق ، وذلك من قبل ان يقع فى يد المخابرات . ويقع السقط الاول فى بدايته ويبلغ ذلك ورقة واحدة ، وقد سقط فيه الجانب الأكبر من الرسالة الاولى ، وهذا الجانب يبلغ نحو صفحة كاملة من صفحات المصنف . ونحن نحتمل أن الصفحة الاولى كانت خالية من الكتابة ، وان الساقط فى هذا الموضع لا يتعدى ذلك الجانب من الرسالة الاولى . ويقع السقط الثانى فى وسط المصنف مابين صفحة ٣٢ وصفحة ٣٩ . وقد سقط هنا مؤخرة الوثيقة ٤٤ ومقدمة الوثيقة ٤٥ بالاضافة الى عدد لا نعرفه من الوثائق . والموضع الثالث يقع فى نهاية المصنف ولا يعرف مداه . وقد وضع موظفو المخابرات المصرية ورقة فى المؤخرة ورقموا صفحتيها بالعلامات ، ومكانها الصحيح هو ما بين صفحتى ١٣٢ و١٣٣ ، وقد اعطيناها الرقم ١٣٢/١ و ١٣٢/٢

وورق المصنف عبارة عن دفتر من الدفاتر التجارية المعروفة بالاستاذ ونوعه من الذى يسمى « journal paper » . وقد ورد فى أعلى صفحة ٨٤ بجهة اليمين رقم الصفحة من أصل الدفتر وهو ٢٠٠ . وصفحات الدفتر مسطرة بالحبر الاسود افقيا وبالحبر الاحمر عموديا . والمداد الذى استعمل فى نقل النصوص ليس مداد العمار البلدى الذى يصنع من الصمغ والسجم ، وانما هو من المداد الذى غنم من مخازن الحكومة المصرية فى السودان ، وهو اكثر بقاءا على الورق من العمار . ولون المداد الغالب هو الاسود ، وهو اللون المستعمل فى محررات المهدية . وقد استعمل الكاتب المداد الاخضر فى حالات قليلة لبيان المواقف المهمة والتنبيه اليها (١) . ويلاحظ وجود مداد ازرق فى بعض الصفحات (٢) . والقلم المستعمل فى الكتابة هو قلم البوص الذى كان شائعا فى المهدية .

وصفحات المصنف معقبة ومرقمة معا . والاصل الذى اتبع فى ذلك هو التعقيب وهو رسم الكلمة التى تبدأ بها الصفحة المقابلة فى نهاية الصفحة المنتهية . اما ترقيم الصفحات فهو مما اضيف اليه مؤخرا ، وقد تم ذلك فى مرحلتين . ففى المرحلة الاولى رقمت الصفحات الاولى حتى صفحة ١١٤ . ويغلب على الظن ان مرقم هذا الجزء شخص غير المصنف لأن خطه مغاير ولأنه وضع بنفس القلم تعليقات عارض بها الكاتب . وقد وقف ترقيمه عند صفحة ١١٤ ولم ترد له تعليقات بعد هذه الصفحة . ويحق لنا ان نستنتج من هذا انه لم يقف على ما يلى هذا الجزء ، او انه لم يدرك قراءاته . ويمكن القطع بأنه قام بهذا الترقيم قبل واقعة توشكى بزمن لأنه ادخل فى ترقيمه الصنف التى وجدت ساقطة عند العثور على المصنف بعد تلك الواقعـــة .

وفى المرحلة الثانية تم ترقيم الصفحات من ١١٥ حتى النهاية . ويلاحظ فى هذه المرحلة ان المرقم لم يدرك موضع ورقة واحدة فرقمها بعلامة ووضعها فى المؤخرة مع ان مكانها الصحيح هو ما بين ١٣٢ و١٣٣ . ويلاحظ ايضا انه لم يتنبه الى الخرم الذى نشأ عن سقوط هذه الورقة من مكانها فمضى فى ترقيمه وكأن لم يكن هناك سقط .

(١) انظر مثلا ص ١١٣ .

(٢) انظر مثلا ص ٣٢ ، ٧٩ ، ١٠٤ .

ونحسب ان هذه الأخطاء لا تقع الا من شخص ليست له صلة بكتابة المصنف او جاهل بتتابع النصوص ، وهو فى الحالتين يكون غير المصنف والمرقم الاول . وقد اتسخت الصفحات بالحبر من جراء قلب الصفحات على عجل اثناء الترقيم ، ونحسب ان هذا لا يكون اذا تم الترقيم اثناء كتابة النصوص ، ذلك لأن الاتساخ يدل على قلب الصفحات قبل ان يجف المداد . وبالنظر الى هذه الملاحظات فاننا نعتقد ان هذه المرحلة قد تمت فى مرحلة متأخرة وعلى يد موظفى المخابرات الحربية المصرية .

وفى الهوامش تعليقات شتى ، وقد توالت فى ثلاث مراحل . ففى المرحلة الاولى استدرك المصنف — اى عبد الحكم — مافاته او صحح ما وقع فيه من الخطأ . أما فى المرحلة الثانية فقد كتب المرقم الأول بعض التعليقات المتصلة بالنصوص ، ومن ذلك بيانه لكلمة (للمتمتعين) فى صفحة ٤٢ ، واستدراكه لصفة خطاب المهدى الى الشلالى فى صفحة ٧٣ وذلك حين يلاحظ ان الخطاب انذار وليس بمنشور ، وهو مصيب فى ذلك . ومن ذلك انه كتب اسم الأب للكاتب فى صفحة ١١٠ . والمرحلة الثالثة هى مرحلة المخـــابرات الحربية المصرية ، وقد كتبت تعليقاتها باللغة الانجليزية غالبا وبالقلم الرصاص أو الاقلام الملونة .

ويتضمن المصنف ١٤٤ قطعة منها رسالة نقلها الكاتب مرتين وهى رقم ٥١— ١٠١ ، ورسالة وردت مقدمتها فى مكان ثم وردت كاملة فى مكان آخر وهى رقم ٦—٢٦ ، ورسالة دل البحث على انها اقدم من السلسلة الرئيسية التى نقلها عبد الحكم وهى رقم ٥ ، وعلى هذا يكون عدد ما يحويه المصنف ١٤٢ قطعة منها ١٤١ قطعة منقولة بخط عبد الحكم . ويبلغ ما صدر منها من المهدى أو ما هو متصل به ١١٢ قطعة ، وهناك ١٩ قطعة صادرة من الخليفة عبد الله . اما القطع الباقية فقد صدرت عن اشخاص غير المهدى والخليفة عبد الله . والوثائق المنسوبة الى غير المهدى لا ترد كملحقات لرسائل المهدى كما قد يظـــن وانما نقلها المصنف لما لها من اهمية ذاتية . ويستثنى من ذلك رسالتان موجهتان الى المهدى ، ويتضمن المصنف كل الانماط القلمية التى عرفها الانصار .

واقدم وثيقة فى المصنف هى رقم ٥٨ وهى صادرة فى أول شعبان سنة ١٢٩٨هـ/ ٣٠ يونيو سنة ١٨٨١م ، واحدثها الوثيقة رقم ١٠٨ وهى صادرة فى شعبان سنة

١٣٠٥هـ/ ١٣ ابريل - ١١ مايو سنة ١٨٨٨م ، وليس بين المحررات التى لا تاريخ لها ما يحتمل صدوره خارج هذه الفترة ، اى ان وثائق المصنف قد حررت فى الفترة الواقعة ما بين اعلان المهدية فى الجزيرة ابا فى اول شعبان سنة ١٢٩٨ وبين اواخر سنة ١٣٠٥هـ . وبالتالى فان المصنف لا ينقل شيئا من المحررات التى كتبها المهدى قبل اعلان المهدية عاما ولا مما صدر عن الخليفة عبد الله بعد شعبان سنة ١٣٠٥هـ.

وتبلغ الوثائق المؤرخة ٤٤ وثيقة ، منها ٢٨ وثيقة مؤرخة كاملا باليوم والشهر والسنة ورسالتان مؤرختان باليوم دون السنة (١) و٣ وثائق مؤرخة بالشهر والسنة ، و١١ وثيقة مؤرخة بالسنة فقط . وقد نقل الكاتب هذه التواريخ عن المصادر التى وقف عليها ولم يبذل من جانبه جهدا لاستنباط التواريخ من الحوادث التى ترد فى النصوص أو معارضة مسوداته بغيرها من المصادر . ومن الانصاف ان نقول ان احدا من مصنفى الرسائل لم يأخذ بهذا الاسلوب . ويكتب الكاتب التاريخ فى نهاية الوثيقة مباشرة وذلك على النحو الذى اتبع فى الاصول . ولكنه لجأ فى حالات كثيرة الى كتابته فى الهامش، ويبدو انه يلجا الى ذلك اذا فاته ان يثبت التاريخ اثناء النقل . والخطة السائدة فى نقل التاريخ هى كتابة تاريخ السنة أولا ثم كتابة اليوم والشهر تحته ، ولكن يلاحظ فى اماكن قليلة انه يقلب هذا الترتيب بحيث يرد تاريخ اليوم والشهر فوق تاريخ السنة (٢) . وقد كتب تاريخ السنة فى بعض المواضع حسب ترتيب النطق لا حسب الترتيب العشرى نحو ١٣٠٠١و ١٣٠٠٢ و١٢٠٠٨٩ وهو يقصد ١٣٠١ ، ١٣٠٢ ، ١٢٩٨ على التوالى (٣) .

وتقع الكتابة داخل مستطيل ، ولا يضع المصنف على جوانب هذا المستطيل خطوطا كالخطوط التى نجدها فى المصنفات المطبوعة حول الجزء المكتوب . وفى حالات قليلة ينساب قلمه الى خارج الحيز الملتزم . كذلك يلاحظ انه فى حالات كثيرة يقف دون نهاية هذا الحيز ، وقد لجأ فى بعض هذه الحالات الى تكملة السطر

---

(١) ربما كان ذلك راجعا الى ان المهدى لم يضع تاريخ السنة فى اصل المحرر وانما اكتفى بتاريخ اليوم والشهر كما يفعل بعض الناس فى مذكرات الدواوين .

(٢) المخطوط ص ٤ .

(٣) المخطوط ص ١٠ ، ٣١ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٦٨ - توشكى ص ٣٦ ، ١٣٤ ، ١٩٤ ، ٢٠٩ ، ٢٥٧ .

بخطوط افقية أو عمودية او نقاط . ولا يضع الكاتب فواصل واضحة بين القطعة والتي تليها وذلك بأن يضع بينهما خطا او يترك فراغا ، او بأن يبدأ القطعة بسطر جديد ، وانما تبدأ القطعة بنهاية التي قبلها مباشرة ، ولذلك يصعب على المرء ان يقف على مواضع البدايات والنهايات ، وربما غفل هولت ونجت عن بعض القطع لهذا السبب . وقد سار على هذا المنوال ، اى عدم الفصل بين القطع ، اغلب المصنفات المخطوطة . أما المصنفات المطبوعة فقد فصلت بين القطع بفواصل واضحة . وقد لوحظ ان كتاب الفونج لم يأخذوا بوضع الفواصل والنقط وما الى ذلك مما ينظم الكلام ويرتب تتابعه وانما كانوا يبدأون بأول السطر الاول ثم يمضون على وتيرة واحدة حتى نهاية الكلام . ويبدو ان الشكل الذى اتخذته المصنفات المخطوطة فى هذا الجانب يرجع الى هذه العادة .

ولبيان نهايات القطع وبداياتها سلك المصنف اساليب مختلفة منها الاشارة اليها فى الهامش بعلامة الوقف ، وقد فعل ذلك فى اغلب الحالات ، ومنها وضع علامة فصل بين القطعتين او الاشارة الى النهاية بلفظ : انتهى أو باختصاره أ.هـ.

وقد اتخذ المصنف بعض العلامات والرموز للدلالة على أوجه الاستدراكات التى وضعها فى الهوامش او التنبيهات فى داخل المتن . ويبدو من الاسلوب الذى اتبعه انه كان على شئ من الادراك بفنون النسخ التى اتبعها نساخ المخطوطات ،ولا يكاد يحط من قيمة رموزه الا غفلته التى تجعله يخلط بين الرموز فى مواقف كثيرة .

وبمتابعة الرموز والاستدراكات المختلفة يتبين لنا انه اتخذ علامة فى المتن للدلالة على موضع السقط . وعلامة اخرى فى المتن ايضا للدلالة على وجود تعليق على اللفظ الذى ترد العلامة فوقه . وقد استعمل نفس العلامة فوق التعليق فى الهامش الذى على جهة اليمين . وقد اتخذ علامة ثالثة فى المتن لملء مستطيل الكتابة اذا وقفت الكتابة دونها (١) ، او للفصل بين نهاية قطعة وبداية اخرى (٢) ، او لبيان الشعر من النثر وللفصل بين شطرى البيت ، (٣) او فى مكان الفاصلة(٤)، او لبيان الحاشية من المتن(٥) او للفصل بين الوثائق ومقدماتها (٦) . وعلامة رابعة ترد فوق الاستدراكات

---

(١) المخطوط ص ٤ ، ٧ ، ٣١ ، ٦٧ (٢) المخطوط ص ٤ (٣) المخطوط ص ٤٦ ، ٦٧
(٤) المخطوط ص ٩٤ (٥) المخطوط ص٤٦ (٦) المخطوط ص٢٧، ١٣٣ .

فى الهامش للدلالة على ان الاستدراك يتبع الاشارة التى وضعها فى المتن قصاده . وقد لوحظ أن المصنفات المطبوعة رقمت مثل هذه الاستدراكات اذا تكررت فى الصفحة الواحدة ، اما المصنف فيكتفى بوضع الاستدراك قصاد المكان مع العلامة التى يراها . وقد لوحظ ايضا انه فى بعض الاحيان يكتب الاستدراك ثم ينسى ان يضع فوقه العلامة أو أن يؤشر عليه بشئ . ويستعمل المصنف علامة خامسة ايضا لملء مستطيل الكتابة ، وهذه العلامة ترد فى المخطوطات السودانية . ويستعمل الكاتب فى الهامش لفظ صح او الحرف ص فوق الاستدراك على جهة الشمال للدلالة على ان ما استدركه ساقط من النص . وهو يستعمل لفظ بيان او الحرف ن للدلالة على ان للفظ الذى يرد فوقه قراءة اخرى ، نحو «يسمع» مكان «يقبل» فى صفحة ٩٧ ، و«الخلق» مكان «الناس» فى صفحة ١٠١ و «للمؤمن» مكان «للمسلم» فى صفحة ١٢٦ . وقد اتبع نفس الاسلوب لتصحيح خطأ فى الاصل نحو : «اثاقالتم» بدل «اثقالتم» (١) فى صفحة ١٠٤ او لبيان تصحيح اجراه على كتابته فى المتن ، نحو «بمراده» فى صفحة ٨١ ، «وبثناء» فى صفحة ٨٣ . ولا يستعمل الكاتب علامات النقل والاستدراك فى السطرين الاول والاخير حيث يلجأ الى التصحيح فوق السطر الأول او تحت السطر (٢) وهذا نوع من عدم الانضباط .

ويستعمل الكاتب بعض الاختصارات نحو الخ اختصارا لقوله الى آخره ، وهذا امر شائع ، ونحو ص . م اختصارا للصلاة على النبى (٣) ، و ا.هـ. اختصارا للفظ انتهى (٤) ، وحرفى الصاد والنون اختصارا للفظى صح وبيان . ومثل هذه الاختصارات يرد كثيرا فى المخطوطات السودانية .

وقد استعمل الكاتب الوقف فى الهامش والمتن . والغرض من الوقف هو تنبيه القارئ الى المواقف المهمة . ولفظ الوقف هو قف أو قف هنا أو قف عليه . وقد بلغ عدد المواقف فى الهامش ٩٥ وقفا ، منها وقف واحد للاشارة الى نص القنوت(٥) فى داخل منشور الصلاة ، وآخر للاشارة الى تحشية (٦) ، وثلاثة للاشارة

---

(١) ينص عدد كبير من المصادر على أثقالتم فى هذا الموضع ومن المحتمل ان يكون الخطأ من الاصل
(٢) المخطوط ص ٢١ .
(٣) توشكى ص ٤٣٦ ، ٤٥٤ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ .
(٤) نفس المصدر ص ٢٦١ ، ٤٣٥ ، ٤٣١ ، ٥٣٧ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٥٠٣ ، ٢٥١.
(٥) المخطوط ص ٦٣ ، توشكى ٢٣٧ . (٦) المخطوط ص ٤٦، توشكى ص ١٧٦ .

الى فصول القطعة الواحدة(١) . اما ما عدا ذلك فالغرض منه هو التنبيه الى مواقف البداية والنهاية للوثائق . واحيانا يأتى الوقف لأمور تتصل بالتصنيف ، ومن ذلك انه ذكر فى الصفحتين الرابعة والسادسة موضع بقية الرسالة الرابعة ، وانه ذكر فى صفحة ٩٤ أن مانقله الى ذلك الموضع يبلغ ٨٤ منشورا .

ويقدم الكاتب بعض المحررات بمقدمات تعريفية ، وترد هذه المقدمات قبل النص أو فى الهامش ، واحيانا يضعها الكاتب بعد بداية القطعة، وهذا خطأ . وقد اختلط على الكاتب فى كثير من المواضع هذه المقدمات وعلاقاتها بالنصوص الى الحد الذى يجعلنا نعتقد انه كان ينقلها عن مصادره دون تمحيص . ولما كانت اصول الوثائق تخلو خلوا تاما من المقدمات فاننا نميل الى القول بأن هذا النوع من الوثائق من مصنف للرسائل ، او من الكراسات التى كان يجمع فيها النساخ بعض المحررات التى يقفون عليها . وليست هناك قاعدة عامة تتحكم فى بناء المقدمات وانما يتفاوت بناؤها وتتشكل حسب الجانب الذى كان يهمه من الوثيقة . واحيانا تذكر المقدمة الشخص الذى صدرت عنه الوثيقة كأن يقول من المهدى او من الخليفة او قاضى الاسلام مثلا ، واحيانا تذكر الجهة التى تخاطبها الوثيقة كغردون والشلالى . وفى بعض الحالات تدور المقدمة حول موضوع المحرر : قف على قيام رمضان ، قف فى الترغيب على الجهاد ، قف على منشور النبى عيسى ، قف على منشور جبل الداير ، قف على وصية الله للامم ، قف لمنع ركوب الخيل الا فى موضعه . وقد تبدو هذه المقدمات تافهة لأول وهلة ولكنها فى كثير من الاحيان تفيدنا ببيانات هامة ، ومن ذلك أن قوله : «قف على قيام رمضان فى آخر عمره» يفيدنا بالوقت الذى اتخذ فيه المهدى هذه الصورة لقيام رمضان . ومنه ان تقديمه لرسائل المهدى الى غردون يفيدنا بشئ عن اسلوبه فى ترتيب المحررات كما أن الخلط فى مكان المقدمة بالنسبة للنصوص يدل على مستواه وعلى مدى علمه بالوثائق .

ويذكر الدكتور هولت ان مصنف المخطوط لم يتبع خطة معينة فى ترتيب

---

(١) المخطوط ص ١١٨ – ١١٩ ، توشكى ٤٢٦ – ٤٣٠ .

محتويات المخطوط ، وهذا امر لاشك فيه اذا قسنا تتابع وثائق المخطوط بتتابع الوثائق في كتاب الانذارات المطبوع ، او مصنف الآثار المنسوب الى يوسف ميخائيل ، ذلك لأن هذين الكتابين قد التزما اوضح اساليب الترتيب ، وهو الترتيب الزمني . ويمكن ان نضيف الى ذلك ان الاتجاه العفوي في الترتيب هو الاسلوب الشائع بصفة عامة في مصنفات الرسائل . ولكن أليس من المستحسن أولا وقبل ان نتابع هولت ان نحاول البحث عن المناسبة التي تربط هذه الوثيقة بالاخرى ؟ ان هذه المحاولة حتى وان لم تؤد الى نتيجة حاسمة بالنسبة للترتيب والتتابع فلابد انها ستفيدنا بفكرة عن التكوين العام للمصنف .

ان الرسالتين الاولى والثانية تعالجان موضوعا واحدا هو الحدود . الوثيقة التاسعة والعاشرة والحادية عشر تعالج الغاول . والوثائق ٢٣و٢٤و٢٥ و٢٦ تتصل بالخليفة عبد الله . وبمعنى آخر فان الرابطة او المناسبة التي جعلت هذه المجموعات من الوثائق تتوالى بهذا الشكل هو الموضوع سواء كان متصلا بأمر أو بشخص معين . واذا ما نظرنا الى الامر بهذا الاسلوب فاننا سنجد ان القطع ٣٨ و٣٩ و٤٠ قد وردت بهذا الترتيب لانها موجهة لرجال الحكومة . ويلاحظ هنا ان الكاتب نقل رسالة المهدي الى الشلالي اولا ثم اورد بعدها رسالتيه الى غردون ، وقد قدم للاخيرتين بمقدمة شاملة ثم وضع اقدمها اولا واردفها بالثانية . وقد وردت القطعتان ٤٢ و٤٣ معا لأنهما يعالجان موضوعا واحدا هو قيام رمضان . والقطع ٤٦ و ٤٧ و ٤٨ و ٤٩ تعالج المحظورات والمرغوبات ، وقد جاءت بهذا الترتيب بسبب ذلك . والوثيقتان ٦٩ و٧٠ تردان معا لمعالجتهما لموضوع وفاة المهدي و٧٢ و٧٣ و٧٤ تتوالى بمناسبة الجهة التي ارسلت اليها وهي دنقلا وبربر ، و٩٠ و٩١ ترتبطان بسبب الموضوع وهو النظام القضائي والعسكري . والرسالة ٩١ ترد بعد ٩٠ لأنها ملحق لها . والقطعتان ٩٥ و٩٦ حضرتان ، وهذا هو الذي جمع بينهما ، اى أن الجامع هو نمط المحرر . وتتابعت الوثيقة ١٠٧و١٠٨ لأنهما حضرتان صادرتان عن الخليفة عبد الله ، ولما كان موضوعاهما متصلا ببعض اجراءات الخليفة عبد الله فانه اردفهما بثلاثة مناشير تتعرض لبعض هذه الاجراءات وهي ١٠٩ و١١٠ و١١١ . ولما كانت الاخيرة تعالج فتح الامصار والتبشير بالدعوة فان مناسبة موضوعها قد ادت الى منشور

الدعوة اى رقم ١١٢ ، وهذا بدوره ادى الى رسالة المهدى الى السنوسى اى رقم ١١٣ ، وهى رسالة تدعو الى المهدية وتشبه منشور الدعوة وتقتبس بعض فقراته .

وقد وقف هذا التداعى عند الوثيقة رقم ١١٣ ، وبعدها فتح الكاتب بابا جديدا هو رفع الدعاوى والفتاوى التى اصدرها قاضى الاسلام احمد على ومعاونوه فى عهد الخليفة عبد الله . وقد رتبت القطع ١١٤ الى ١٢٠ على هذا الاساس . ولاتصال هذه بالتنظيمات فانه نقل بعدها منشورا من الخليفة عبد الله يعالج مسألة الزكاة . ثم نقل بعدها منشورا يعالج امر العماة ، والصلة بين الزكاة والعملة واضحة . والمناسبة التى تربط بين القطع ١٣٠ الى ١٣٧ هى كونها تعالج الحدود والاحكام المتصلة بالنظر فى الدعاوى . ويمكننا ان نضيف الى ما تقدم ان عبد الحكم لم يشأ ان يكمل القطعة الخامسة فى المكان الذى بدأها فيه الكاتب الآخر وأنما أوردها كاملة بعد عدد كبير من الوثائق. وهذا يعنى ان مكانها فى ترتيب عبد الحكم مختلف عن مكانها فى ترتيب الكاتب الآخر . وقد ذكر اعلاه ارتباط هذه الوثيقة اى رقم ٢٦ بمحررات جاءت معها .

يظهر مما تقدم ان هناك خيطا ما يربط بين محتويات المصنف وينسق تتابعها بحيث تأتى فى سلسلات من التداعى . ويمكن القول بصفة عامة بأن المصنف يقع فى قسمين ، فالقسم الاول منه يعالج بصفة عامة التبشير بالدعوة والجهاد والآداب العامة والحدود والغلول والمرغوبات والمحظورات . اما القسم الأخير فيعالج فى الغالب النظم المالية والعسكرية والقضائية . كذلك يلاحظ ان الطرف الاول متصل بصفة عامة بفترة المهدى بينما يميل الطرف الثانى الى فترة الخليفة . ويلاحظ ايضا ان الجيوب المتساسلة تبدو اظهر فى القسم الثانى مما هى فى الاول . وقد وقف المصنف عند نهاية الوثيقة ٩٨ فى الثلث الاول من صفحة ١١٤ وقفة طويلة . وقد اتضح لنا ذلك من مظاهر كثيرة : فترقيم الصفحات على يد مراجعه ينتهى عند هذه الصفحة ، ومايلى ذلك من ترقيم المخابرات كما ذكرنا . وقد اختلف لون الحبر ودرجة الخط نفسه من بداية الرسالة الجديدة ، اى رقم ٩٩ . كذلك سجل المصنف اسمه فى اسفل هذه الصفحة. ان هذه الدلائل تدل على ان المصنف وقف هنا لفترة طويلة ، وربما كانت خطته الاولى تنتهى عند هذا الحد . ويضاف الى هذه الظاهرة ظاهرة ثانية وهى ان

المصنف نقل وثائق سنة ١٣٠٥ ثم رجع الى وثائق ١٣٠٣، وهذا يعني انه يمضي على خطة تسير على اساس الموضوع .

وقد ذكر المصنف ازاء الوثيقة ٨٤ فى صفحة ٩٤ انه نقل حتى ذلك الموضع ٨٤ منشورا ، وهذا تقرير مهم لأنه قد يعطينا فكرة عن الوثائق التى سقطت فى اول المخطوط ووسطه . وقد سبق القول بأن ما سقط فى اول المخطوط لا يتعدى الجزء الساقط من الرسالة الاولى ، لأن الصفحة الأولى كانت ــ احتمالا ــ خالية من الكتابة ، وهذا يعنى ان المحررات التى نرجو حصرها تقع فى موضع السقط الثانى . ولكن ماذا يعنى الكاتب بلفظ منشور ؟ هذا سؤال مهم لأنه يعتبر فقط ما يعده منشورا (١) . ان معلوماتنا عن المصنف تدل على أنه لا يعد الادعية والمرويات ضمن المنشورات ، وهذا يعنى انه اسقط فى حسابه الوثائق ٢٧ و٢٨ و٣٢و٣٣و٣٤ ، لأنها أدعية ثم ٥١ لأنها مروية . ويضاف الى ذلك السادسة وهى بداية المنشور . وهناك احتمال باسقاط الخامسة لكونها ليست من سلسلة الكاتب ، واحتمال آخر بوجودها على اساس انها معتبرة ضمن المحررات الكاملة ، وبمعنى آخر فان الوثائق الساقطة فى الموضع المذكور تقدر بنحو ثمان او تسع وثائق . ان هذا العدد يعتبر مقبولا اذا نظرنا الى معدل الوثائق فى المخطوط بأكمله .

والمصنف هو عبد الحكم الطاهر الفكى المكى ، وقد سجل اسمه بخطه فى اسفل صفحة ١١٤ . وقد ورد اسم الأب فى صفحة ١١٠ بالجهة الشمالية بأعلى الصفحة ، وهو بخط غير خط عبد الحكم . وعلى ما بلغنا فانه من بربر ولكننا لا نملك معلومات عن حياته . وكتب مصنف آخر الصفحة الخامسة وجزءا من السادسة . وخط عبد الحكم خط تركى مستاق مقياس ثلث ثلث الثلث بتأثيرات من الخط المغربى مثل الياء الى الخلف ومثل الحمد لله التى هى على حالها المغربية ، ومثل وجود الاسنان فى السين واختها الشين ، ومثل الهاء التى هى على هيئة رأس الهر . ومن أميز أوجه الرسم الاملائى عنده تحويل همزة الوصل الى اصلها نحو الفايزين واوليايه والاستعاضة

---

(١) لا يجعل المصنف للفظ المنشور مصطلحا محددا وانما يجعل كل مكتوب كبير منشورا بصرف النظر عن الشكل والموضوع ــ حتى الخطب (انظر رقم ٨٤) والحضرة (انظر رقم ٩٦) والعبادات (انظر رقم ١٠٥) ، ولكنه لا يعتبر المرويات والأدعية لصغرها .

عن المدة على الالف بهمزة مفتوحة تكتب على السطر نحو ءامنوا واضافة فتحة على الالف السالف لهذة نحو البشآير واثبات الالف فى ذلك ، وتنقيط الياء الاخيرة كاملا . غير أن هذه هى قواعد الرسم المتبعة فى عهده .ومن رسمه الخاص نزوعه فى بعض الحالات الى رسم الكلمات كما تنطق نحو : ها ولاء ، او رسم الارقام حسب ترتيب النطق لا حسب التتابع العشرى نحو ١٣٠٠١ (يقصد ١٣٠١) و١٣٠٠٢ (يقصد ١٣٠٢) و١٢٨٩ (يقصد ١٢٩٨) . ويكثر الخطأ عنده فى التاء المفتوحة والمربوطة ، والمتصل والمنفصل نحو فيما وعما . وعادة يحذف الياء الأخيرة من الكلمات كالجيلانى والبوصيرى والمعالى وتولى فانه يكتبها هكذا : الجيلان (١) والبوصير (٢) والمعال (٣) وتول . ويهتم فى حالات كثيرة بوضع الحركات فوق الحروف ، ومن المواقف المهمة فى ذلك انه يشكل الفتحة الطويلة بفتحة نحو حآل ومآل ، وانه يشكل لفظ الله بكسرة اذا كان فى محل الجر ، وانه يستعمل الكسرة والفتحة معا اذا لم تظهر الحركة فى النطق . وعلى العموم فان الحركات عنده تتبع النطق ، ومن هنا كانت دلالة الحركات على نطقه للالفاظ .

وبالنظر الى اساليب النقل التى وصفناها فان الكاتب كان على ما يبدو ملما الماما لابأس به بأصول النسخ ، ولست اشك فى أنه كان ناسخا قد تمرس على نسخ المخطوطات من قبل ان يقوم بهذه المحاولة . ولكن علم الكاتب بالمادة التى ينسخها لم يكن ليرتفع الى هذا المستوى . وقد تقدم كيف انه يخلط بين بعض المقدمات ونصوص الوثائق ، كما تقدم القول بأنه ينقل ما يجده دون تمحيص او مراجعة للمعنى او معارضة للنصوص بغيرها . وتضاف الى ذلك الغفلة فى النقل وكثرة الاخطاء الاملائية . وقد بينا كثيرا من مواقف الضعف اثناء تحقيقنا للنصوص .

ولقد استقى الكاتب النصوص التى يوردها من مصادر مختلفة . وليست هناك بادرة ما تدل على انه قارن بين هذه المصادر ، او عارض نصوصها ، او قيم درجة النقل فيها . ومن الواضح انه نقل عددا من الوثائق من اوراق محمد الخير عبد الله

(١) المخطوط ص ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٣٢ .

(٢) المخطوط ص ٢٢٥ .

(٣) المخطوط ص ٣٠

خوجلى . ونحن نستدل على ذلك بالوثائق العامة المنسوبة الى محمد الخير وجماعته كالوثيقة ٦٩ و٧٤و٨٩و٩٣ ، اذ ان هذه النسبة تعنى ان الكاتب وقف على النسخ الموجهة اليهم دون النسخ الاخرى الموجهة الى غيرهم من الامراء والعمال . ومن المعتقد ان ما نقل من هذا المصدر لا يقتصر على الوثائق المنسوبة الى محمد الخير وجماعته وانما يتعداها الى غيرها . فقد كانت العادة قد جرت على ارسال نسخ الوثائق العامة او الخاصة الى جهات مختلفة للاعلام ، وعلى هذ فمن المحتمل ان نجد فى بربر الرسالة الموجهة الى السنوسى او الى بقوى الخ . وقد لوحظ أن المصنف رسم فى نهاية الوثيقة ٤٠ ختم المهدى (١) ، وهذا يعنى ان الكاتب اخذ نصها من الوثيقة الأصلية المختومة مباشرة او من نسخة نقلت حرفيا عن الاصل ، ومن المحتمل ان صورة مختومة منها كانت ضمن اوراق محمد الخير . وهناك ما يدل على انه اخذ بعض نصوصه من مصنفات رسائل او من كراسات اعدها غيره . ومن الادلة على ذلك المقدمات والتعليقات التى ينقلها دون ادراك لموضوعها او اماكنها . واكثر من ذلك فان المقدمات لاترد فى أصول الوثائق بحيث نقول انها تنقل عن الاصول . وهناك تعليقات تدل على التصنيف السابق كالتعليق الوارد فى نهاية منشور الصلاة . ومن الادلة ايضا كونه نقل عددا من الأدعية والمرويات ، لأن مصدر هذا النمط من الوثائق ليس الوثائق الرسمية وانما رواة الاخبار ومصنفو الرسائل . وليس من المستبعد ان يكون المصنف قد وقف على كراسات غيره او أخذ بعض النصوص من معارفه. وقد كان بالاقليم الذى تمت فيه كتابة المخطوط عوض الكريم المسلمى مصنف الفيوضات ومصنف محمد المهدى بن الخليفة عبد الله . وربما كان هناك غيره ممن له نظر فى رسائل المهدى ويحتفظ ببعضها . وبالاضافة الى الاتصال المباشر كان هناك الاتصال عن طريق الرسائل للحصول على الوثائق . على ان الشئ الواضح هو ان المصنف قد صنف بعيدا عن المصنفات المطبوعة ، وذلك بدليل التباعد فى الترتيب والاختلاف فى النصوص .

(١) يلاحظ انه يسقط الاسم « محمد » فى رسمه لنقش الختم .

الفصل الثالث

المجالس

المجلس نمط من التصنيف شبيه بالأمالى والمجالس فى التراث العربى . وأصل الأمالى والمجالس ما يمليه المعلم على طلبته فى اللغة والأدب والتاريخ مع شئ من التفسير والحديث . ومن أشهر الأمالى فى التراث أمالى الصولى وأمالى ثعلب — وتعرف ايضا بمجالس ثعلب — وأمالى البغدادى وأمالى المرتضى وأمالى ابن الشجرى . والصوفية يجمعون حكمهم ومأثوراتهم فيما يسمونه المجالس ، ومن ذلك المجالس الرفاعية .

وقد اخذ الانصار اسم المجلس من الصوفية لقربهم اليهم اكثر من اصحاب الامالى ولتوافق مادة المجالس مع مجالس الصوفية لاقتصارها على المادة الدينية ولأن منشأ المجاسين مجلس الوعظ والارشاد .

ان مجالس المهدى مكرس لتدوين ما كان يقوله المهدى فى مجالس الدرس أو غيره من المناسبات من أقوال مأثورة وجوامع كلم واشعار وامثال وحكم وما رواه عن الرسل والاولياء وغيرهم من السلف . وهو كما ترى لون من التصنيف يختلف عن الرسائل والخطب والراتب والادعية ، اذ هذه قد صدرت عن المهدى مكتوبة بينما مادة المجالس مادة مقولة منقولة .

ويرجع تدوين المجالس الى فترة القلق التى اعقبت وفاة المهدى والتى صدرت فيها سلسلة منشورات المهدى وعدد آخر من مصنفات الرسائل وسعادة المستهدى للكردفانى وطبعت فيها رسائل العبادى وزهرا والعوام التى دافعت عن المهدية واكدت شرعتها . وهكذا كان ظهورها مرتبطا بحالة وموصولا باعمال اخرى فى خدمة تراث المهدى . وقد تم اعداد المجالس بالتضافر بين كتاب الخليفة عبد الله وبين بعض القادرين على الجمع والتصنيف كما هو الحال بالنسبة للمنشورات المطبوعة . وبين ايدينا الآن رسالتان تتصلان بتصنيف المجالس ، اولاهما من الطاهر التاتاى الى المدثر ابراهيم فى ١٦ رجب ١٣٠٦ (١) ، ومنها يتضح أن التاتاى قام باعداد مجلسه بناء على تكليف

---

(١) المهدية ، وثائق المطبعة .

الخليفة له وانه اكمل اعداد جزء من المجلس ويقوم باعداد ما تبقى ، وأخراهما من ابكر علوان الى الخليفة عبد الله فى ٢٨ جماد آخر ١٣٠٦ (١) يبين فيها انه تلقى الأمر بجمع المجالس ، وانه مرسل اليه المجالس الذى كان بطرفه ثم يرجوه أن يرسل له مجلسا اذا سمح بتداوله . وظاهر من الرسالتين أن الخليفة وكتابه كانوا وراء تصنيف المجالس وانهم جمعوا من أصحاب المهدى ما كان بأيديهم من المجالس ومدوناتها وانهم باتوا على نية اصدار مجلس يتداوله الانصار على نحو ما فعلوا بالمنشورات.

وظاهر مما تقدم ايضا أن العناية بالمجالس ظهرت بعد طبع المنشورات ورسائل زهرا والعبادى والعوام ، فهذه قد طبعت فى ١٣٠٤ ، بينما يدور الكلام حول اعداد المجالس فى ١٣٠٦ ، وقد جاء كتاب المستهدى مع المجالس ، فان تأليفه قد تم فى ربيع الأول ١٣٠٦ . ومن هنا يمكن القول بأن حركة التراث قد جعلت همها فى المرحلة الاولى فى المادة المدونة كالمنشورات والمؤلفات التى وضعت من قبل ثم انتقلت فى المرحلة الثانية الى المادة التى تجمع وتصنف بجهد فكرى اكثر كتأليف السيرة وجمع اقوال المهدى .

ومن الواضح ان ما ترويه المجالس لا يشكل الا قدرا يسيرا مما قاله المهدى فى مجالس الدرس وغيرها من المناسبات ، ذلك لأن هذه الدروس لم تسجل اثناء القائها ولأن المصنفين جاءوا بعد وفاة المهدى بسنين وجمعوا ما كان منتشرا بين الناس مدونة او غير مدونة ، وبالتالى فان ما وصلنا هو ما احتفظت به الذاكرة الجماعية . وكان المدون من ذلك قليلا ، وقد قام به المتحمسون من الانصار . وقد ذكر المصنفون بعض الرواة الذين اخـذوا عنهم كمـا اكدوا نسبة المرويات الى المهدى بقولهم قال المهدى وما اليه لاثبات الاصالة وتوخى الدقة والاحتياط من تقويل المهدى . وقد وضعت المجالس لجمهور قريب العهد بالمهدى ولذلك لا يحتمل الدس فيها لأن هذا الجمهور المتحمس كان يستطيع ان يكشف كل ما ينبو . وحيث ان الغرض من المجالس هو جمع تراث المهدى ولم يكن وراءه تمذهب معين او تحزب فانه لا مطعن فى اصالة هذه المادة ، ولم نر فيما وقفنا عليه ما يكون خارجا عن اطار تفكير المهدى واتجاهه .

---

(١) المهدية ٣٢٩/١٧/٢ .

ان المجالس تتضمن قدرا عظيما من التراث المقول ، ومنه يمكن ان نتصور ما كان المهدى يبثه على أنصاره فى مجالسه ، وتلك إضافة بجانب ما كتب . وهذا التراث يتسم بالتنوع والغزارة ، من مأثور القول والشعر والحكمة والأمثال وأقوال الحكماء والصوفية والسلف والأخبار ذات المضمون الوعظى . وأغلب ما رواه المهدى من الشعر يرد هنا . والتفسير فى رسائله قليل ، وهناك مرويات صغيرة فى التفسير مثل تفسير الأخلاص . أما فى المجالس فانا نقف على قدر كبير منه ، وهو دليل على عناية المهدى بالتفسير فى مجالسه . والمجالس من غير شك هى المصدر الرئيسى لتفاسير المهـــدى .

وعلى نحو ما هو معهود فى الحديث النبوى فان كل قول يأتى منسوبا الى المهدى بعبارات : قال المهدى ، سمعت المهدى يقول ، اخذتها عن فلان ، روى لى فلان ، وهو محاولة للتأكيد على صدور القول من المهدى . وفى بعض الحالات لا يفوت على القارئ ان يلحظ محاكاة لنهج الحديث بنسبة القول الى شخص وعنه الى المهدى .

وغالبا يبدأ المجلس بافكار عامة للدلالة على أهمية الاقوال المروية ، مثل : «واملى عليكم حكما الهيه ونبوية » ومثل الاشارة الى انها العقيدة الباقية .

وقد ضمن أشهر المجالس فى كتاب الآثار الكاملة للامام المهدى . واذكر انى وقفت على مجلس وانا اعد هذا الكلام ، كما انى وقفت على مجلس لدى الدكتور عز الدين المهدى وفى حدسى انه نسخة من مجلس التاتاى ، وما يدعونى الى هذا الحدس هو ان الدكتور عز الدين حفيد التاتاى . وقد أوردنا فى المقدمة للآثار الكاملة والمقدمة الخاصة للمجالس بيانات كثيرة عن المجالس . واليك الآن بيانات سريعة عن بعض المجالس .

(١) مجلس التاتاى :

هذا المجلس محفوظ بمكتبة كلية الدراسات الشرقية بجامعة درهام ضمن اوراق الأمير النور عنقرة تحت رقم ٢٧٠ . وهو يتكون من ٦٢ ورقة . وأوله بعد الديباجة التقليدية : «وبعد فمن عبد ربه الطاهر محمد تاتاى انه لما خطر فى البال تدوين ما يتولى سماعه من كلام» . وقد جاء فى نهاية المجلس ان الفراغ من تصنيفه كان بيوم الاثنين ٤ جمادي الاولى ١٣٠٦ .

ومصنف هذا المجلس هو الطاهر محمد التاتاى الذى سلف ذكره فى الفصل السابق ، وكان تصنيفه بتكليف من الخليفة عبد الله . وقد جاء مجلسه ، فيما نعتقد أول المجالس ، كما جاء اوفاها واحسنها من حيث المادة المضمنة وتبويبها . وهو يتكون من خطبة وسبعة ابواب .

اما الخطبة فمكرسة لبيان اهمية اقوال المهدى .

وفى الباب الاول أورد تفسير المهدى لآيات من القرآن . ويعد هذا اوفى موضع لتفسير المهدى للقرآن ، وقد شغل حيزا كبيرا من المجلس . وواضح ان المهدى لا يفسر تفسيرا منهجيا ، بأن يفسر السورة آية آية ، والآية نقطة نقطة ، لغة ونحوا ومعنى ، وانما هو يختار آيات بعينها او طرفا من الآيات ، ثم يبين مطابه . فالغرض من التفسير عنده ليس التفسير من حيث هو على نحو ما نعهد عند المفسرين وانما هو استخراج الغايات التى توافق اتجاهه وتؤكد منحاه .

وفى الباب الثانى جاء بما كان يذاكر به المهدى اصحابه ، وهنا نجد اقوالا واخبارا من الرسول وصحابته والانبياء والرسل والصوفية ، وقد رواها المهدى بغرض التأكد على مطابه : ذم الدنيا وفضل الجهاد . ويلاحظ هنا انه اورد جملة من الاحاديث القدسية واورد جملة اقوال منسوبة الى الخليفة عبد الله والخليفة على الحلو ، وهو لا يذكر الخليفة شريف ، وفى ذلك موقف لأنه كان على خلاف مع الخليفة عبد الله .

والباب الثالث يتضمن بعضا من جوامع كلم المهدى من حكم ومواعظ . وهنا تأخذ المفاضلة بين الدنيا والآخرة حيزا واضحا . وفيه كلام عن الدجال وعن العلماء وسقوط التمييز بالحسب والحكمة من الاذكار والأدعية وما الى ذلك .

والباب الرابع مختص بالمواعظ والامثال والاشعار التى استشهد المهدى بها ، وقد انتقى ما كان متضمنا مطالبا عنده .

والباب الخامس يتضمن ادعية كان المهدى يدعو بها أو حث عليها .

والباب السادس فى بعض واردات نبوية فى خصوص امر المهدية على حد تعبيره ، وهو مخصص لذكر ما كان عليه المهدى من الاحوال وما كان يأتى به من الافعال .

وفى الباب السابع أورد بعض مسائل سمعها من المهدى او رآها عنده ، واغلبها اخبار متصلة بالصلاة .

مجلـــس ود البـــدرى :

لهذا المجلس نسختان كاملتان نقلهما احمد العجب ومحفوظتان بقسم المتنوعات بدار الوثائق القومية تحت رقم ١ / ٢٢ / ٢٤٥و١ /٣٧ / ١٧٨٩ /٣ ، ونسخة ثالثة غير كاملة .

ومصنف هذا المجلس هو محمد أحمد الحاج البدرى ،وهو من ابكار اتباع المهدى ، وقد أورد أسمه فى مقدمة المجلس . ويبلغ حجم المجلس نحوا من تسع اوراق .

ويأتى المجلس دفعة واحد بغير تبويب . والمصنف يقدم له بمقدمة قصيرة يبين فيها انه يضع مصنفه استجابة لطلب بعض اخوانه وان مهمته جمع ما سمعه من المهدى من احكام الشريعة وغيرها من المواعظ والاحكام . اما المجلس نفسه فقد بدأ بكلام يدور حول منع التمذهب واتباع الشيوخ والعمل بالمعارف السابقة حتى يصفو القلب ويخلص . ثم أتى بنصوص عن كيفية الصلاة واحكام التيمم وعن الدنيا وذمها والآخرة ومافيها من النعيم المقيم والسعادة الدائمة وعن الاذكار وما وراءها من حكمة وعن آداب المسجد وآداب الجلوس مع المهدى ، وبيان العلم اللدنى والعلم الحادث .

(٤) مجلـــس ٢ / د / ٣ :

هذا المجلس محفوظ بدار الوثائق القومية بالقسم الثامن من مجموعة المهدى تحت وسم ٢ / د /٣ . وأوله بعد ديباجة المهدى التقليدية : « قال الامام محمد المهدى عليه السلام فى حديث قدسى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم » . وهو يتكون من ٨٧ ورقة .

وياتى هذا المجلس جملة واحدة بغير تبويب .

ويهتم المصنف بنقل اقوال المهدى عن الجهاد وفضل المجاهدين والذكر ومجالسه واقوال عن الدنيا والآخرة والجنة ، وهو يأتى بمأثورات من النبى وعلى بن ابى طالب وأحمد بن حنبل والشبلى وسلمة بن الاكوع وعمر بن عبد العزيز وابن رواحة وابى

يزيد البسطانى . وقــد أتى بآيات كثيرة ، لا للتفسير كمـا فى المجالس الاخرى وانما للاستشهاد بغرض تأكيد مرغوبه . وهذا هو الهدف من نقل الروايات عن الرسول والصحابة وغيرهم .

ومصنف هذا المجلس غير معروف . ولسنا نعرف شيئا عن تاريخ تصنيفه او نقلــه .

(٤) المجلــس ٢ / د / ٤ :

هذا المجلس محفوظ بدار الوثائق القومية ، فى القسم الثامن من مجموعة المهدية تحت وسم ٢ / د / ٤ ، واوله بعد ديباجة المهدى التقليدية: «التمسوا لهذه العقيدة فانها من نور الامام محمد المهدى المنتظر صاحب الحبر». وهو يتكون من ١٢ ورقة ومكتوب بخط صحراوى جميل .

ويأتى المجلس جملة واحدة بغير تبويب . وهو يسبق كل مروية بقوله : وقال خليفة الله ورسوله الامام محمد المهدى المنتظر رضى الله عنه ، تأكيدا على صدق الرواية عنه .

وقد بدأ ببيان أهمية التلقى عن المهدى ، فالمقصود بالعقيدة فى أول المجلس هو ما اتى به المهدى من احكام وأرشاد : «وهى من نور المهدى والمهدى من نور الرسول ، وهو يلقى عليهم مواعظه التى يخرجها من قلبه بنور المهدى يصل ويرسخ فى قلوبكم وبذلك النور تهتدوا عن ضلالتكم الى سبيل الرشاد بينما العلماء يلقون مواعظهم من اطراف السنتهم ولا يجاوز آذانهم » .

وبعد هذا البيان المهم يصف كيفية الوضوء وكيفية اداء الصلاة ، مع بيان الادعية التى تقال فى كل حالة ، وغرضه من ذلك هو الارشاد بحيث تكون العبادات على نحو ما كان يؤديها الرسول ، ولذلك يقول بعد كل فقرة : هكذا افعال الرسول والصحابة . وبعد احكام الصلاة يأتى ببعض الزواجر مثل الحسد والنميمة والكبر والكذب والزنا والغيبة وعقوق الوالدين والغل ، وهو سرقة الغنيمة ، والتنباك والخمر ومنع الزكاة والنجاسة ثم ينتقل الى بيان جملة من المسائل : الحرص على اداء الصلاة فى اوقاتها وعدم تأخيرها ، كيفية الدعاء مع الاذان ، التأكيد على صلاة الجماعة ،

احكام التيمم ، آداب المسجد ودعاء دخوله ، آداب الجلوس مع المهدى والتعامل معه بأدب ، التوادد بين الانصار والترابط بينهم بغير نظر الى الانتماء القبلى او القرابة ، اخوة الدين وصحبة المهدى فوق الاخوة بأب وأم ، حفظ حقوق الناس وعدم الاعتداء عليها ، كيف جمعهم الله على الدين بالمهدية ، التوبيخ على ارتكاب الموبقات ، فضل اصحابه اذ يجاهدون ومكانتهم وكيف ينتصرون على عدوهم ، فضل الجبة ، فضل السابقين فى المهدية ، كل من ينخرط فى سلك المهديةعليه ان يجدد اسلامه ، أدعية الحرب .

(٣) مجـــالس ٢ / د / ٥ :

هذا المجلس محفوظ بدار الوثائق القومية بالقسم الثامن من مجموعة المهدية تحت الرقم ٢ / د/٥ ، وأوله بعد ديباجة المهدى التقليدية : الباب الاول فى جوامع الكلم الامام المهدى .

وقد قسم المجلس الى خمسة ابواب يختص كل باب منها بموضوع ، ولكل باب عنوان يبدأ به .

الباب الاول فى جوامع الكلم للامام من حكم ومواعظ وما أشبه ذلك من الامثال وما كان يتمثل به من الاشعار عن خسة الدنيا وعظمة الآخرة وعظمة الفقر . وفى هذا الباب يبدأ اولا بالحث على الصبر ثم يحث على التسبيح والذكر والدعاء مبينا الحكمة منها . ومما يقوله : ان الدعاء فيه الافتقار والانكسار والتذلل ، الذكر صلاة كونه حضور مع الله ومناجاة مثل الصلاة ، ليس الشأن فى كثرة الاذكار والصلاة والصيام وأنما الشأن فى الاكتفاء بالله والنظر له ولما عنده — وهكذا .

والباب الثانى فيما كان يذاكر به من المواعظ والامثال وما كان يتمثل به من الشعر . واساس هذا الفصل هو نقل المأثور من المواعظ والامثال من التراث بخلاف المأثور من كلام المهدى نفسه والذى ورد فى الفصل السابق . واغلب ما فى هذا الفصل شعر وأقله حكم .

الباب الثالث تفسير القرآن ، وهو باب قصير . وعسى ان ينظر القارئ فيه مع ما جاء من التفسير فى مجلس التاتاى .

والباب الرابع فى مسائل متنوعة كصلاة الجنازة والرداء الشرعى والعمة والصلاة الكاملة والصلاة القصيرة والرضاع وجملة احكام وآداب . ان المصنف مشغول هنا بالآداب والاحكام بينما كان مشغولا فى الفصل الأول باساس الايمان وتفضيل الآخرة على الدنيا وكيفية الاقبال على الله بالصلاة والذكر والدعاء .

والباب الخامس فى بعض أدعية كان يدعــو بها ، وقد ورد فيه ايضا بعض حكم مروية عن على بن ابى طالب وقصة عبد الواحد بن زيد فى بيان ترك الدنيا والاقبال على الآخرة .

الفصـــل الرابـــع

وثـائـــق المهـــدية (١)

من المهم اولا ان نصف كيف انتقلت وثائق المهدية من دواوين المهدية الى الدور التى تحتفظ بها الآن . ولابد فى البداية من ان نشيد بالدور العظيم الذى لعبته مخابرات الجيش المصرى والاهتمام الذى كان يبديه مديرها ونجت باشا ، فقد كانت المخابرات تعمد الى جمع الوثائق التى يخلفها الانصار بعد الوقائع الحربية توطئة لدراستها والاهتداء منها الى حقيقة الموقف فى السودان ثم تحتفظ بها . وقد تكونت مجموعات الوثائق المعروفة الآن من حصيلة غنائم هذه الوقائع .

لقد غنمت المخابرات بعد واقعة توشكى فى ١٨٨٩ المخطوط المنسوب الى عبد الرحمن النجومى وهو المخطوط الذى قمنا بتحقيقه والتقديم لهفى اطروحتنا الجامعية . وليس هناك ما يدل على ان المخابرات قد حصلت على وثائق غير هذا المخطوط ، بل هناك من الدلائل ما يوحى بأن المخطوط كان مغنم الواقعة الوحيد ، منها ان ملفات المخابرات لهذه الواقعة لا تشير الى اية وثائق غير المخطوط ، كما ان ونجت نفسه لا يذكر فى كتابه عن المهدية فى السودان شيئا عن وثائق اخرى

---

(١) صدرت عن وثائق المهدية مقالات ودراسات متعددة، منها :

(أ) محمد رفعت رمضان : محفوظات الخرطوم ، حوليات كلية الآدب لجامعة عين شمس ، المجلد الثامن (سنة ١٩٦٣) ص ٩٨٨ وما بعدها .

(ب) دراستنا لمخطوط توشكى (النجومى) ، وهى رسالة جامعية للدكتوراه اجيزت فى جامعة الخرطوم فى سنة ١٩٦٦ .

(c) Holt, P.M. The Archives of the Mahdia, R.M.R, vol. XXXVI, 1955.

(a) ———————— The Mahdiast Archives and related documents, Archives (G.M.E.A) vol. 5 No 28. Michaelmas 1962.

(e) ———————— Three Mahdist letter - Books, B.S.O.A.S XVIII/2, 1962.

(f) ———————— The Source Material of the Mahdia.

وقد وقفنا على نسخة مصورة من هذا البحث ولم نهتد الى مصدر النشر .

(g) Shoucaer, Naoum : Memo. on Khalifa's comespondence, 8/12/1899, Cairint 11/1/8 Mahdia 2/63

(h) Report on Mahdist Papers, S.I.R. No. 60

غنمت بعد هذه الواقعة ، ويذكر ابو اليزيد الحلفاوى فى الاقوال التى ذكرها للمخابرات (١) ان الافراد الذين نجوا من الواقعة قد اخذوا معهم اوراق النجومى . وهذا يعنى ان اوراق النجومى نفسها لم تقع فى ايدى المخابرات . ومما يؤكد هذه الرواية ان نعوم شقير ذكر مجموعة وثائق النجومى ضمن الوثائق التى عثر عليها فى امدرمان بعد واقعة كررى .

وفى يونيو ١٨٩٠ غنمت المخابرات اوراق بطران حمد ناصراى بسواكن (٢). وجاءت الحصيلة التالية بعد واقعة افافيت فى ١٩ فبراير ١٨٩١م بمنطقة طوكر ، وكان قائد هذه الحملة هو ونجت نفسه ، مدير المخابرات ، وكان نعوم شقير صاحب التاريخ المشهور مرافقا له . وقد ذكر ونجت ونعوم فى كتابيهما هذه الواقعة وحصولهما على الوثائق بعدها . وكانت افافيت المركز الرئيسى لادارة المهدية بشرق السودان ، غنمت المخابرات بعدها مجموعة كبيرة من الوثائق الرسمية كانت مودعة فى منزل عبد الله ابى بكر يوسف كاتب سر عثمان دقنـــة ، وهى عبارة عن مجموعة الوثائق الرسمية الخاصة باقليم شرق السودان . ومن هنا استقى ونجت معلوماته عندما وضع تقريره عـــن ادارة المهـــدية فى شـــرق السودان ودراسات اخرى عن المهدية . وقد ترك موظفو المخابرات ملخصات مستوفية ومذكرات عن الوثائق التى عثروا عليها فى افافيت (٣)، وكان اهم ما حصلوا عليه :

(١) مجموعة الوثائق المتبادلة بين المهدى ثم الخليفة من جهة وبين عثمان دقنة والامراء الذين معه من جهة اخرى ، وهى فى مجموعة المهدية تحت رقم ٣٠ / ٣١ . ويلاحظ ان الوثائق الأصلية لفترة المهدى قليلة ، ولولا مصنف رسائل المهدى والخليفة وسجل الوقائع لضاع مصدر هذه الفترة .

---

(١) اقوال ابو اليزيد الحلفاوى ، مخابرات مصرية ١٣٣/٢٧/١ .

(٢) انظر مخابرات مصرية ٨/١/١١ .

(٣) انظر : (a) Report on the Dervish Rule in the Eastern Sudan 1891 : (Cairint 3/3/46)

(b) Situation in Eastern Sudan 1892 (Cairint 3/3/47)

(٢) مصنف دقنة[١] ، وهو عبارة عن مصنف بخط يد عبد الله ابى بكر يوسف ويحوى المحررات التى ارسلها المهدى ثم الخليفة الى عثمان دقنة والامراء الذين معه ، ويلاحظ ان المصنف لا يتضمن بعض رسائل المهدى الى دقنة ، ولعله قد ترك الصفحات الخالية عن الكتابة بعد محررات المهدى فيما بين ص ٦ وص ٧ لينقل فيها هذه المحررات . وقد سقط عدد من الاوراق فى وسطه ، وكان هذا السقط موجودا عندما عثر على المصنف .

(٣) دفتر وقائع دقنة[٢] ، وقد سجل فيه احد اعوان عثمان دقنة بتكليف منه الوقائع التى وقعت فى الشرق منذ حل عثمان دقنة ، وقد جاءت هذه الوقائع فى شكل خطابات مرسلة الى المهدى . وفيه سقط يبلغ بعض الصفحات ، ويعتبر هذا المخطوط وثيقة خطيرة لكونه مصدر ما نعرف عن حوادث الشرق الى وفاة المهدى .

(٤) مصنف المآل[٣] ، وهو عبارة عن مصنف رسائل . وقد وجدنا سجلا اعده رجال المخابرات لمحتوياته[٤] ، ويظهر هذا السجل ان الطرف الاكبر من المصنف قد فقد فى وقت تال .

(٥) مصنف باريس[٥] ، وهو مصنف رسائل يقع فى ٣ اجزاء صنفه محمد المجذوب ابن الشيخ الطاهر المجذوب . وحسب الخطة التى يضعها المصنف فى المقدمة كان من المقدر ان يكون المصنف فى سبعة اجزاء ولكن يبدو انه وقف فى نهاية الجزء الثالث . والجزء الثالث منقول عن الجزء الثالث المطبوع المعروف بكتاب الاحكام والذى ضاعت نسخه ، وليس يعرف كيف شق المخطوط طريقه الى باريس .

(٦) مصنف درهام[٦] ، وهو مصنف رسائل صنفه المجذوب ابوبكر يوسف

---

(١) المهدية ٣١/١ ، مخابرات مصرية ١٧/١/١١ .

(٢) المهدية ٥/٨ .

(٣) المهدية ٦/١/٨ .

(٤) المهدية ٣١/١ .

(٥) دار الوثائق الفرنسية الوطنية رقم عربى ٥٠٦٩

(٦) مكتبة جامعة درهام : الصندوق ١/٩٩ .

وتوجد بين صفحاته مسودات كثيرة كان ينقل منها المجذوب ، وهو مودع فى مكتبة درهام . وكان ضمن اوراق ونجت الخصوصية ، ثم انتقل ضمنها الى مكتبة جامعة درهام . ويوجد فى دار الوثائق القومية السجل الذى وضعته المخابرات لمحتوياته[1]. اننا نعالج أمر هذه المصنفات بقدر من التفصيل فى مرحلة سابقة .

(٧) السجلات المالية الخاصة باقاليم شرق السودان . انظر كلامنا عنها فى معرض الحديث عن السجلات المالية اعلاه .

ومما يجدر ذكره ان الغالبية العظمى من وثائق المهدية التى وجدت ضمن اوراق ونجت مما غنم فى واقعة افافيت .

وجاءت المناسبة التالية اثر وقائع حملة دنقلا ابتداء من واقعة فركة فى يونيو ١٨٩٦ . وقد عثرت المخابرات على اثرها على محررات تبودلت بين امراء الاقاليم والخليفة ، ولم يكن ضمنها مصنفات رسائل . وتظهر ترجمات بعض هذه الوثائق فى التقارير الرسمية . وفى الوقائع التالية لحملة دنقلا وقعت وثائق اخرى ضمتها المخابرات الى حصيلتها الماضية . والوثائق الخاصة بهذه الوقائع لا تشير الى ما غنمته المخابرات من وثائق ، ولهذا فليس من السهل تقدير كمية هذه الوثائق وابعادها . ثم وقعت المجموعة الرئيسية من وثائق المهدية بعد واقعة امدرمان فى ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨ . ولا يستبعد ان الخليفة حمل معه ما استطاع واحرق منها ما تمكن من حرقه . وكان المدثر ابرهيم الحجاز قد ابلغ المخابرات ثانى يوم الواقعة بأنه اكتشف سرقة ختم المهدى وبعض الوثائق التى كانت مودعة عنده[2] ، فأثار ذلك مكتب المخابرات فاتخذت اجراءات سريعة للحيلولة دون سرقة الوثائق او اتلافها ، وصدر امر من السردار فى ١٧ سبتمبر ١٨٩٨م يمنع بمقتضاه حيازة وثائق المهدية والمتعلقات الاثرية كالحراب والسيوف وما الى ذلك ، ويأمر بتسليم مثل هذه المقتنيات الى المخابرات[3] . وقد اخذت التعهدات من بعض الشخصيات بعدم اخذ مثل هذه

---

(١) مخابرات مصرية ١١/١ —٨ .

(٢) المخابرات المصرية ٨/١/١١ .

(٣) نفس المصدر

المقتنيات ، ومن ضمن هؤلاء ابراهيم باشا فوزى (١) مؤلف كتاب «السودان بين يدى غردون وكتشنر » والذى كان من كبار المصريين الذين كانوا فى السودان طيلة فترة المهدية .

وفى نفس اليوم الذى ابلغ فيه المدثر عن سرقة الوثائق قام ونجت مدير المخابرات وبصحبته نعوم شقير بالتفتيش على المنازل المهمة (٢) . وقد قصدا اولا منزل المدثر ابراهيم كاتب الخليفة الاول ومنزل زميله ابى القاسم احمد هاشم ، ووجدا كمية هائلة من المكاتبات . وبعد ان وضعا المنزلين تحت الحراسة قصدا منزل الامير يعقوب بن محمد ووضعا حراسة على ما وجداه ، ثم ذهبا الى بيت الامانة ووضعا الحراسة عليه . وفى اليوم التالى كلف ونجت نعوم بالبحث عن وثائق اخرى فقصد بيت المال حيث وجد كميات هائلة من الاوراق . ثم فتش منازل عدد كبير من الامراء . وقد جمع نعوم كل هذه الوثائق واودعها حجرة من حجرات منزل يعقوب والذى كان قد صار مقرا للقمندانية .

وقد صنف نعوم هذه الوثائق الى مجموعات ، وذلك على اساس الاقاليم الادارية الكبيرة والامراء الذين تولوا السلطة فيها ، ثم بين الموضوعات الكبيرة التى تعالجها هذه الوثائق . ويؤخذ على نعوم انه لم يحافظ على المجموعات كما كانت بحيث تكون المجموعات التى كانت فى كل منزل على حدة ، كما يؤخذ عليه انه لم يضع قائمة مستوفية بهذه الوثائق . وقد كان الأحرى به ان يقدم لها فى تقريره بكلام عن الوثائق التى غنموها قبل هذه الواقعة .

وقد أودع نعوم الاوراق فى احزمة بلغت نحو نيف وثمانين ، ثم وضع هذه فى زكائب وحملها الى مصر حيث قام موظفو المخابرات بدراستها واستقصاء البيانات التى تفيد الادارة الجديدة فى السودان . وكان من المظنون ان نعوما استفاد منها عندما وضع كتابه ولكن من الواضح ان مصادر نعوم الأساسى هو الروايات التى جمعها ومدوناته الخاصة ويبدو ان الدكتور رفعت رمضان (٣) يرى ان ونجت قد

---

(١) نفس المصدر .

(٢) انظر تقرير عن عملية التفتيش والتصنيف وحمل الوثائق الى مصر ، مخابرات مصرية ١١ /١/ ٨ وانظر ملخصا لهذا التقرير فى تقرير المخابرات الشهرى ، رقم ٦٠ .

(٣) محفوظات الخرطوم ٢٨٩ .

استفاد من هذه الوثائق عندما وضع كتابه : المهدية فى السودان المصرى ، ولكن تأليف هذا الكتاب كان قبل الاستيلاء على هذه الوثائق بعدة سنين . وبعد أن فرغت المخابرات من الوثائق اعيد حزمها فى الزكائب وحفظت بوزارة الحربية الى أن ارسلت الى السودان فى سنة ١٩١٣م . وكان ونجت يبدى اهتماما شديداً بهذه الوثائق لأنه كان يدرك اهميتها التاريخية ، وقد استفسر عن مصيرها بعد ان غادر السودان وصار مندوبا ساميا لبريطانيا فى مصر(١) ثم بعد أن احيل الى المعاش (٢) . وقد زعم ونجت انه عند توليه منصب الحاكم العام قد امر بايداع سلسلة من مطبوعات المهدية فى مكتبة قصر الحاكم العام (٣) ولكن يبدو ان امره هذا لم ينفذ .

وقد أودعت الوثائق بعد اعادتها الى السودان فى مكتبة المخابرات السودانية ثم انتقلت الى مبنى السكرتارية (مبنى وزارة المالية حاليا) وحفظت فى حجرتين ضمن وثائق تاريخية أخرى ، وقد قدر حجمها (٤) بثلاثة امتار مكعبة . ولما انشىء متحف بيت الخليفة اقترح ادوارد عطية (٥) والذى كان من موظفى المخابرات السودانية المرموقين ، وكان وقتها ضابطا للمخابرات فى القاهرة ، ان تحول المجموعات الرئيسية من الوثائق للعرض فى المتحف وان تباع الكميات الباقية لصالح المتحف . ولكن ولحسن الحظ لم يؤخذ بهذا الاقتراح وانما حولت بعض الوثائق للمتحف بصفة الاستعارة . وفى سنة ١٩٤٨م حولت مكتبة السكرتارية الى كلية غردون والتى كانت تخطو نحـــو المستوى الجامعى وسميت مكتبة الكلية مكتبة نيوبولد تخليدا لذكرى دوقلاس نيوبولد السكرتير الادارى المشهور الذى مات فى الخرطوم ، ولما عرض تحويل الوثائق التاريخية المودعة بالسكرتارية اسوة بالكتب اعترض المستر جوليف أمين المكتبة باعتبار ان حفظ الوثائق ليس من مهام المكتبات . وقد ايد السكرتير الادارى رأيه وامر بانشاء مكتب مهمته جمع الوثائق التاريخية واعدادها للباحثين . وقد كان ذلك بدء ميلاد محفوظات حكومة السودان التى تطورت الآن الى دار الوثائق القومية .

---

(١) تلغراف من ونجت الى مخابرات السودان فى ١٩٠٥/٥/١٥ ، مخابرات مصرية ١٨/١/١١ .
(٢) خطاب من ونجت الى المستر هارل فى ٩ يوليو سنة ١٩٣٦ ، الأمن ٣/٨ .
(٣) تلغراف الى المخابرات فى ١٩٠٥/٥/١٥ ، مخابرات مصرية ١٨/١/١١ .
(٤) اوراق مخطوط يوسف ميخائيل ، الأمن ٣/٨ .
(٥) توصية ادوارد عطية ، الأمن ٣/٨ .

وقد انتقلت الوثائق ضمن وثائق اخرى كثيرة الى مخازن محفوظات حكومة السودان بمبنى البريد والبرق فى الجناح الشمالى الغربى وبقيت هنالك حتى سنة ١٩٥٨ حيث اخذت الى المبانى التى شيدت خصيصا فى فناء مصلحة المراجعة . وقد بدأ الدكتور بيتر .م. هولت فحصها وترتيبها فى سنة ١٩٥١ باعتباره دارسا ثم امينا للمحفوظات ، وظل يعمل فيها حتى غادر السودان فى سنة ١٩٥٥ ، ومن ثم اتخذ تنظيم الوثائق طابعه الحالى على يديه . وبعده بذلت جهود حتى استكمل التسجيل ووضعت بعض الدراسات والكشافات . وقد استعان بها عدد من الباحثين من اجناس شتى . وبالتعاون بين دار الوثائق وبين البروفسير مكى شبيكة أعدت اعتمادا على هذه الوثائق جملة من الرسائل الجامعية عن فترة المهدية .

اماكـــن حفـــظ الوثائـــق :

ان القصة التى رويناها تبين كيف صارت دار الوثائق القومية المستودع الرئيسى لوثائق المهدية . اما ماخلا ماهو بدار الوثائق فقد تشتت على ايدى الموظفين او الزوار الذين كانوا يخرجون ــ بالرغم من امر السردار السالف ــ ببعض المقتنيات . ويقع عبء مسؤلية ذلك على ونجت باشا الذى كان يأخذ بعض ما تغنمه المخابرات ويضمه الى اوراقه الخاصة . وقد تكونت مجموعات الوثائق العربية الموجودة ضمن وثائقه بمكتبة جامعة درهام نتيجة لهذه العادة السيئة . وقد حذا حذوه بعض الموظفين الانجليز ، وخاصة فى ايام الحكم الثنائى الاولى عندما كان الاداريون يصادرون وثائق المهدية من الانصار . وقد آل المصنف المودع فى جامعة كمبردج بهذه الطريقة الى تلك الجامعة اذ غنمه احد الاداريين فى الدبة ثم اهداه الى استاذه ، وهذا اهداه بدوره الى مكتبة الجامعـــة ، وهو تحت رقم B. 12 Edward Browne (g) . والمصنف المنسوب الى يوسف ميخائيل قد اكتشف وآل الى متحف بيت الخليفة بفضل احد الاداريين .

ان دار الوثائق القومية هى الوريث الطبيعى لوثائق المهدية ويوجد بها نحو خمسين الف وثيقة . وتتكون مجموعاتها اساسا من الاوراق التى كانت فى مكتب المخابرات المصرية . وقد اضيف اليها بعض ما كانت تغنمه المخابرات السودانية ثم ماجمعته دار الوثائق فيما بعد ، انظر مقتنيات هذه الدار ادناه .

ويليها قسم السودان بمكتبة كلية الدراسات الشرقية بجامعة درهام بانجلترا والذى يعتبر اكبر مستودع لوثائق المهدية خارج السودان ، وقد حصلت الكلية على اغلب مقتنياتها عن طريق الهبة . وكانت أكبر الهبات اوراق ونجت باشا التى اهداها ابنه السير رونالد ونجت (Sir Ronald Wingate) الى الكلية فى ابريل سنة ١٩٥٨م واوراق سلاطين باشا التى اهدتها ابنة اخته المسز آثربونسونبى (Mrs. Arthur Ponsonby) فى يناير ١٩٦٠ . ثم قامت المكتبة بشراء بعض الوثائق من المكتبات وتجار الكتب ، وكان اغلب ذلك من مجموعات ونجت .

وفى ١٩٦٠ توفر الاستاذ « رتشارد هل » (Richard Hill) المعروف بمؤلفاته عن السودان والاستاذ — عندئذ — بنفس الكلية لوضع فهرست لمقتنيات القسم ، ومن ضمنها وثائق المهدية . ثم وضع نسخة معدلة لها (١) فى أكتوبر سنة ١٩٦١ بعد المراجعة التى قمت بها عند نظرى فيها . وقد اعد العدة لنشر فهرست كامل لها وللوثائق المحفوظة بدار الوثائق القومية ، ولكن ذلك لم ير النور بعد .

ان مجموعة درهام عبارة عن وثائق اصلية فريدة وهى تبلغ نحو خمسة آلاف وثيقة ، ومن ضمن المجموعة بعض مصنفات رسائل منها مصنف عوض الكريم المسلمى المهم . ومن ضمن مقتنياتها النسخة الوحيدة من كتاب « سعادة المستهدى بسيرة الامام المهدى » وكتاب « الطراز المنقوش ببشرى قتل يوحنا ملك الحبوش » وكلاهما لاسماعيل عبد القادر الكردفانى والطبعتان الأولى والثالثة من الراتب والنسخة الكاملة لرسالة العوام ، ونسختان كاملتان من كتاب الانذارات ب (٢) .

وفى دار الوثائق المصرية يوجد ثلاثة صناديق من الوثائق وبداخلها بعض الاوراق التى تخص الامير عثمان دقنة ووثائق أخرى تعالج مسائل مختلفة ، ولعلها مما غنم بشرق السودان . ولعل أهم ما فى هذه المجموعة تقرير وضعته المخابرات

(1) Richard Hill Provisional Hand - list of Arabic Manuscripts and Lithographs : Africa Arabic, 2nd draft, 1961.

(٢) حصلت دار الوثائق على نسخ مصورة من سعادة المستهدى والطراز المنقوش وتبادلت نسخة من الانذارات ب بنسخة من كتاب الانذارات أ الذى لم تكن المكتبة تمتلك نسخة منه بينما لا تملك دار الوثائق نسخة كاملة من الانذارات ب ، وهذا نوع من التعاون القائم بين المؤسستين .

عن حوادث المهدية ، وهو تقرير لانظير له فى مكان آخر ، وعدة نسخ فريدة لرسالة علماء الخرطوم الى النجومى وعبدالقادر ام مريوم التى دحضوا فيها اقوال المهدى ، وهى مؤرخة فى ٢٣ ذى القعدة سنة ١٤/١٣٠١ سبتمبر سنة ١٨٨٤ ومطبوعة بمطبعة الحجر بالخرطوم .

وهناك وثائق يمتلكها الافراد ، واغلبهم من الانصار المتحمسين . وليست هناك تقديرات لكميات هذه الوثائق ولا لمداها .

ومن أهم المقتنيات الخصوصية التى وقفنا عليها مايلى :

(١) نسخة مخطوطة من « كتاب الاحكام » المطبوع الضائع وقد وجد هذا المخطوط بالجزيرة ابا وقامت دار الوثائق القومية بتصويره ونشره (١) .

(٢) مصنف مطبوع يحتوى على المحررات التى عالجت مركز الخليفة عبدالله ومقامه وعلى بعض المحررات التى وجهها المهدى اليه ، وهو عبارة عن الطبعة الثانية ولايوجد له مثيل . ويوجد المصنف بطرف السيد محمد السيد بن الخليفة عبدالله وقد صورتها دار الوثائق القومية (٢)

(٣) خطب المهدى المطبوعة ، وقد وجد عند السيد الصادق المهدى وقامت دار الوثائق القومية بتصويره ونشره (٣) . وتعتبر هذه النسخة نسخة فريدة .

وبخلاف ذلك توجد مصنفات متفرقة فى مكتبات العالم والمكتبات الخصوصية بالسودان ، ومن أهـم هذه المصنفات : مصنف محفـوظ بجامعة ييل بالولايـات الامريكية ، ومصنف باريس بدار الوثائق الفرنسية ، ومصنف بمكتبة جامعة كمبردج ومصنف بالمكتبة الآصفية بحيدر اباد بالهند ومصنف بمكتبة المعهد الافريقى بالقاهرة ومصنف منسوب الى يوسـف ميخائيل بمتحف بيت الخليفة ، وعدة مصنفات بجامعة الخرطوم ومن بينها مصنف الجامعة ، ومصنف حسين الجبرى(١) ومصنفات الشيخ العجب ومحمد المهدى بن الخليفة المحفوظة بطرف ابنه الدكتور عزالدين المهدى ومن ضمنها مجالس .

---

(١) دار الوثائق المركزية ، مطبوعات رقم ١٣ (يوليو ١٩٦٤) .

(٢) دار الوثائق المركزية ، مطبوعات رقم ١٤ (يوليو ١٩٦٤) .

(٣) عن هذه المصنفات انظر « المرشد الى وثائق المهدى » .

مقتنيات دار الوثائـــق القومية :

تقع مقتنيات دار الوثائق القومية فى ثمانية اقسام ، وهى :

القسم الأول : وهو عبارة عن محتويات احزمة نعوم شقير رقم ١ الى ٤٢ . وتتكون وثائقه فى الغالب من المحررات المتبادلة بين الخليفة عبد الله وكبار الامراء والعمال . وهناك مجموعات صغيرة كوثائق قاضى الاسلام أحمد على ووثائق الحبشة والبلجيكيين ومطبوعات مطبعة الحجر .

القسم الثانى : وهو عبارة عن محتويات الاحزمة ٤٣ – ١ الى ٤٣ – ٣٩ ، واهم محتوياته خطابات مختلفة من والى الخليفة ، ووثائق الامير يعقوب بن محمد وقوائم الجيوش وبعض وثائق بيت المال ومجموعة من الصحف المصرية .

القســـم الثالث : ســـجلات الوثائق الصادرة من المهدى ثم الخليفة وهى تبلغ ١٧ ســـجلا .

القسم الرابع : سجلات بيت مال اقليم دنقلا ، وبداخل سجل من السجلات سجل قيد مصروفات الرايات بطوكر عن جماد آخر ١٣٠٦هـ ، وهو موضوع هنا بالخطأ .

القسم الخامس : سجلات بيت مال اقليم شرق السودان وفيه سجل عن غنائم الشلك وسجل بعموم جيش دنقلا . وهما موضوعان هنا بالخطأ .

القسم السادس : سجلات ترسانة الخرطوم .

القسم السابع : اعمال دينية ، وهذا القسم عبارة عن خليط كبير من المخطوطات واعتبارها جزءاً من وثائق المهدى فيه تجاوز كبير . وفى هذا القسم نجد بعض المخطوطات التى غنمتها المخابرات السودانية فى أوقات مختلفة ومن ضمنها مخطوطات الشيخ محمد الامين الذى أدعى المهدية بشرق كردفان وقتل فى سنة ١٩٠٣ .

القسم الثامن : وهو خاص بوثائق المهدى ، وقد كان اغلب وثائق هذا القسم ضمن وثائق القسم الأول الى ان خصص قسم خاص لوثائق المهدى . وترد فى هذا القسم قدر مما جمعته دار الوثائق من مصنفات ووثائق .

وقد رتبت وثائق المهدية في القسمين الاول والثاني في ملفـات وقليل منها في مجلدات ثم أودعت في صناديق مـن الورق . وبداخـل كل ملف أو كل مجلد وثائق فترة ما — كشهر أو سنة مثلا — أو موضوع معين . وقد رتبت الوثائق فيها حسب تتابعها الزمني ، وترد الوثائق غير المؤرخة في نهاية كل مجموعة . والاساس الرئيسي للترتيب هو الأمير أو العامل بحيث يرد تحت كل أمير أو عامل ماصدر منه وما ورد اليه من الوثائق . وقد اعدت لهذه الوثائق فهارس توضح المرسل والمرسل اليه والتاريخ ومكان الوثيقة ، كما اعدت كشوفات تبين الموضوعات بالنسبة لبعض الاجزاء كسجلات الصادر ووثائق المهدى ، ومن المقرر اعداد الكشوفات لكل الوثائق . وبمجموعة المتنوعات جملة من وثائق المهدية جمعتها دار الوثائق .

ولغة هذه الوثائق هي العربية ، ولكن توجد وثائق قليلة باللغات الانجليزية والفرنسية والامهرية ، وهي صادرة من جهات اجنبية او مترجمة عن وثائق المهدية . والتاريخ المعتمد هو التاريخ الهجرى ، وغالبا مايكون التاريخ كاملا باليوم والشهر والسنة ، وفي حالات كثيرة يعينون اسم اليوم كالسبت أو الاحد والوقت كالضحى والليل الخ . ولايذكر الكتاب أماكن الكتابة ولهذا يجد المرء صعوبة في تحديد الاماكن التي تعالجها الوثائق. واسلوب الوثائق اسلوب مباشر وواضح ويخلو من اساليب التكلف والزينة . والخط واضح مقروء ، وقد بدأت بعض الوثائق تتلف وتطمس كتابته بفعل الزمن والجو ، ولكن الفنيين بدار الوثائق يعالجون هذا الأمر بمقدرة فنية عالية . والحبر الغالب هو الحبر الأسود . والورق المستعمل ورق ابيض متين متفاوت في الحجم ،والحجم الكبير منه أكبر من حجم الفلسكاب والصغير أكبر من المتوسط . وقد حصل الانصار على هذا الورق في المدن التي فتحوها . وليس هناك مايدل على وجود مورد داخلي أو خارجي غير ماغنموه . وقد وجد الانصار كميات هائلة من الورق في مخازن الورق الحكومية بالخرطوم واوكلوا حفظها الى ادارة المطبعة كما كانت في العهد التركي . وكانت ادارة المطبعة تابعة لبيت المال . وكان الصرف منها يجرى حسب نظام دقيق يدل على الحرص الشديد . والتفاوت في الحجم يبدو بوضوح في وثائق المهدى ، اما محررات الخليفة عبد الله وامرائه فحجمها

متقارب . وعادة تحرر الكشوفات فى حجم كبير من الورق . أما كتاب مصنفات الرسائل فقد استعملوا الدفاتر التى غنمت من المحلات التجارية أو فروخ الورق بعد تطبيقها .

والشكل الغالب للوثيقة هو الخطاب ، ولانجد شكلا غير ذلك الا فى وثائق المال والسجلات ، أى القيودات ، بصفة عامة ، وقد عالجنا الجوانب التوثيقية للوثائق فى مكان آخر . وعادة يعطى الكاتب بيانات كاملة عن موضوعه . ويذكر الوقت اذا جاء ذكره بالتوقيت العربى أو بأقسام اليوم . وتذكر المسافات بالمراحل أو بالايام التى تأخذها الرحلة . وهناك الفاظ يذكرها الكتاب كالهجرة والتربية والشورى المسنونة والوراثة النبوية ، أو المصطفوية ، والبيعة ، والتنفير ، والعرضة ، والراية ، والارباع ، والحرابة ، والكاره ، والقفرة ، والديم ، والفقه ، والفقير ، والمساكين ، والعزيمة ، والرباط ، والخيالة ، وهى الفاظ لها مدلولات معينة .

وتتفاوت البيانات التى تعطيها الوثائق من مكان الى آخر او شخص الى آخر ، وذلك تبعاً لظروف كثيرة ، فقائد كالامير محمود ود أحمد يذكر فى محرراته تفصيلات دقيقة لافتقاره الى الرأى والحزم تعطينا وثائقه بيانات متسعة الى حد بعيد. وكذلك الامر بالنسبة الى وثائق يونس الدكيم الذى كان يحاول اظهار ولائه للخليفة بكثرة مايكتبه . والاقاليم نفسها تتفاوت بالنسبة لأهميتها ولما فيها من الحوادث ومن ثم يتفاوت محصولنا من وثائق الامراء والاقاليم وبالتالى بياناتنا عنها بمقدار ذلك .

ويذكر الدكتور هولت (١) كيف ان هذه الوثائق تفيدنا بمعلومات جديدة عن القضاء وعن محاولات الخليفة للنظر فى مظالم أهل اقليم كردفان ، ليس ذلك فحسب بل انه اعتمد عليها عندما أعد كتابه عن نظم الحكم فى المهدية (٢) . وقد اشار رفعت رمضان (٣) الى ان هذه الوثائق تغطى مسائل ذات اهمية بالغة ، كالاسس الفلسفية لحركة المهدية والنظم المالية والادارية وما الى ذلك . وينبغى ان نضيف الى ذلك ان مدى البيانات يذهب فى بعض الاحيان الى تفاصيل دقيقة ،

---

(1) Holt, P.M. : The archives of the Mahdia pp. 6-7

(2) ———————— : The Mahdist State in the Sudan 1881-1886

(٣) محفوظات الخرطوم ص ٣٠٣ – ٣١٣ .

ومن الأمثلة الواضحة لذلك البيانات المالية التى تحويها السجلات المالية وتفصيلات الادارة الدقيقة التى تعطيها وثائق سجلات الصادر ، ومن امثلة ذلك ايضا قائمة بها احصائيات(٤) طريفة عن سواقى دنقلا ونخيلها وجروفها . وهذه الاحصائيات تعطى بيانات عن عدد السواقى ، الدائرة منها وغير الدائرة ، هل يديرها صاحب الارض أم هى مؤجرة ، كم قيمة الايجار وكم مساحة الأرض والى آخر هذه المسائل. وهناك احصاء دقيق للنخيل حتى قرية ارنتى فى نهاية خط السكوت بجوار عبرى . ويذهب هذا الاحصاء الى درجة احصاء الانفس وما على كل من الزكاة .

والبيانات نفسها تأتى فى شكل مباشر تقريرى ، ونحن نقف عليها وهى فى شكلها النهائى لافتقارنا الى المسودات التى تبين مراحل التدوين . كذلك تخلو المجموعة من المحررات المعدة فى شكل تقارير او المحررات التى تفيدنا بشىء عن المناقشات التى كانت تقع قبل اتخاذ الاجراءات . ان وثائق المهدية تعطينا التقريرات الجاهزة الصادرة فى شكل تعليمات أو اعلام ، وليس هناك مايكشف عن الظروف والملابسات التى سبقت القرارات .

انواع الوثائق

ويمكن تصنيف وثائق المهدية على الوجه التالى :

١ ــ المكاتبات :

ان اصول المكاتبات وصورها تكون العصب الرئيسى لوثائق المهدية ، وقد قدر المحفوظ منها بدار الوثائق القومية بنحو خمسين الف وثيقة . وتنقسم المكاتبات الى طائفتين : الطائفة الأولى : منها عبارة عن وثائق صادرة فى فترة المهدى وماقبلها بقليل والطائفة الثانية تخص فترة الخليفة عبدالله ، وهى تمتد من وفاة لمهدى حتى نهاية المهدية .

وثائق الطائفة الأولى قليلة العدد ، أولا لأن المحررات نفسها لم تكن كثيرة فى السنوات الأولى للثورة المهدية ، وثانيا لأن ماحفظ من المكاتبات كان قليلا . واغلب مابلغنا من فترة المهدى عبارة عن محررات صادرة من المهدى ، أما ماكان يصل اليه من المساعدين والاهالى فقليل نسبيا . وكان يظن الى عهد قريب ان الوثائق

المحررة بخط يد المهدى لاتتعدى الوثيقة أو الوثيقتين ، ولكن ظهر بعد الوقوف على نموذج خط المهدى أن محصولنا منها محصول طيب ، ويرد اغلب ذلك فى وثائق احمد سليمان وبيت المال ووثائق المهدى الى محمد خالد زقل ، وفى وثائق جامعة درهام[1] . ومن ضمن وثائق المهدى الهامة تلك التى كتبها قبل المهدية وهى تبلغ نحو تسع وثائق اغلبها بخط المهدى ، وهى تفيدنا بمعلومات هامة عن نشاط المهدى فى الفترة التى سبقت المهدية .

واهم مجموعات وثائق المهدى هى :

(١) وثائق احمد سليمان وبيت المال : وهى تبلغ ٣٨ ورقة . وتبلغ المحررات الواردة فيها ٦٧ محررا اقدمها صادر فى ٢٧ محرم ١٣٠١ واحدثها صادر فى ٢٣ شعبان ١٣٠٢هـ . ان هذه الوثائق تكون اهم المحررات التى تبودلت بين المهدى واحمد سليمان امين بيت المال وهى تعالج شئون بيت المال . واغلب التأشيرات المنسوبة الى المهدى مكتوبة بخط يده وبها أكبر عدد وقفنا عليه من الوثائق الموجهة الى المهدى .

(٢) وثائق حمدان ابى عنجة : وهى تعالج مهمته فى جبال النوبة وتبلغ سبع اوراق بها سبعة محررات صادرة من المهدى بين ٥ جماد آخر و٢ شعبان ١٣٠٢ .

(٣) وثائق محمد خالد زقل عامل المهدى بدارفور : وتبلغ ١٣ ورقة بها اربعة عشر خطابا من المهدى وهى صادرة بين ٢٩ ربيع الأول و٢١ ذى الحجة سنة ١٣٠١ . وحواشى هذه الوثائق مكتوبة بخط يد المهدى اظهاراً لقرب هذا العامل الى نفسه واهتماما بشخصه (٢) ، وقد وردت فيها اشارات كثيرة الى حصار الخرطوم .

(٤) وثائق مختلفة : وتبلغ ٤٤ ورقة بها ٥٥ محرراً صدر بين ١٥ ذى القعدة سنة ١٣٠٠ و٢٥ شعبان سنة ١٣٠٢ .

---

(١) انظر Provisional Hand-list تحت : محمد احمد عبد الله المهدى — اخطأ «هل» أذ يعتمد هذا الاسم وكان الاحرى به ان يعتمد الاسم الرسمى الذى يعتمده المهدى وانصاره وهو : محمد المهدى بن عبد الله ، انظر كلامنا عن ذلك فى فصل : القواعد التوثيقية .

(٢) المرشد رقم ٥٢٤ .

(٥) وثائق منقولة على ورق فلسكاب مسطر : وهى احتمالا مما نقله موظفو المخابرات المصرية . وهناك عدد أكبر من هذه المنقولات ضمن وثائق الخليفة عبدالله . وتبلغ المنقولات هنا ٤١ محرراً ، وقد صدرت هذه المحررات بين أول ربيع أول و٦ رمضان سنة ١٣٠٢ هـ .

(٦) مقطعات وبقايا وثائق : وتبلغ ٢٩ وثيقة بها ٣٢ خطابا ، واغلبها اوراق ساقطة من مصنفات رسائل ، ومن ضمنها جانب من وثيقة اصلية كتبها المهدى قبل المهدية فى خصوص العقد له على امرأة .

(٧) وثائق مطبوعة بمطبعة الحجر فى شكل خطابات للتوزيع على الجهات المختلفة ، ويبلغ عددها ٢٢ وثيقة ، وقد وجهت بعض نسخها الى بعض اعيان مراكش وشنقيط بموريتانيا .

(٨) وثائق مترجمة وعددها ١١ وثيقة ، وقد ترجمها موظفو المخابرات المصرية الى اللغة الانجليزية .

أما الوثائق التى تخص فترة الخليفة عبدالله فيمتد صدورها من اول فترته حتى نهاية حكمه ، وبالنظر الى طول تلك الفترة واتساع مدى الكتابة والاهتمام بالمحافظة على المحررات القديمة فان مابلغنا من وثائقه يعتبر كمية ضخمة وثروة تاريخية عظيمة . وتوجد المجموعة الرئيسية من هذه الوثائق في دار الوثائق القومية . والغالبية العظمى منها وثائق اصلية وهى من هذه الناحية تعتبر مجموعة ذات قيمة اثرية عظيمة . وهناك بعض وثائق منقولة ، بعضها صور محررات نسخها كتاب الديوان للاغراض الديوانية وبعضها محررات يعتقد انها من نقل موظفى المخابرات المصرية . وهى منقولة على ورق فاسكاب . وقد لوحظ ان الوثائق الصادرة من الخليفة قليلة بالنسبة الى الواردة اليه وذلك اذا استثنينا الفترة الموثقة فى دفاتر الصادر . وليس هناك تفسير واضح لهذا ، ولكن عادة تلخيص الخطاب الوارد فى صدر الرد عليه قد عوضتنا عن النقص . وقد وضعت دار الوثائق لهذه الوثائق قوائم تبين المرسل والمرسل اليه وتاريخ الصدور والمكان وهى بسبيل وضع كشوفات تبين محتوياتها . واليك بعض تفصيلات هذه الوثائق .

(١) وثائق متبادلة بين الخليفة عبدالله والامراء والعمال ، ويرد غالبيتها فى القسم الأول . وهى مرتبة حسب الامراء والعمال بحيث ترد تحت كل امير أو عامل المحررات الصادرة منه والواردة اليه . وقد رتبت وثائق كل حسب تاريخ الصدور .

(٢) الوثائق المتبادلة بين الأمير يعقوب بن محمد والامراء والعمال وهى ترد فى القسم الثانى ــ الصناديق ٦ الى ١١ و٣٣ و٣٤ . وتعالج هذه الوثائق تحركات الجيش وجمع الزكوات ، والمشارع ، ومراكب بيت المال ، وما الى ذلك من الأمور .

(٣) المكاتبات المختلفة الصادرة من الخليفة والواردة اليه واغلبها فى القسم الثانى ــ الصناديق ١٣ الى ٣٢ ــ وهى واقعة بين ١٣٠١هـ وسنة ١٣١٦ .

(٤) قوائم الجيوش وهى فى الصناديق ٤٢ الى ٥٠ بالقسم الثانى ويوجد غيرها فى اماكن أخرى ، وقد اعدت دار الوثائق قائمة بمحتويات هذه القوائم .

(٥) الجرائد المصرية التى وقف عليها الخليفة عبدالله ومساعدوه أوكانت بالمخابرات وهى محفوظة فى الصناديق ٥١ الى ٥٦ بالقسم الثانى .

(٦) المنقولات على ورق فلسكاب ، وهى تمتد من بداية حكم الخليفة عبدالله الى ٢٧ ذى الحجة سنة ١٣٠٣ وهى فى الصندوقين ٥٨ و٥٩ بالقسم الثانى .

(٧) وثائق غنمها الانصار كوثائق البلجيكيين والحبشة وبعضها باللغتين الامهرية أو الفرنسية ، وهى بالصندوق ٣٤ بالقسم الأول .

(٨) الوثائق المطبوعة فى شكل خطابات للتوزيع على الجهات ، وتبلغ محرراتها ٥٣ محرراً .

(٩) مكاتبات مختلفة ، واغلبها عرائض من الاهالى وهى بالصناديق ٣٥ الى ٤١ بالقسم الثانى .

(١٠) مجموعات وثائق تعالج موضوعات مختلفة منها : وثائق امناء المهدية ، تلغرافات الانصار ، قاضى الاسلام ، الحضرات ، اشعار ، حدود الاقاليم ، الضرائب ، موظفو المهدية قبيل واقعة كررى ، المساجين ، مكاتبات كتشنر الخ .

ثانياً – سجلات الصادر :

ان سجلات الصادر نتاج عملية ادارية ونظامها مقتبس من النظام المصرى الذى سبق المهدية ، وتعتبر وثائقها اقرب صور الوثائق الى الأصل . ويبلغ عدد السجلات التى وصلتنا ١٧ دفترا ، وهى كلها صور للوثائق الصادرة من ديوان المهدى والخليفة . ويتضح من تأشيرات الكتاب على بعض الوثائق انه كانت هناك دفاتر لتسجيل الرسائل الواردة الى ديوان الخليفة (١) ، وليس يعرف متى بدأ هذا النظام ولامتى ابطل . كذلك يبدو ان كتاب الاقاليم ، أو على الاقل بعضهم ، قد اتبعوا ما كان معمولا به فى العاصمة فعملوا سجلات للرسائل (٢) . وبالفعل بلغنا بعض سجلات صادر الشون بدنقلا وطوكر (٣) .

لقد بدأ قيد الرسائل بعد سقوط الخرطوم ، وقد استعملت الدفاتر التى غنمت فى هذه المدينة لهذا الغرض(٤) . وقد كان الغرض من هذه السجلات غرضا اداريا بحتا . ويبين السجل صورة مطابقة لنص الوثيقة ، ولكن فى احيان قليلة ترد ملخصات لها اواشارات اليها ،وهذا يكون غالبا اذا سبق نقل النص الكامل فى مكان سابق . وتأتى وثائقها مرتبة حسب تواريخ الصدور . وفى بعض الاحيان ترد الرسائل فى شكل مجموعات ، اما على اساس الاقاليم او على اساس الافراد الذين وجهت اليهم الرسائل. وقد كان سجل الصادر مرتبطا ارتباطا وثيقا بالبريد ، فالوثائق التى كانت ترسل بالبريد هى التى سجلت . اما ما كان يوزع بطرق غير البريد فلا مكان له فى السجل . كذلك تخلو السجلات من توقيعات المهدى على مذكرات مساعديه (٥) ومن الخطابات الشخصية والمنشورات التى كان يحررها بنفسه . اما فى عهد الخليفة فقد شغل السجل كل انماط المكاتبات الصادرة .

---

(١) انظر التأشيرات الدالة على السجل فى الوثائق : مهدية ٢/١٤ / ٨٣ و٨٤ ، ٢/١٥ / ٧٨و٧٩ ٢ / ٢٠ / ٢٨٦ ، ٤٤٨ . وهناك وثائق اخرى كثيرة غير هذه .

(١) انظر مثلا التأشيرات الدالة على وجود سجل فى ديوان يونس الدكيم بالقلابات فى الوثائق : مهدية ٢/٢٢ / ١٤٥ ، ١٥٠ ، ١٥٥ .

(٢) انظر سجلات مالية طوكر ودنقلا أدناه .

(٣) أنظر ختم مديرية الخرطوم فى صفحات الدفتر رقم ١ .

(٤) انظر توقيعاته فى وثائق احمد سليمان وبيت المال ، مهدية ٤/١/٨ .

وتبلغ الوثائق الواردة فى سجلات الصادر نحو ٦٢٢٥ وثيقة منها نحو ١٦٣ من المهدى والباقى من الخليفة عبد الله ، وهى موزعة كالآتى :ـ

٨٣٩	وثيقة صادرة فى سنة ١٣٠٢هـ (ابتداء من اول ربيع الاول)
٢٣٦٨	وثيقة صادرة فى سنة ١٣٠٣هـ
٢٥٣٣	وثيقة صادرة فى سنة ١٣٠٤هـ
٤٤٤	وثيقة صادرة فى سنة ١٣٠٥هـ
٣٩	وثيقة صادرة فى سنة ١٣٠٦هـ
٢	وثيقتان صادرتان فى سنة ١٣٠٧هـ

ويتضح من ذلك ان التسجيل بدأ فى اواسط سنة ١٣٠٢ ، وقد شمل ذلك كل مايصدر من ديوان المهدى بواسطة البريد . ثم بدأ التسجيل يتضخم مع تضخم المكاتبات حتى بلغ اوجه فى سنة ١٣٠٤ . وفى سنة ١٣٠٥ بدأ التسجيل ينكمش بالرغم من الارتفاع المتواصل فى مكاتبات الديوان . وقد استمر الانكماش حتى توقف فى سنة ١٣٠٦ . ويعزى العزوف عن التسجيل الى قلة المخزون من الدفاتر وكثرة الطلب منه فى قيودات بيت المال .

ويمكن تصنيف سجلات الصادر على هذا النحو :

عـــدد

١ دفتر واحد يسجل كل انماط الوثائق ـ صادر رقم ١.

١ دفتر واحد يسجل كل انماط الوثائق بخلاف وثائق التأمير ـ صادر رقم ٢ .

١ دفتر واحد يسجل وثائق التأمير أى تولية الامراء والعمال ـ صادر رقم ٥ .

١ دفتر واحد يسجل وثائق العفو والاحسان وقد توقف فى سنة ١٣٠٤ ـ صادر رقم ٤ .

١ دفتر واحد يسجل وثائق الدعوة خارج السودان ـ صادر رقم ٣ . وقد توقف العمل بهذا الدفتر فى سنة ١٣٠٥ واضيفت الوثائق الصادرة فى بابه الى المنشورات العامة ـ انظر صادر ١٦ .

٢ دفتران يسجلان الشكاوى والعروضات — صادر رقم ٧و١٧ . ويسجل الكتاب هنا نص الوثائق الصادرة من الخليفة ولايلحقون به نص العروضات والشكاوى المرفوعة اليه . ولكنهم خالفوا هذه القاعدة فى مواضع قليلة نقلوا فيها نص العرائض المرفوعة الى الخليفة فى ذيل تعليقه عليها وسؤاله عنها . ومن ذلك الوثيقة رقم ٩٧ بصفحة ٢١ و٩٩ بصفحة ٢٢ فى صادر رقم ١٧ .

٣ دفاتر تسجل المنشورات العامة التى تعالج الدعوة والتنظيم — صادر ٦و٩و١٦. ويلاحظ ان وثائق الدعاية فى الخارج قد اضيفت الى هذا الباب منذ سنة ١٣٠٥ ، انظر الوثائق رقم ١٢و١٧ الى ٣٥و٣٨ .

١ دفتر واحد يسجل الاوامر الادارية لكل الاقاليم — صادر رقم ١٧ .

١ دفتر واحد يسجل الاوامر الادارية لاقليم الغرب « كردفان ودارفور » — صادر رقم ١٠ .

١ دفتر واحد يسجل الاوامر الادارية لاقليم البحمة — صادر رقم ١٢ .

٢ دفتران يسجلان الأوامر الإدارية لاقليم الجزيرة وما بين النيلين الى حدود الحبشة — صادر رقم ١١و١٥ .

٢ دفتران يسجلان الاوامر الادارية لاقليمى الشرق والشمال — صادر رقم ١٣—١٤

ويلاحظ ان الجزء الاسفل من صفحة ٢٣٢ — ٢٣٣ فى الدفتر ١٢ مقطوع كما يلاحظ ان المكاتبات تأتى فى شكل دفعات ، كل دفعة خاصة باقليم ، كشرق السودان وبربر ، أو بالاشخاص كالنور ابراهيم ، وعثمان الدكيم . ويلاحظ ان هذا الباب قد أوشك ان يقسم الى بابين باب للشرق وباب لبربر ودنقلا .

وينبغى ان نشير الى ان مكان الوثيقة فى سجل الصادر قد اتخذ فى بعض الاحيان رقما للوثيقة ومن هنا كانت الأشارة فى صدر الخطابات الى الوجه الذى سجلت فيه الوثيقة التى يشار اليها . كما ينبغى ان نذكر ان هذه السجلات تفيدنا بمعلومات لانجدها فى غيرها من المصادر . ومثال ذلك ان تقسيمات السجلات وتفرعاتها تصور لنا تقسيمات ديوان المهدية وتطور فروعها . ومثاله ايضا ان الوثائق التى تسجلها السجلات لفترة مرض المهدى وبعد وفاته لعدة أيام قد صدرت عن الخليفة عبدالله

بصفته نائب المهدى ثم النائب عن خليفة المهدى ثم خليفة المهدى ، الأمر الذى يكشف لنا منشأ اصطلاح خليفة المهدى . وما ذلك الا لأن السجلات قد احتفظت بمحررات قد ضاعت اصولها وحافظت على نصوصها كما صدرت .

٣ – السجلات المالية :

ان السجلات المالية تختلف فى الحجم ، فهناك سجلات كبيرة كسجلات طوكر ودنقلا وبيت مال العموم ، وسجلات صغيرة كسجلات الجيوش والنخيل والسواقى والاطيان وما الى ذلك . ومن الواضح ان السجلات التى وقفنا عليها وخاصة السجلات الكبيرة تكون طرفا بسيطا من جملة السجلات الأصلية والتى يظن ان اغلبها قد ضاع . ويلاحظ ان سجلات السنوات الأولى ١٣٠٢–١٣٠٦ سواء كانت من الاقاليم أو من العاصمة لم تصل الينا . ومن الثابت ان الانصار كانوا يحتفظون بسجلات مالية منظمة منذ وقت مبكر ، وقد بلغنا من السجلات القديمة سجل الترسانة كما بلغنا ان سجلات القلابات بدأت فى رجب سنة ١٣٠٤ بينما بدأت سجلات القضارف ودوكة فى محرم سنة ١٣٠٥ (١) . وتفيدنا وثيقة من وثائق دنقلا(٢) بأن سجلات الاطيان بدنقلا كانت ترجع الى سنة ١٣٠٥ . واليك بيان السجلات الكبيرة المعروفة .

أ – سجلات ترسانة الخرطوم :–

وتوجد ثلاثة سجلات من سجلات ترسانة الخرطوم ولايعرف إن كان هناك ساقط ام لا . والسجل الأول عبارة عن دفتر قيد عساكر الجهادية وعائلاتهم ممن كانوا فى خدمة الوابورات والمراكب التابعة لبيت المال ، وبيان لمرتباتهم ابتداء من شعبان ١٣٠١هـ .

اما السجل الثانى فعبارة عن سجل الوثائق الصادرة من نصحى باشا الذى كلف بمهمة حربية على احدى البواخر بين الخرطوم وشندى فى الفترة بين ٩ صفر ١٣٠١ و١١ رجب ١٣٠٢هـ . اما السجل الثالث فعبارة عن سجل لوثائق رحلة الباخرة

---

(١) المهدية ٢/١٦ – ٥٨١ .

(٢) كشف ببيان الاطيان والسواقى والمراكب والنخيل ، المهدية ٢/٦٣ ، ملف محررات بيت المال دنقلا .

الصافية من الخرطوم الى فاشودة من أول محرم الى ٢٧ جماد اول ١٣١٣ ، وهو سجل غير كامل .

ب ـ سجلات اقليم دنقلا :

توجد سبعة سجلات من سجلات اقليم دنقلا بالقسم الرابع من وثائق المهدية ويوجد سجل واحد فى الصندوق ٢ / ٦٥ . وبيان هذه السجلات كالاتى :

(١) قيد مرتبات سرية حمودة ادريس عن الفترة ربيع آخر ـ ذى القعدة ١٣١٠ ، مهدية ٢ / ٦٥ .
(٢) قيد المرتبات بمركز دنقلا عن ١٣١٣هـ .
(٣) سجل انصار عبدالحليم مساعد بصرص .
(٤) قيد ايرادات ومصروفات نقدية بيت مال دنقلا عن الفترة محرم ١٣١٠ ـ ١٣١٤هـ .
(٥) قيد ايرادات ومصروفات مركز صواردة من صفر ١٣٠٨ الى جماد أول ١٣١٠هـ .
وبداخل هذا السجل سجل مصروفات الرايات بطوكر عن جماد آخر سنة ١٣٠٦هـ .
(٦) قيد بحسابات بيت مال دنقلا عن الفترة ربيع أول رجب ١٣١٣ .
(٧) قيد ايرادات ومصروفات اخطاط دنقلا ١٣١٠ .
(٨) قيد صادر بيت مال الفى والخمس سنة ١٣١٣ .

ويوجد فى القسم الخاص بطوكر مع الدفتر رقم ٢٧ غلاف سجل من سجلات بيت مال دنقلا ، ومن المعتقد انه غلاف الدفتر الرابع .

ج ـ سجلات بيت مال العموم بامدرمان :

يبلغ مابلغنا من سجلات بيت مال العموم بام درمان تسعة دفاتر منها سبعة دفاتر اصول وخصوم وباقى النقدية مابين محرم ورجب ١٣١٥هـ ودفتران لايرادات ومصروفات بيت المال عن ذى القعدة والحجة ١٣١٤هـ . وتوجد هذه السجلات فى مهدية ٢/٦١ . ومن الواضح ان الغالبية العظمى من سجلات بيت مال العموم قد ضاعت.

د ــ سجلات بيت مال طوكــر :

وهى تكون القسم السادس من وثائق المهدية ويرد ضمنها سجل يخص تحصيلات كسلا وسجل يخص غنائم فاشودة، وتمتد السجلات من منتصف ١٣٠٦ الى منتصف ١٣٠٨ . واليك بيان هذه السجلات :

عــدد

٥ دفاتر عن الشونة والعيوش ، وهى الدفاتر ١و١٠و١٦و٣٤و٤٠ .

٣ دفاتر لسجلات اصول المرتبات بالنقدية لعامى ١٣٠٦ و١٣٠٧هـ وهى الدفاتر ١٥و١٩و٣٧ .

١ دفتر عن صرفية العيوش وهو رقم ٣٩ .

٣ دفاتر سجلات لقيد عموم الانصار وهى ٩و٢١و٢٤ . والدفتر الأول يسمى دفتر الرفت وهو سجل للمتوفين والغائبين ممن لايحسب حسابهم فى الصرف .

٥ سجلات للبضائع وهى ١٨و٢٢و٢٨و٣٠و٣٥ . ورقم ١٨ خاص ببضائع تجار طوكر .

٧ سجلات للخصم والاضافة وهى ٢و٦و٧و٢٠و٢٦و٢٧و٣٢ .

٧ سجلات للشطب وهى ٣و٤و٥و١٣و١٤و١٧و٣٥ .

٤ سجلات للنقدية والعشور وهى ١١و١٢و٣١و٣٦ .

١ سجل لصور اذونات الصرف وهو رقم ٨ .

١ سجل لحافظة المصروفات وهو رقم ٣٨ .

٣ سجلات مختلفة منها سجل للتحصيلات من كسلا للصرف على الغزوات وهو رقم ٢٩ وسجل لغنائم الشلك وهو رقم ٣٣ وسجل لأيرادات ومصروفات احدى الغزوات وهو رقم ٢٣ . ويرد هنا سجل بقيد عموم جيش دنقلا ، ووضعه هنا خطأ . وبالاضافة الى ماذكرنا توجد المؤلفات كالكتب التى وضعت فى الدفاع عن حركة المهدى أو فى تاريخ الدعوة ومصنفات الرسائل وكتب المجالس ، وقد تعرضنا لها بشىء من التفصيل فى اماكن اخرى من هذا الكتاب .

٤ ـ مصنفات الرسائل :

المصنف عبارة عن كتاب يرد فيه بعض رسائل المهدى ، وقد يضاف اليه عدد من وثائق الخليفة والاستفسارات التى كانت ترفع الى المهدى . وتعتبر المصنفات أوفى مصادر وثائق المهدى . وهى تأتى فى مرتبة تالية لدفاتر الصادر من حيث درجة النقل . وقد ظهر المصنف فى سنة ١٣٠٤هـ نتيجة للاهتمام المتزايد بآثار المهدى، وما يزال تصنيفه مستمراً حتى الآن . وكان اول ماظهر منه السلسلة التى طبعت بمطبعة المهدية تحت اشراف كتبة الخليفة عبدالله ، وهى تقع فى اربعة اجزاء وجملة من المصنفات الصغيرة . واكثر من ذلك عدداً واتساعا المصنفات الخطية التى توالى ظهورها . وهذه المصنفات تتفاوت فيما بينها من حيث الحجم وعدد المحتويات ومستوى النقل ودرجة النصوص المنقولة ، كأن تكون نصوصا قديمة أو معدلة ، والموضوعات التى تعالجها والترتيب الذى تسير عليه واهتمامها بتواريخ الرسائل والقواعد التوثيقية للوثيقة . ولقد لوحظ ان تحسينات كثيرة قد طرأت على طريقة التصنيف مع توالى الزمن ، كما ان كميات الوثائق التى تظهر فيها كانت فى تزايد مستمر . وقد عقدنا فى هذا الكتاب فصلا كاملا عن المصنفات .

وثائق المخابرات المصرية (١)

تعطى وثائق قلم مخابرات الجيش المصرى بيانات هامة عن المهدية وتصور هذه الحركة كما كان يراها الناس من الخارج وعلى ضوء ملاحظات موظفى الجهة التى كلفت بمراقبة احوال السودان وتقديرها . وفيما سبق كان جل اعتماد الباحثين على وثائق هذا القلم لأنها مكتوبة فى غالبها باللغة الانجليزية ، لغة الاجانب الذين كتبوا عن المهدية ، ولأن وثائقها كانت معروفة ومتاحة فى حين لم تتيسر وثائق المهدية الاصلية للبحث الا بعد انشاء دار الوثائق .

وقد بدأت المخابرات الحربية بمكتبين ، كان احدهما بحلفا والثانى بسواكن ، وكان الغرض منهما جمع البيانات عن السودان ورصد حركات الانصار . ثم انشئ مكتب مركزى فى القاهرة فى سنة ١٨٩٢ بغرض تصنيف وترتيب المعلومات

(١) راجع ما كتبناه عن المخابرات الحربية المصرية فى بحثنا عن نعوم شقير .

الواردة من حلفا وسواكن ومتابعة الحوادث فى مصر نفسها ، وقد وصف ونجت باشا الذى كان مديراً للمكتب فى ازهى ايامه مهمة هذا المكتب بقوله : « الحصول حالا على الاخبار المختصة بالسودان وحدود مصر ، وفى ذات القطر المصرى» . وقد التحق ونجت بهذا المكتب فى سنة ١٨٨٧ مساعدا لمدير المخابرات ثم صار مديرا لها فى سنة ١٨٨٩ . وقد اعد المكتب تقارير دورية منتظمة بعضها شهرية وبعضها يومية ورفعها للمسئولين كما انه كان يعد التقارير المطولة عن الموقف العام او بعض جوانب المهدية (١) . وكانت المخابرات تترجم ما يصل اليها من المحررات كما انها اعدت الخرط ودراسات عن الطرق والواحات والآبار ومختلف اقاليم القطر. وعلى العموم فان وثائق المخابرات الحربية المصرية تحوى مادة تاريخية ثمينة وينبغى اعتبارها بجانب وثائق المهدية .

---

(١) مخابرات مصرية ١/٣٠ - ١٦١ .

فهرست المحتويات

كتب صدرت للمؤلف

١ — منشورات المهدية .
٢ — الحركة الفكرية فى المهدية .
٣ — تاريخ الخرطوم .
٤ — المرشد الى وثائق المهدى .
٥ — القصر الجمهورى : وصف وتاريخ .
٦ — مفهوم ولاية العهد فى المهدية .
٧ — الطائفية فى السودان .
٨ — المهدى .
٩ — الفونج والارض.
١٠— الفور والارض.
١١— الارض فى المهدية.
١٢— أفق وشفق، ديوان توفيق صالح جبريل (٤ اجزاء) (تحقيق بالاشتراك) .
١٣— مذكرات عثمان دقنه (تحقيق) .
١٤— سعادة المستهدى بسيرة الامام المهدى (تحقيق) .
١٥— الطراز المنقوش ببشرى قتل يوحنا ملك الحبوش (تحقيق بالاشتراك) .
١٦— مقدمة علم الوثائق .
١٧— الختم الديوانى فى السودان .
١٨— الساقية .
١٩— فى الشخصية السودانية .
٢٠— فهرس وثائق المهدى .
٢١— الابانة النورية فى شأن صاحب الطريقة الختمية (تحقيق) .
٢٢— الآثار الكاملة للامام المهدى (تحقيق) .
٢٣— كتاب النخيل للقاضى عبدالله احمد يوسف (تحقيق) .
٢٤— مكى الطيب شبيكة .
٢٥— ذيل الطبقات (تحقيق بالاشتراك) .
٢٦— 18 th Century Sinnar.
٢٧— Land Documents from Dar Fur.

مقالات نشرت بالصحف والمجلات

الشخصية السودانية .
الجنوب فى التاريخ .
تاريخ مدينة بربر .
الرزيقات ونظارتهم.
المخصصات السياسية .
السيد على الميرغنى .
المجلس الشعبى بديلا عن الادارة الاهلية .
المسجونين السياسيين فى اوائل العهد الثنائى .
قبيلة المعاليا.
العرف القبلى .
وظيفة الارض.
الطبول القبلية .
البوليس فى المهدية .
مخطوط فى تاريخ مؤسس الختمية .
ثورتان ، ثورة المهدى وثورة فودى .
وثائق الانصار بدار الوثائق المركزية .
اجازة سمانية .
اجازة ختمية .
مطبعة المهدية .
مراكز الثقافة فى المهدية .
الوثيقة العربية فى السودان .
امامة الأنصار .
مصادر تاريخ المهدية .
قبيلة الميدوب تحت مجهر البحث .
اسماعيل الكردفانى .
محمد أحمد محجوب .
جعفر محمد على بخيت .
مكى شبيكة .
مذكرات عن البحث العلمى فى السودان .

تصـــويبات

وقعت عدة اخطاء فى الطبع رغم حرص الطابع والمصحح ونرجو من القارىء ان يستصوبها على النحو التالى :

صفحة	سـطر	الخطـأ	الصـــواب
٢٦	اخـير	Ttle	The
٢٨	١٨	هذه القبيلة	هذه الطائفة
٣٠	٤	محمد	محمد شريف
٤٥	١٧	القوات	القوى
٥٢	٢	والمعرف	والمعارف
٥٤	هامش ٢	رقم رقم	رقم
٦٢	٧	زهراء	زهرا
٦٧	٨	الاسلامية	الاسلامية »
٨٦	٩	خطاب من المهدى	خطاب منه
٨٩	٢	التيجانى	التجانى
٩٥	١	انة	انه
١٠٠	٢٠	ويضرب	ويضرب للناس
١٠٣	٩	محفوظة	محفوظه
١٠٦	١٠	بعدما	بعدمَا
١٠٦	١٨	ض	ضً
١١٤	٨	صل	اصل
	١٦	ثلاثة	ثلاث
	اخير هامش	ص	توشكى ص
١١٦	٦	وثالثها	وثالثتها
	٢٢	ما هو	ما هو
١١٩	١٤	الدباجة	الديباجة

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
١٢٠	١٨	حالها	حالها»
	١٩	الثانى	والثانى
١٢١	اخير	يتصرف	ينصرف
١٢٣	٣	اذ	اذا
١٢٨	٢٣	قى	فى
١٣٢	هامش ٢	لمرشد	المرشد
١٣٥	هامش ٢	٩ مختلفه	٩ ، مختلفة
١٥٦	١٤		الحسابات
١٥٨	٦	افراخا	افرخا
١٦٥	٨	وفى	فى
		هد	هدى
١٦٦	٥	كيب	كتب
	١٤	يرحع	يرجع
١٧٦	١١	للديا	للديار
١٨٥	١	المحزونة	المخزونة
١٨٧	١	آخرون	وآخرون
١٩١	١٨	للخليف	للخليفة
١٩٣	٢٥	محلد	مجلد
١٩٧	٦	كان	كانوا
٢٠٣	٢	يساهمون	يسهمون
٢٠٩	اخير	وثانيهما	وثانيها
٢١٠	٢٤	مرتبطه	مرتبطة
٢١٢	١٢	نالاوار	الانوار
٢١٥	١٠	غزوه	غزوة
	١٥	تعيينه	تعينه

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٢١٥	١٥	توفره	توفر
٢١٦	٢٢	واتصالة	واتصاله
	اخير	٣٨	٨٣٨
٢١٧	١٩	القس	النقس
٢١٩	٤	منزل محمد المجذوب	منزل المجذوب
٢٢١	٥	اولهما	اولاهما
٢٢٦	٤	لم ارع الاسبق	لم اراع ترتيب الاسبق فالاسبق
٢٣٣	١٣	نفسه	نفس
٢٣٧	١	كرسالة	كرسائل
٢٣٨	١٥	الجزاء	الجزء
٢٣٩	١١	التانى	الثانى
٢٤٠	٢ هامش	حامد	خالد
٢٤١	١٣	نفس	نفس
	١٥	وهما	وهى
٢٤٥	٤	السة	السنة
	٦	وهنا	وهذا
٢٤٦	١٩	صنفها	صنفه
	٢١	نتركه	تتركه
٢٤٧	١٨	مما كتبه اناس	من اناس
٢٤٩	١	بانها	انها
	اخير هامش	ورمه	ورقة
٢٥٦	٢٥	مجموعة باريس	مصنف باريس
٢٥٧	٢٤	لمهدية	المهدية
٢٦٠	١٩	الصنف	الصفحات

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٢٦٢	١٣	ونبدو	ويبدو
٢٦٣	٦	اما المصنفات	اما المصنفات المطبوعة
٢٦٨	٣	حى	حتى
	٩	والروايات	والمرويات
	١١	المشوار	منشور
	اخير هامش	المريوماب	المرويات
٢٧٢	١	وأخرهما	وأخراهما
٢٧٥	٨	ومبلغ	ويبلغ
٢٧٩	٦ هامش	Archires	Archives
	٧ هامش	Mahdiast	Mahdist
٢٨١	١٣	فى هذا	من هذا
٢٨٣	اخير	الخاصه يبدو	الخاصة.ويبدو
٢٨٧	٨	«نسخة	نسخة
٢٩٣	١٤	والاهتماع	والاهتمام